DATE DUE

AFET UB
11 NOV 1992

297 U89iA

العثماني، راغب.

الاسلام دين ودنيا.

297
U89iA

-4 DEC 63

10 DEC 63

AP 26'58

AP 19'58

NO 23'58

MY 4'59

Cal. Inv. 1951

297
U89iA
C.1

بقلم : الصحافي الاستاذ
راغب العيثاني

الإسلام دين ودنيا

« وابتغ فيما آتيك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين ».

قرآن كريم

77416

الناشر
مكتبة محمد حسين النوري

Cat. May 1951

الاهداء

الى والدي

لم يجد الابناء ما يفخرون به في الآباء مثل ما وجدت فيك من سعة في العلم وغزارة في الادب . وسمو في الاخلاق . ونضج في الدين وقوة في الايمان .

فقد علمتني ان الدين هو الحسام الباتر الذي تقطع به اوصال الشهوات .

والحاجز الحصين الذي يحجز الانسان في دائرة الواجب والاعتدال .

والنور السماوي الذي يشرق على العقل فيسلك على ضوئه وضح الطريق .

والقوة الالهية تشد آزر الانسان فيهتدي الى سبيل النصر والمجد .

فكنتُ بفضل تعاليمك هذه صفحة من صفحات فضائلك الرائعة . وهذا كتابي « الاسلام دين ودنيا » أثر من آثار عطفك ، وثمرة من ثمار فضلك اضعه بين يديك مكافأة لك من ولدك الذي غرست فيه تعاليم الدين الحنيف ، وسماحة الاسلام وهداه . وتوجته بمجد الابوة وعظمة الاصل ، وشرف النسب .

ولعلي بهذا اكون الولد البار للوالد التقي العالم العامل .

وعساي اجد يا والدي في حفيديك ولديّ « خالد وسعيد » ما يجعلني افتخر اذا قلت ليس لكل الآباء ابناء كولديّ ، كما جعلتني اعتز حينما اقول ليس لكل الابناء أب كأبي .

٢٧ شعبان ١٣٦٧ و ٥ تموز ١٩٤٨

راغب العثماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة الاسلام ، والصلاة والسلام على سيد الانام ، وعلى آله وصحبه الكرام . أما بعد : فان الاسلام دين يقاضي من يعتنقه الى الاخذ بنصيب معتدل من حياة الدنيا ، ونصيب معتدل كذلك من حياة الروح والآخرة ، فلا نسيان لاطيب متع الحياة الدنيا ، ولا تفريط في حق الحياة الآخرة . وقد تكونت بنيته من تشريع في الحياة الاجتماعية تغلغل في كثير من جزئياتها . ومن تذكير لله وللعالم الروحي يتذكره معتنقه كلما اذن المؤذنون .

والاسلام عدا ما فيه من بث العدل والاحسان ، وعدا ما فيه من حسن العزاء والسلوان . له الفضل الاكبر في تنشيط العزائم والهمم . وفي توليد العبقرية والنبوغ في الامم والافراد والجماعات . ذلك لانه هو المعلم الاول للبشر اخذت البشرية في حضانته النصيب الاوفر من النمو والانتشار والعظمة ، وارتضعت الانسانيه من ثدييه العلوم والاخلاق . فكان الحجر الاساسي الذي بني عليه الانسان صرح مدنيته . واليد العاملة في انشاء حضارته . فاشتمل على ما تبتهج به العقول في العقائد والاخلاق . في الاوامر والنواهي . في معاملة الخالق والمخلوق فيما يحسن به حال الراعي والرعية في كل ابواب السعادة الدنيوية والاخروية . بما لم يتخيله نابغ ولم يحلم به فيلسوف .

عرف الاسلام منذ بدء تعاليمه بانه دين الرحمة والعدل . دين حميد باخلاقه . عظيم بقانونه . حكيم بدستوره . عادل في نظامه . آتى لحفظ الامن العام بالحدود والقصاص ليلزم كل فرد حده فلا يتجاوزه ولا يتعداه ، ولما كانت نزعات النفس المسؤولة تزداد غياً وضلالا ان لم تقارم بما يعوق سيرها . ويصد تيارها شرع الله

حدوداً وقصاصات تنال من تجاوز اوامره فتعداها . واستباح محارمه فانتهكها . ليقف امام هذه الحدود خائفاً لا يجسر على ارتكاب ما حرمه عليه ونهاه عنه . ولو لا ذلك لفسدت الارض . واختل نظام العمران فاستبد القوي بالضعيف واعتدى الظالم على المظلوم . فتعم الفوضى ويفسد الكون . اما اذا اقيمت حدود الله واحكامه فاقتص من الجاني وعوقب الظالم . وانتصر للمظلوم . ساد الامن وعم العدل . ومن تأمل قوله عز وجل [ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب] ايقن عظيم رحمته في خلقه بما شرعه لهم من الاحكام والحدود العادلة الزاجرة ، ومن تدبر قوله عز شأنه في آية القصاص التي كانت شرعاً لمن قبلنا ثم صارت شرعاً لنا [وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس . والعين بالعين . والانف بالانف ، والاذن بالاذن . والسن بالسن . والجروح قصاص] أدرك حكمة هذه الآية وعلم ان الاسلام هو الدين الاجتماعي ، الحكيم بقانونه وتعاليمه . وانه يمتاز بين سائر الاديان بانه دين العدل والرحمة . والرفق والتسامح ، فلم يقل ما قاله السيد المسيح « ما جئت لالقي سلاماً بل سلاحاً » ولا ما ورد في التوراة : « اذا ادخلك ربك في ارض لتملكها فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تأخذك بهم رأفة . . . الخ » بل كان يترفق باهل الكتاب حتى في الجدل والنقاش . وتكفل ببيان مطالب الحياة الاجتماعية على وجه ينهض بالهمم الى اقصى غايات السعادة التي تطمح اليها نفوس البشر . وما يؤهلها للرقي في مراقي المدنية والتمتع بطيب الحياة الاجتماعية : واحاط هذه المدنية بسياج يقي المجتمعات غوائل مايعرض لتلك الحياة من الآفات التي تتولد في ثنايا الاجتماع وتنشأ في مهد المدنية . وذلك السياج هو التربية الروحية التي تتكفل بتهذيب النفوس على الخير ، وتعديل ملكات الحرص والطمع والقوانين الشرعية التي تتكفل بتحديد الحقوق والواجبات التي تستقيم بها الاعمال والمعاملات .

وما كان الاسلام وهو دين المدنية الحقة ان يدعو الى مساواة تدحض فيها جميع الفروق والمميزات والحقوق الكائنة بين سائر البشر مما له اثره في صلاح العالم اجزائه ومجموعه الذي هو مقصود الشريعة الغراء ، على انه لو دعي الى ذلك لدعى

الى ما لا يطيقه البشر ولا تحتمله الامة بحكم ، وتحمل الناس على اهمال مواهبهم السامية . وذلك فساد يؤول الى اختلال نظام العالم وتقريبه من الانحزام بقيد الاقتراب الى الافراط في الميزات والحقوق المفيدة رفعة وصلاحاً ، وان الذين يتطرفون الى تنفيذ المساواة على اطلاقها او ما يقرب من الاطلاق لا يسيرون غير قليل حتى تجبههم سدود مشمخرة لا يستطيعون اقتحامها .

فمن ذا الذي يحكم بمساواة ابكم بفصيح ، ومعتوه بعاقل ، وعليل بسليم ، واعمى ببصير ، ومؤمن بفاسق ، وسعيد بشقي ، وعبد بحر ، وصالح بطالح .

ولهذا الدين الاسلامي الذي وضع لنا قواعد السير في سبيل الحياة الدنيا اثر قوي في تأليف القلوب بين الافراد والجماعات مهما اختلفت نزعاتها والوانها ، وتباعدت لغاتها واوطانها ، فقد نشر الحب بين افراد البشر . وألف في آياته ورواياته وشعائر عباداته اخوة بين الصحب والجيران وسائر الاقوام كما اشار الى ذلك القرآن الكريم بقوله : [اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا] . وبقوله : [انما المؤمنون اخوة] فربط بين جندب العربي بسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي . وكل يؤثر اخاه على نفسه ويتفادى دونه . وقد توسعت هذه الاخوة المتينة بين الممالك الاسلامية وتوثقت عراها كما اشارت الى ذلك آية : [لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم] :

وطالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه . وقرر ان لكل نفس ما كسبت [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] واباح لكل احد ان يتناول من الطيبات ما شاء اكلا وشربا ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه او بمن يدخل في ولايته . او ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها الهمم الا حقا محترماً تصطدم به . وقرر كما جاء في : تنبيه الافهام : ان العمل مستقل عن الثمرة لاعتباره اياه انه راس مال كل انسان بمفرده . او هو مناط سعادة كل فرد في نفسه . وان تمتعه بثمرة العمل يكون

بنسبة العمل ذاته . واليه يشير قوله تعالى [وان ليس للانسان الا ماسعى] ومن المقرر ان السعى يثمر ثمرته المطلوبة متى كان صاحبه انساناً كاملا ذا ارادة تبعث في نفسه القدرة على العمل .

والانسان وان كان مستعداً بالفطرة لهذا الكمال الا أن لمبدأ التربية الفاسدة سلطاناً قاهراً على النفوس يأخذ باعنتها اذا شاء الى جانب النقص . وقد فعل بكثير من الامم مالا تفعله البيض باللمم .

ولما جاء الاسلام كان لسلطان تلك التربية سلطة نافذة على العقول والافكار . آخذة بمجامع القلوب بما لم تبق معه اثراً للارادة يدفع الشخص الى العمل بما يكفل له حظاً ساميا من الحياة . سادة على الهمم سبل المسابقة بما اختطه للناس من الحدود المحاطة بسلاسل السيطرة الجائرة على النفوس والاشخاص . يدلنا على هذا قوله تعالى في امثال اولئك الذين كان يخاطبهم رسول الله بالهدى [وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون] وما ذلك الا لغشاوة كانت على ابصارهم . وغشاء على بصائرهم سد عليهم مسالك العلم بسنن الحياة . ونزع من انفسهم قوة الارادة التي تسوق الانسان لطلب الكمال .

ولكي تقدّ تلك السلاسل فتندفع الهمم عن حدود تلك السيطرة الجائرة على العقول والافكار . وتمزق تلك الغشاوة التي رانت على القلوب والابصار . فيرى كل شخص في نفسه ان لعقله حق السلطان المطلق يصرفه في انحاء الوجود لتناول ما فيه المصلحة من كل موجود . جاء الاسلام هادماً لاركان الاثرة بالعلم والسيطرة على العقول . منبهاً الفكر الى ان لاحد يقف عنده في تناول اسرار الطبيعة المسخرة لنفع الانسان . وان لاقوة ولا فعل في هذا الخلق المسيطر الا للخالق كما يشير اليه قوله تعالى [وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون] وتنبيهاً للناس الى انه سبحانه مع كونه هو القابض على مفاتيح الرزق دون سواه فقد قسم المعائش وهي الاعمال والصناعات لتكون مناط الاسترزاق فقال [نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا] ولكي تكون هذه المعائش سبباً للمسابقة التي يكون الرزق معها حظوظاً

بنسبة العمل والكد . قال : [وان ليس للانسان الا ماسعى] ولما كان السعي في الطريق المحمود على الوجه المحمود لا يخلو من معاناة مشقة الكد والنصب قال تعالى محرضاً عليه المؤمنين [وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده] والجهاد في الله تعالى هو اتباع أوامره ونواهيه مهما كان فيها من مشقة على النفوس ، ومنها اتباع الامر بالسعي الذي هو جهاد في نفسه ايضاً لما يقتضي له من مكافحة العوارض التي تحول دون الوصول الى سعادة الحياة .

وقد جاء الاسلام ايضاً بأحوال التربية الروحية لا لتكون بنفسها قائمة بسائر حاجات الاجتماع المدنية كما يقول به فريق القائلين بالمؤثر الادبي في اوربا . بل لتكون سياجاً يقي مطالب الاجتماع التي قررها الاسلام من غوائل البعث وآفات التفريط والافراط فتضمن سعادة الحياتين . الدنيا والآخرة . وتكفل انتظام العملين ـ عمل الجسم وعمل الروح ـ فأمر بتطهير الوجدان . وتعديل ملكات حب الذات وكل الشهوات لا الى الحد الذي يقضي بقتل الهمم ويضعف ثمرات العقول .

ومما لاريب فيه ان الانسان اذا اندفع في طريق الشهوات واطلق له عنان الطمع بالمزيد من كل شيء كان اشبه بلهب اذا صادف حقلا جافاً لا يغادر في طريقه خضراء ولا يابسة . الا ان هذا لا يستلزم التذرع بالمؤثر الادبي لتجريده عن امثال هذه الملكات التي هي آلات يحركها العقل للعمل فيما يحفظ تكوين الانسان من فساد التعطيل . بل يلزم سوق هذه الملكات الى ميزان الحكمة وردها الى حد العدل القاضي باختيار الوسط وترك التفريط والشطط . اذ كما ان التفريط بهذه الآلات مضر من حيث كونه يوجب ضعفها ، والنتيجة في الحالتين واحدة وهي تعطيل وظائف الحياة .

وقد حذر الاسلام امم التكاتل واخصها العرب عن معيشة الانكال . وبالغ في تقريع اهلها وزجرهم عنها . ومما جاء في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم [من مات على عصبية فليس منا] وفي رواية [ليس منا من دعا الى عصبية] والعصبية هي الاعتزاز بالعشيرة دون الجامعة . والاعتماد على العائلة قبل النفس . وقد كانت قبيل ظهور الاسلام متمكنة من اعتصاب الشعوب ، سائدة في كل بقعة من بقع الارض

احتلها جند الاسلام . وعنها نشأ انحلال اعظم دول الارض يومئذ كالفرس والرومان فاستحالت عناصرها المتضادة الى عنصر واحد هو الاسلام فصارت امة واحدة تتكافل على مصالحها العامة . ويستقل كل فرد منها بثمرة عمله الخاص الذي يجنيه من خلال الجد والنشاط ، فما كنت ترى معها الا عدلا سائداً وعلماً نامياً . ومدنية زاهرة . وشعوبا تقبل على التدين بهذا الدين . وملوكا تخطب مودة اوليائه وامماً تلتمس الراحة ورغد العيش في ظل لوائه ، ومدناً تشاد ، وموانا تحمى ، ومسالك تمهد ، ومدارس تشيد . ونظاماً جديداً ينمو بين البشر على اصول للاسلام الذي قلب اوضاع الدول وبث روح الحياة الاجتماعية بين امم الارض فأحدث في العالم من الانقلاب في مجرى السياسة والفكر في اقل من قرن مالم تحدثه اعظم الامم قوة وارقاهن علماً وحضارة في قرون عديدة . وهذا ما يدعو عقل الحكيم الى التأمل ويمهد سبيل العلم على ان ذلك الانقلاب لم يأت عفوا ولا يتأتى حدوثه على شكله الجليل . وسرعته الباهرة بأية واسطة من وسائط البشر ، وذلك لان قوى البشر العقلية والمادية اعجز من ان تفعل ما فعلة الاسلام في سنين قليلة ولو كان بعضها لبعض ظهيراً ، فاستخضع الاسلام لسلطانه في نصف قرن ما لم تستخضعه دول الارض من قبل ومن بعد . ومع ذلك فقد جعل كل الامم الخاضعة له امة واحدة تقصد وجهة واحده وتتمتع بحقوق واحدة . وتتكلم بلغة واحدة لانها تشتمل بقانون واحد شرعه الله للناس هيهات ان تدانيه شرائع البشر او تستصلح بغيره مجتمعات الانسان . ذلك لأن مقاصد الشرع الاسلامي كلها متوجهة الى منافع الانسان وحياة المدنية والعمران ، ولولا ما اتى على الاسلام في بعض قرونه من الانقلاب في السياسة ومنشأه فتن تأصلت في النفوس فمزقت الاحشاء . وفرقت الاعضاء فاختلطت بسببها الشهوات النفسية بالأمور الدينية فتخللت جسم السلطة العامة فتسامحت بكثير من السياسة الاسلامية . وعبثت بأهم القواعد الدينية فأفسدت عليها النيات وافترقت بسببها الجماعات لكان الاسلام الى الآن اهله في ارتقاء ودوله في قوة ومجد وعلاء .

ومن تصفح تاريخ الاسلام وتتبع حوادث الصدر الاول منه واستقصى سيرة

الصحابة الكرام علم ان ترقى الامة الاسلامية الى اوج المجد والقوة والمدنية انما كان منشأه علم السلف بحقائق ما انطوى عليه هذا الدين وسيرهم على سننه القويم امداً مديداً من السنين كما تشهد بذلك بعض الحوادث التاريخية وانما كان اهل ذلك الصدر على بينة من الدين في كل امر لانهم ابناء اللغة التي نزل بها القرآن وهم باساليبه ادرى . وبعلم مافيه احرى . لهذا كان الدين نقياً من شوائب التأويل سالماً من خلاف اهله واختلاف العقول في فهمه فكان كل مسلم على علم ولو اجمالياً من امور دينه يدلنا على هذا قوله تعالى في وصف المؤمنين [قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني] فبهذه الصفات الرفيعة في العلم وصف الله المؤمنين ومع هذا فلم يكن احدهم يحتاج في تعلمه امور الاسلام الا الى نفحة من نفحات النبي عليه السلام واشارة الى قواعده من دعاته من الصحابة الكرام ، لا الى درسة السنين الطوال ، وانما لما امتد في اطراف الارض واختلط الاعاجم على اختلاف لغاتهم بالعرب وفسدت ملكة اللغة وتفرق حفاظ الحديث ورواته في الممالك احتيج الى العدول عن اخذ الدين من الصدور الى تدوينه في السطور وتقريبه لافهام الاعاجم بضبط قواعده وترتيبها وايضاح ماغمض على الافهام منها . ومن ثم شرع علماء السلف الصالح بتأليف الكتب وترتيب المسائل وتبويبها لكن على وجه مجرد من شوائب الحشو واللغو ليس فيه ما يشوش على العقول في تلقي امور الدين واحكامه لان احدهم كان يقف بالنقل عند النص الديني يراه او يسمعه لايزيد ولا ينقص اي لا يجمع المتفرق ولا يفرق المجتمع ليستخرج لنفسه حكماً او يضع قاعدة الا ما آتى من النصوص مجتمعاً بنفسه او متفرقاً بنفسه وذلك خوف الافتئات على الله والتعدي على مقاصد الشرع والخروج به عن شرعة الحق التي اوضحها الشارع للناس . وهكذا التعليم ايضاً كان على هذه الطريقة لايحتاج المتعلم في فهم الدين الى توسيع دائرة الفكر في اللفظيات وخلط المسائل بعضها ببعض للتوغل في مناحي التصور في الجدليات التي تحول دون تناول العقول لمقاصد الشرع الصحيحة . وما اسلمها من طريقة لو استمرت بين المسلمين ولم تمح اثرها

الصحيح ايدي الاصدقاء الجاهلين والاعداء المفسدين الذين العبوا بالدين من الاوهام والاضاليل ماليس منه .

وقد مني الاسلام في عصوره المتقدمة بشراذم من الزنادقة او هم فريق من المنافقين الذين انما دخلوا في الدين لادخال الشبه على اهله وتضليل العقول بالسفسطة والتغرير لقلب اوضاع الدين او التشويش على المؤمنين . ومن هؤلاء ناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الا انهم كانوا مقيدين بقيود الهيبة لتوالي نزول الوحي بالدلالة عليهم ووقوف النبي على احوالهم لاسيما وجدة الاسلام آخذة بالافئدة والقلوب ، وفطرة اهله سليمة من الشوائب وعقيدتهم ثابتة لاتسطو عليها الاباطيل . فلم يستطع اولئك الناس ان يأتوا من الفتنة في الدين ما اتاه منافقوا الاعاجم بعد الا ما كان منهم بعد وفاة رسول الله من وقوفهم وسطا بين شقى الامه وتجاذبهم طرفيها الى فتنة الخلافة التي انالتهم من طريق السياسة فوق ما يرغبون من طريق الدين . وفعلت في تفريق المسلمين فعلها المعروف في تاريخ الاسلام حتى تأتي عن ذلك الخلاف السياسي بعد خلاف ديني نشأت عنه فرق الشيعة والخوارج وغيرهم فضلا عما كان بعد هذا من زنادقة الاعاجم ومنافقيهم ايضاً من الحشو في كتب الدين والجرأة على الكذب على رسول الله بوضع الاحاديث التي يريدون بها تأييد مذاهبهم والتشويش على المسلمين في عقائدهم ومن هؤلاء فريق الباطنية الذين كانوا في العقيدة حلوليين وفي المشرب فوضويين . ومع كل هذه الصدمات العنيفة التي صادمت الاسلام فصدمها وارداها . واوهن قوى اهلها وأوهاها . فان اهل الحق من علماء السنة وأئمة السلف الصالح كانوا يكافحون هذه الفرق ، ويمزقون غياهب البدع المكفهرة بسيف الكتاب القاطع وبرهانه الساطع حتى تقوم لهم الحجة وتكون كلمة الحق هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ومن وقف على محنة الامام احمد ابن حنبل في القول بخلق القرآن وما لاقاه من العذاب في مقاومة ارباب يعلم مقدار تفاني علماء السلف في الذب عن حياض الاسلام ومكافحة البدع واربابها . وكيف كانت كلمتهم هي العليا لما كان الكتاب امامهم والسنة الصحيحة رائد اعمالهم . ولكن خلف بعدهم خلف

وضعوا انفسهم في احط ما يضع انسان نفسه في هذا الوجود فزعموا ان الكتاب والسنة وبعبارة اصرح ان الاسلام انما جاء ليفهمه فريق من الناس لايتعدى فهمه الى غيرهم بوجه من الوجوه ، ثم تدنوا الى احط من ذلك فحرموا على انفسهم وعلى الناس العمل بأي نص من الكتاب والسنة والرجوع في امور الدين الى التقليد البحت للمشائخ والمجتهدين فكانوا اذا ظهرت بدعة في الدين او فتنة بين المؤمنين ولم يكن المتقدمين فيها كلام مقنع يتسامحون به في رد البدعة ضلال العقول يحيصون حيصة الحمر فلا يجدون لدفع تلك الفتنة من سبيل مع ان كتاب الله بين ايديهم ينادیهم بلسان عربي مبين [فان تنازعتم في امر فردوه الى الله والرسول] .

وكلما امعن الانسان نظره في التاريخ الاسلامي يتبين ان الاسلام دين ودنيا هو هداية روحية غايتها سعادة الدنيا والآخرة وبدايتها ترقية العقل بالعقائد الصحيحة السليمة من نزعات الشرك واوهام الخرافات . وتزكية النفس بالعبادات المشروعة التي تعرج بها الى مناجات الرب كفاحاً بدون واسطة وزراء ولا حجاب، وبالاداب العالية ومكارم الاخلاق التي تهنأ بها المعيشة الشخصية والمنزلية وترتقي شؤون الحضارة والاجتماع حتى تعم الاخوة جميع طبقات البشر من جميع الشعوب والاجناس ولاريب في ان كل دين من الاديان جاء لأمة معينة ولزمن ما . وجعل عنايته محصورة في تكميل ما ينقص الناس في امر دينهم ودنياهم ـ وكان الناس شيعاً واحزاباً منقسمين على انفسهم . فمنهم من يؤيد الدين ومنهم من كان له عدواً مبيناً . ففرست العداوة والاحقاد في القلوب ومع تطور هذه الاديان بتطور الازمان اندثرت معالمها وتغيرت قواعدها واصبحت مشوبة بأهواء رجال الدين فبدلوها حسب اهوائهم . وادخلوا فيها من القواعد ما يتفق مع شهواتهم ـ واصبح الامر ماساً لدين عام خالد . ينزع من القلوب الاضغان . ويظل موجوداً باقياً مدى الزمان .

لذلك كان الدين الاسلامي امراً ضروريا وشيئاً حتماً ، وناهيك بما لهذا الدين الذي يقوم على هذه المبادىء من سيطرة على القلوب . فهو دين يدعو لنفسه بنفسه

بغير تعب او عناء لما في قواعده من البساطة والفطرة التي تتمشى مع التفكير الانساني الصحيح . فلم يأت هذا الدين ليهاجم ولا ليحارب وانما جاء ليوحد القلوب ويربط النفوس ويخلق في المجتمع فئة صالحة من الرجال يصلحون شأن العالم . ويقومون المعوج . ويأمرون بالمعروف . وينهون عن المنكر [يأيها الناس انا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم] ولو انك تأملت في هذه الاية لوجدتها قاضية على الفوارق من الناس . وهذه ابسط قواعد الديمقراطية ، وجعل عمل الانسان هو الفيصل في تقدير الناس ورفع بعضهم فوق بعض درجات . وذكر الناس انهم من اصل واحد ومنبت واحد . ثم فضل بني آدم على كثير ممن خلق [وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] ومع ان النفس امارة بالسوء الا ان المقرب الى الله من بني آدم يعلوا المقربين حتى على الملائكة وذلك لأن الملائكة مخلوقون لعبادة الله ـ جوهرهم لطيف غير كثيف . فالأمر عليهم هين سهل بخلاف الانسان فهو في نضال مستمر مع نفسه الامارة وابليس اللعين وفي كفاح مستمر مع همزات الشياطين .

* * *

ثم ان هذا الدين دين التعاون بكل ما في هذه الكلمة من معان [وتعاونوا على البر والتقوي ولا تعاونوا على الاثم والعدوان] . وما الزكاة ـ كما سيأتي ـ الا مثل واضح لتعاون بين الناس ، فالاغنياء وكلاء الله في ارضه والفقراء عبيده المحبوبون الى نفسه ، فان بخل وكلاؤه على احبائه اذاقهم الوبال الشديد .

وكان لهذا التعاون الاثر العظيم في بث روح الالفة والاخاء والوداد ، وقد ورد في الاثر [لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه] فاذا كان الرسول لاعظم يقرن الايمان بان يتمنى المرء لاخيه ما يتمنى لنفسه فهو اكبر مثل على انكار الذات وقتل روح الحسد والبغضاء بين الناس . وورد في القرآن الكريم : [واعتصموا بحبل الله جميعاً] .

نخرج مما تقدم ان الدين الاسلامي دين الاجتماع . واذا صلح الاجتماع كان المدنية الحقة والسعادة المنشودة :

والدين الاسلامي دين كائن وقديم . ولا اقصد بالقدم انه جاء قبل الاديان . ولكن القدم المقصود به ان قواعده مقررة قديمة . اذ انه لم يأت بجديد في اصول الاديان . بل جاء ليوحدها وينظفها مما شابها من الافكار والتقاليد وأوجد من القواعد والنظم مايساير احوال الناس في كل زمان ومكان . واستبعد من القواعد والتشاريع ما لا يتفق مع طبيعة البشرية وما تتعفف منه الانسانية ، والدليل على قولنا انه قديم قوله تعالى [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى] .

اما كونه خالداً فهذا لا يختلف فيه اثنان لان الباحث في قواعده السليمة ، ومبادئه الصالحة المستقيمة يجد انها تتمشى مع الفطرة ، وتتفق مع الذوق السليم . وطبيعي ان ما يتمشى مع الفطرة مستديم ؛ ولسنا في حاجة لان نقول انه دين الفطرة . فانظر في قوله تعالى [فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم] .

فالانسان بفطرته وان شئت فقل بخلقته فطر على ان يفكر فيما حوله من المخلوقات والكائنات . وهو اذ يقلب طرفه في النجوم والسماء والخضرة والماء والجبال والانهار . والليل والنهار لابد وان يخطر في باله من الذي ابدع هذه الكائنات فيهديه تفكيره ان كان سليم التفكير الى ان هناك قوة تحرك هذا العالم . وهو لا بد واصل اليها بكثرة التأمل وسلامة التفكير . ولهذا نجد الحث على التفكير في المصنوع والصانع من اهم الامور [فاعتبروا يا أولي الابصار] وقوله تعالى [اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء] ساق في الاية الاولى وجوب الاستفادة مما يقع تحت الحواس . واوجب في الاية الثانية البحث والتفكير في مخلوقات الله ـ والبحث لايكون الا بالعين المجردة والفكر السليم . وبالفطرة وحدها يخرج الباحث من مقدمات وقياس الى نتائج ، وكل آيات القرآن ينبت على هذا المنطق العظيم ـ حقيقة ان الناس يختلفون في اذواقهم وتفكيرهم وحكمهم على الاشياء ، الا ان هناك من المسائل ما يجمع عليه الناس لوضوحه وهذا هو المعروف عند العلماء بالظاهر . واتباعه يسمون اهل الظاهر ، وهناك من المسائل

ما يخفى على كثير من الناس ولا يدركه الا اهل الباطن وهـذا واضح في قوله تعالى [هو الذي انزل عليك الكتـاب منه آيات محـكمات] الى قولـه تعالى [والراسخون في العـلم] ولذلك ترى العلماء قد انقسموا فريقين : اهل الظاهر ولهم حجتهم وبراهينهم ، واهل الباطن وهم لا يعولون كثيراً على المنطق والبرهان وانما يعتمدون على العاطفة والشعور .

واهل الظاهر وان كانوا يعلمون الحقائق الا انهم لا يقبلون امراً ولا يقررون قاعدة لغير مناقشة ، فمثلا كانوا يعلمون ان النبي ماينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . الا انهم كانوا يسألون عما يدور امامهم وما يقع تحت نظرهم وذلك طبقاً لتعاليم القرآن التي نظمت قواعد التفكير وادب المناقشة وامرت بالبحث والتعمق فيه لينهض العقل من مستوى الخمول الى ميدان النشاط حيث يغدو ويروح ويجول.

وسأسوق آية فيها يقرر الله وحدانيته وقدرته بالعقـل والتفكير فيقول [ان الذين تـدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز] .

تراه قد ساق للناس مثلا لطيفاً ومنطقاً مستقيما : قال لهم ان الذباب خلق ضعيف ومن لم يستطـع خلقه فهو اضعف منـه . وانتم ايها الناس لا تستطيعون ان تخلقوا ذبابة واحدة ، ولو اخذ منكم الذباب قطرة او مثقال ذرة ما استطعتم ان تستردوه ، اذن فانتم اضعف من الذباب . وكلاكما خلق ضعيف . فالقادر على الخلق ثم اعادته انما هو الله فاعترفوا له بقوته وبديع حكمته ، والتسليم لله بالوحدانية انما هي النتيجة المنطقية البحتة التي يخرج بها المتأمل من هذه الآيات .

* * *

هـذه هي الطريقة التي سلكهـا القرآن الكريم في تقرير الوحدانية ولـكن العلماء قد انقسموا في هذا السبيل فرقاً اربع .

فالطـائفة الاولى وتسمى : « الاشعريـة [ويرى بعض الناس انهـا اقرب الى السنية . ويسمون اهلها بالسنية .

والطبقة الثانية « المعتزلة » والثالثة « الباطنية » والرابعة اهل « الحشو » .

ويرى الاشعرية ان وجود الله خاضع للعقل ولكنهم سلكوا مسلكاً قد لا يتفق مع روح الدين . اذ قالوا ان العلم كله مركب من جزئيات . والذي يتجزأ حدث وما لا يتجزأ فهو غير حدث . ثم قالوا : فالذي لا يتجزأ هو الله .

واهل الطبقة الثانية شبيهة بالاولى واختلافهم في بعض التفاصيل :

والطبقة الثالثة : اهل الباطن وهم الصوفية لا يأخذون بالمقدمات والقياس . وانما يزعمون ان معرفة الله شيء يتعلق بالنفس تدركه ان تجردت من الشهوات واقبلت على المطلوب . وهذه الفكرة مستمدة من قوله تعالى [والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا] وقوله [واتقوا الله ويعلمكم الله] وقوله [ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً] .

واهل هذه الطائفة وان اعتمدوا على النصوص الا ان افكارهم لا تصلح لكل الناس . ولا لسائر الاحوال جميعها .

والطائفة الاخيرة . وهم اهل الحشو : يقولون ان معرفة الله تأتي عن طريق السمع لا العقل . ولعلهم اعتمدوا على قوله تعالى [وما آتاكم الرسول فخذوه الخ] غير ان هذا الراي بدوره غير وجيه ، وذلك لان العقيده لا تأتي عن طريق السمع وانما من طريق الاقتناع ، وفي الآيات القرآنية التي سقناها ما يؤيد راينا وينير حجتنا ويساعدنا في هذا ايضاً قوله تعالى [يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم] وقال [افي الله شك فاطر السموات] وبذلك يكون الاعتراف بوجود الله من ثمار العقل . وهو ماقرره الدين الاسلامي .

ان للصوفية بعض الوجاهة في قولهم ان النفس لكي تدرك كنه الاشياء لابد ان تجرد من الثواب . فهذا صحيح الى حد ما . فالمنظار لكي يرى لابد ان يكون نظيفاً شفافاً . ولكن هذه الطريقة وحدها لا تكفي فكيف الخروج .

وعندي ان الباحث لكي يهتدي الى القدرة . ويكشف خبايا الاسرار له سلاحان الاول هو العقل المجرد الخالي من الهوى ، والثاني هو النفس الطاهرة البعيدة عن الشهوات . ولهذا قال العلماء ان كل ما هو موجود على الارض . اما وجد للانسان

او موجود بالاختراع ؛ فالشمس والقمر والليل والنهار تحدث الفصول ، والفصول تنضج النباتات وتخرج فاكهة وعنبا يسد حاجات الناس ، وخلق الارض والجبال لنسعى فيها فقال تعالى [الم نجعل الارض مهاداً والجبال اوتاداً] وقال [تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً] ومنها قوله [فلينظر الانسان الى طعامه] ثم اوجب سبحانه وتعالى بعد ذلك النظر في بديع صنعه وامرنا قبل كل شيء ان نفكر في نفوسنا فقال [فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق] ثم فيما حولنا من الكائنات [وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حباً فمنه يأكلون] وقوله تعالى [واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم] .

وقد سئل مرة علي ابن ابي طالب : هل ترى الله . . . ؟

قال : كيف اعبد ياهذا من لا أرى

قيل له وكيف تراه ؟

قال : بعظيم قدرته . وواسع حكمته : وجميل صنعه : وواسع فضله .

قيل له صف لنا الله : فتلى قوله تعالى [ليس كمثله شيء] ثم قال يعلم عجيج الوحوش في الفلوات ـ ومعاصي العباد في الخلوات ـ واختلاف النينان في البحار الغامرات ـ وتلاطم الماء بالرياح العاصفات .

ثم سئل ما الاسلام : فقال :

هو دين الله الذي اصطفاه لنفسه . واصطنعه على عينه ، واصفاه خير خلقه ، واقام دعائمه على محبته ، واذل الاديان بعزته ، ووضع الحلل لرفعته ، وهدم اركان اعدائه بكرامته ، وخذل محاديه بنصره ، وهدم اركان الضلال بركنه ، وسقى من عطش من حياضه ، ثم جعله لانفصام لعروته ؛ ولافك لحلقته ، ولا انهدام لاساسه ، ولازوال لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرته ، ولا انقطاع لمدته .

وسئل ما القرآن ؟ فقال :

جعله الله نورا لاتطفأ مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لايدرك قعره ومنهاجا لايضل نهجه ، وشعاعا لايظلم ضوءه ، وفرقانا لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم اركانه ، وشفاء لاتخشى اسقامه ، وعزاً لاتهدم انصاره ، وحقاً لا تخذل

اعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، واودية الحق وغيصانه ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لاينيضها الواردون ، واعلام لايعمى عنها السائرون ، جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء » .

وفي الفقرات السابقة كلها ترى علياً وهو امام من أئمة البلاغة يوحي لك من طريق التشبيه ما يقرب لك ما في الاسلام من درر ثمين . وفوق كل ما تقدم فقد ساق القرآن الكريم بالنطق الجلو ما يقنع كل عاقل بأن الله واحد لاشريك له [لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا] [ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله لذهب كل اله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون] وقوله [قل لو كان معه آلهة كما يقولون لابتغوا الى ذي العرش سبيلا]

فاما الآية الاولى فيسلم بها الذوق السليم . وذلك لانه لو كان هناك ملكان كل ينازع الآخر الحكم ويريد ان يستبد بالأمر .

واما الثانية فهي برهانية ايضاً لا يمكن ان يكون هناك إلهان فعلها واحد . لان العالم منسوب الى خالق هو ذو العرش ، ولو كان معه خالق آخر لجلس معه على العرش ، وكيف يكون هناك قوتان في مكان لا يسع الا قوة واحده ، ولذلك قال تعالى [وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما] والفرق بين العلماء والجمهور في هذا المقام أن العلماء يعرفون ان تركيب العلم من جزئيات انها لا بد راجعة الى قوة المادة ولذلك سارع جلت قدرته فزاد علمه عن هذا فقال : [سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً تسبح له السموات والارض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا] .

* * *

اثبتنا لك ان الدين الاسلامي قام على ضوء من الحكمة والعقل ثم جعل العبادة امر يقرب الانسان لربه ولكنه لم يجعلها كل شيء ، والفكر ان عمل كان افضل من العبادة . وفي قول مأثور « فكر ساعة خير من عبادة سنة » فالعبادة قيام وصلاة

وركوع وسجود وانما خلقت لتكون اداة للتفكير ، وان المرء وهو يتقدم بين يدي ربه يتصور عظمته وقدرته طالباً رضوانه ورحمته متذكراً بطشه وشدته ، شاكراً له فضله ونعمته . ثم انك اذا قلبت طرفك وجدت الدين الاسلامي جعل العبادة طريقة للنظافة ، بل وهبها وجعلها شرطاً لصحة الصلاة ، وكيف لا يرضى الانسان ان يكون نظيفا ، واي نظافة اكثر من غسل الاعضاء خمس مرات في اليوم مع العناية بالاسنان وهي بيت الداء ، ثم بالاذنين والذراعين وما تحت الابطين والقدمين والملبس الذي يرتديه المصلي عندما يقف بين يدي الرحمن .

ولذلك تري ان القائلين بأن افضل الحياة الزهد هم ابعد ما يكون عن روح الدين الاسلامي ، ومن ذا الذي يحرم الطيبات ؟؟ الم يقل الله جل شأنه [خذوا زينتكم عند كل مسجد] فما معنى قولهم ان افضل الحياة حياة الزهد والقناعة ولبس الخيش ، هذا شيء لانفهمه ولانسلم به . والا لو سلمنا بهذا لظهرنا بمظهر التأخر والجمود ، مع ان المسلمين كانوا ولا يزالون خير امة اخرجت للناس . فكم من الملوك والولاة اقاموا القصور وما فيها من ابسطة ورياش وذهب وفضة ومتكآت وزيات وكم لبسوا ثياباً من سندس واستبرق ، وكم حلوا بيوتهم وبناتهم بالجواهر والاساور . فهل كل هؤلاء قد خرجوا عن الدين . ؟؟

نحن نفهم الدين غير ما يفهمه هؤلاء . نأكل من طيبات مارزق الرحمن . وقد خلق لنا طعام البر والبحر . وسخر لنا الاشجار تسخيراً وجعل لنا فى بطون الارض خيراً وفيراً فكيف نقتر على انفسنا تقتيراً وقد مقت الله المقترين ، ومن تدبر قوله جلت قدرته « والذين اذا انفقوا ولم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » يرى ان الله قد استوجب الانفاق في الحد المعقول ، وفي هذه الآيه وحدها كل ما يتعلق بقواعد الاقتصاد وموازنة الخرج والدخل . كما ان فيها التوسط في الامور وهو ما يطلب في سائر الاحوال .

لقد كان الدين الاسلامي مبعث الحركة العلمية في المسلمين خلال عصوره الاولى ، فالقرآن اشتمل على مواضيع مختلفة تجذب الفكر لبحثها والتوسع فيها ، من ذلك القصص عن الامم الغابرة وانتزاع العظة من احوالها ، فقد استطرق

هـذا للتوسع في معرفة تاريخهم والوقوف على تفـاصيل الحوادث التي اشار اليهـا القرآن ، ومن ذلك ما يتعلق بمعرفة الخالق وعلاقـة الانسان به ، والعالم الروحي والحياة الاخرى للانسان ، او ما يعرف عند علماء الاسلام بالعقائد . وما يـدعوه الفلاسفة القدماء بالآلهيات ، ويدعوه الفلاسفة المتأخرون بما وراء الطبيعة .

سلك القرآن في هذا البحث منهجاً جديداً بذ فيه البحثة في هذا الموضوع من رجال الديانات السابقة والفلاسفة ، لان الاولين كان تلقيهم للعقائد بطريق الالزام المجرد ، والفلاسفة كانت ابحاثهم في الآلهيات مبنيه على الزكانة الشخصية والتخمين لا يجمعها قانون ولا تسير مع قاعدة معقولة .

اما القرآن فقد انتزع ادلة العقائد من الواقع المشاهد ورتبها على مقدمات عقلية لا يداخلها الوهم .

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدت — واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبـات الارض فاصبح هشيما تزروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا — او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى ؟ بلى انه على كل شيء قدير » وامثال هذا كثير . وهذا ما يعنيه بعضهم بقوله « الاستـدلال بالخلق على الخالق » وقـد توسع المسلمون في هـذا البحث وساعدهم اسلوبه العقلي على التصدي للمذاهب الفلسفية الفـاسدة بالتحليل والدفع . واعوزهم الامر لان يبطلوا شبه المتذندقين والملحدين ، فنقلوا عن اليونان علم المنطق ، ووضعوا علم آداب البحث والمناظرة ليعتمدوا عليها في محاجتهم .

وهذه الحرية في التفكير التي شجعها القرآن كانت احـد الابواب التي دخل منها الدس على الاسلام ، وكانت مجلى لاختلاف العقول وتباين المذاهب .

* * *

وهناك الحركة التشريعية التي كان مصدرها آيات الاحكام في القرآن، فقد استنفدت جهداً كبيراً واجتازت القسط الاكبر من تفكير العلماء في الدين . بيد

ان الجمود الذى لحقها فيما بعد كان احد الاسباب التي اخرت البحث الديني عند المسلمين .

اما ما عدا هذا فالقرآن نفسه من حيث هو ابلغ كلام عربي كان يدور حوله البحث لمعرفة اسرار بلاغته التي هي مدار اعجازه ، وتمخض هذا البحث عن علوم كان لها الفضل في حفظ اللغة العربية ، وهي المعرفة عند علماء الشرع بالوسائل لفهم القرآن والحديث ، وهي علوم النحو فن اللغة (القاموس) والاشتقاق وعلوم البلاغة والعروض والادب : « الرواية والنقد » .

فلنتبين اذاً كيف اتصل الوهن بهذه النواحي العلمية وكيف دخل منها الدس على الاسلام .

اول ما ذكرنا من ذلك الحركة القصصية ، ومن نوعها وصف الجنة والنار وبدء الخليقة ووصف الاجرام السماوية والنعيم والعذاب .

فالقرآن ألمع الى القصة في باب الوعظ واشار الى الجنة والنار وغيرهما بما يقربها لاذهاننا ، ولم يعن برد هذه الحوادث للتاريخ ، ولم يذكر الجنة والنار وغيرهما مما خفى في صدد الوصف . ولكن الناس لم تشغل بفرض القرآن الصحيح ، ولم تقف عندما اراد ، فاخذوا يلتمسون التفصيل فيما لا يجدي ، ويسألون عن كل ما خفى في ذلك .

وكان من اصحاب رسول الله ومن التابعين من اطلع على اسفار الديانتين ، اليهودية والنصرانية ، فوجدوا فيها ما يتصل بحاجة المتطفلين من التفصيل والتبيين فردوها للناس وكان من جراء ذلك ان تدفق سيل الاسرائيليات على الدين .

ولننقل قالة عن ابن خلدون ذكرها في مقدمته عن ذلك قال ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم الامية والبداوة ، واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتوق اليه النفوس البشرية في اسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود ، فانما يسألون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم اهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى ، واهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب .

ومعظمهم من حمير الذين اخذوا بدين اليهودية ، فلما اسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وامثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الاحبار ووهب ابن منبه وعبد الله بن سلام وغيرهم ، فامتلأت التفاسير الثلاث من المنقولات عندهم وفي امثال هذه الاغراض اخبارا موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، ولندع ذلك لنتحول الى الناحية الاخرى . ناحية العقائد ، فقد ذكرنا ان الاسلوب العقلي الحر الذي سلكه القرآن في معرفتها افضى الى الاختلاف في النحلة ، وليس في وسعنا ان نعرض لتاريخ الفرق التي ظهرت في الاسلام بهذه الرسالة . وانما نتناول منه ما يهمنا في الموضوع .

لم يكن البحث في العقيدة مبدأ التفرق وانما نشأ الاختلاف في ميدان السياسة وحول الخلافة قبل كل شيء ، ولما كانت الخلافة متعلقة بالدين تحولت تلك المذاهب السياسية الى تعاليم دينية اعتقادية وتجاوزت البحث في الخلافة الى الايمان بالله تعالى وصفاته ومسألة الاختيار او الجبر من اعمال الانسان الى غير ذلك .

واول فكرة نشأت في الاسلام حول هذا الموضوع فكرة التشيع التي بذورها في النفوس عبد الله ابن سبأ والذي يعلم من سيرة هذا الرجل انه يهودي اتخذ التشيع ستاراً للدس في الاسلام ، وكان من اهم اغراضه تأليف جمعية سرية تدعو لهدم تعاليم الاسلام . ثم صار التشيع فيما بعد ميداناً واسعاً للمتذندقة ورجال الهدم وكان من اشد الفرق ضرراً بالاسلام الفرقة الباطنية . ومبدأ هذه الفرقة . ان القرآن رموز لمعان وضعوها هم ليهدموا بها تعاليم الدين .

وهناك فرق اخرى كالخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة والمعتزلة . كان الجدال بينها محتدماً . وكانت كل طائفة تكفر الاخرى ، وانبرى العلماء من كل فرقة لتأليف الكتب وتفسير القرآن وشرح الحديث كل بصبغ تواليفه بصبغته ، فاتسعت الشقة وشغلوا بذلك عن فهم روح الدين واغراضه السامية ، وكان جمهرة المعتدلين من العلماء يعتزلون ميدان الاختلاف ويتمسكون بالبين الواضح من القرآن

والحديث ، ويتركون ما يحتاج البحث والتوسع خشية ان يخوضوا ذلك المعترك اللجب ، فأحدث ترك اولئك المعتدلين للبحث فراغاً لو ملىء لكان فيه الخير الكثير على ان تعاليم تلك الفرق لم تخل من بعض مبادىء حرة تتفق مع ما دعا اليه القرآن.

اما الحركة التشريعية فقد سارت في مبدأ امرها سيراً يتفق مع مراد الشارع ، وكان من اصحاب النبي من يدرك حكمة التشريع الاسلامي ويقف على ظروف الوقائع التي نزلت في شأنها آيات الاحكام ، فكان للراي عندهم مكان ضروري في التشريع ، لان القرآن لم يتضمن احكاماً تفصيلية لكل ما يعرض للناس على اختلاف احوالهم ، فقد اشتمل القرآن على ستة آلاف آية منها مائتا آية فقط للاحكام منتثرة في جميع القرآن :

والسبب في ذلك على ما يظهر ان القصد الاول للقرآن تأسيس اركان الدين والدعوة الى التوحيد وتهذيب النفوس ووضع مبادىء للاخلاق ، فأما العصر التشريعي فيلي هذا ، ومن ثم كان كثير من آيات التشريع واردا في سياق القصد الاول وعلى اسلوب الدعوة والهداية لا على الاسلوب القانوني المألوف مثل : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » ومن امثلة اعتداد الصحابة بالرأي ماروواه ابن القيم في كتابه « اعلام الموقعين » : ان عمر لم يقطع يد السارق في عام المجاعة .

وكان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتحيزون في فهم الدين بحسب ما اوتي احدهم من رأي صائب وحكم دقيق ، ولو كان امر التشريع مقصوراً على معرفة الكتاب وسنة الرسول لما تحيزوا الا في صحة النقل ، ويدلك على ذلك ماروواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « ان مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير ، وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء

ثم جاء عصر التابعين فاشتهر منهم علماء اعلام سلكوا منهج اساتذتهم اصحاب النبي في فهم الاحكام واستنباطها . وظهر الائمة المجتهدون فكان منهم من افرط باستعمال الراي في فهم الاحكام لعدم ثقته بصحة كثير من الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم كأبي حنيفة ، حتى قالوا : انه لم يعتمد اكثر من سبعة عشر حديثاً في مذهبه ، وسمى اتباعه فيما بعد اهل الراي والقياس .

ومن المجتهدين من تقيد كثيراً بالنصوص ولم يستعمل رايه الا عند الضرورة القصوى كالامام ابن حنبل ، اما الامامان مالك والشافعي فقد كانا وسطا في الامر لم يهملا اعتبار الحديث ولم يغضا من شأن الرأي .

وتلقى من هؤلاء الائمة الاعلام تلاميذ دونوا مذاهبهم ، وكان الى جانب هؤلاء كثير من العلماء المجتهدين واصحاب المذاهب المستقلة . واستمرت هذه الحركة المباركة في التشريع حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم عراها الجمود واكتفى الناس بمادون في الدين ، وشغل العلماء بعد ذلك بالتفريع والترجيح في المذاهب المدونة ولم يسمحوا لانفسهم ان يتعدوا هذه الدائرة في فهم الاحكام ، واعتبروا اقوال المجتهدين نصوصا في فهم الدين لايصح الرجوع الا اليها ، واذا عرض لهم ما يقتضي بحثاً جديداً قالوا نرى فيه كذا استحسانا ولا نحكم به ، والحقيقة ان الاستحسان هذا اقرار منهم بالحاجة الى تشريع جديد .

ان كل من اطلع على مذاهب الفقهاء يتبين تناقضاً صريحاً بينها ، ليس في الحكم فحسب . بل في الاستدلال . ومنشأ هذا ان احدهم اطلع على دليل لم يطلع عليه الآخر فعمل كل منهم بما وصل اليه ، كما ان المسألة كثيراً ما تنتهي الى الرأي المحض وبديهي ان رأي كل منهم لا يجب ان يكون صوابا ، ضرورة تفاوت هذه الآراء والحقيقة واحدة لاتتعدد . فمن هذا نعلم ان رأي المجتهد لاينبغي ان يكون رأيا نهائياً في الدين لايجوز العدول عنه .

مولد محمد ودعوته إلى الإسلام

ولد سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بمكة سنة ٥٧١ ميلادية ، ونشأ يتيما وربته امه السيدة آمنة وبعد ست سنين من عمره توفيت والدته فكفله جده عبد المطلب فعمه ابو طالب .

فلما قوي ساعده كان يرعى الغنم في البادية مع اخوته في الرضاع . ثم عمل في التجارة وذهب الى الشام يتجر لخديجة بنت خويلد من ثراة بني اسد . وقد تزوجها بعد ذلك .

لا احاول في هذه الكلمة ان ألم بتاريخ محمد عليه السلام .

ولا احاول في هذه الكلمة ان احلل تربيته واثرها في حياته ؟

ولا احاول ان ابين اثر اليتيم في هذه التربيه سواء حين ولادته يتيما او حين ماتت امه وهو لا يزال في حاجة الى عطفها ورعايتها . وفي حاجة الى قلبها وهدايتها بعد ان حرم قلب والده وهدايته . لكن الله عوضه هداية الله . ورزقه توفيق الله . فرباه الله على تقوى من الله . ورضوان .

« خلق الله روح محمد واودع فيه كليات شريعته الكاملة . كما اودع في نواة النخلة كل المواد والخواص التي تنبت نخلة مثلها اذا زرعت في الارض الصالحة لها ثم كان الوحي الالهي له كالماء الذي يمد النخلة ويغذيها بعد ان تنبت الى ان تكمل وتؤتي اكلها يانعاً طيباً يعني ان الوحي كان تمليما شارحاً لعقائد وآداب واحكام اعد الله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ودليل ذلك نفورها قبل الرسالة من عقائد الوثنية واعمالها » .

* * *

هذا ما أومن به واعتقد ان الله اعد له رسوله الكريم والاما الذي عصم محمدا عليه السلام من كل شرور الجاهلية كعبادة الاصنام والاوثان ، وكالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر والانصاب والازلام وقتل النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق ثم من الذي نشأ محمداً على الصدق والامانة والوفاء وعبادة الله على ملة ابراهيم ، والخلوة بغار حراء للتعبد والتهجد . وعلى اي وجه اردت ان نوجه هذه السيرة

الطبيعية وهذه النفس الثائرة على العقائد الفاسدة . وعلى العادات الضارة بين قوم هم عباد لهذا كله يرون في الخروج على شيء من هذه العادات وهذه التقاليد بدعا لايغتفر لذي جاه ومال وسلطان فما بالك بمحمد اليتيم الفقير الذي خذله كل شيء في بلاد العرب حتى اهله وعشيرته . ولم ينصره الا الحق وحده .

فبين هذه العقائد وفوق اديمها اعرض عنها محمد عليه الصلاة والسلام صغيراً . وحاربها كبيراً . وما محمد هذا الا بشر . غير ان الله خلقه سليم الفطرة ولحظه بالعناية الالهية فأتبع الحق وثار على الباطل ثورة ازعجته . ثم ما لبث ان هدمته .

وعبد الناس ربهم واقلعوا عن شن الغارات الكاذبة والمنافرات السخيفة . ونهوا عن وأد البنات وعن الخمر والميسر وامروا بالمعروف والتعاون على البر والتقوى واحترام حقوق الناس . وحقن دمائهم . وحرم عليهم اكل مال اليتيم . واكل اموال الناس بالباطل . وما أهل به لغير الله . واحلت لهم الطيبات من الرزق ليأكلوا ويشربوا من غير اسراف . واحل لهم التزين بالثياب في غير اسراف ولا كبر ولا خيلاء . ثم فرضت عليهم مبادىء اجتماعية لتدعيم الوحدة . وجمع الكلمة فأمروا بالزكاة وفوق هذا امروا بصلة الرحم وذوي القربى وقول المعروف وعمل الخيرات في سبيل الله ومنها الجهاد دفاعاً عن الحق مهما يكن شاقاً ومهما تبعد شقته

وهذا هو الذي اريد ان اتكلم عليه في هذا المقام . واريد ان اتكلم عن المشقة التي احتملها رسول الله في اعلاء كلمة الحق ، انها مشقة جبارة كلفته جهداً كبيراً وعناء عظيما ، وهما لاغاية لها . كما يقول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى اجل من الدهر

* * *

عاش محمد اربعين سنة قبل الرسالة كان فيها محزوناً مجاهداً ، ولعلك تسألني ما الحزن وما هذا الجهاد . ومحمد لم يكن بعد رسولا ؟ ومحمد في هذا الدور ينعم بحياة بين اهله وعشيرته ؟

نعم وانه كان ينعم بين اهله وعشيرته بحياة فيها رعاية له . وعناية بشأنه . ولكن فقد ابويه من شأنه ان يوجد الماً نفسياً يتجدد بتجدد الظروف . وتتجدد حاجته الى ذلك العطف الذي فقده صغيراً ، وقد تقول ان نشأته يتيما وتربيته يتيما لم يذق طعم عطف الابوين تساعد على نسيان هذا العطف ، ولكن فات من يرون هذا ان الانسان يرى عطف الناس على اولادهم فيجعل ذلك قياساً يذكره بأبويه ويجعله يحن الى ذلك العطف ويشتاقه بل ويبكي لفقدانه اياه ، اما جهاده فقد كان نفسياً . وكان ذلك الجهاد حاداً وعنيفاً لانه ينظر حواليه فيرى ويسمع ما يخالف فطرته ، ويظل يفكر في امر هؤلاء القوم يعبدون الاصنام ؟ وكيف تحل لهم عوائدهم وعقولهم الموبقات وهذه الصغائر . فهو من هذه الناحية في حرب نفسية يرى مالا يجب ان يرى ويسمع ما لا يجب ان يسمع . ولكنه مرغم على ان يرى ما يكره وان يسمع مالا تشتهيه نفسه ، فهذا الجهاد النفسي المزمن الى سن الاربعين .

هذا الجهاد النفسي السري اعد رسول الله للجهاد العلني . لان الذي يصبر على ما يكره وما يخالف عقيدته وطبيعته اربعين عاما لابد ان يصبر على محاربته ولا بد ان يكون صبره جميلا . لان الله اعده لهذا الصبر . ولانه اعد نفسه لهذا الصبر . واعدها لهذا الجهاد الطويل المرير .

اذن فلا غرابة ان يرسله الله رسولا ثم يلقي عليه حملا ثقيلا . بل لانغلو اذا قلنا ان الله سبحانه وتعالى كان يقسو على نبيه الى حد يذهب بحلم الحليم وصبر الصبور الم تر الى قوله تعالى « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا » .

ثم انظر الى قوله تعالى « فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض او سلماً في السماء فتأتيهم بآيه ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

ثم انظر الى قوله تعالى « استغفر لهم اولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

هذا الخطاب الشديد وامثاله . واللوم في مسألة عبد الله ابن ام مكتوم الضرير وفي اخفائه امر الله له بزواج امرأة معتوقة زيد في قوله تعالى « واذ تقول للذي

انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه ، وقوله تعالى « انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء، فهذه النذر وهذه العظات كان يحتمل النبي وقعها على نفسه وقد سقت هذه الايات ليعلم ان النبي فوق ما كان يلاقيه من ايذاء قومه وعداواتهم له عداوة شديدة . واعتداآتهم على ذاته الشريفة حتى الاطفال كانوا يرمونه بالحجارة في استهتار ومن غير ان يجدوا زاجراً ولارادعاً من آبائهم وامهاتهم .

سقت هذه الآيات لأبرهن على ان وقعها في نفس النبي كان شديداً . وانه كما كان صبوراً جداً على هذه النذر الالهية، غير ان الصبر على هذا وذاك كان صبراً جميلا على نفسه . وكان حلواً عذباً على نفسه يقبله راضياً ، بل يقبله مغتبطاً ، لماذا كل هذا ؟ لان النبي عليه السلام رجل كان يعمل عن عقيدة صادقة . وايمان صادق .

وهذه العقيدة وهذا الايمان يدفعان النفوس الكريمة الى ركوب الاخطار والاهوال والشدائد والرياح عاصفة . والانصار قليلون والاعداء كثيرون . بل هذه العقيدة وهذا الايمان يدفعان النفوس الكريمة الى استعذاب الموت واستعذاب الاهانة ، والاهانة الحقيرة في سبيل نصرة المبدأ :

* * *

هكذا اضرب لنا محمد عليه السلام الامثال العالية حتى جنى النصر بعد ما ذاق الوان ـ الكيد . وانواع الختل . ولكن الله يكتب النصر في النهاية للحق وينصره نصراً مؤزرا تكون له حلاوة ولذة بعد الجهاد المرير الطويل :

* * *

وقد كانت اول معركة فاصلة انتصر فيها الاسلام في ابان ظهوره هي غزوة بدر الكبرى التي ايد الله فيها نبيه وهي اول الغزوات واشهرها .

وبدر هي قرية في الجنوب الغربي من المدينة المنورة ، وعلى بعد ١٥٠ كيلو متراً منها ، وهي على حافة واد يصب في البحر الاحمر ، وبينها وبين مينا الجار على ساحل هذا البحر نحو ٢٠ كيلوا متر ، وبها عين ماء . وتكتنفها الجبال والكثبان ولابد للذاهب من الشمال الى مكة ان يمر بها .

وسبب هـذه الغزوة الاولى من غزوات النبي صلى الله عليه وسـلم هو ان ابا سفيان كان في الشام في تجارة عظيمة لقريش . وكان معه ثلاثون رجلا او يزيدون منهم عمرو بن العاص . فعـلم النبي بعودته الى مكة ، ودعا اصحـابه الى اعتراضه والاستيلاء على تجارته . وبلغ ابا سفيان ذلك فطلب النجدة من مكة فنفرت قريش بخيلها ورجلها وارسلت له جيشاً عـدته بين التسعماية والالف ، وعلى رأسهم عتبة بن ربيعة على ماروا الازرقي في تاريخ مكة .

وكان النبي عليه السلام قد خرج في اوائل شهر رمضان على قول ، وفي الثاني منه على قول آخر وذلك في السنة الثانية للهجرة في جيش مؤلف من ثلثماية ونيف من المهـاجرين والانصار فسـار في طريق المـدينة — مكة — فوصل الى وادي العقيق وبـه يحرم بالحجيج . ثم الى بئر الروحاء في جنوب المـدينة . وهناك ترك طريق مكة واتجه غرباً يريد بدراً . فوصل الى الطفراء وهو واد به رمل اصفر بين المـدينة وينبع . ثم حث المسير حتى وصل بوادي « زفران » حيث جاءه الخبر عن قيام قريش من مكة ليدافعوا عن تجارتهم . وهناك تغير وجه الامر ، وتجلت للنبي فكرة اخرى اعظم من ابي سفيان وغيره وهي القضاء على قريش وكسر شوكتهم.

ولكن لما كان اكثر جيشه من الانصار وقـد عـاهدوه على ان يحموه داخل مدينتهم لا خارجها ، وكان المهاجرون خرجوا معه لمعارضة ابي سفيان ومن معه لا للقتال الذي لم يتـأهبوا له استشارهم في امر محاربة قريش فقـد استقر الرأي على المسير لئلا يؤل رجوعهم بمالا يرضي المسلمين . وقال قائلهم : « انا معك يارسول الله . ولو سرت بنـا الى برك الغما ولو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنـاه معك ، ما تخلف منا رجل واحد » فسر النبي واشرق وجهه فقال سيروا بنـا فالله منجزلي وعده وواصل سيره حتى نزل بقرب بدر .

وهناك في هذه الجبال الوعرة والاودية الموحشة حط رحاله ، وبعث بسراياه يتنسم احوال قريش فعلم انهم اقبلوا في جيش بين الالف والتسعماية من صناديـد القوم واشرافهم ، وقد نزلوا وراء الكثبان المرتفعة المطله من بدر من الجهة الغربية اي من جهة البحر . فتخوف النبي من كثرة عددهم وقلة عدد من كان معه ، فنادى

« هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها » اراد بذلك ان يثير حماستهم ويحثهم على القتال ، ثم نزل بجيشه من الجبال القريبة من بدر من جهة الشرق الى حافة الوادي اعني ان جيش المسلمين خيم على حافة وادى بدر وهو كثيب من الرمل تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب اما جيش الاعداء فكان محتمياً وراء الكثبان الرملية التي تحجب هذا الوادي من الجهة الغربية اي من جهة البحر الاحمر .

وبعد ان ترددوا كثيراً في خوض المعركة او الرجوع ما دام ابو سفيان قد نجا ، استقر رأيهم بتحريض ابى جهل على القتال .

فلما كان يوم ١٧ رمضان تسلقوا العقنقل اي الكثيب الذي كان يفصلهم عن جيش المسلمين . وانحدروا الى جانب الوادي حتى اصبحوا قبالتهم ، قال تعالى : في سورة الانفال « اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم » اي على ساحل البحر ، والعدوة بالضم جانب الوادي وحافته ، والقصوى اي البعدى من المدينة .

وهذا الوضع الذي حققته لمكان الوقعة يؤيده قول الواقدي ان المسلمين كان وجههم شطر الغرب ، اي انهم كانوا في الجهة الشرقية من بدر ، في حين ان اهل مكة كانوا يواجهون الشرق والشمس في اعينهم ؛ اي انهم كانوا غربي بدر اي جهة البحر .

وكان الوقت شتاء فأمطرت السماء في الليلة التي دارت المعركة في صباحها فأصبحت الارض ممهدة يمكن التنقل فيها بلا عناء . وقضى النبي ليلته في تنظيم الجيش وتصفيه وفي التوسل والتضرع الى الله ان ينصر المسلمين . وقد اكثر من هذا التوسل لتخوفه من قلة عددهم وكثرة عدد الاعداء ، ولأنه كان يحسب لهذه المعركة الف حساب ، ويرتب عليها نتائج خطيرة . فقد روي عنه انه كان يقول « اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد » .

وفي الحقيقة كانت مهمة النبي في هذه المعركة من اشق المهمات . فقد كان اتباعه اقل عدداً وعدداً من قريش . ولم يكونوا مستعدين الاستعداد كله لخوض معركة مثل هذه ، بل هم خرجوا من المدينة لملاقاة ثلاثين رجلا أو يزيدون ، فاذا هم اليوم

جيش كامل مؤلف من نحو الف مقاتل . ولكن مقدرة النبي وعزمه الوطيد على كسر شوكة هؤلاء الاعداء الذين صدوه عن دعوته واضطروه الى مهاجرة بلده تغلبا على هذه الصعاب . اضف الى ذلك الحالة المعنوية التي كان عليها اصحابه واجماعهم على نصرته ، والروح الذي امدهم الله به ، يقابل ذلك تردد ووهن من جانب قريش لعدم وجود سبب يدفعهم الى هذا القتال الذي لاغاية لهم منه ، لذلك كانت هزيمتهم منتظرة وقد كان .

فقد تزاحف الفريقان ، وبدأت المعركة بتراشق السهام ثم التحم الجيشان بالسلاح فلم يمض كبير وقت حتى انهزم الاعداء وولوا الادبار . وتم بذلك نصر المسلمين .

هذه وقعة بدر العظمى اظهر الله بها الاسلام وكانت سببا في انتشاره ، ولأهميتها جعل الله لها في كتابه العزيز معظم آيات سورة الانفال وبعض آيات في سور اخرى . ولهج الناس بذكرها والتحدث بها ولا يزالون يتحدثون . اذ لولا ذلك لتغيرت صحيفة هذا الدين الحنيف الذي سري مسير البرق ،وعم نوره الارجاء وخفقت الوينة على كل البلاد الواقعة بين المحيط الاطلنطي والصين وبين اليمن وبحر قزوين .

هذه هي وقعة بدر وهي المعركة الفاصلة التي انتصر فيها الاسلام في ابان ظهوره والتي يصح ان نقول فيها :

هزم الجمع وقد ولى الدبر
واصطلاها في اللهيب المستعر
وابو سفيان في جاحمها
يدفع الجزل الى نار الشرر
ارسل الرسل ينادي عصبة
اشرق الحق عليها وازدهر
اتخذ العير (١) سبيلا للهوى
ومشى للدين والحق الخمر

١ — تجارة كانت لقريش

جمع الشذاذ من آفاقها
بين مولى وعسيف (١) محتقر
شبّها حربا عوانا نارها
تنضج الجند على حر السعر
« وابو جهل » على اهوائه
ينفث السم ويسعى بالنذر
جامحا في خبثه مستنفرا
همم الكفر على هدى البشر
ماضياً في حقده لا ينتهي
ذاهبا في غيه لا يستقر
وأرى الحقد وان أخفيته
ظاهراً في مقته لا يستتر
لا تراه العين الا واضحا
كخضاب الشيب في أصل الشعر

* * *

شهدت بدر « لطه » وقعة
جاهد الدين بها حتى ظهر
اين « اوسترلنز » (٢) من آثارها
اين عزم « النسر » (٣) من عزم القدر
اين رب الحرب من قائدها
كتب النصر لجبريل السور

(١) — العسيف عبد العبد . (٢) — اشهر موقعة لنابليون .
(٣) — نابليون .

قادهم الفاً كراماً زادة
من جنود العرش في الحرب صبر
لأبي « القاسم » (١) يمشي نجدة
مستمد البأس من رب الزمر

* * *

جولة للحق امست بعدها
عصب الشرك نخيلا منقعر
بئست الاخرى لهم من موعد
انما الساعة ادهى وأمر
اى نصر ساقه الله ضحى
لنبي الله والدين الاغر
دك صرح الشرك منه دكة
قذفت قلب مناه بحجر
ربعت « العزى » وامسى « هبل » (٢)
يتلقى الهلك من وقع الخبر
وسما الاسلام من عزته
يلبس التيجان من غار الشجر
صاغه الله هلالا قبله
ونراه اليوم قد امسى قمر

* * *

وهكذا ضرب لنا محمد عليه السلام المثل العالى ايضاً في القناعة وعفة النفس والزهد ، فلم يفتنه ذلك النصر ، ولم يطمع في سلطان ولا مال .

(١) – النبي عليه الصلاة والسلام . (٢) – صنم لقريش.

وكان محمد بن عبد الله بعد هذا النصر المبين هو محمد بن عبد الله قبل هذا النصر المبين ، بل كان محمد بن عبد الله بعد نصره موجهاً عنايته لمرضاة انصاره يؤثرهم على نفسه ، ويقدمهم على اهله ، يقضي بينهم بالعدل . وبما امر الله ، لافضل عنده لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، ثم ما زال يتعهد الانسانية ومبادىء الانسانية وما زال يتعهد الاخلاق ومبادىء الاخلاق في قومه وعشيرته حتى جعل من ذلك الشعب الجاهل الوثني شعباً أخر يؤثر اخاه على نفسه ولو كان به خصاصة. ويعطف على الفقير والمسكين ويؤدي حق اليتيم وحق القريب والبعيد في حدود الشرع الشريف ، ويرعى الحرم جميعاً ، يحل ما احل الله . ويحرم ما حرم الله .

* * *

كل هذا الفتح المبين . والتحول المدهش في ثلاث وعشرين سنة . ذلك لأن النبي جاهد وصبر وصابر واحتمل فوق ما تحتمله النفوس في نفسه وصحبه ، وكان مخلصاً صادقاً في هذا الاحتمال ، بارا برسالة ربه فنصره بعد هذا ، واقر عينه وجعل الله كلمة الاسلام هي العليا ؛ ثم اختاره الى جواره ، وقد ترك ثروة عظيمة خالدة ثروة هي خير من المال لانها ثروة التقدم الانساني ورفع علم الحرية والمساواة بين الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، وقد زلزلت عروش الظلم والطغيان . ودمرت تدميرا .

ولكن هذا التراث العظيم كاد ان يبدده المبددون . ويقضي عليه الجاحدون الذين يقولون مالا يفعلون .

ولكن هذا التراث جوهر عظيم ان نال منه الزمن . ونالت منه المحن ، ونال منه الضعف وخور العزيمه . فسيظل جوهره سليما . ومعدنه نقيا

وقد كان الناس في جزيرة العرب قبل ان تبعث شمس النبوة اقرب الى الوحشية منهم الى الانسانية ؛ كانوا يئدون البنات ، وكانوا يلعبون الميسر ويشنون الغارات لأوهن الاسباب ، وكانوا يتخذون من الاصنام آلهة . ومن الصوف بيوتا . لا كلمة تربطهم ولا نظام يرتب صفوفهم . يتباغضون ويتحاسدون ولم يعرف العرب في الجاهلية أبسط القواعد التي تقوم الاسرة على دعائمها . بل كانوا أقرب الى الوحوش الضواري منهم الى الانسان العاقل . وكانت رحى الحرب تدور بينهم

السنين والاعوام فتذهب الألوف ضحيتها وتزهق الارواح فريسة لها ، وما دفعهم الى ذلك سوى حبهم في التفاخر بالشجاعة وظنوا كذلك يهيمون على وجوههم في الارض ويسعون فيها فساداً الى ان بلغت الدرجة بهم انهم كانوا لايؤمنون على انفسهم اذا اقاموا ، ولا يطمئنون اذا ساروا . وانحصرت اخبارهم في التحريض على الضرب والقتل كما دلتنا على ذلك أشعارهم . ومنثور كلامهم . فهناك لبيد يقول :

انا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها

وهناك قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

لنا الدنيا ومن امسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وآخر يقول لصديق له :

وما عابك ابن السابقين الى العلا تأخر اقوام وانت مقدم

ومالك لا تلقى بهجتك القنا وانت من القوم الذين هم هم

* * *

ظل العرب على هذه الحالة حتى دوى صوت محمد في جزيرة العرب فخشعت الاصوات لدويه وتفتحت القلوب لهديه بعد طول العناء . وسعد الناس برسالته بعد طول الشقاء . فدعاهم الى معرفة الله والهدى ودين الحق . واخرجهم من الظلمات الى النور « كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد .

وبعث الرسول الاعظم للناس كافة فأوجد في الكون مالم يراه أحد من قبله . وتغير مجري الاخلاق والعادات والمشاريع العمرانية . فنهض بناء الكون على اساسه حصيناً متيناً . وعم هذا النور جميع مرافق الحياة . ثم دعى الناس للدين بالدليل والبرهان . لابالسيف كما يدعون ولا بالسنان « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

على هذا الاساس وعلى هذا النحو من الاستدلال العقلي البحث اعتمد رسول الله في دعوته الخلق الى توحيد الخالق . والى الايمان به منزها عن شوائب الاتحاد والحلول .

ولم يكن لله سبحانه وتعالى . وقد اراد ان يقيم الحجة على خلقه بما يعقلون ويفهمون ان يلويهم عن طريق البرهان الذي يملأ النفس بالعقيدة الى مفاجأتهم بآيات القهر والالجاء التي تسد عليهم مسالك التفكير والنظر . بل رد على من يقترحون امثال تلك الآيات « ويقولون لولا انزل عليه آيات من ربه » بقوله « اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ ؟ ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » وان امثال هذه الاية التي تقرر بوضوح كفاية القرآن الكريم في اثبات الدعوة المحمدية وفي ابتنائها على التدبر والاستدلال . وتأبى اخذ الناس من طريق الخوارق الكونية ان امثال هذه الايات اكثر من ان تحصى . وما على طالب الحق الا ان يضع كتاب الله بين يديه ليرى ان السلاح الوحيد لذلك النبي الكريم انما هو التحاكم الى العقل والتدبير فيما يحيطه من دلائل وآيات كلها ناطقة بما يدعو اليه . شاهدة بأن لهذا العالم خالقا له السلطان المطلق والارادة العامة . والقدرة النافذة وانه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم .

هذه دعوة الاسلام . ولو ان هذه الدعوة كانت مما يتعاصى على العقول فهمه او كانت مما يقف العقل امام تصوره حائراً مترددا لصح في نظر الحكمة ان يقهر الناس على اعتناقها قهراً ، ولصح اذن ان تحدث تلك الخوارق التي يبهت العقل امامها ثم لا يسعه الا ان يقول : انا بها مؤمنون : ؟ ولظل العقل بعد ذلك في ديجور من الظلام الحالك ، ولكن جاءت تلك الدعوة كما ترى — بسيطة سهلة لا تعجز العقول عن اساغتها ولا تضعف القلوب عن هضمها ، واذا ليس صاحبها في حاجة وراء تنبيه العقول ، وحث مطايا الفكر الى النظر في ملكوت السموات والارض « قل انظروا ماذا في السموات والارض » ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب » ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي انشأكم من نفس واحده فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون . وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج

منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والارض انّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء . وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما انا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الايات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما انت عليهم بوكيل : ؟

اقرأ هذه الايات ودعها تسري في قرارة قلبك ونفسك ليرتسم فيها .

اولا : = بساطة الدعوة المحمدية . وانها لم تكلف الناس اعتقاد الوهية المخلوق ولا حلول الخالق في المخلوق . ولا اعتقاد صلب الجزء اللاهوتي وانما طلبت ان يقول الناس لا اله الا هو بديع السموات والارض لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير .

ثانياً = ان سلاح النبي في تلك الدعوة كما قلنا = لا يتجاوز تنبيه العقول الى النظر في ملكوت السموات والارض ، وان العلم الذي هو خاصة الانسان والعقل الذي هو ميزته كافيان في ايمانه بتلك الدعوة ايمانا يقيه ظلمة الشرك وضلال الوثنية .

ثالثا = ان الرسول صاحب الدعوة ليس حفيظاً على الناس ولا وكيلا عنهم حتى يؤخذ بجريرتهم ، ويسأل عن ذنبهم فيدفعه ذلك = ان كان = الى اخذهم عن طريق العنف والارهاب .

رابعاً = ان هذه الايات بصائر فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها .

* * *

هذه هي طبيعة الدعوة المحمدية وهذا هو سبيلها ، وان دعوة هذه طبيعتها وتلك سبيلها لايمكن ان يصدق عاقل انها تحمل في طياتها اكراه احد من الخلق على اعتناقها او الايمان بها .

وعلى الرغم من جلاء هذا اخذاً من طبيعة تلك الدعوة فان القرآن الكريم جاء بصريح الايات التي تقطع على المؤمنين اطماعهم في محاولة اتخاذ الاكراه كطريق من طرق الدعوة او كسبيل من سبل ايمان الناس بها . فاستمع الى قوله تعالى « لا اكراه في الدين » .

واستمع اليه جل شأنه يقول لنبيه « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر الامن تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر ان الينا ايابهم ثم علينا حسابهم » وقوله له « افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله « ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين » .

واذا ادخرنا آيات القرآن ونصوصه الصريحة في تقرير مبدأ حرية الاعتقاد ، ونظرنا الى طبيعة الاكراه عليها ، ولو ان الاكراه على العقيدة مما تتطلبه الشريعة لكان وحده في نظر العقل الذي يتحاكم اليه القرآن دليلا كافياً لخصوم هذه الشريعة في فسادها وعدم ملاءمتها لمنطق العقل والنظر.

والاكراه هو الجاء الانسان الى مالا يحب ويرضى ، ولاريب في ان هذا لاسلطان له على العقيدة التي تملك القلب والتي من شأنها ان تستقر فيه اثر البراهين لا يجد القلب عنها محيصاً ، وانما سلطانه على الجوارح في ان تفعل او تدع ، اما ان الفعل والترك يكون وفق العقيدة فهذا مما لاسبيل اليه بالاكراه ، فنتيجة الاكراه تكثير سواد المنافقين الذين يقولون بافواههم ماليس في قلوبهم ، وكم رأينا ان طريق العنف لا يزيد الانسان الا تمسكا بعقيدته ، بل وكثيراً ما يكون العنف مغرياً بعدم التفكير بصحة العقيدة او بطلانها . وبذلك يكون سبباً في التمادي على الباطل الذي يستر الاكراه على صاحبه طرق البحث والنظر .

نعم قد يكون لظروف الضغط سلطان ، ولكن فماذا ؟؟ في اخفاء العقيدة وعدم التصريح بها اتقاء . لنتائج الاكراه في النفس والمال ، ولكن لا تستطيع تلك الظروف مهما اشتدت وطأتها ان تخمد نار العقيدة في القلوب . فنار العقيدة لاتزال تحت مظاهر الخوف حتى اذا ما هبت عاصفة اثارت ما عليها من ستر رقيق وبدت تتأجج من طول ما احتبست في الصدور .

هذا ، واذا ما عدنا الى ما ادخرنا من كتاب الله في هذه المسألة نجده يقرر اصلا واضحا في قبول الايمان واهداره . فاقرأ ان شئت قوله تعالى « هل ينظرون الى ان تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك . يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفساً ايمانها لم تكن امنت من قبول او كسبت في ايمانها خيراً قل انتظروا انا منتظرون » .

وقوله لفرعون حينما ادركه الغرق « قل آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون »

وقوله « ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن » .

اقرأ كل هذا لتعلم ان الله اهدر ايمان الالجاء عن طريق معاينة العذاب . فهذا اصل ترجع اليه في اهدار الايمان عن طريق الاكراه والقلب مطمئن بالكفر ، ومنه يتبين ان الاختيار الصحيح اساس عند الله للايمان الصحيح . ولاشك ان الاكراه على الايمان لايمكن ان يوجد معه الايمان . وانما الذي يوجد معه اعمال الايمان ومظاهره لانفس الايمان ولم يقل احد ان اعمال الايمان ومظاهره تحت ضغط السيف ورهبة القوة ايمان يقيم الله له وزنا او يجعل الله لصاحبه كرامة . بل نرى بالعكس ان آيات القرآن الكريم تنفي بصراحة وقوة حقيقة الايمان عمن لم تملأ العقيدة قلبه . فيقول جل شأنه « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون » .

ويقول لرسوله « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » .

من هذا يتضح ماقلنا سابقاً ان طبيعة الدعوة المحمدية وكتابها الكريم يأبيان الاباء كله اكراه احد على الدخول فيها او اجابتها ، ولهذا امر الله رسوله في الدعوة اليه بقوله « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن »

وما كان الاكراه على قبول الدعوة بواحد من هذه الطرق الثلاث ـ الحكمة = الموعظة الحسنة = المجادلة بالتي هي احسن .

ولقد كان هذا شان الدعوة الى الله على لسان جميع الانبياء والرسل ، انظر ما أمر الله به موسى وهارون حينما ارسلهما الى فرعون « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر او يخشى» .

وانظر كيف كان ابراهيم عليه السلام يعالج اباه في الدعوة الى ربه .

« يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا : ؟

يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سويا : ؟

يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا : ؟

يا أبت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ؟ ؟

قال اراغب انت عن الهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا .

قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى الا اكون بدعاء ربي شقيا » .

هكذا كان سبيل الانبياء في دعوتهم الخلق الى توحيد الخالق .

وهكذا كان هداهم في التبليغ عن ربهم ، وقد نوه الله بشأنهم في كتابه ، وقال فيه لرسوله عليه الصلاة والسلام « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

وما كان لمحمد عليه السلام وقد نص الله عليه في كتابه هداية الانبياء المتقدمين وامره فيه باقتفاء اثرهم ، ما كان له ان يحيد عن سنتهم قيد شعرة ، ويفتح على نفسه نافذة يصل اليه منها سهام الاعداء والخصوم .

القتال في الإسلام

يحق لكل مسلم وغير مسلم ان يتسائل اذا كانت الدعوة المحمدية وكتابها الكريم — كما اسلفنا في الفصل السابق — يأبيان الآباء كله أكراه أحد على الدخول فيها او اجابتها وان الرسول لم يعتمد في دعوته الا على النظر العقلي وسماحة أحكام الدين ، فلماذا قام بحروب واغارات فيها القتل والسبي واخذ الغنائم ؟ ؟ ؟

ألم يكن ذلك منه تنفيذاً للامر بقتل الناس وإكراهاً لهم على اعتناق دينه ؟ ؟

بل . ولماذا وقد منح المعجزات لم يمكّن عن طريقها من اخضاع الناس لدينه وانقيادهم لدعوته من غير أن يتخذ القتل سبيلا لما يريد ؟ ؟ ؟

هذه شبهة قد ترد على المسلم الذي لم يعن بتعرف دينه ساعة من حياته . وقد نجد لها هوى في نفوس بعض الذين لم تتفعل نفوسهم بمزايا الدين الحنيف . وقد يستعين بترويجها ونشرها بعض دعاة التبشير ، ويكيلون بها امثال هؤلاء وهؤلاء في دوائر الالحاد والزندقة ، ثم يخطون بها خطوة اخرى فيصلون بهم الى غاياتهم التي لها يعملون وعليها يؤجرون .

والواقع ان امثال هذه الشبهة اضعف من ان تنال من نفس شيئاً ، ولو لا ان المسلمين انصرفت نفوسهم عن تعلم الدين والنظر في كتابه لكان المسلمون في غنى عما يزيل عنهم كابوس تلك الشبه ، ولكان الاسلام بقوة اهله فيه او بقوته في نفوسهم في غير حاجه الى ما يبعد عنه غبار تلك الشبه .

نعم . لو كان الاسلام قويا قائم السلطان اخذاً بالقلوب لما طرق سمع احد من الناس نعيق شبهة من هذه الشبه .

ان الشبه مثلها مثل جراثيم الامراض المعدية لا تقترب من الجسم الا اذ انفلتت منه المناعة وصار الى الضعف والانحلال . وهناك تشتبك به الجراثيم وتعمل فيه عملها .

فالدين اذا كان في مناعة وقوة وكانت اثاره متغلغلة في العالم ، واحكامه سائدة في جوانبه كان مبعثاً لتقدير الناس واعجابهم به ، وغرضاً لتنافس العقول في معرفته ، والقلوب في اعتناقه .

اما اذا كان في دور الضعف بحمول اهلة تحمله منهم قلوب ضعيفة ، وتسيطر عليه اهواء وشهوات فانه ولاريب يكون هدفا لسهام الاعداء وغرضاً لنبالهم .

ولازالة هـذه الشبهـة يجب ان ننظر في آيات القتـال الواردة في القرآن وفي الوقائع التاريخية التي تقدمت حرب الرسول والظروف التي احيط بها حتى اذنه الله في القتال ، وفي معرفة الروح التي يحملها الاسلام حالة الحرب ، ثم معرفة السر في تكليفه بهذه الحروب من غير ان نحكم بدلة المعجزات في هداية الناس او اخضاعهم لدين الله .

هـذه المسـائل هي التي نبحثهـا على ضوء النصوص وهداية الوقائع التاريخية الصحيحة ، وسنزول بالكشف عن حقيقتهـا هـذه الشبهة ولا يبقى لها اثر الا في خيال المعاند المكابر او المبشر المـأجور .

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بالقتال ، وهي على كثرتها لم ينزل منها شيء ما قبل الهجرة ، ولقد كان اول نزول هذه الآيات قوله تعالى في سورة الحج [اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقـدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنـا الله] ثم نزل قوله تعـالى في سورة البقرة : [وقاتلوا في سبيـل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتـدين] . [واقتـلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم . والفتنـة اشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عنـد المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين] .

وجاء في سورة النساء بعد الامر بالقتال [وما لـكم لا تقاتلون في سبيـل الله المستضعفين من الرجال والنسـاء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هـذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا] .

وجاء فيها ايضاً [فقاتل في سبيـل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأساً واشد تنكيلا] .

وجاء في سورة التوبة : [ألا تقاتلوا قوماً نكثوا ايمانهم وهموا اخراج الرسول

وهم بدءوكم اول مرة اتخشونهم والله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » .

وجاء فيها « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين »

وجاء فيها « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين » .

وجاء فيها « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

هذه هي الايات التي وردت في اصل القتال وهي بمثابة مواد تتعلق بأباحته وطلبه من المؤمنين . وبعمومه جميع المخالفين وخصوصه لبعض ، وتشرح اسبابه التي دعت اليه وبيان غايته التي ينتهي اليها . وقد انزل الله غيرها كثيراً من الايات يتعلق بعضها بما يجب على المؤمنين في مواقف القتال ، وبعضها فيما يجب عليهم في اوقات العهود نقضها ، وبعضها بوصف بعض المشاهد الحربية وتنبيه المؤمنين على نعم الله عليهم وتسليتهم على ما اصابهم من ترح وهزيمة ، وهذه ليست بموضع بحثنا وانما الذي اريد بحثه هو هذه الايات التي اوردتها من جهة علاقتها بايات الامر بالصبر والعفو والصفح ، وعلاقة بعضها ببعض . ومن جهة ما تعطيه من اسباب القتال في الاسلام وغايته التي ينتهي عندها ، ويتضح بهذا متانة التشريع الاسلامي ويتبين ما قلنا : من ان القتال لم يكن في الاسلام لاكراه الناس على اعتناقه وانما هو لشيء آخر كما سيأتي .

نظر بعض الناس في هذه الآيات وقال انها في جملتها وباعتبار ما تأمر به من القتال تناقض الآيات الاخرى الكثيرة التي تأمر محمداً صلى الله عليه وسلم بالصبر واحتمال الاذى والتأسي بمن تقدمه من الرسل ، والتي تأمره بالعفو والصفح والدفع بالتي هي احسن وما الى ذلك من انواع العطف والرحمة التي لا يتفق مع طلبها طلب القتال والشدة على المخالفين .

ثم يقول هذا الفريق : وهذه الآيات في نفسها متضاربة فبينما ترى بعضها يأذن في القتال اذ ترى البعض الآخر يحتمه ويطلبه بشدة وتحريض ، وبينما ترى البعض يطلب قتال المعتدي ويمنع البدء والعدوان اذ ترى البعض الآخر يطلب قتال الجميع من غير رحمة ولا هوادة ، ثم تراه بعد هذا وذاك يقول تارة فاقتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، واخرى يقول فاقتلوهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

فالقرآن في هذه المسألة وفي نظر الخصوم تتناقض آياته ، وتتضارب احكامه ، ويقولون لا نصدق ان مثل هذا في تناقضه واختلافه يكون من عند الله الحكيم الخبير .

هذا وقد ساعدهم على ذلك ان رأوا بعض المفسرين من علمائنا تقرر ان آيات القرآن نسخت آيات الامر بالصبر واحتمال الاذى ، وان آية التوبة [فاقتلوا المشركين كافة] نسخت جميع آيات القتال ، وتقرر بهذا وجوب القتال مطلقاً حصل اعتداء ام لا ، حتى يؤمن المشرك ويخضع الكتابي . . . ولا ريب ان النسخ في القرآن كما يراه من يقول به لا يكون الا حيث تعذر الجمع ، واتحدت المقامات والاحوال فهو طريق للتخلص من التناقض المستحكم ، فالقول بالنسخ في هذه الآيات يتضمن الاعتراف بالتناقض . ثم يوافقنا الخصم في التناقض ولا يوافقنا في وقوع النسخ الذي يخالف فيه كثير من علمائنا . وبهذا وذاك يتم للخصم ما يريد .

ومن عجيب ما ترى قول بعض المفسرين في قوله تعالى [وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين] هذا منسوخ بآية براءة وهي : قاتلوا المشركين ، اي قاتلوا او لم يقاتلوا . بل قيل انه نسخ بها سبعون آية او هي منسوخة بما بعدها مباشرة وهو قوله تعالى [واقتلوهم حيث ثقفتوهم ، اي وان لم يبدأوكم . انتهت بنصها .

واذا تنبهت الى ان النسخ كما قرروا والا يكون الا في الاحكام وابانتها ، والى ان آيات الاحكام لا تتجاوز المائة الا قليلا ، عرفت انه يلزم على القول بان هذه الاية نسخت سبعين اية ، ان معظم آيات الاحكام نسخ ولا يبق في القرآن الا

جهة التلاوة واللفظ ، ثم كيف نفهم ان جملا متعاطفة نزلت في حالة واحدة وعلى نسق واحد تنسخ لاحقتها سابقتها في حين ان الناسخة محتوية على ضمير يعود على اسم ظاهر في المنسوخة ؟ الا يكون معنى هذا ان الثانية مزيله لكل ما في الاولى وان ضميرها عائد على غير مذكور ؟ !

ولقد يزاد عجبك اذا علمت ان بعضهم يرون ان قوله تعالى في الآية نفسها « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونكم فيه » منسوخ بقوله بعدها « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة » .

وكيف لايزداد عجبك وقد صارت الجملة القرآنية التي نزلت في حالة واحدة وهي مكونة من اربع آيات : آيتين ناسختين وآيتين منسوختين ؟ انه تفكيك للاسلوب العربي ايما تفكيك ؟ ؟ فكيف بالمعجز منه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ ؟ وقد قال الرازي في تفسيره « انه يبعد من الحكيم ان يجمع بين آيات متوالية تكون كل واحدة منها ناسخة للاخرى » .

اما الذي نفهمه ونعقله ونؤمن به . وسنلقي الله عليه فهو : ان كتاب الله معجزة رسولة الدائمة ، وقانون شريعته العام ، انزله الله كفيلا لمصالح الامة على تباين احوالها واختلاف الظروف المحيطة بها ، ولاريب ان الامة كالفرد يتناوبها الضعف والقوة ؛ وان الاحكام التي تناسبها في حال ضعفها ، وان الجرائم التي تقع على الامة او من الامة متفاوتة الدرجات ، مختلفة الآثار ، وهي باعتبار اصابتها لمجموع الامة فاذا صبرت الامة على نوع من الاذى في حالة ضعفها فانها لاتصبر على هذا الاذى في حالة قوتها ، واذا تجاوزت عن بعض الجرائم فانها قد لا تتجاوز عن البعض الآخر

هذه اعتبارات اولية لكل تشريع يريد واضعه ان ينهض بحياة امته ؛ وعلى ذلك يتضح ان الايات الامرة بالعفو والصفح والاعراض دائمة باقية ، ويعمل بها في مواضعها التي تناسبها . وان الآيات الامرة بالقتال دائمة باقية ويعمل بها في مواضعها التي تناسبها ، وان تشريعاً هكذا يبقى على مراعاة الاحوال التي لا تسلم امة من تناوبها عليه ، ويطلب من اهله ان يسلكوا في كل حالة يناسبها . لايمكن ان يرمى بأنه متناقض ، وان بعضه ناسخ للبعض ، وانما هو في نظر العقول السليمة

تشريع حكيم غاية في الدقة . ناهض باهله ، محقق لغايته وهي سعادة الامة .

وليست هذه الاعتبارات بالنظريات الغامضة التي يصح ان يجهلها كثير من العلماء الذين وضعوا انفسهم موضع الباحثين حتى ينساق الى ذهنهم ان آيات العفو والصفح تناقض آيات القتال ، ثم يذهب بعضهم الى التشنيع على التشريع وينكرانه من عند الله ، ويتجه الاخر الى القول بنسخ هذه لتلك تخليصاً من التناقض الموهوم والحق ان هؤلاء جميعاً بين خصم لدود يعقل الحق ويعمل على ستره وتشويهه ، وصديق محب جمد فكره فلم ينفذ فيه الحق وبسط اشعته في جوانبه ، فأخذ يدافع عن محبوبه بما يؤكد فيه لوم العاذل وقدح الحقود .

* * *

تبين مما سبق ان آيات القتال الواردة في القرآن قسمان : قسم يحدد المبدأ الذي لأجله يحارب المسلمون غيرهم ، وقسم يبين الغاية التي ينتهي اليها القتال ، وان من الاول قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقوله « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » وهو صريح في ان شرط المقاتلة اعتداء الغير على المسلمين ، وايذاءه لهم وفي انه لا يصح للمسلمين ان يبدأوا غيرهم بالقتال لمجرد المخالفة في الدين ، وان من الثاني قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وقوله « وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا » وقوله « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وهو صريح في ان غاية القتال كف الخصوم عن فتنة المسلمين في دينهم ؛ واحلالهم المسالمة محل العدوان والمخاصمة .

وبفهم الايات على هذا الوجه يتبين ان القتال في نظر القرآن تدبير خاص لظروف خاصة . وعلاج مر يتجرعه المسلمون على كره دفعاً للفتنة ، وكفاً للاذى وحماية للدعوة ، ومن ذلك نعرف ان الاصل في علاقة المسلمين بغيرهم . انما هو السلم لا الحرب . وقد يكون في معرفة الوقائع التاريخية التي تقدمت حرب الرسول

واصحابه الاولين ، ومعرفة الظروف التي احيطت بها حرب الرسول كداع ومبشر حتى امر بالقتال ، قد يكون فيها مالا يجوز معه لناظر في القرآن ان يتأول آيات القتال الواردة فيه على غير هذا البيان الذي اسلفنا .

وسنقدم في هذا البحث صورة صحيحة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وحياته في المدينة ، ومنها نعلم لما قاتل المسلمون ؟ والى اية غاية قاتلوا ؟؟ .

مكث النبي بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعوا الناس بسلاح الدعوة الالهية الذي شرحناه فيما سبق ، وهو سلاح الحكمة والموعظة الحسنة ـ الى التوحيد وعقيدة البعث ونبذ ما كان عليه الاباء فيها . وقد لبى الدعوة وهي في مهدها نفر قليل مما جمعته واياهم وشيجة القرابة او الصداقة ، التي كشفت لهم عن سمو روحه وعظم اخلاقه وشمائله. وما كاد القوم يعرفون امر هذا النفر حتى اضمروا لهم الحقد والعداوة واخذوا في مناوئتهم والتضييق عليهم كي يردوهم عن دينهم الجديد ويقفوا بذلك حجرة عثرة في سبيل تقدم الدعوة ولما رأوا ان من يؤمن بتلك الدعوة يضحي في بقائه على الايمان بها نفسه ونفيسه ، وان روح الايمان يمتزج بدمه وقلبه ، ركنوا الى مساومة الرسول على ما يشاء من الملك والاموال والسيادة في مقابل ان يدع تلك الدعوة واكثروا لذلك من مقترحات الترضية . فأبى الرسول عليهم كل ما يطلبون فعادوا الى المقاومة عن طريق الارهاب والتنكيل ولم يتركوا بابا من ابواب العنف الذي يصد الناس عن اتباع تلك الدعوة الا ولجوه وقد دون التاريخ من حوادث التعذيب للافراد والجماعات ما تقشعر من ذكره الجلود وتبرأ من هوله وفظاعته معاني الانسانية وهي في اقل درجتها .

وعندما اشتد الامر بالمسلمين وتفاقم خطب القوم عليهم ورأى عليه السلام ان استمرارهم على الاقامة بمكة مع هذا الاضطهاد سيقضي ولا محالة عليهم ، وعلى الدعوة وهي لاتزال جنيناً في المهد . عند ذلك امرهم بالهجرة الى ارض الحبشة فراراً بدينهم ، وحفظاً لارواحهم ، فهاجر اليها اكثرهم ، ولم يبق مع الرسول الا القليل ، وعلى الرغم من الامن الذي صادفوه في الحبشة فان نفوسهم كانت قلقة نظراً لقلة عددهم ، ونظراً لما خلفوا في مكة من اهل ومال ، ولهذا لم تدل

اقـامتهم هناك ، بل عادوا بعـد ثلاثة اشهر قضوها بعيدين عن الاوطان في سبيل البقاء على الايمان .

عادوا الى مكة فوجدوا الامر قـد استمر ، وان الاعداء قد تفتق كيدهم عن منابذة بني هاشم « ولدى عبد مناف » كي يسلموا لهم « محمداً » وتعاهدوا فيما بينهم على ذلك وكتبوا بـه صحيفتهم المشـهورة ، وبهذا حصروا الفخذين في شعب ابي طالب حتى ضاقت بهم سبل العيش ، واضطروا الى اكل ورق الشجر ، وعندئـذ امر الرسول المسلمين بالعودة الى الحبشه فهاجر معظمهم اليهـا ، ولما علمت قريش بذلك ارسلت في اثرهم من يساومم النجاشي في تسليمهم ، فابى عليه شرفه ونجـدته ان يجيب الرسول الى ما يريد .

وبعد سنوات ثلاث من هـذا الحصار الذي ضربوه على « ولدى عبد مناف » في سبيل تسـليمهم « محمـداً » ليقتلوه ، قام جماعة من صناديدهم ، يطلبون منهم نقض العهد ، واخلاء سبيل الحياة امام الفخذين،وما زالو بهم حتى شقوا الصحيفة وخرج القوم من مسـا كنهم ، غير ان وطأة الايذاء للرسول ومن معه . لم تخف شدتها ، بل القوم في عتوهم حتى هموا بقتله بعد وفاة عمه ابي طالب :

ماذا يصنع الرسول امام هـذا الهول الذي انتابه واصحابه لاشيء سوى انهم يقولون ربنا الله :

ظن الرسول ان في الطائف قلبا يعطف عليه وعلى اصحابه وينقذهم من ذلك الهول ، وان ذلك القلب ، هو قبيـلة ثقيف ، لمـكان خؤولته فيهم ، فتوجه اليهم وعرض امره عليهم . والتمس النجدة منهم ، فوجد منهم قلباً ، ولكن قلباً يتميز منه غيظاً وحسداً فهزأوا به وردوا عليه اقبح رد، وارسلوا خلفه السفهاء والغلمان حتى ادموا عقبه بالحجـارة . ولمـا اقترب من مكة وعلمت قريش امر ثقيف معه صمموا على منعه من دخول بلده ، فالتجأ الى المطعم ابن عدى، والتمس منه الجوار فأجاره ؛ ودخل وطنه في حماه .

وعلى الرغم من تلك العقبات التي كانوا يضعونها في سبيل تقـدم الدعوة فانها اخذت تتغلب عليها بواسطة الوفود والعرض على القبائل استطاعت ان تسري خارج

مكة بما تحمل في طبيعتها من جلال وجمال، وتكوّن لحمايتها من بثرب قوة فتية حالفت الرسول على الموت دونها ، ولما علمت قريش ان تيار الدعوة سرى في قلوب حية وانه عقد منها حلفاً جديداً لصاحب الدعوة ، اشتعلت نار الحقد في قلوبهم ، واشتد ضغطهم على الرسول وصحبه وهنا لم يجد عليه السلام بداً من ان يهاجر المسلمون الى مدينة الحلف الجديد . فاندفعوا يتسللون تحت قطع الليل البهيم ، مخافة ان تصدهم قريش عن الهجرة ، ولم يبق منهم في مكة الا ابو بكر ونفر قليل لم تسعفهم الحاله المادية بما تتطلبه الهجرة . ثم هاجر بعد ذلك ابو بكر مع الرسول

وقد حدثنا التاريخ كيف خرج عليه الصلاة والسلام من النطاق الذي ضربوه حول بيته لقصد اغتياله ، وبذلك تم للنبي ما اراد من هجرته وهجرة المسلمين معه الى مدينة الحلف والمناصرة .

واني ادع القارىء هنا يقدر بنفسه كيف سقط الاعداء . وكيف عضوا بنان الندم على ذلك التوفيق الذي انقذ فريستهم « محمداً وصحبه » من مخالبهم، وكيف طاشت احلامهم وآمالهم، وذهب كيدهم الذي تفننوا فيه ثلاثة عشر عاما ادراج الرياح

ادع تقدير نفسية هؤلاء الخصوم . وما يتردد في صدورهم من افانين الحقد والاحن ، وما يلده ذلك الروح العدائي من تدبير الكيد والايذاء .

ادع تفسير ذلك كله الى القارىء وانتقل الى حياة الرسول في المدينة .

استقر النبي في المدينة . وآخى بين الانصار والمهاجرين ، واسس مسجده . ورتب شؤونه . ولم يكد تهدأ الحال ويطيب المقام حتى ظهر له بالمدينة عدو جديد انكر عليه دعوته واخذ يكيد له ولاصحابه . ذلك العدو ، هم يهود بني قينقاع وقريظة والنضير .

وما كان عليه الصلاة والسلام يظن بهم وقد قرأوا التوراة ، وكانوا يستفتحون به على المشركين في حروبهم .

ما كان الرسول يظن او يقدر انهم سيقفون منه هذا الموقف الذي وقفه معه المشركون من قبل ،... ولكن هكذا اراد الله ان يمحص قلوب الذين معه فابتلاهم بعدو مناوىء اينما حلوا واينما رحلوا . وكان قدراً مقدورا .

رأى النبي ان في ذلك العدو الجديد ، وفي تركه يعبث بالدعوى مثار الفتنة خفف الله عنه وطأة مثلها فمد اليهم يده وعاهدهم على تركهم وما يدينون . وعلى منعه مما يمنعون منه انفسهم ، وبهذا العهد اطمأن بعض الشيء من جانب اليهود . واخذ يفكر فيما يؤول اليه شأنه مع هؤلاء الخصوم الذين اخرجوه وصحبه من ديارهم واموالهم ولا يزالون يفتنون المستضعفين من المؤمنين كما لا يزالون يتربصون به وبدعوته الدوائر .

ادع القارىء هنا ليقدر بنفسه كيف كان موقف محمد واصحابه من العدو الجديد لانتقل به الى موقف الفريقين بعد الهجرة .

* * *

ان قوماً يمكثون ثلاثة عشر عاماً في ايذاء النبي وصحبه والتضييق عليهم والكيد لهم حتى يخرجوهم من ديارهم واموالهم ثم يذيقون المستضعفين منهم ألوان العذاب والنكال لا لشيء سوى ان يقولوا : ربنا الله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى... محال ان يكف شرهم عنه هجرته من مكان الى مكان ، وكيف وهم يعلمون انه اذا استقرت دعوته في اي طرف من البلاد فهي ولا بد آخذه بجميع اطرافها . ومقوضة لدعائم ما يظنون ان فيه عزهم ومنعتهم . فهم : — طبعاً — لا يمكن ان يفكوا عن تحين الفرص والتلمس لما يهيئهم للوقوف في صدر هذه الدعوة مرة اخرى ، لاسيما اذا كان هذا البلد الذي آوى اليه صاحب الدعوة في ممر هؤلاء الاعداء جيئة وذهاباً .

ولا ريب ان المسلمين اذا استكانوا في ذلك البلد ، ولم يبثوا دعوتهم ، لا بد ان يتخذ اعداؤهم من تلك الاستكانة سبيلا لمفاجأتهم ، والدخول عليهم في بلدهم الجديد ، خصوصاً وان اليهود الذين عاهدهم الرسول لم يكونوا من الاخلاص بحيث يأمن غائلتهم ، وبقاءهم على العهد والميثاق ، وبذلك لا يبعد ان يعاونوا ذلك العدو الاجنبي ويوحدوا كلمتهم معه على اعادة المأساة ومطاردة المؤمنين من المدينة كما طوردوا من قبل ، وعندئذ يتحتم الفشل في مصير الدعوة . ويذهب شأن الرسول ومن معه من الانصار والمهاجرين . لهذا كله تهيأ الرسول واصحابه الى

منابذة الخصوم : خصوم الدعوة والايمان : اهل مكة : نعم : تهيأ الى منابذتهم واخذ يتحرش بهم في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : [ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا] .

والمستضعفون من الرجال والنساء والولدان يمدون ايديهم الى الرسول في اشد اوقات المحنة ، ويبذلون مهجهم وارواحهم في سبيل الايمان به ، وتقعد بهم حالتهم عن التخلص من ظلم الاعداء ، ويظلون بينهم يشربون من ايديهم كؤوساً من يحموم ، وهم بعد قوة الايمان وكمال الصبر لا يملكون الا ان يقولوا : [ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها .... الخ] مستضعفون هذا شأنهم لا تسمح انسانية مهما كانت من الغلظة والجفاء وعدم الوفاء ان يتركوا نهباً للاعداء وفريسة للخصوم ؟.

اعتقد لو ان المسلمين وعلى رأسهم محمد عليه السلام استكانوا في المدينة ولم يلبوا داعي الضمير والنجدة الاسلامية في خصوص هؤلاء المستضعفين ، ومع هذا اخذوا ينشرون دعوتهم في جميع ارجاء المعمورة حتى اكتحلت الآفاق بضوئها دون ان يرجعوا الى مكة وينقذوا هؤلاء المستضعفين الذين لم يطمعهم في الايمان مال . ولم ترهبهم قوة ، اعتقد لو ان هذا حصل وسجله التاريخ على النبي وصحبه لكان سيفاً بتاراً يجرده كل مسيحي في وجه كل مسلم باسم الغدر وعدم الوفاء في شخص « النبي » الكريم . بل ولكانت سابقة من محمد وصحبه يستحيل معها ان يمتلكوا قلب رجل واحد فضلا عن ان تنتشر دعوته بهذه السرعة المدهشة التي اوقعت خصومه في حيرة واضطراب ، ثم ابوا ان ينطقوا فيها بكلمة الحق حسداً وبغياً .

لهذا نقول تهيأ الرسول الى نبذ خصومه واخذ يتحرش بهم من آن الى آخر حتى تهيأت النفوس للقتال ، وحصلت بينهم وبينه عدة وقائع كللت بالفتح والنصر المبين .

* * *

اما اليهود فقد نكثوا ايمانهم ؛ ونقضوا جميعاً عهدهم . وانقلبوا حرباً في المدينة

على الرسول وصحبه وكان اول من نقض العهد منهم بنو قينقاع الذين انتهكوا حرمة سيدة انصارية ذهبت الى حيهم تبتاع منهم شيئاً من الحلى والزينة ، والذين وقع منهم انتصار المسلمين في بدر وقع القذي في العين ، والشجى في الحلق . فدفعهم الطيش الى ان يقولوا للرسول وهو يعتب عليهم في شأن الانصارية « لايغرنك ما لقيت من قومك فانهم قوم لاعلم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن انا نحن الناس » بذلك توجس المسلمون خيفة نقض اليهود وتحرجوا من منا بذتهم حرصاً على الوفاء من جانبهم فأنزل الله قوله « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين ، وبهذا تقرر المبدأ الذي لأجله يقاتل المعاهدون .

اما بنو النقير فكان من شأنهم ان النبي خرج اليهم في نفر من اصحابه يطلب اليهم ان يعينوه بمقتضى ما بينهم من عهد ـ في دية الكلابيين الذين قتلهم عمر بن ابى الضمرى . فقالوا له نفعل يا ابا القاسم اجلس هنا حتى نقضي حاجتك وخلا بعضهم الى بعض وزين لهم الشيطان التآمر على قتله وهو في ديارهم وعهدوا بذلك الى شقي من اشقيائهم فأخبره الله بما دبروا فانطلق مسرعاً من بينهم الى المدينة ، ثم لحق به اصحابه الذين كانوا معه ، ولما وصلوا اخبرهم بالامر وشرع في اجلائهم عن المدينة وتم له ما اراد .

اما بنوا قريظة فقد توجه اليهم اثناء تأليب الاحزاب سيد بني النضير . وقابل رئيسهم وحسّن له نقض العهد الذي بينه وبين المسلمين فوجد منه شدة وصلابة ، وما زال يفتل ذروته ؛ ويحك غاربه حتى سكن الى ما يريد منه وهو نقض العهد وهنا انبسطت السنتهم بسب الرسول واخذوا يتحرشون بالمؤمنين بما علم به الرسول نقضهم للعهد واعتزامهم مخالفة الرسول .

هكذا نقض يهود المدينة عهد الرسول في وقت ما احوجه فيه الى قلة الخصوم وتضييق ميادين الحرب . ولكن ابتلى بقوم لا يعرفون للعهد قيمة ولا للوفاء ذمة فلم يجد بداً من ان ينبذ اليهم عهدهم . وان يدخل معهم في طور جديد . هو طور العداء والمحاربة . بعد طور السلم والمعاهدة .

هذه هي الظروف التي احيط بها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في مكة

والمدينة . ولأجلها حارب هؤلاء وهؤلاء . حارب اهل مكة لأنهم محاربون له من مبدأ الدعوة . وبدأوا بالعدوان وطاردوا المؤمنين من ديارهم واموالهم مرة بعد اخرى ، ثم افرغوا سموم حقدهم في جماعة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لايملكون حيلة ولا يستطيعون سبيلا .

وحارب يهود المدينة لأنهم نقضوا ما عاهدهم عليه وحاولوا بانكارهم دعوته ان يقفوا امامها في المدينة كما وقف امامها المشركون في مكة . ولهذا امر بقتال الفريقين هؤلاء لعدوانهم وهؤلاء لنقضهم العهد ومؤازرتهم للخصومة .

ولو انهم وقفوا عندماعاهدوا الرسول عليه والمشركين كفوا اذاهم عنه وعن اصحابه وتركوه ينشر دعوته بالحكمة والموعظة لما جرد سيفه في وجه احد ، ولما سالت قطرة دم في سبيل تلك الدعوة التي كانت ولاتزال تجذب اليها القلوب النائية بمالها من جلال وجمال .

ولو ان مثيري الشبه الكاذبة ، والتشكيكات الباطلة حول الدين الاسلامي اليوم نظروا الى هذا التاريخ الصحيح ، ونظروا معه الى تلك القبائل الكثيرة التي ماكاد يصل اليها امر ذلك النبي الكريم حتى تتابعت اليه وفودها من كل فج يتلقون منه الوحي والحكمة ، ثم يرجعون الى قومهم يعلمونهم بما علمهم الله ورسوله لو انهم نظروا الى ذلك كله لما جرد واحد من علماء المسلمين قلمه في الرد عليهم او التهكم بهم . ولكن هكذا اراد الله ان يكون خلف الخصوم كسلفهم في البغي والعدوان ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون .

* * *

اما الحروب التي قام بها الخليفتان ابو بكر وعمر ؛ فهي تتميم بناء وضع اساسه الروم والفرس بأيديهم في عهد رسول الله ، ولم يكن فيها ايضاً سوى دفع الشرور والاعتداء .

كان يجاور الامة العربية في وقت الدعوة دولتان عظيمتان لهما من فنون الحضارة وسعة الملك . وقوة السلطان ما جعلها يعتقدان انهما مهبط السيادة العامة . والانسانية الحاكمة . وان من يجاورهما من تلك القبائل الصحراوية المبعثرة ، آكلة

الضب والابل ، ليس لها بحكم وضعيتها وحياتها الاان تعيش في كنفها تؤدي الخراج وتبذل الطاعة : هاتان الدولتـان هما : دولة الفرس ودولة الرومان . وبحكم ذلك الجوار شرع النبي في توجيه الدعوة الى ملوك هاتين الدولتين : فأرسل الى ملك الروم كتابة المشهور يدعوه فيه الى الاسـلام ويحذره ان تولى اثم الايسيين . فلما ترجم له الكتاب جمع بطارقته وعظماء دولته وعرض الكتاب عليهم واستشارهم في تلبية الدعوة فحاصوا حيصة الحمر ، وزأروا زئير الاسود واظهروا بغض موقفه ، فعاد يلاطفهم ويقول انمـا قلت مـا قلت لأختبر صلابتكم في الدين والملك وبـذلك نكص الملك على عقبيه ، واثر الملك على الاسـلام ، واخذ اتباعه وعظماؤه ينفثون سموم كراهة الدعوة في قلوب الامراء والاتباع ،وكان من اثر ذلك ان « شرحبيل» الغساني ، لما قابل رسول النبي الى امير بصرى عند مؤته وعرف وجهته . وعرف انه من رسل محمد ، امر به فضربت عنقه ، ولما كانوا يعرفون مقدار الاعتداء على الرسول ، وان محمداً لايمكن ان يتساهل في عزته اشتد حذرهم واخذوا يحشدون من الروم ونصارى العرب ما يصدون به جيش المسلمين ، ويستأصلون به امر محمد قبـل ان يستفحل ، وقد تجلى هـذا الروح العدائي اكثر من ذلك حينما بعث النبي رسوله الى امير دمشق، حيث اخذته العزة بالاثم . فاعتزم المسير الى النبي في بلاده

من هـذه الحوادث الثـلاث ايقن الرسـول وصحبه بمقدار ما يضمره الروم لهم وللدعوة .

وهنا نقف لنعرف من جمهور المبشرين « دعاة السلم في العالم » رأيهم في الاعتداء على الرسـول ، ولنعرف مـا توجبه الحكمة في مثل تلك الظروف التي لو تركت لزلزلت اعصاب الدعوة من كل جانب ، ولما وجد الرسول من يبعثه في تبليغ دعوته

لهذا لم يجد الرسول بداً من ان يجهز جيشاً يقتص من قاتل رسوله، ويضعف من حدة الثائرين عليه الهازئين بدعوته .

خرج الجيش ومـا كاد يصل الى مكان الحـادث حتى وجـد حشد الروم الذى جمعوه واستعدوا به حين قتلوا الرسول واشتبك الجيشان في موقعة حامية استشهد فيها ثلاثة من ابطال المسلمين وهم زيد ابن حارثة ، وجعفر ابن ابي طالب ، وعبـد

الله ابن رواحه ، ثم عاد جيش المسلمين الى المدينة ولم يابث ان تتابعت الاخبار بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع واعتزموا . غزوهم في بلادهم فتجهز النبي وخرج اليهم قبل ان يفاجئوه في بلده ، ولما وصل الى تبوك علم ان الروم عدلوا عن فكرتهم واقام فيها اياما حضر اليه اثناءها صاحب ايلة ، وصاحب جرباء واذرح واهل ميناء وصالح الجميع على اعطاء الجزيه . ولما بلغ ملك الروم ما فعله يوحنا امر بقتله وصلبه عند قريته :

لم يكن من المعقول بعد ذلك ولا من العزة التي يشعر بها صاحب الحق ان يهن المسلمون بما اصابهم من قتل رسولهم وقوادهم ومن امنوه على نفسه باخذ الجزية واعطاء العهد ، كما انه لم يكن من المعقول ان الروم بعد ان اكل الحقد قلوبهم ورأوا حضور المسلمين للقصاص منهم ان يكفوا عن مناجزتهم والايقاع بهم اينما وجدوا لذلك سبيلا خصوصاً وقد احسوا في موقعة مؤتة بعد انصراف الجيش ان الغلبة كانت لهم ومن طبيعة الغلب حمل صاحبه على العودة ، وعلى العموم قد تمكن الروح العدائي من قلوب الفريقين ، واصبح كل فريق من صاحبه على تخوف وحذر

لهذا عاد النبي في آخر حياته الى تجهيز جيش آخر تحت امرة اسامة بن زيد احد القواد الذين استشهدوا في مؤتة ، ولكن لم يكد يتم امر هذا الجيش حتى قبض الرسول وتولى امر المسلمين بعده صاحبه ابو بكر ، فارتأى رضي الله عنه ان الحزم والبقاء يقضيان بالعمل على انفاذ جيش اعده الرسول للقصاص من المعتدي ورد غائلته عن المسلمين . خصوصاً وان التردد في ذلك الوقت الذي ارتد فيه كثير من العرب ، واضطرب فيه حبل المسلمين مما يضاعف اطماع الاعداء وتألب الخصوم لهذا انفذ الجيش . وتوالت بعد ذلك حروب الروم حتى فتح المسلمون بلادهم ، وخلوا بين عباد الله ودعوة رسوله الامين .

هذا ما كان من امر الروم ، اما ما كان من امر الفرس ، والفرس اشد غطرسة وجبروتا من الروم ، فقد تجلى منهم الروح العدائي الحاد لاول ما بعث الرسول كتابه الى كسرى حيث مزقه ورمى به عتواً واستكباراً ؛ وقد بلغ من كبرياء كسرى الذي كان شعاراً عاماً لملوك الفرس اذ ذاك ، واستعظامه لهذه الدعوة

الصادرة من النبي العربي أن ارسل لعامله باليمن ان يبعث الى محمد برجلين جلدين يأتيان به ، وفعلا توجها الى الرسول وأخبراه بالمهمة ، فقال لهما : في هذا اليوم قتل كسرى : وكان الامر كما أخبر ، ولما علم الرجلان صدق الرسول ، اسلما وكان اسلامهما سبباً في اسلام عامل اليمن وكانت اليمن بذلك أول بلاد انضمت الى الاسلام عن طوع واختيار ، ثم انضم اليه بالشوق بلادالبحرين وعمان ، وكانتا تحت حماية الفرس .

ولما رأى الفرس ان روح السلم التي يعامل بها الاسلام اهله اخذت تنتقص عليهم ارضهم من اطرافها بدون حرب ولا قتال ، ورأوا انتصار المسلمين على الروم — وظنوا — كما ظن بني فينقاع — ان ذلك الانتصار لم يكن الا اضعف في الجيوش الرومانية اشتد حقدهم على المسلمين . وشرعوا في الاغارة على القبائل المجاورة لهم من العرب واستغلوا ملوك الحيرة في ذلك ولما امعن اهل الحيرة في الاعتداء على المسلمين . سار اليهم المسلمون . ونشبت بينهم الحروب ، وفر معتمد الفرس في بلاد الحيرة الى المسلمين وقد اشعل فقدهم لتلك البلاد حقدهم على المسلمين فعادوا بعد ان وضعت الحرب اوزارها الى جبروتهم ، والفوا جيشاً عظيما لاخراج المسلمين من بلادهم فدارت رحى الحرب مرة اخرى زحف فيها المسلمون عليهم حتى سقط عرش كسرى ، ودانت لأولياء الله جميع البلاد الفارسية .

* * *

هذه صورة مصغرة عن الحروب الاسلامية من ناحية اسبابها ، والظروف التي تقدمتها . يستنتج منها الباحث امرين : الاول : ان المسلمين ما كانوا يفاجئون قوماً بحرب حتى يظهر منهم روح العداء ومعارضة الدعوة والوقوف في وجهها والتحقير من شأنها ، وانهم كانوا متى تبينوا ذلك الروح العدائي . وايقنوا بخطارة عليهم وعلى الدعوة سارعوا الى اخماده والتغلب عليه قبل ان يستفحل امره ويمتد سلطانه ، وما كانوا ينتظرون في بلادهم حتى يستضعفهم العدو فيهاجمهم فيها ، وذلك جريا على القاعدة الاجتماعية ، ما حورب قوم في عقر دارهم الا ذلوا ، وفي هذا كان من تعاليمهم اذا وصلوا الى ارض العدو الذي عرفوا عداءه ان يخيروه بين الاسلام

او الجزية او القتال ، وذلك رجاء ان يعود الى نفسه ويراجع قلبه فينتزع منه بالحكمة روح العداء او المخاصمة ، وهاك قوله عليه السلام في وصاياه لأمراء جيشه « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى خصال ثلاث ، لتعلم ان روح العداء سابق على انفاذ الجيوش . وان التخيير لم يكن الا بدافع الرجاء في العدول عن ذلك الروح العدائي .

الثاني ، ان هذه الحروب التي قام بها المسلمون لم تكن بقصد اكراه الناس على الدين ولا بقصد تسخير الشعوب واذلالها ، ولا بقصد الطمع في المال وسعة الملك ، ويرشدنا الى هذا تشريع القرآن في معاملة المسلمين لمن دخلوا في حوزتهم فقد امر بتركهم وما يدينون ، ونهى عن التعرض لهم في الشعائر والاموال ، وسوى بينهم وبين المسلمين في سائر الحقوق العامة والانتفاع بجميع المرافق الحيوية ، وقرر ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم حتى اوجب الانفاق على ضعفائهم والفقراء من بيت المال ؛ وواجب التسوية بينهم وبين المسلمين في القصاص والديات والتعازير واباح للمسلم ان يعقد معهم عقدة النسب والمصاهرة ، وفرض للزوجة غير المسلمة من الحقوق والواجبات حتى قال الفقهاء في باب القسم : والمسلمة كالكتابية في ذلك ، اقرأ كتب العهد التي بذلها الخلفاء والامراء ، ثم اقرأ قوله تعالى : « احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات » .

اما الجزية فمقدار زهيد قد لا يصل الى ما يدفعه المسلمون من زكاتهم المفروضة وصدقاتهم الواجبة ، دعت اليه اباحة ارتفاقهم بالمصالح وحمايتهم من الاعداء ، وهم في دار السلام .

انظر ان شئت كتاب الخراج للامام ابي يوسف وستقرأ فيه ان ابا عبيدة بعد ما صالح اهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج . ثم بلغهم ان الروم قد جمعوا له واشتد الامر عليه وعلى المسلمين كتب رضي الله عنه الى امراء المدن التي صالحها ان يردوا عليهم وما جبى منهم من الجزية والخراج وان يقولوا لهم : « انا رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان

نمنعكم ونحن لانقدر على ذلك . قد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا ان نصرنا الله عليهم » .

اقرأ هذا وطالع سيرة الامراء لتعلم مقدار سماحة الدين في معاملة رعاياه من غير المسلمين ومبلغ السمو في تشريعه الانساني العام الذي جذب قلوب الناس اليه عن طوع واختيار. والذي عاش تحت ظله غير المتدينين به قروناً متطاولة لايشكون ضيما ولا يبخسون حقا .

فهل بعد هذه المعاملة التي يقررها الشرع المحمدي ويراها ديناً لازماً للمؤمنين يمكن ان نسمع من هؤلاء الذين اكل الحقد صدورهم وراحوا يشوهون عن بغي وعدوان جمال هذا الدين .

هل يمكن ان نسمع بعد هذا ان القتال في الاسلام كان لاكراه الناس عليه. او تسخير الشعوب واذلالها . او للطمع في المال وضعة الملك .

نعم ، كان القتال في الاسلام كما دلت عليه النصوص وارشدت اليه السنة لدفع الشر عن المسلمين ، وتكسير الانفال التي احكم وضعها الملوك والامراء على قلوب الناس ومنعوهم بها من تلبية الدعيدة التي كانت تملك عليهم بجلالها وجمالها القلوب والارواح .

يقول الفقهاء « الادمي خلق معصوم الدم ليمكنه تحمل اعباء التكاليف واباحة القتل عارض بحرابه لدفع شره ، والكفر من حيث هو كفر ليس علة للقتل ، وانما العلة المقاتلة » .

ومما يزيدك ايماناً بان قصد الاسلام بالقتل لا يتعدى دفع الشر واخلاء طريق الدعوة لمن ارادها ما قرره جميع الفقهاء من جواز موادعة الحربيين واجابتهم الى وضع الحرب متى بدا منهم روح السلم ، وذلك عملا بقوله تعالى في سورة الانفال : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه السميع هو العليم ، وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين » .

وقال الفقهاء في التعليل « ان الموادعة جهاد معنى اذا كانت خيراً للمسلمين لان المقصود وهو دفع الشر حاصل بها فاذا وقعت الموادعة امنوا على انفسهم واموالهم،

وأمن من أمنوه وصار في حكمهم » . وقالوا ايضاً : « لا يقتصر جوازها على المدة المروية في عهد الحديبية بل الامر في ذلك مفوض الى رأي الامام ، ما دام القصد منها دفع الشر المقصود من القتال » .

هذا ومن السبل التي امر بها القرآن تحرزاً من الوقوع في القتال وقضاء على روح الشر الذي من شأنه ان يبعث عليه ، ما امر به الله في سورة الانفعال وفي قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم يعلمونهم الله يعلمهم » .

اقرأ هذه الآية وتأمل جيداً قوله تعالى في معرض التعليل « لا ترهبون الخ:» لتدرك ما قرره الرازي في شرحها وهو « انه اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له ، مستكملون جميع عدته خافوهم واذا خافوهم منعهم ذلك الخوف من قصد دار الاسلام وحال بينهم وبين نصرة الاعداء . وقال الرازي في تفسير قوله : « وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله . الخ .. » لما امر في الآية المتقدمة بالصلح ذكر في هذه الآية حكماً من احكامه ، وانهم وان صالحوا على سبيل المخادعة وجب قبول ذلك الصلح لان الحكم يبنى على الظاهر ولان الصلح لا يكون اقوى حالا من الايمان ، فلما بنينا امر الايمان على الظاهر لا على الباطن ، فها هنا اولى .

ولعلنا بهذا وبما ورد في القرآن من الآيات الكثيرة المطلقة الحاثة على الوفاء بالعهد والتزام شرطه ، نعلم مقدار رغبة الشريعة الاسلامية في السلم والجنوح اليه متى جنح له العدو . ولعلنا نستطيع هنا ايضاً ان نقول ان ما اشتهر عن المسلمين من تخيير الاعداء بين الاسلام او الجزية او السيف انما كان حيث لم يرهبهم الاستعداد فيكفوا عن الشر ، ولم يجنحوا للسلم الذي به دفع الشر عن المسلمين اما اذا أرهبهم الاستعداد فكفوا به عن الشر او بدا منهم روح السلم وتركوا به العدوان . فقد علمت ان الله يقول : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ويقول ايضاً : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلونكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

* * *

نشوء الإسلام في عصره الأول

لم يدون في تاريخ نشوء الامم وارتقاءها نبأ خارق للنواميس الكونية اعجب ولا ادهش من نبأ نشوء الاسلام في عصره الاول .

نشأ الاسلام في امة عريقة في البداوة ضاربة في اودية الجهالة والضلال . متضعضعة الكيان ، متداعية البنيان ، فلم يمضِ على ظهوره قرن كامل حتى انبعث من كوكبه المتألق في افق العالم القديم نور عم نصف الكرة ، فكان كالشمس تغمر بضيائها نصف العالم ، وتحجبه الى حين عن النصف الاخر .

بنى هذا الدين الحديث امة متماسكة الاركان ، متراصة البنيان فمزقت بوحدتها دولا عاتية ، وهدمت بما حملته من مبدأ التوحيد ديانات شركية قديمة عاش العالم بها حقباً متطاولة في ظلام دامس ، وضلال لاينفذ اليه بصيص من نور الهداية الالهية فاجتثت من بلاد العرب شجرة الوثنية ، واقتلعت من بلاد الفرس جذور المجوسية ، وغشى طوفان الاسلام النصرانية في الجانب الشرقي من المملكة الرومانية البيزنطية ، فذهب زبدها جفاء ، وضاع غثاءها هباء . ودخل الناس في دين الله افواجا ، وآثروا هذا الدين الحديث لجدته وسذاجته وملاءمته للفطر السليمة على تلك الديانات القديمة التي كانت مزيجاً من الطقوس الجافة ، والبدع الدخيلة ، والخزعبلات والاوهام والاباطيل ، ولم يمض غير يسير من الزمن حتى اصبح السواد الاعظم من هذه الامم المغلوبة مع الامم الغالبة امة واحدة دينها الاسلام ، ومبدأها التوحيد مرتبطة برباط الاخوة الاسلامية الوثيقة ، وساعد على اندماج هذه الامم في هذه الوحدة الشاملة ما في الدين الاسلامي من مبادىء قويمة ، وما في سماحة تعاليمه ويسرها من ضمان لسعادة البشر وتنظيم المجتمع ، وسرعان ما اخذ يتدفق وينتشر وتتداح رقعته ، ويتسع محيط افقه ، حتى طبق المأهول من جهات الارض ولم يمض قرن آخر من الزمان حتى باتت رايته خفاقة على العالم من جبال البرانس المتاخمة لفرنسا حتى جبال هملايا القائمة في اواسط آسيا ، ومن اواسط آسيا حتى اواسط افريقيا :

خلع العرب حيوتهم وجدتهم ونشاطهم ومزاياهم الاخلاقية على هذه الامم التي

اختلطوا بها اختلاط الاخوة والجوار والصهر والنسب ، وحملوا اليهم ما هية تعاليم صاحب الرسالة ، واصول شريعته الغراء ، لم تمسها شائبة ، ولم يرهقها دخيل البدع والاهواء ، وعرفوا بعد ان قبضوا على صولجان الملك في هذه الاقطار كلها كيف يقيمون دعائم الحكم على اساس العدل التي جاء بها القرآن ، ويوثقون ما استقر لهم بحكم الفتح من سلطان ، حتى دانت لهم الامور ، وكانوا هم كالنقطة المركزية من الدائرة ، وكالقطب من الرحى ، ونشأ عن الوحدة في المعتقد وشيوع التزاوج وسرعة الاختلاط والتقارب والتفاهم بين الغالبين والمغلوبين حضارة جديدة هي الحضارة العربية التي تستمد عناصرها ومقوماتها من حضارات ثلاث هي :

الحضارة اليونانية — والحضارة الفارسية — والحضارة الرومانية :

ازدهرت هذه الحضارة . العربية التي هي جماع الحضارات القديمة وترعرعت في حجر الاسلام ، واستمدت من روحه الصافي مزاجاً صافياً معتدلا ، ومشت في جدتها وشبابها تخلع على الممالك الاسلامية وحواضرها جمالها ورواءها وبهجتها ولا يزال بعض آثار تلك الحضارة الزاهية ماثلا للاعين الى الان .

ولا ننسى ما كان في بغداد وقرطبة ونظائرهما من حضاره ورقي وعمران ، وما ابتكرته حضارة الاسلام في عصرها الذهبي من مدن زاهرة وقصور شامخة ، ومساجد فخمة . وجوامع هي محط رحال العلماء ، ومدارس ومجالس للعلوم والفنون والاداب ، ولم يمض القرن الثالث بتمامه حتى كان العالم الاسلامي قد وقف على قمة المجد . وبلغ اوج كماله .

وفي مدى ثلاثة قرون استمر الشرق الاسلامي وبيده مشعل الحضارة يضيء به على الغرب النصراني طريقه .

وفي خلال هذه القرون الثلاثة نشطت العمارة نشاطاً كبيراً بانتشار الاسلام ، ونشأ بلاد وعواصم جديدة وازدانت صفحات تاريخها باثار لاتحصى ، فلم تمض خمسة اعوام على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان المسلمون قد انشأوا بلدتين جديدتين في الجزيرة : البصرة والكوفة : واقاموا الفسطاس بعد ذلك باعوام قليلة ، ثم القيروان في بلاد المغرب . وجاء معاوية والامويون فزادت بلاد الشام

على ايديهم عمراناً واحاطوا مبانيهم بمظاهر الابهة والرفاهية .

ولم ينته القرن الثاني من الهجرة حتى كان لعظمة مباني الاسلام وعددها الوافر مالم يكن لأي فن من الفنون التي سبقته ، وكانت عواصمه في بغداد . وسمرا . ورقة . واصفاهان . والفسطاط والقيروان وفاس وقرطبة تزخر كلها بالقصور والمساجد والاضرحة .

وطبيعي ان تكون الديانة الاساس في نشأة العمارة الاسلامية كما كانت الاساس في نشأة جميع الفنون ، اذ لم ينهض فن العمارة الا بتكوين الديانات ، ولم ترتكز دعائمه اولا الا رغبة في تمجيد الالهة ، او تقرباً اليها . وصيانه للعقائد الدينية . ولم يقم ملوك الارض لأنفسهم قصورا او مقابر الا بعد ان اقاموا لآلهتهم بيوتا ومعابد والذي دفع الاسلام بمعتنقيه الى العنايه بفن العمارة بطريق غير مباشر هو وصف الله عز وجل في كتابه العزيز جنات النعيم التي اعدها للمتقين من عباده وصفاً شيقاً لعله كان مبعث الوحى للمسلمين بما شيدوه من عمائر : واليك قوله عز شأنه « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، نعم اجر العاملين » وقوله « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار . . . » فما كادوا يفتحون الامصار ويرون ما بها من اثار حتى اقبلوا على البناء فأقاموا قصوراً شاهقة التكوين موزونة الابعاد منمقة الجدران . ضاع معظمها . ونفضت معاول علماء الاثار الاكفان عن بعضها وافلت منها يد الدهر ذلك القصر العظيم الذي شيده بنو الاحمر في الاندلس وهو بغرفه الفسيحة الرائعة ، وقبابه الرشيقة العالية ، ومياهه الرائعة الجارية ، وجناته ذات القطوف الدانية خير شاهد على ما اقول :

وما كان للمسلمين وقد سكنوا تلك القصور الرائعة ليقفوا بمساجدهم عند حد البساطة التي كانت عليها ايام الاسلام الاولى بل تذكروا قول الله عز وجل « في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

وهذه البيوت هي مساجد الاسلام اقيمت في مهده ، وتتبعته اينما حل ، واذ

كانت العمارة الاسلامية قد تطورت مدى الاجيال ، واتخذت عناصرها واشكالها مظاهر تختلف باختلاف العصور والاوطان . الا انها احتفظت بالروح التي بثها فيها الاسلام ، واصطبغت بصبغة موطنه ومنبته ، وكان لانظمة المساجد وعناصر بنيانها الاثر الفعال في كل ما حوت العمارة الاسلامية من قصور ومساكن واضرحة ومدارس وغير ذلك من المباني :

ولهذا فان كل دراسة للعمارات الاسلامية يجب ان تتصدر بدراسة المساجد ، وهذه كلها تتصل اتصال الفرع والمنابع بأول بيت اقيم مصلا للمسلمين ، وهو مسجد الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم في المدينة .

يحدثنا المؤرخون انه شرع في اقامة هذا المسجد في نفس اليوم الذي وطئت فيه اقدام الرسول ارض المدينة . وانه كان مربعاً طول كل ضلع من اضلاعه مائة ذراع . وكان لجداره اساس على الارض بني بالحجارة . وكان ارتفاعه يقرب من ثلاثة اذرع ، ثم زيد طوله الى بسطة ، وبني باللبن ، وجعلت قبلته الى بيت المقدس وجعل له ثلاثة ابواب باب في مؤخره ، وباب يقال له باب الرحمة وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة . والباب الثالث الذي كان يدخل منه رسول الله . وهو الباب الذي يلي آل عثمان ، وجعل له ظلة في جهة القبلة لها عمد من الجذوع وسقفها جريد فلما حولت القبلة نحو الكعبة اقيمت ظلة قبلها ، وبقيت الظلة الاولى مكانا لاهل الصنعة . وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة .

وقد لايغنينا بساطة هذا النظام عن شرح اجزائه ، اما الظلة فلم تقم في بيت الصلاة الا اشفاقاً على المصلين من حرارة الشمس . او برودة الجو . او صهران الهواء او نزول المطر . واريد ان يكون هذا البيت في عزلة عن ضوضاء الطريق فلم تفتح منافذ في جدرانه القصيرة . واريد ان يمتد هذا البيت الى يمين القبلة ويسارها اكثر من امتداده خلفها . او انه يكون مستطيلا يزداد طول جدار قبلته عن جداري مشرقه ومغربه لان المسلمين كانوا يجتمعون للصلاة صفوفا ممتدة موازية لجدار القبلة ، وارادت السنة ان تجعل للصلاة في الصف الاول بركة زائدة فرغب المسلمون ان يمتد هذا الصف الى اقص ما يسعه السبيل ؛ فامتد لذلك جدار

القبلة ، وتبعته صفوف اراد النبي ان تتم وتسوى . وان يقيمها المصلون ويتراصوا فيها ، فكان الواحد منهم « يلزق منكبه بمنكب صاحبه وقدمه بقدمه » وعلى هذا النمط اقيمت الظلة في المسجد وعلى هذا النظام اصطفت جذوع النخل في مسجد المدينة .

ثم فكرة اخرى يعبر عنها هذا النظام ، فكرة التناوب الذى لايوقفه حائل . والتكرار الذي لايوقف عند حد . والفضاء الشائع الذي لانهاية له . ولسنا نجد مثلا نضربه على ما نحن بصدده افضل من تجمع قبائل الاعراب للصلاة في الصحراء فانهم يتلاصقون في صفوف مستقيمة متساوية ممتدة لا يدرك البصر مداها ، صفوف ترتسم في الفضاء المتسع كما كانت ترتسم جذوع النخل في مسجد المدينة ، وكما ترتسم الاعمدة في بيوت الصلاة .

واما الرحبة الواسعة التي كانت ضرورية لانفاذ الضوء والهواء الى بيت الصلاة الذي لانوافذ له غيرها وكانت الصلاة تقام فيها حين يكتظ المسجد بالمصلين ولهذا اضيف اليها في اواخر القرن الاول للهجرة مجنبات تتسع لعدد كبير اخر من المصلين . فتظلهم سقوفها دون ان تضيق الرحبة او تقل اضاءة بيت الصلاة ، او نفاذ الهواء اليه :

وقد تكون فكرة اقامة هذه المجنبات اقتبست من بناء سابق للاسلام ، اونشأت بعد احتكاك المسلمين باثار سوريا المسيحية القديمة ، ولكن غالب ظننا انها فكرة اسلامية ايضاً اذ ان رحبة مسجد المدينة كانت تفصل ظلتيه ، ظلة القبلة وظلة الشام . ولم يكن اتصال الظلتين بمجنبتين ؛ واحدة الى الشرق وواحدة الى الغرب غريباً عن نظام المسجد . فما المجنبتان الاظلتان ضيقتان تحيطان بالرحبة كما كانت تحيطها الظلتان الاوليان .

وفناء المسجد في العصور الاولى من الاسلام يشتمل على ظلة مستطيلة الشكل ممتده عن يمين القبلة ويسارها ، تحملها صفوف من العمد . وهذه الظلة هي بيت الصلاه ويليها رحبة واسعة او صحن يحيط به من جهاته الثلاث الاخرى مجنبات تظلها سقوف محمولة هي ايضاً على صعف او اكثر من الاعمدة .

ولنظام المسجد عنصر آخر هام هو المحراب، وقد كان في الاصل لوحة تشير الى القبلة، واختلف المؤرخون فيمن ادخله بشكله المجوف على نظام المسجد، فقيل ان عثمان ابن عفان هو الذي صنع المحراب لمسجد المدينة، وقيل ان مروان هو اول من بنى المحراب، وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد، وقيل فرة ابن شريك ادخله على مسجد عمرو سنة اثنتين وتسعين للهجرة، وقيل مسلمة بن مخلد قبل ذلك بثلاثين عاما.

وظننا ان عقبة ابن نافع هو اول من اقام المحراب سنة خمسين للهجرة، حين اختط مسجد القيروان وابان مكان القبلة منه.

وقد ظل هذا المحراب طوال السنين موضع اجلال القوم وتقديسهم، فلم يمسه احد بسوء، حتى ان الامير زيادة الله ابن ابراهيم ابن الاغلب لما اراد هدمه في سنة احدى وعشرين ومائتين، وألح في ذلك لم يجبه احد اليه، وحيل بينه وبين هدمه «لما كان قد وضعه عقبة ابن نافع ومن كان معه».

واختلفت المساجد رغم اتفاق انظمتها. فلم يشمل بعضها هذه العناصر الاربعة: الظلة او بيت الصلاة، والرحبة او الصحن، والمجنبات او الزيادات، والمحراب.

فقد كان مسجد الكوفة كما كان مسجد المدينة خلواً من الزيادات والمحراب، وكذلك كان مسجد البصرة والفسطاط. وسيظل هذا النظام الوحيد المتبع في تخطيط المساجد حتى نهاية القرن الهجري حين يضاف اليه نظام المساجد المدرسية.

* * *

ونشير الى اشهر هذه المساجد الباقية الى اليوم، او القائمة آثارها، فنذكر منها مسجد الامويين بدمشق انشأه الوليد سنة ثمان وثمانين، وبيت الصلاة منه يشمل ثلاثة اساكيب، والاسكوب هو الممر بين الاعمدة من يمين هذا البيت الى يساره، وبه ثلاثة وعشرون رواقاً، والرواق هو الممر بين الاعمدة المتجهة الى حائط المحراب، وتعلو اسكوبة الثاني فيه عند التقائه بالرواق الاوسط الذي يصل الى المحراب. ولكل من زيادات صحن هذا المسجد رواق واحد.

وقد يكون من اقدم المساجد القائمة من بعد مسجد القيروان الذي انشأه

عقبة ابن نافع سنة خمسين للهجرة ، واعيد بناءه سنة ثلاث وثمانين ، ثم سنه خمس ومائة في عهد الخليفة هشام ابن عبد الملك ، والى هذا العهد ترجع اكثر نظمه وعناصر بنيانه ، وفي بيت صلاته سبعة عشر رواقاً تمتد على ثمانية اساكيب ، وتزداد سعة رواق المحراب واسكوبه على بقية الاروقة والاساكيب . وهذه الظاهرة نراها ايضاً في بعض المساجد التونسية كمسجد الزيتونة بتونس ، وله صحن فسيح ، ولهذا البهو مجنبات تنقسم الواحدة منها الى رواقين ، وقد يكون مسجد القيروان اكبر هذه المساجد فان عرضه سبعة وسبعون متراً وطوله ستة وعشرون ومائة ، ويكاد مسجد عمرو بالفسطاط يساويه سعة .

وأفخر هذه المساجد كلها مسجد القرطبة الذي اقامه عبد الرحمن الاول سنة تسع وستين ومائة واضاف اليه عبد الرحمن الثاني . ثم الحكم والمنصور ما جعل من بيت صلاته افسح بيوت صلاة المساجد كلها واكثرها رونقاً ، اذ تمتد اروقته التسعة عشر على اثنين وثلاثين اسكوبا ، وضاقت رحبة المسجد فلا تكاد تبلغ نصف سعة بيت الصلاة . والعادة في المساجد الاخرى كالقيروان وعمرو وابن طولون ان مساحتها تبلغ ضعف مساحة بيت الصلاة او تزيد عن ذلك . واقتصرت زيادات الصحن في مسجد القرطبة على رواق واحد .

والعادة ايضاً ان يكون لكل زيادة رواقان كما هي الحال في مساجد القيروان والزيتونة وابن طولون والظاهر بيبرس . الا انها بلغت ثلاثة في مساجد عمرو وتلمسان واصفهان ، واربعة في مسجد الكتوبية بمراكش والازهر ، وخمسة في مسجد حسن برباط .

وقد يكون لبيت الصلاة اكثر من محراب واحد ولمسجد ابن طولون ستة محاريب .

* * *

ادخل الاسلام على فن العمارة نظاماً جديداً من المباني . وهو المسجد وقد فسرنا عناصر هذا النظام الاربعة : الظله ، والمحراب ، والصحن ، والزيادات . ورأينا كيف ان هذه العناصر تفرعت من نظام مسجد رسول الله بالمدينة ؛

وكيف انها اتبعت في انظمة مساجد الاسلام جميعاً في عصوره الاولى ، وسنرى ان هذه الانظمة حملت البناة على ابتكار عناصر للبنيان . وان عناصر البنيان هذه اتبعت ايضاً في اقامة المساجد كما اتبعت الانظمة التخطيطية وانها جعلت للعمارة الاسلامية شخصية فريدة في تاريخ العمارة .

استبدل المسلمون جذوع النخيل باعمدة من الحجارة وسقف الجريد بالواح من الخشب ، وكانت الاعمدة في الغالب قصيرة . والحاجة تدعو الى رفع السقف عالية حتى يشع الضوء وافراً الى داخل بيوت الصلاة . وينفذ اليها الهواء . إذ ان العادة ان جدران هذه البيوت وسقوفها كانت تخلو من طاقات ومنافذ ، فلم يكن من بد من اقامة عقود على هذه الاعمدة ترفع فوقها السقوف . الا أن قصر الاعمدة كان يستدعي تقاربها ، فتصغر العقود ، ولا تتسع فتحاتها اتساعاً كافياً ، ثم ان هذه الاعمدة كانت في الغالب غير متساوية الارتفاع . واقامة عقود عليها كانت تسوية ارتفاعها ، وهذا ما دعا البناة المسلمين الى ابتكار عنصرين جديدين في فن العمارة .

اما العنصر الاول فهو الحجارة ، وذلك انهم رفعوا على تيجان الاعمدة مكعبات من الحجارة مستطيلة احياناً ومربعة احياناً اخرى ، يختلف ارتفاعها باختلاف ارتفاع الاعمدة التي تحتها ؛ فتلاشى الفرق الناتج من اختلاف ارتفاع هذه الاعمدة ، وتساوت مسطحات الحدارات ، وتهيأت لرفع عقود متناظرة على مستوى واحد . وان تكن هذه الوسيلة المعمارية بسيطة التكوين الا انها تنبئ عن عبقرية بناة الاسلام ، لانها تظهر في المساجد لأول مره في تاريخ فن العمارة .

* * *

اما العنصر الثاني فهو العقود ، ومما لا شك فيه ان بناة المساجد لم يحدثوا هذا العنصر ، فانهم كانوا يشاهدون من العقود عدداً وافراً في آثار قديمة ومسيحية ، توجت ساحاتها وابوابها ونوافذها بعقود نصف دائرية ، إلا انهم احدثوا فيها جديداً ، ذلك انه كلما اتسعت فتحات العقود المطلة على ساحة المسجد والممتدة داخل بيت الصلاة ، وكلما زاد ارتفاعها زادت اضاءة هذا البيت . ولهذا فقد اطالوا

اطراف العقود تارة وجعلوها مطولة كما هي الحال في مسجد عمرو ، وتارة فقد جعلوها منكسرة الرأس كما تشاهد في قبة الصخرة ، واحياناً جمعوا بين الكسر والتطويل كعقود مسجد ابن طولون فهي مطولة منكسرة ، وهي على هذا النمط في مسجد الجمعة باصفهان وفي اكثر مساجد افغانستان وبلاد الجزيرة.

* * *

وابتكر البناة في بلاد المغرب شكلا آخر للعقود فجعلوها متجاوزة ، وظهر ذلك لأول مرة في مسجد القيروان ، والعقود المتجاوزة تسمى احياناً ذات نعل الفرس . وفتحتها تجاوز نصف الدائرة فاتسعت حتى لتصبح في مسجد القيروان ضعف فتحة عقد نظير دائري او تزيد عن ذلك .

واصبح العقد المتجاوز عنصرا مميزاً للفن الاسلامي ، وكانت بلاد المغرب موطناً خصباً له . ولا يكاد يخلو منه اثر من آثارها الاسلامية. وقد حققت هذه الاشكال الثلاثة من العقود ما كان يرجى من توفر اضاءة بيوت الصلاة ، بازدياد سعة فتحاتها كما حققت الحدارات الغرض من تسوية ارتفاع مسطحات الاعمدة ، وازدادت بها العقود ارتفاعا .

* * *

ولم يقنع بناة مسجد قرطبة بهذا فابتكروا طريقة فريدة اخرى لرفع العقود . وذلك بان جعلوا منها طابقين يعلوا الواحد الاخر فتضاعف مستوى ارتفاعها . واطلت العقود على بيت الصلاة بفتحتين بدلا من فتحة واحدة ، واصبح يخيل الى الناظر داخل المسجدان به عقودا ترتفع على الاعمدة . واخرى تتدلى من السماء.

* * *

ونستخلص من هذا ان عناصر بنيان المسجد الاساسية ثلاثة ، الاعمدة بتيجانها . والحدارة . والعقد

وان البناة ابتكروا هذين العنصرين الاخيرين وجعلوا لهما اشكالا فريدة في تاريخ العمارة . ومميزة للعمارة الاسلامية ، وكما اننا نلقي عناصر انظمة المسجد التي سبق ذكرها في جميع مساجد الاسلام في العصور الاولى ، فاننا نلقى فيها كلنا

ايضاً عناصر البنيان هذه واذا كانت الاعمدة لم تتوفر لبعض البناة فانهم استبدلوها بدعائم وقد ظهرت هذه الدعائم في مسجد سوسة ببلاد المغرب في اوائل القرن الثالث الهجري . وفي مسجد ابن طولون ، وكانت منتشرة قبل ذلك في سامر او بلاد الجزيرة .

* * *

ونستخلص من هذا ايضاً ان الديانة دعت المسلمين الى وضع انظمة خاصة لمساجدهم ثم حملتهم الى ابتكار عناصر معمارية ترتكز عليها هذه الانظمة وتنعكس فيها صورة مسجد الرسول بالمدينة وصدى حياتهم الاجتماعية ، فانه ليخيل الى الناظر داخل هذه المساجد انه قائم في حقل متسع من النخيل فيه باعمدة من الحجارة اعمدة تتكرر امام نظره في صفوف منتظمة تكرار المؤمنين عند قيامهم للصلاة .

ويخيل اليه انها هي وتيجانها وجدرانها وعقودها نظائر تتشابه وتتناوب وتتنقل فلا يدري اين بدأت واين تنتهي ، وتختفي من وراءها جدران المسجد وحدوده فكأنه الفضاء منسقاً ومسقفاً .

* * *

ثم استسرت عوامل خفية اخذت تعوق الشرق الاسلامي عن مواصلة السير في طريق التقدم الذي شقه لنفسه منذ فجر الاسلام ، وما كاد يستهل القرن الرابع حتى كانت عوامل الانحطاط قد بدأت في الظهور ومن اهم تلك العوامل التنازل عن الملك باسم الخلافة فانه لما قامت دولة بني العباس ونقلت الخلافة الى بغداد : قوي نفوذ الفرس وتناول سلطانهم كل ناحية من نواحي الدولة ؛ وفشا الاستبداد المقوض لاركان العمران ، ولم يعد في الاستطاعة استمرار الوحدة السياسية ، في جميع اجزاء الخلافة الاسلامية ؛ كما كانت في عصر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من خلفاء بني امية واول ما حدث من تفكك عرى الوحدة الاسلامية ان فر عبد الرحمن الداخل من وجه المسلمين ، واسس بالاندلس دولة اسلامية صارت فيما بعد خلافة ، بل اجتمع في وقت واحد عدة خلفاء كل واحد منهم كان يلقب

بامير المؤمنين ، وكما تبددت الوحدة السياسية كذلك ظهرت المذاهب الخلافية في الفروع والاعتقادات ، وهي من اقوى عوامل الفرقة والانقسام .

وجاء عصر الدولة التركية فاكتسحوا آسيا الصغرى ، واستولوا على بيت المقدس ، فنزل ذلك على النصرانية نزول الصاعقة ، وزلزلت ممالك اوربا من اجل ذلك زلزالا شديداً ؛ واخذت تشتعل من اقصاها الى اقصاها بنار العصبية الدينية وقام امثال بطرس الناسك يلهبون الصدور حمية ، ويحثون امهم وملوكهم على انتزاع بيت المقدس وقبر المسيح من حوزة المسلمين ، حتى جن الغرب النصراني جنونه ، وتدفقت كتائبه وجحافله الجرارة لمحو الشرق الاسلامي ، والانتقام للصليب من الهلال .

ولم يخل الاندلس المتصل بقارة اوربا المسيحية من صراع بين الاسلام والنصرانية انتهى بخروج المسلمين من ديارهم واموالهم بعد ان اذاقوهم الوان العذاب ، وعلى اثر ذلك كله استحكم العداء بين الاسلام والنصرانية ، وما زالت جراثيم التعصب بينهما حية تفعل فعلها .

ومن البلايا التي حلت بالعالم الاسلامي فازالت قوته المعنوية ، وطعنته في الصميم طعنة دامية زحف جنكيز خان بكتائب من الجند يحمل معه البارود للتخريب والحرق والتدمير ؛ انساح هو وفرسانه وجيوشه الجرارة على العالم الاسلامي سيلا جارفا ، ونارا آكلة ، وهبت تلك العاصفة المغولية الهوجاء من شرقي آسيا فطبقت في سيرها العالم كله من الهند الى مصر مدمرة كل شيء في طريقها ، ومروا على بغداد مدينة الحضارة ومركز الخلافة ، فأعملوا فيها معاول التدمير والتخريب وازالوا ما فيها من السدود الكبرى التي كانت من اعظم الاثار التي خلفتها الحضارة الاسلامية .

هذا الى ما تناولته ايديهم من التراث العلمي في المكاتب الاسلامية حتى اضاعوا على الاسلام ثروة علمية طائلة لا يمكن تعويضها مدى الازمان .

تبين مما سبق ان العمارة الاسلامية نشطت نشاطاً كبيراً بانتشار الاسلام . ونشأت بلاد وعواصم جديدة . وانه كان لعظمة مباني الاسلام في القرن الثاني من

الهجرة مالم يكن لأي فن من الفنون التي سبقته :

ولو اننا امعنا النظر في بطون التاريخ لمعرفة ؟ كيف اهتدى الانسان الى بناء المدن ، لتبين لنا ؟ ان الانسان تعاوني بطبعه اي انه جبل على العيش جماعات فأخذ يتنقل في اقامته بين المغاور والكهوف والبحيرات ليكون على مقربة من الماء وليتيسر له صيد بعض الحيوانات المائية . ثم اخذ يعيش بين امثاله كعائلات فكان صائداً وكانت حالته شبيهة بحالة الذين كانوا يعيشون في العصر الحجري فيما كان يقاسيه من الالم وما تتعرض له حياته من الاخطار . وبعدئذ ارتقى حتى اخذ يعيش بين عشيرته على هيئة قبائل كل قبيلة منها تتكون من جملة عائلات . وهكذا اتسعت دائرة اختلاطه وتعاونه مع بني جنسه بالتدريج فأخذت تقوم هذه القبائل بالرعي . وكانت هذه الهيئة تقتضي عدم الاستقرار في بقعة واحدة ، وازدادت حالته تقدماً عندما ابتدأ يربي الحيوانات الاليفة . ثم عندما اشتغل بالزراعة التي جعلته يرتبط برباطه ولا يغادرها .

ويمكن بعرض حالة الانسان في كل هذه المراحل وبطريق الاستنباط معرفة الموانع التي لم تساعد الانسان على انشاء المدن . والفرص التي ساعدته على تشييدها.

ان العامل الاساسي — كما قلنا — في تكوين المدن هو الاستقرار والاقامة المستمرة في بقعة واحدة معينة . وداعي الاستقرار بالطبع ما للانسان في هذه المنطقة من المصالح .

فالعصر الحجري وعصر الصيد يكاد يكون كل منهما شبيهاً بالاخر وذلك لان عمل الانسان كان فيهما واحداً . وهو الحصول على الحيوانات على مختلف انواعها ليستخدمها كغذاء له . غير انه في العصر الاول كان يأكلها نيئة . وتارة كان يتغذى بالحشائش فكان في الحقيقة يعيش عيشة حوانية بينما في العصر الثاني كان يتناول اللحم بعد طهيه اذ كان قد اكتشف النار واحاط علماً بمعرفتها وبمنافعها . ولذلك اضطر للتنقل وراء فريسته من مكان لآخر . فلم يكن له مسكن او مكان معين يقضي فيه وقت راحته . وكان ينام حيثما وكيفما اتفق ، ولذلك لم تكن حالته

وظروفه تبعث على الالتجاء لمأوى خاص به . وكان محترفوا هذه المهنة جماعات قليلة تاوي الى الغابات . كغابات الكنغو والامازون .

وترقى الان بعد ذلك فاحترف الرعى . وحياة الرعى معناها ان يعيش الناس على القطعان من اي نوع من الحيوان الذي يصلح للرعى . والعنصر الاساسي فيها وجود القطعان وحاجاتها في الاماكن ذات الحشائش والاعشاب . وهذه الحياة كانت تجعل الانسان مضطراً لهجر الارض بعد ان تستنفد القطعان نبتها . وكان ينتقل بماشيته ايا كان نوعها بقراً او غنما او خيلا الى حيث المرعى الصالح والنبات الكافي لتغذيتها فترة من الزمن . فكان في الحقيقة يستقر فترة وجيزة غير انه لم تكن هناك علاقة اورابطة بينه وبين محل اقامته الوقتى غير الحاجة الى غذاء قطعانه ، حتى اذا ما انتهى زالت علاقته به ، اضف الى ذلك ان طبيعة معيشة الرعى والصبر تتطلب الوحدة والعزلة . وامثال هذه الفئة نجدهم منتشرين بكثرة في بلادنا السورية وفي بلاد فارس وفي افريقيا وآسيا في مناطق السفانا حيث يرعون الابقار ، وفي الصحراء حيث يرعون الماعز والابل كصحراء لوبيا وطورسينا وفي مناطق الاستبس حيث يرعون الخيل كما هو مشاهد في منطقة بحر قزوين والجزر وبلاد فارس وسوريا ايضاً .

وبعد ذلك ابتدأ الانسان يستفيد من الارض منذ ان اهتدي الى زراعة الحبوب . غير ان هذه الزراعة لم تكن في بدأ الامر تتأثر بضروب التحسين المشاهدة الان . وهكذا اخذ يصعد على سلم الارتقاء درجة فدرجة حتى تعلم فن الزراعة بشكل احسن فأدخل على الارض بعضاً من التحسينات واستغلها استغلالا فاهتم بتربية المواشي والدواجن . وعندئذ اصبح من الممكن بناء المساكن اذ تقضي طبيعة عمله وهو مباشرة الارض بالبقاء على مقربة منها . فنشات المساكن الزراعية وسرعان ما نشأت بينه وبين قطعة الارض التي يعيش فيها علاقة متينة تلك هي الوطنية — واصبح من العسير عليه ان يفارق ارضه ويهجرها الى غيرها فهذه الحياة لاتحتم بناء مدينة وربما لا تتطلب قرية ، ولكن نشأت مع الزمان المدن الحديثة . والقرى الكثيرة ، ويرجع الفضل في انشاءها وتكوينها الى اشتغال الانسان بالتجارة التي تعتبر وليدة الانتاج الكبير .

كان الانسان ينتج بقدر حاجته اي ما يكفي استهلاكه الخاص غير انه بحكم اختلاطه وجد ان حاجاته تتزايد وشعر بانه في حاجة لما ينتجه غيره ، فكان يستبدل ما زاد عن حاجته بما هو في حاجة اليه . فعم الاستبدال شيئاً فشيئاً حتى وصل الى ارقى درجاته وهو الاثمان . واصبح الانسان في الوقت الحاضر ينتج لاجل السوق إذ يعرض منتجاته فيها لأجل بيعها .

ولما اهتدي الى هذه الفكرة أخذت تقام الاسواق في اماكن فسيحة كان يجتمع فيها البائعون والمشترون . وكانت تقام في يوم خاص من ايام الاسبوع ، وبعد ان كانت هذه السوق وقتية اصبحت دائمة . وجعلت لعرض السلع التي يحتاج اليها سكان الاقليم . وبدلا من ان يجلس المشترون والبائعون على الارض خصصت لهم المقاعد ، وتكوّن من المبادلين فئة خاصة لاجراء الصفقات وهم يقومون بعملية البيع والشراء . ونشأت طبقة السماسرة . ولما كانت هذه الفئة تحتاج الى الاقامة بجوار هذه الاسواق اخذت تشيد لها المنازل والبيوت البسيطة . وكلما اغتنت طبقة التجار والسماسرة اتسعت دائرة اعمالهم وزاد الطلب على المساكن ذات الميزات الخاصة التي تتفق وحالتهم ، وتكوّن الضياع والقرى ثم المدن . وهكذا انشأ التجار المدن وهم لا يدرون . وهذا ما يدعونا الى القول ان الانسان شعر بانه قام بهذا العمل دون تفكير ، وان تكوين المدن جاء طبيعياً ووليد الحاجة .

ولما كانت مهنة هذه الفئة تدر ارباحاً طائلة فكانوا كلما زاد ربحهم يتطلبون المسرات فنشأت الملاهي وتكونت دور التعليم وعمت وسائل الترف . فاقيمت المساجد العظيمة والكتدرائيات الفخمة . والكنائس الكبيرة وليس ادل على ذلك من مدن اليونان فكل مدينة بها تقريباً ثلاث دور مهمة ، وهي سراي البلدية وتختص بالشؤون الادارية والصحية الخ ... وكنيسة كبيرة او كتدرائية ودار للالعاب الاولمبية وقد يكون بها دار للتعليم : وبذلك اصبحت المدن المركز الاقتصادي والتجاري الصناعي والثقافي ، ثم تكونت منها العواصم التي اصبحت في عصرنا الحاضر مركزاً للحكم .

وصفوة القول انه لما جاء الاسلام وانتشر لواءه تفنن الفنانون ببناء المدن والعواصم وعنوا بتشييد المساجد على الطراز الذي تقدم ذكره .

مقدمة الأستاذ

للاسلام من مبدئه حكومة عامة قام على عرش سلطانها صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .

وحكومة مقيدة بتعاليم الدين قد هبط بها الوحي عن الله ليكون تدبير الشؤون الكونية في امور الدنيا والدين صادراً عن كتاب منزل « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » .

واذا كانت الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فالخليفة النائب هو حاكم المسلمين العام تأخى الدين مع السياسة وجمع الاسلام بين السلطتين . ذلك لان طبيعة الاجتماع يلزمها التنازع والخصام لتباين الاغراض والاهواء — ولما كان السلام بين الامم يتطلب اوضاعاً سماوية للاهتداء بها في الحياتين والتحاكم امامها طلباً للفصل في الخصومات جعل الله في كل امة وازعاً منها عليها ، وارسل محمدا النبي العربي صلى الله عليه وسلم في اوائل القرن السابع للميلاد بالهدى لدين الحق ليظهره على الدين كله ونسج على تعاليمه الصحابة والتابعون ، فانعقد اجماعهم بعد المعصوم على وجوب نصيب امام عدل مستجمع لشروط الامامة ليكون في الخلافة ما يحفظ عهد الرسالة من القيام على حراسة الدين وسياسة الدنيا « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » .

* * *

والامامة من الاحكام العمليه دون الاعتقادية ، وهي عند اهل السنة وعامة المعتزلة من فروض الكفاية ، يتوجه التكليف بها الى المسلمين عامة من غير ان يقصد الشارع طائفة بعينها ، فاذا تقاعد عن القيام بهذا الفرض كان الاثم واقعاً على اهل الاختيار دون سواهم ؛ وهم المعروفون بالعدالة والعلم والنظر الصحيح . ومن في معناهم من اصحاب الرياسات والولايات ، يدل على ذلك اجماع الصحابة على اختيار ابي بكر الصديق رضي الله عنه للخلافة قياسا على امامته في الصلاة ، حتى

شغلهم اختيار الخليفة عن دفن المعصوم عليه الصلاة والسلام قائلين « رضيه رسول الله لأمر ديننا افلا نرضاه لدنيانا » .

ولما انتقل صاحب الشريعة الى لقاء ربه استعظم المسلمون موته ؛ فخطبهم الامام ابو بكر قائلا « يا أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت . لابد لهذا الامر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم »

* * *

على ان وجوب نصب الامام يؤيده من جهة اخرى نظام الاجتماع . وهو لا يقوم مع هذا الصراع الا بسلطة قادرة مفكرة خبيرة بتصريف الامور . وتدبير شؤون الدولة الاسلامية . والقيام بعزم وحزم على ارادة سياستها الاهلية والاقتصادية والمدنية كاقامة الحدود على ذوى الجرائم . والضرب على ايدي اهل البدعة في الاسلام ، وتوزيع المناصب الدينية ، التي لاتنعقد صحيحة الا اذا استمد القائمون بها الاجازة من الخليفة ، كالفتيا والامامة والقضاء وغير ذلك من الامور الحيوية العامة .

فالخليفة مصدر للسلطة الدينية والدنيوية ، وبيده زمام الوحدة الاسلامية ، ومن هذه الوحدة يرتبط المسلمون بعهد الاسلام ، فتجتمع قلوبهم ، وتتحد كلمتهم ، وعلى سلطان الجامعة الاسلامية يقوم سلطان الاسلام .

ولا ريب في ان الرياسة حتى في الجماعات القليلة كالقبائل والعشائر ضرورية لحرمة نظامهم لانها رادع لاطماعهم . ودافع لشرور طبائعهم ، وخالف جماعة من المعتزلة وهم « الجاحظ والخياط والكعبي وغيرهم » فقالوا ان نصب الامام واجب على المكلفين من ناحية العقل لا من ناحية السمع . فليس عند العقل من شبهة في ان رفع الضرر بالامامة واجب ، والا تحكم القوي في الضعيف . وتغلب الغني على الفقير . وضاعت حقوق ، وتعطلت مصالح ، والعقل يدرك مستقلا قبح الاعتداء والظلم كما يدرك حسن العدل وصيانة الاموال والارواح .

ولئن اختلفت وجهة النظر بين اهل السنة وبعض المعتزله في مصدر الوجوب وهل هو من ناحية السمع او من ناحية العقل . فقد تبين مما قدمنا ان كلمتهم قد

اتفقت على وجوب نصب الامام ، لان الشرائع والاوضاع السماوية التي يقوم عليها نظام العمران : ويعتصم بها الاجتماع من خطر الفوضى لا بدلها من وازع يقوم على تنفيذها وحمايتها ، اما هي وحدها فهي احكام لا ارادة لها ولا اختيار حتى تكون حاكمة بذاتها من غير حاكم ، ومن نظر في تعاليم الشارع تبين ان في الخلافة حكومة اسلامية عامة مقيدة بالكتاب والسنة وما لم يرد فيه نص فهو اجتهاد وشورى بين المسلمين .

* * *

وعهد الانسان بالخلافة قديم يرجع الى مبدأ الخليقة ، فقد اقتضت حكمة الله ان يقيم عماد الوجود . ويحفظ نظام التوازن في العالم من خطر الفوضى بجعل آدم عليه السلام خليفة له في الارض يخلفه في الحكم بين خلقه فقال تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الارض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال اني اعلم مالا تعلمون،وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال . انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض . واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس . الاية.

* *

هذه المحاورة تمثيل لما جاش في صدور الملأ الاعلى عند خلق الانسان ، وما الهموه من الاجابات الالهية ، وفيه تصريح بأن الانسان مغروز في جبلته من انواع العلوم والمعاني والوسائل مالا تصل الملائكة اليه،ومن كان كذلك صلح ان يكون خليفة الله دونهم في الارض فاطمأنت قلوبهم وسجدوا لادم سجود اجلال لاسجود عبادة .

وكذلك جعل المثل الاعلى لجماعة المسلمين تحقيق معنى هذه الخلافة فقال تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » .

فهذا المثل الفردي والمثل الاجتماعي اسمى ما يتخيل من مثل اعلى في الارض،

واكرم ما يدفع الافراد والجماعات الى بلوغ ابعد الغايات . واقصى الكمالات ، من طريق الاخلاق النبيلة ، والاغراض الشريفة من اي مثل غيره .

فان الفرد متى علم انه خليفة الله في ارضه اي نائب عنه فيها اضطر ان يتخلق بأخلاق موكله من العلم والنزاهة والعدل والرحمة والمساواة بين الناس والسعي لاصلاح شؤونهم . والبر بمؤمنهم وكافرهم . بصرف النظر عن اجناسهم والوانهم ، وعدم التقصير في تربيتهم وتكميلهم بعيداً عن كل الصفات الحيوانية من القسوة والبطش والغشمرة والعصبية والصلف والجهل والجبرية ، وهي مهمة عالمية محضة كما ترى ، فان الله رب العالمين لارب قوم دون آخرين ، ولا مناص لخليفته من ان يتحرى طريقته في التنزه عن الاغراض والترفع عن السفاسف ، واستهداف شرائف الامور وكرائم الصفات ، وتوخي اقرب السبل واصلح الاساليب في جميع الاعمال ؟

ثم ان هذه الخلافة يمتد سلطانها على جميع الكائنات الحية والجمادات . فان لكل كمالا لابد من ايصاله اليه .

واذا ذكر الانسان انه من سمو الفطرة وشرف التكوين بحيث لا تسجد له الملائكة فأي وازع اقوى من هذا تزعه من مرافقة الرزائل ، ومقاربة الخسائس ؟

واي دافع اشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة ، وبلوغ النهايات القصوى ؟

ثم هذا المثل الاعلى حق في ذاته من ناحية فلسفية . فان الكائن الذي يحمل بين جنبيه قلبا مشحونا باكرم العواطف ، واكمل الغرائز ، وفي رأسه عقلا مليئاً بأن يتعرف هذا الكون ، ويستبطن جميع اسراره ، ويسخر ما يرى تسخيره من قواه العظيمة ، وليس يوجد في الوقت نفسه كائن اعلى منه كعبا في الطبيعة ، يعتبر بحق وبدون تردد ، ابنع ثمرة للقدرة الخالقة ، وابدع صورة للمدبر الاعظم ولو في هذه الكرة المحدودة .

ولو اضفت الى هذا ما منحه من السلطان البعيد المدى على الطبيعة ، والقوة على التصرف المطلق في مواردها ، وما وهبه من وسائل التدبير والتربية لكائناتها ، تحققت انه خلق ليتولى حكوماتها ، ويضطلع بسياستها ؛ ويبلغ بها اقصى ما يصل

اليه كمالها ، فكيف بعد هذا كله لايدعى عن جدارة واستحقاق بخليفة الله في ارضه ، ونائبه على خليقته فيها :

فاذا عني الانسان بأحياء هذه الحقيقة في نفسه . وبثها في معناه ، فكيف لاترفع بطبعه عن الدنايا وتسمو به الى اعلى مكانات المجد الصحيح ، وهل يهون عليه بعدها ان يشاطر الحيوانات في غفلاتها ، صادفاً عن الغايات الشريفة والاغراض الكريمة :

كذلك الامة صاحبة الخلافة الالهية يجب ان تسن بسنة الله في تربية عباده ، والبر بهم ؛ والسعي في تكميلهم لاتعبيدهم ، والتيسير لهم لا التعسير عليهم ، وتحرى ادق نظم العدل ، واستخدام اضبط موازين الحق ، والتوجه للوجود على انه مظهر القدرة الالهية ، ومصدر الانوار العلوية ، لاعلى انه مسرح الميول البهيمية ، ومرتع الشهوات الجسدانية ، ومجال الصفات الوحشية .

كل هذه كما ترى اغراض عالمية لامحلية ، لم توصف بها امة قبل الاسلام ولا بعده الى هذا اليوم حيث لانزال نرى الناس افراداً وجماعات كل يعمل لنفسه ، غير مبال بما يفضي اليه عمله من تدهور الاخلاق ، وفساد النظم ، وتفاقم شهوات الفئام ، وتأخر الطبقات .

ولما كان هذا المثل الاسلامي الأعلى سواء أكان للافراد ام للجماعة يؤدي الى التي هي اقوم من طريق الحياة ، والى التي هي اكمل من نظم الاجتماع ، فقد ناط الله بهذه الامة مهمة خطيرة تعتبر وحدها مثلا اعلى لاعظم امة يطلب اليها ان تتخلق باخلاق الله ، ناحياً بها هي الاخرى منحى عالميا ، وهي ان تكون « شاهدة على الناس » في غلوهم وتقصيرهم ، وافراطهم وتفريطهم ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » .

هذا المثل الاعلى لايصح ان يكون لغير امة عالمية تتولى قيادة العالم كله ، لاجماعة محدودة منه ، فان حياة الجماعة المحدودة لاتقتضي ان يكون مثلها الأعلى خلافة الله في الارض ، ولا ان تكون في قيامها على صراط العدل المستقيم شاهدة على الناس كافة ، بل يهمها ان تكون الامم بعيدة عن طريق الكمال تتسرع عوامل

الفساد اليها ، فتتمكن هي من تدويخها وامتصاص حياتها ، بل هي تبث تلك العوامل بيديها متذرعة بذلك بكل ما اوتيت من حول وحيلة ، جاهدة في انماء جراثيمها لتصيب تلك الجماعات الغافلة بكوارث تقتضي تدخلها في شؤونها والقبض على مخنقها بحجة المجاورة او بحجة وقوفها عثرة في سبيل المدنية الانسانية ، فتزيد تلك الامم الواقعة في هذه الاحابيل فسادا على فسادها ، بل من الامم من فنيت على بكرة ابيها تحت نير آسريها من الامم الاستعمارية .

هذا هو الذي يتضح جليا لكل من يتتبع تاريخ الامم قديما وحديثا ويتعمق في دراسة اسباب تبسطها في الارض .

ولكن الامة التي تحليها شريعتها بمثل هذه الاصول الكريمة من قوله تعالى « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين »

وقوله جلت عظمته :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم » اي ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

وقوله جل جلاله : « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها » .

وقوله تبارك وتعالى : « تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »

ثم تحكي هذه الشريعة لها حال الامم التي اصابها الانحلال ، معلله ذلك بارتكابها اثم الفساد في الارض ، كقوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ، ويفسدون في الارض ، اولئك هم الخاسرون.

وقوله جل شأنه :

« واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد .

وقوله حقت كلمته :

« ان الله لا يصلح عمل المفسدين » الخ الخ . .

قلت ان الامة التي تحليها شريعتها بمثل هذه الاصول ، وتزعها عن الافساد

بمثل هذه المثلات ، انما تؤهلها لان تقوم بحق خلافة الله في العالم ، متخلقة بأخلاقه تعالى من السعي في اصلاح خليقته وتكميلها وايصالها الى ابعد ما تتخيل ان تصل اليه من مراتب الكمال الصحيح والوجود السليم .

وقد قام المسلمون بحق هذه الخلافة في عهد قوتهم فملأوا الارض علماً ونورا وعمرانا ، وخلصوا اهلها من الاوضار التي كانوا يرزحون تحتها ، ودفعوهم في طريق التكمل حتى شهد مؤرخوهم بأن المسلمين كانوا اساتيذهم ومعلميهم وموجدي عوامل كل نهضة دخلوا فيها من بعد . فهل حابى المسلمين مؤرخوا تلك الامم حتى المعاصرين منهم الى هذا الحد ، ورفعوهم الى مكانة لم تحصل عليها امة الى اليوم في الارض ؟ ؟

اليس هذا تحقيقاً ماديا محسوساً لمعنى الخلافة العالمية ومصداقا لقوله تعالى: « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

* * *

وانما اختص الله الانسان بالخلافة لانه جمع في تكوينه من العناصر ، واودع فيه من القوى والغرائز ما جعله صالحا لاستخدام جميع الكائنات من النبات والحيوان والجماد .

ولاريب في انه اذا تكمل ظهر على الملائكة بعزة التقديس وبراءة النفس المغلوبة بنازع الشهوات ، ومن كان له قوة الغلبة عليها فهو حقيق بعرش النبوة او الخلافة عن الله في الارض ، ولذلك قال بعض العلماء نشأ الانسان كما نشأ الحيوان ، غير ان الاول قد نهضت به القوى المفكرة . وانتهت به الى الاستواء على عرش الخلافة فكان بما نراه فيه من مظاهر الجلال ومكارم الاخلاق حقيقاً بالخلافة عنه في ارضه ليحفظ بشريعته العدل بين الناس . ونظام التعامل ؛ وما كان التعاطف مع هذا الصراع الا من طريق وازع الدين « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذوفضل على العالمين » .

* * *

ولقد تأخى الدين مع السياسة . وهي انواع ثلاث سماوية فارضية فمدنية —

والثالثة طبيعية غنية عن الحد يهتدي اليها الانسان بطبعه ، والثانيه عقلية قد يفتقر العقل في وضعها الى استمداد من الاولى . والى هذا النوع يرجع تحاكم الامم ، وبها يتكون بناء الوحدة القومية .

اما السياسه السماوية فيرجع عهدها الاخير الى ظهور الاسلام ، ولم يكن امتياز الخاصة عن العامة يومئذ الا الاختلافات المذهبية . فأدركتهم السياسة السماوية بشريعة الوفاق والعدل المطلق :

* * *

جاء الاسلام فشرح اصول المدنية للعالمين ، واحدث في ربوع الوثنية العنيفة عقيدة الايمان بواجب الوجود فأثارت تلك الدعوة روح العداء في نفوس القائمين على تعظيم الاحجار والتماثيل وما اختاروا لانفسهم من عبادة بغية الشركاء الذين لايملكون لانفسهم نفعاولا ضرا ، ولما ارتفع صوت الدعوة الالهية الى ما وراء بلاد العرب أثر تأثير النور في الظلمات ، واصلح العقول والنفوس ، وخضعت الوثنية طائعة لجلال المدنية الاسلامية التي لم تكن لتطلب في ضمن دعوتها ملكا ولاسلطاناً وانما هو رسول السلام يحي الارض بعد موتها . ويحرر النفوس من رق الوثنية ويخلص اهل الكتاب من سلطة الزعماء والرؤساء حتى اخذ صاحب الشريعة عهدا على نفسه لاهل الذمة بالامان على النفوس والاموال ، وقضى بالمساواة في التعامل فقال « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وعهد لاصحابه ان يقوموا من بعده بعهده ، ومن تصفح وصيته صلى الله عليه وسلم وما كتبه الخليفة الثاني رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري عامله بالكوفة . وطاهر بن الحسين الى ابنه عبد الله الذي كان واليا على الرقة ومصر ادرك كيف وضعت حكومة الاسلام اداب السياسة ، ورسمت قواعد المدنية ، وعصمت حقوق الجماعات واليك ماجاء في ضمن الوصية على الكتابين : قال : « وان احتمى راهب او سائح في جبل ، او واد ، اومغارة ، او عمران ، او سهل ، او رمل ، او بيعة ، فانا اكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم في نفسي واعواني وملتي واتباعي لانهم رعيتي واهل ذمتي . ولا يغير اسقف من اسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولاقسيس من صومعته ، ولايدخل

شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المؤمنين ، ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولايتقيد جزية ولا غرامة ، وانا احفظ ذمتهم اينما كانوا من بر وبحر في الشرق والمغرب والجنوب والشمال :

الى ان قال :

ويعاونون على مرمة بيعهم . ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبونهم عنهم ، ولا يخالفون هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا

* * *

هذه هي المدنية التي وضعتها حكومة الاسلام . وان كان المسلمون في بعض الشعوب قد بدلوها بمدنية حديثة ظنوها ضرورية لحالهم الحاضر فأحرجوا بها صدورهم وضاعفوا بها فقرهم . ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

حرم القرآن الكريم الحكم المطلق وانكر سلطان « الجبارين » في الارض وفرض الشورى على النبي وخلفائه فقال « وشاورهم في الامر » وامرهم شورى بينهم » وقرر المساواة في العدل بين جميع الناس وان قضى بينهم بتفاوت الدرجات

يحس من يقرأ القرآن احساسا «شوريا» ويتعلم فريضة الشورى بالايحاء والتلقين فضلا عما فيه من الامر الصريح بالمشاورة وسؤال اهل الذكر واجتناب الطغيان في السلطان والاستبداد بالحكومة . لانه يرى ان اول عمل من اعمال الخليفة الانسانية كان حقيقيا ان يسمى بلغة العصر الحاضر عملا « دستوريا » من جانب الخالق جل جلاله يقوم على الاقناع ولايقوم على الاكراه والاخضاع .

فالامر بالحكم « الدستوري » قديم في الحياة العربية آصل في الدولة الاسلامية ولكنه المبدأ الذي سبق الاطوار الشعبية بعدة قرون . فلم تتهيأ له الجماعات الانسانية الا بعد الدعوة المحمدية بألف سنة او تزيد . لان الامر بالشورى ينفذ نفاذه حين يوجد معه صاحب الحق الذي يطالب به من ينساه . ويرد اليه من يحيد عنه . وليس صاحب الحق هنا غير « الشعب » الذي يتعلم ذلك الحق ثم يشعر بالحاجة اليه . ثم يملك الوسيلة التي تخرجه من حيز المبداء الواجب الى حيز العمل النافذ ولم يكن تمام هذه الاطوار ميسوراً قبل اجيال تعقبها اجيال . واهوال تتلوها

اهوال . ويومئذ تصبح الشورى نظاماً يأتمر به الحاكمون والمحكومون ، ويوشك ان يجرى في الامم مجرى الحوادث الطبيعية التي تتقرر بالضرورة الغالبة قبل ان تتقرر بالاختيار والاستحسان ولما بلغت هذه الاطوار تمامها كانت الحكومة الشورية او الحكومة الدستورية نظاماً يتلقاه الشرق عن الغرب ولا يتلقاه مذهباً غريباً يحتاج الى اقناع ولا عقيدة جديدة تحتاج الى تبشير .

وكان للمسلمين ملك عظيم امتد يميناً وشمالا فبسط جناحيه على المشرق والمغرب فأظلتا اعظم ممالك العمران ما بين الطرف الغربي من اوربة وحدود الصين في الشرق الاقصى ، وما بين المحيط الجنوبي الى احشاء اوربة في الشمال .

وكان لهم في هذا الملك العظيم من الدول العزيزة والسلطان الكبير مافصلت اخباره في الاسفار الكثيرة من خزائن التاريخ ، وكلما سقطت دولة من دولهم بخروج امرائها وسلاطينها عن هداية الشرع العدل ، وسنن الله المقررة في العمران خلفتها دولة اخرى اعز منها شأناً واقوى سلطانا .

كانوا امة واحدة تدير امورها دولة واحدة ، ثم تعددت فيها الدول وهي امة واحدة ، لانها كانت لاتزال تحيا بروح الاسلام الذي ساوى بين الشعوب والاقوام وجعل التفاضل بين الناس بالعلم والعمل ، دون القومية والنسب ، حتى كان مثل «البخارى وأبي حنيفة» من سلائل الفرس ممدودين من اكبر أئمة السنة والفقه ومثل «نور الدين الشهيد من سلائل الترك ، و«صلاح الدين الايوبي» من سلائل الكرد مفضلين على كثير من خلفاء قريش في الحكم .

ومن طرائف شهادة التاريخ على هذا ما ذكره ابن جبير الاندلسي في رحلته واصفا خطبة الجمعة في الحرم المكي الشريف سنة (٥٧٩) قال : ثم دعا الخطيب للخليفة العباسي ابى العباس احمد الناصر ، ثم لامير مكة مكثر بن عيسى ، ثم لصلاح الدين ابا المظفر يوسف بن ايوب ، وولى عهده اخيه ابي بكر ، وعندذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الالسنة بالتأمين عليه من كل مكان .

* * *

وقد وصف القرآن الامة الاسلامية في صدر الاسلام بأنها خير امة اخرجت

للناس لها وحدة ظهرت في اتجاه افرادها الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والى الايمان بالله ، فما الذي ادى الى ذلك ؟ ؟

لاشك ان الذي ادى الى ذلك انما هو التربية التي نشأت عن التعاليم الاسلامية فوحدت عقل الامة وقلبها ، يرشد الى ذلك قوله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله » .

واذا قيل لنا اي شيء يجعل المؤمنين بعضهم اولياء بعض .

واي نظام يغرس هذا الخلق في نفوسهم ويتعهده حتى ينمو ويثمر .

واي وسيلة تجعل المؤمنين يطيعون الله فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ؟ .

نقول ان ذلك لايكون الا اذا وجدت تربية عامة تقام على اسس متينة . وتشرف عليها قوة تحرص على صيانة الاسلام ورفع شأنه ، وهذه القوة هي التي تضمن نجاح التربية في القيام بتلك المهمة : مهمة توحيد العقل والقلب في العالم الاسلامي بأسره .

ففي البلاد الاسلامية اليوم اتجاه الى الحياة وتطلع الى المجد ، ولكن تعوزهم الوسائل الناجعة ، وانجع وسيلة تنيلهم تلك المقاصد هي تأسيس تربية اسلامية مشتركة ، لان التعارف لايكون الا بعد تأسيس وتمكين ، واسس التعارف لاتثبت الا في بيئة متماثلة الجوانب ولا يكون ذلك الا متى وجدت التربية الاسلامية . وذلك موقوف على وجود رابطة اسلامية تهتم بأمر هذه التربية وتنظيم شأنها .

وان من يتدبر التاريخ يعلم ان الامة العربية في ادوارها حتى اليوم ما كانت ترى لها التفضيل على غيرها الا من جهة ان الدين الاسلامي انتشر الى الاقطار من جزيرة العرب ، وان الله هدى الامم التي اعتنقت الاسلام ، وان الحضارة الاسلامية التي امتد نورها الى الافاق في القرون الوسطى هي من نهضتهم .

ومن ذلك نستنتج ان التاريخ الاسلامي وآدابه ومزاياه هي ما تركن اليه القومية العربية في هذا العصر ، اذ ليس لها مجد ولا عظمة في التاريخ اكثر منها

علوا ورفعة ، هذا اذا ارادت ان تجنح الى التاريخ القديم شأن الامم الاخرى .

اما لغتهم فقد علمت لغة الدين الرسمية ؛ فالقومية العربية لا تشابه القوميات الاخرى في موقفها من هذه الجهة كما ترى ان الاسلام بني اساسه الجديد على قومية العرب وركن اليها بالضرورة في الوقت الذي لايجد في غيرها مرتماً خصبا ولا ظلا ظليلا ومن هذا نفهم مغزى الحديث الشريف وهو قوله عليه الصلاة والسلام « يبقى الاسلام ما بقي العرب » .

يقول الفيلسوف « توماس وليل » لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور . واحيا به من العرب امة هامدة . وارضاً جامدة. وهل كانت الا نثة من جوالة الاعراب خاملة ففيره تجوب الفلاء منذ بدء العالم لايسمع لها صوت ولا تحس لها حركة ، فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه . ورسالة من قبله . فاذا الخمول قد استحال شهرة . والغموض نباهة . والضعة رفعة . والضعف قوة . والشرارة حريقاً وسع نوره الانحاء . وعم ضوءه الارجاء . وعقد شعاعه الشمال بالجنوب . والمشرق بالمغرب .

وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى اصبح لدولة العرب رجل في الهند . ورجل في الاندلس . واشرقت دولة الاسلام حقباً عديدة . ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس ، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

ويقول مؤرخوا تاريخ هذه الدولة : ان وثبة العرب من قفار مكة الى الغزو ، واقدامهم في قلة من العدد ونقص في الاهبة على اقتحام دولتين من اعظم دول التاريخ مما يثير الدهشة ويدعو الى التأمل . ولسنا نبالغ اذا قلنا ان سحق العرب بعد فترة يسيرة من ظهور الاسلام للدولة الفارسية ذات المدنية العريقة والجيوش الجرارة ، والاهبة العسكرية الوافرة . واجتياحهم لمعظم اقطار الدولة الرومانية على ما كانت عليه من منعة في القوى ، وضخامة في الموارد ، وانشاءهم في مدى نصف قرن فقط على انقاض ما هدموا من صروح الدولتين « الفارسية » و« الرومانية » دولة شامخة تناهض اعظم دول التاريخ — لا نبالغ اذا قلنا ان ذلك من

لمعضلات التاريخية التي لا يكاد يكفي لشرحها ما نعرف من قوانين التاريخ وعلل العمران .

ويذهب هؤلاء المؤرخون الى ان وثبة العرب هذه وما اقترن بها من فتوحات باذخة ، وانتصارات باهرة ترجع الى عاملين اساسيين : احدهما مادي ويتعلق بظروف الامم التي قضت الحوادث ان تكون فرائس العرب . والآخر معنوي ويتعلق بتأثير الاسلام في نفوس القبائل العربية التي خرجت من الصحراء الى الغزو باحثة عن السلطان والثروة والملك .

والحق كلما فكر الانسان في شأن الدولة الاسلامية أيام نشأتها تجلت له ظواهر عدة في كل ظاهرة منها عبرة .

قام باعباء هذه الدولة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من صحابته احتمل كل منهم نصيباً من شؤونها وتعاونوا على بث دعوتهم وتثبيت دعائم دولتهم وبسط سلطانهم ؛ ولم يكن انتصار قادتهم في ميادين الجهاد أروع من انتصار ساستهم وولاة امورهم في ادارة شؤون البلاد .

هولاء الرجال ابو بكر وعمر وابو عبيدة وسعد ابن ابي وقاص وعمرو ابن العاص ومعاوية وغيرهم من الصحابة الذين تولوا شؤون الدولة على اول عهدها ما تخرجوا من جامعات ، ولا درسوا نظم الادارة ولا فنون الحكم . ولكنهم نجحوا في اعمالهم نجاحاً بث دعائم دولتهم وبث فيما فتحوه من البلدان روحا جديدة ورأت الشعوب المختلفة التي لبثت السنين الطوال في الحكم من هؤلاء الرجال وسياستهم وعدالتهم ما لم يروه من ساسة دولهم العريقة في النظم والحضارة فاحبوهم وكانوا عوناً لهم ، والناس اسراء من عدل فيهم واحسن اليهم .

هذا النجاح له اسباب عديدة واظهرها فيما اعتقد ان رجال الاعمال في ذلك العهد اختيروا احسن اختيار ، وكان الرأي في اختيارهم مصلحة الامة وحدها ، فما اختير ابو بكر وعمر للخلافة مجاملة او محاباة ، ولا اختار واحد منهما والياً او عاملا ليجلب له نفعاً ، وإنما كان شعارهم في الاختيار ان مصلحة الامة فوق مصالح الافراد .

وبهذا الاخلاص في الاختيار قيض الله لهذه الدولة في اول عهدها رجالا شعروا بالواجب واخلصوا في آدائه . وكان لهم من سلامة فطرتهم ، وقوة عزيمتهم وصدق اخلاصهم ما كفل نجاحهم واغناهم عن مختلف الدراسات .

ويرجع الفضل في هذا الى رسول الله فهو الذي سن بقوله وعمله اقوم سنن لحسن اختيار الرجال للاعمال . قال ابو موسى الاشعري : دخلت انا ورجلان من بني عمي على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال احد الرجلين يارسول الله آمرنا على بعض ما ولاك الله . وقال الآخر مثل ذلك . فقال الرسول : « انا والله لا نولي على هذا العمل احداً سأله . ولا احداً حرص عليه » فاعتذر ابو موسى وقال لم اعلم ما جاءا له .

وفي الحديث « من قلد رجلا على جماعة وهو يجد في تلك الجماعة من هو ارضي منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين » ذلك لانه حرم الجماعة من مزايا اكفائهم وربما ادى عمله الى اماتة الكفايات .

وفي الطبري ان اكثر عمال الرسول كانوا من بني امية وحوله الكثيرون من رجالات بني هاشم . ذلك لانه انما طلب للاعمال اهل الغناء ولم يقصد الى نفع قريب

وعلى هذا السنن القويم في الاختيار سار ابو بكر وعمر وولاتهما في الامصار وكان لعمر ابن الخطاب سياسة موفقة . وفراسة صادقة .. خطب الناس اول عهده بالخلافة فما قال : اني خلفت فيكم صاحبي فما كان بحضرتنا باشرناه بانفسنا . وما غاب عنا وليناه اهل القوة والامانة .

وقال يوماً لاصحابه وهو يستشيرهم في اختيار عامل : « اريد رجلا اذا كان كأنه اميرهم . واذا كان اميرهم كان كأنه واحد منهم » وبلغه ان عمير بن سعيد هو القائل « لايزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولاضربا بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، واخذا بالعدل »

وعزل عتبة ابن غزوان عامله على البحرين . وقال للعلاء بن الحضرمي الذي ولاه بدله : اني لم اعزله الا يكون عفيفاً صليباً شديد البأس . لكن ظننت انك اغنى عن المسلمين في تلك الناحية .

وعزل شرحبيل بن حسنة عن بعض ولاية الشام وولى بدله معاوية وقال انى لم اعزله لشيء هجنه . بل اردت رجلا اقوى من رجل .

وكتب الى سعد بن ابي وقاص : شاور طلحة الاسدي وعمر بن معدى يكرب في امر حربك ولا تولهما من الامر شيئاً . فان كل صانع اعلم بصنعته .

ومع هذه الامانة والنزاهة والبعد عن الاغراض في اختيار العمال كانت اليقظة شديدة في مراقبتهم والرئيس يصغي الى اية شكوى في احدهم ، ويوجه المشكو بمن شكاه . وينصف المظلوم من ظالمه .

وكان عمر على بعد ما بينه وبين عماله يشعر العامل منهم كأنه معه في كل صباح ومساء .

فالسبيل القويم لانجاز اعمال الدولة وتحقيق ما يرجى من الاصلاح ان تراعى في اختيار العمال مصلحة الامة لا الافراد . وان توسد الاعمال الى اهلها قوة وامانة وان يشعر العمال باليقظة في مراقبتهم . والعدل في معاملتهم . ذلك اجدى من الاكثار من النظم والتعليمات واضمن لسلامة الدولة ودوام الملك وتوطيد دعائم السلطان .

الخلاف بين خلفاء الإسلام

كان لقريش في نفوس العرب عامة مقام معروف لايطعن فيه طاعن ، ولا يتطاول اليه احد ، وكان لبني عبد مناف خاصة مكانة علية في سائر قريش تقربها عامة بطونها ، ويعترف بها اقصاها وادناها لانهم كانوا ذوى عدد وافر وشرف منيع ، وكان فخذا عبد مناف المعترف لهما بالرياسة من بني ابيهم ومن قريش جميعاً هاشم بن عبد مناف واليهم يرجع علي فهو علي ابن ابي طالب ابن عبد المطلب ابن هاشم .

وبني امية ابن عبد ابن ابي سفيان ابن حرب ابن امية ، فكلا الفحلين عريق في النسب ، كريم الاباء والاجداد ، غير انه لما كان بنو هاشم وهم رهط النبي صلى الله عليه وسلم بعيدين لهذا السر المحجوب عن شرور الجاهلية الاولى ، وكان بنو امية ذوى نعرة شديدة وعدد وافر . كانت العزة لهم . فكانت الرياسه بعد امية من اعلان حرب او عقد صلح او غيرهما لابنه حرب ابن اميه وكان رئيسهم في حرب الفجار ثم لحفيده ابى سفيان ابن حرب وكان على ايامه اعز قرشي غير مدافع

قال العتبى : اهدى ملك اليمن سبع جزائر الى مكة وامر ان ينحرها اعز قرشي بها . وابو سفيان عروس من ليلته بهندا ابنة عتبة وكانت حصيفة العقل بعيدة النظر فقالت له ياهذا لاتشغلك النساء عن هذه الا كرومة التي لعلك ان تسبق اليها . فقال لها ياهذه ذرى زوجك وما اختار لنفسه فو الله لا نحرها احد الا نحرته قال فكانت في عقلها حتى خرج اليها بعد السابع فنحرها وذلك مثل من امثلة العزة القعساء لأبي سفيان والد معاوية .

* * *

ولما جاء الاسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم اسلم كثير منهم وفي مقدمتهم علي ابن ابى طالب على حداثته ونكل عنه معظم بني امية لاسيما البيت السفياني كبراً وحسداً فتفرق الفخذان وزاد الامر تبايناً وتفارقاً .

ولما هاجر رسول الله ببني هاشم الى المدينة وبقي بنو امية على اشراكهم

بمكة تحت راية ابي سفيان الذي كان رئيسهم في وقعة الاحزاب وما بعدها ولم يزل الامر على ذلك حتى كان فتح مكة واسلم ابو سفيان فهو آمن ثم منّ على سائر من اسلم معه من قريش بالاطلاق من الاسر وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ، حينئذ اراد بنو امية بهذا الاسلام وتلك المنة ان يستعيدوا شوكتهم . ولكن انى لهم ، وقد عكفوا على شركهم وعدائهم حتى اسلموا عنوة ، برتبة المهاجرين الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة والانصار الذين قابلوه بها فآووه ونصروه . وكيف يغنى عنهم ما كان من تقدمهم في الجاهلية كائناً ما كان في هذا التأخر الذي اقعدهم وافقدهم سطوتهم طول حياة النبي . ولما مات عليه السلام وآلت الخلافة لأبي بكر احست مشيختهم بهذا التأخير فشكوا ذلك اليه وما كان من ترك شوارهم فاعتذر لهم وقال : ادركوا اخوانكم بالجهاد وانفذهم لحرب الردة فأحسنوا الغناء عن الاسلام وقدموا الاعراب عن الحيف والميل . ثم جاء عمر فرمى بهم الروم بالشام ونفرت سائر قريش اليها فأقاموا بها وابلوا بلاء حسناً فاستعمل عمر يزيد ابن ابي سفيان عليها ولم يزل واليها حتى هلك في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ فولى مكانه اخاه معاوية . وجاء عثمان فأقره عليها . وبذلك اتصلت رياستهم في الاسلام نوعاً ما برياستهم قبل الفتح ، وتولد في نفس معاوية التطلع الى الخلافة والطمع فيها فأخذ يمهد لها بيني ابيه في الشام حتى تحين الفرص المناسبة للمطالبة بها غير ناس قول ابيه له وقد خرج واليا من قبل عمر على الشام « يا بني ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصرنا اتباعاً وصاروا قادة وقد قلدوك جسيما من امرهم احببت ذلك ام كرهته فانك تجري الى امد لم تبلغه ولو قد بلغته لتنفست فيه » .

هذه اسباب تطلع معاوية الى الخلافة من قديم واوجه طمعه فيها وسيأتي كيف انه استخدم دهاءه السياسي في كل فرصة حتى وصل اليها . اما وجه استحقاق علي لها وهي بقية هذا التمهيد فاني موجزها الان وان كانت اشهر من أن تذكر ذلك ان عليا المعروف كيف يضرب بنسبه الى أورقة عالية وشرف منيع وقد وصل ذلك النسب في الاسلام بأورقة اعلى وشرف أمنع فاستأثر بامور لم يشاركه فيها مشارك

ولم ينازعه فيها منازع، منها سبقه الى الاسلام بدعوة اختصه رسول الله بها من بين الصبيان وما كان يدعو غير المكلفين .

ومنها منزلته العظمى في الجهاد وقدمه الثابتة في وقائعه الاولى ففي وقعة بدر كان عدد القتلى نيفاً وستين قتل منهم وحده نيفاً وعشرين من صناديد قريش الابطال وفي وقعة حنين انهزم كل المؤمنين عند رسول الله فلم يبق حوله الاسبعة ستة منهم حول بغلته خوفاً عليه وعلي وحده يضرب بالسيف حتى انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .

ومنها قوله لرسول الله وقد طلب منه المبيت على فراشه ليلة الهجره سمعاً وطاعة وطيبة نفس بالفداء لك يارسول الله ثم بيته بقلب خاشع مطمئن .

ومنها تزويج النبي من ابنته فاطمة الزهراء التي مات عنها وحدها .

ومنها ما ورد فيه من الايات الكريمة والاحاديث الشريفة الدالة على علو منزلته عند رسول الله فمن الآيات سورة الدهر باكملها تقريبا لانه الذي أطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا، ومن الاحاديث قوله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه وقوله وقد خرج الى غزوة فاستخلفه على المدينة فرغب في الخروج للجهاد ، فقال له اما يرضيك ان تكون بمنزلة هرون من موسى الى غير ذلك من اشياء كثيرة لاتدع شكا في ان علياً كان اولى بالخلافة من معاوية ولذلك بايعه عليها جملة الصحابة من المهاجرين والانصار واعتبره المؤرخون الخليفة الرابع وانزلوا معاوية خارجا عليه فلم يقروا له بها الا بعد موت علي وتنازل ابنه الحسن له عنها .

هذا وان مآثره لقد جلت حتى جعلت المأمون وهو المشهور له بالفلسفة وغور الفكر يدين الله على ان عليا خير خلفاء الله بعد رسوله وان اولى الناس بالخلافة لهو ونسله من بعده ولقد جمع للمناقشة في هذا الرأى اربعين فقيهاً من علماء زمانه واقنعهم به في حديث طويل ذكره كثير من المؤرخين ثم عمل على نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين بأن عهد بها من بعده الى الرضي علي بن موسى من آل علي وكتب الى عامله بالمدينة في ذلك ولو لا ان خرج عليه العباسيون وساعدهم

الحظ بان عاجلت علي بن موسى منيته لتم الامر . ولكن ليس هذا التفضيل المطلق هو الحق يؤخذ مسلماً به من المأمون لشدة تشيعه لعلي وليس بغريب هذا من متشيع فان فرقا كثيرة اضلها حب علي والتشيع له حتى جاوزت المأمون بمراحل وضعت عليا قبل الرسول بل رفعته الى صفوف المعبودات وانا نعوذ بالله من شر الفتنة وزيغ القلوب ونأخذ برأي الجماعة في ان تفضيل الخلفاء على حسب ترتيبهم في الخلافة او نسوى بينهم على الاقل ونقول ان ارادة الله قضت بان يكون للامة من كل نصيب فجعل استخلافهم على الترتيب المعروف وفاقا لآجالهم .

أسباب الخلاف

تقدم كيف كان البيت السفياني يتطلع لرياسة العرب وكيف ان هذا التطلع انتج تولية يزيد بن ابي سفيان على الشام ثم معاوية اخيه من بعده فأخذ معاوية يترقب الفرص ويتحينها للحصول على الخلافة الى ان كان من عثمان ما كان وتألب عليه الناس لامور كثيرة اهمها تقديم ذوى قرباه وحاصروه حصاراً دام خمسين ليلة وانتهى بقتله فحانت لمعاوية احسن فرصة وذلك لان عثمان مات من جهة والامة ليست على معرفة بخليفتها بعده كما حصل من ابي بكر لعمر ولا على بينة من كيفية انتخاب الخليفة كما حصل من عمر في رجال الشورى ومن جهة اخرى فان عثمان أموي لأنه عثمان بن عفان ابن أبي العاص بن امية ولمعاويه ان يتخذ ذلك وسيلة للخروج على الخليفة بعده تعللا بطلب دمه والقصاص له وليس في قدرة خليفة ما ان يخاطر بذلك لان دمه ذهب بين آلاف من كل الامصار وفي المطالبة به ايقاظ لفتنة اشد واشعال لثورة انكى ولذلك فانه لما قتل عثمان وهرع الناس الى علي للبيعة امتنع فألحوا عليه فقال لهم ليس ذلك لكم انما ذلك لاهل بدر اين طلحة والزبير وسعد فاقبلوا فبايعوه وبايعه المهاجرون والانصار ثم بايعه سائر الناس بالمدينة وكتب الى سائر الامصار يطلب البيعة فأتته من كل الولاة ومن قبلهم الا من معاوية بالشام فأرسل اليه يطلبها مرة ثانية وعهد له في هذا الطلب بولاية الشام عسى ان يسمع ويطيع فكان جواب معاوية كما يلي :

من معاوية الى علي، اما بعد

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلي وضرب الرقاب

كتاب نائلة وقميص عثمان

وكان معاوية قد وصله كتاب نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان تصف فيه قتله ومعه قميصه مضرجاً بدمه وفيه اصبعها مقطوعة فجمع وجوه اهل الشام وصعد المنبر فنشر عليهم القميص وافاض في القصة حتى ابكاهم جميعا ثم دعاهم الى الطلب فاجابوا وقالوا هو ابن عمك وانت وليه ونحن الطالبون معك ثم بايعوه اميراً عليهم فأخذ ينال من ابن ابي طالب وينسب اليه الدس والتحريض على عثمان وقعوده عن نصرته وهو محاصر وعن المطالبة بدمه اذا قتل حتى غير قلوبهم عليه تغييراً تاماً ولم يلبث ان دعاهم الى بيعته بالخلافة بدل الامرة حيث لاتجوز المطالبة بدم خليفة الا من خليفة فاجابوه ولم يتخلف منهم احد وشاع ذلك في الامصار قاصيها ودانيها فشملت الفتنة الامة وايقظت في وجه علي اموراً شغلته عنه فأخذ ينشر دعوته بجد وعزم .

الامور الحادثة

اما الامور الحادثة لعلي فهي ان طلحة والزبير بعد ان بايعاه وتم له الامر أتياه فقالا له اتدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين قال نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه ابا بكر وعمر وعثمان فقالا لا ولكن بايعناك علي انا شريكاك في الامر وكان الزبير لايشك في ولاية العراق وطلحة في ولاية اليمن فقال لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة ورفض توليتهما « وذلك ليس بسديد منه » فلما استبان لهما ذلك استأذناه في العمرة فقال لهما والله ما العمرة تريد ان ولكن امضيا الى شأنكما فخرجا من المدينة الى مكة مظهرين الشكاة منه والنقض لبيعته والمطالبة بدم عثمان وبلغا ذلك وما كان من رد اهل الشام لبيعته له ئشة وكانت بمكة وفي نفسها مضض من علي لاعتقادها فيه انه من رجال الافك فأمرت فعمل لها هودج ركبت فيه وخرجت الى البصره ومعها طلحة والزبير وابناءهما محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير

وجمع غيرهم من بني امية على العموم وولد عثمان رحمه الله على الخصوص وبلغ ذلك علياً بالمدينة فولى عليها قثم بن العباس وشخص الى الكوفة بالعراق ليكون بين هؤلاء في البصرة وبين معاوية في الشام ثم اخذ يدعو الناس الى نصرته على هؤلاء الخارجين فما راعه الا اغارة طلحة والزبير ومن معهما على عثمان بن حنيف عامله على البصرة نصف الليل وقتلهم اربعين من حراسه واسره والتمثيل به فجمع علي اهل الكوفة وقام فيهم خطيبا ،فقال :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين اما بعد فان الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام الى الثقلين كافة ، والناس في اختلاف والعرب بشر المنازل مستضيفون للاثارات بعضهم على بعض فرأب الله به الثأى ولاءم به الصدع ورتق به الفتق وامن به السبيل وحقن به الدماء وقطع به العداوة الواغرة للقلوب والضغائن المخشنة للصدور ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيه مرضيا عمله مغفوراً ذنبه كريما عند ربه نزله فيالها مصيبة عمت المسلمين وخصت الاقربين وولى ابو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون ثم ولى عمر فسار بسيرة ابي بكر رضي الله عنهما ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتم منه حتى اذا كان من امره ما كان اتيتموه فقتلتموه ثم اتيتموني فقلتم لي بايعنا فقلت لكم لا أفعل وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتم كفي فجذبتموها وقلتم لانرضى الا بك ولا نجتمع الا عليك وتداككتم عليّ تداكك الابل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى ظننت انكم قاتلي وان بعضكم قاتل بعض فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير ثم ما لبثا ان استأذناني للعمرة فسارا بأم المؤمنين الى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الافاعيل وهما يعلمان والله اني لست بدون واحد ممن مضى ولو اشاء ان اقول لقلت اللهم انهما قطعا قرابتي ونكثا بيعتي وألبا علي عدوي اللهم فلا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما عملا واملا

ولما انتهى من خطبته استفز الناس الى البصرة ونفر فنفروا معه حتى اذا كان على مقربة من طلحة والزبير اخذ يرسل اليهم الرسل يطالب الطاعة والرجوع عن المعصية وهما دائبان في تعبئة رجالهم لا يقبلان فكتب اليهم يقول اما بعد فقد علمتما اني لم ارد الناس حتى ارادوني واني لم ابايعهم حتى بايعوني وانكما لممن اراد وبايع

وان العامة لم تبايعني لسلطان خاص فان كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بأظهاركما الطاعة وأسراركما المعصية وان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا الى الله عن قريب . انت يازبير لفارس رسول الله وحواريه وانت يا طلحة لشيخ المهاجرين وان دفاعكما هذا الامر قبل ان تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد اقراركما به . وقد زعمتما اني قتلت عثمان فبيني وبينكما بعض من تخلف عني وعنكما من اهل المدينة وزعمتما اني آويت قتلته فهؤلاء بنوه فليدخلوا في طاعتي ثم ليخاصموا الى قتلة ابيهم وما انتما وعثمان ان كان ظالما أو مظلوما ولقد بايعتماني وانتما بين خصلتين قبيحتين نكث بيعتكما واخراجكما امكما » وكتب الى عائشة « اما بعد فانك خرجت تطلبين امراً كان عنك موضوعا ولعمري لمن عرضك للبلاء وحملك على المعصية اعظم اليك ذنبا من قتلة عثمان وما غضبت حتى اغضبت وما هجت حتى هيجت فاتقي الله وارجعي الى بيتك الذي امرت ان تقري فيه » فأجابه طلحة والزبير « انك سرت مسيراً له ما بعده ولست راجعا وفي نفسك منه حاجة ولست راضياً دون دخولنا في طاعتك ولسنا بداخلين فيها ابدا فامض لامرك وأقض ما انت قاض » وكتبت اليه عائشة « جل الامر عن العتاب والسلام » .

حول الهودج

ثم خرجت عائشة في هودجها على جمل وتبعها طلحة والزبير وكثيرون معهم لقتال علي فعبأ جيشه ايضاً ولما تواقفوا للقتال امر علي مناديا ينادي في اصحابه : لا يرمين احد سهما ولا حجراً ولا يطعن برمح حتى اعذر الى القوم فاتخذ عليهم الحجة البالغة . ثم كلم طلحة والزبير فقال لهما : استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال ان تصدق فيها ،هل تعلم رجلا من قريش اولى مني بالله ورسوله واسلامي قبل كافة الناس اجمعين . وكفايتي رسول الله كفار العرب بسيفي ورمحي ، وعلى براءتي من دم عثمان ، وعلى اني كنت احسن قولا منكما ، وعلى أني لم استكره احداً على بيعتي ؟

فاغلظ له طلحة ورق اليه الزبير . فخرج اليه علي حاسراً واعتنق كلاهما صاحبه وبكى .

قال علي : ما جاء بك ها هنا يا زبير ؟

قال : جئت اطلب دم عثمان .

قال : تطلب دم عثمان ، قتل الله من قتل عثمان . انشدك الله يا زبير هل تعلم انك مررت بي وانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكيء على يدك فسلم عليَّ وضحك اليَّ . ثم التفت اليك فقال لك يا زبير انك تقاتل علياً وانت له ظالم .

قال الزبير : اللهم نعم .

قال : فعلام تقاتلني ؟

قال : نسيتها والله لو تذكرتها ماخرجت اليك ولا قاتلتك . ثم اعتزل الحرب .

عاد علي الى رجاله فخبرهم بذلك فقالوا الحمد لله يا امير المؤمنين ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره . ولا نتقي سواه . انه لفارس رسول الله وحواريه . ومن عرفت شجاعته وبأسه . ومعرفته بالحرب فاذ قد كفاناه الله فلا نعد من سواه الا صرعى حول الهودج .

مقتل الزبير

وكان الزبير قد ذهب الى عائشة وطلحة ينهاهما فلم ينتهيا فقفل راجعاً الى المدينة حتى اذا نزل في طريقه على ابن جرموز بوادي السباع للمبيت ونام عنده اراد ان يتقرب بقتله الى علي لانه لا يعرف ما كان منه فجز رأسه وخرج بها الى عليّ فقال له ابشرك بالنار . اني سمعت رسول الله يقول بشروا قاتل الزبير بالنار وقص عليه القصة فامتلأ اسفاً وندماً لذلك . ولأنه جر على قومه بقتله نائماً في جواره وفي ذمته على سابقته ومنزلته عاراً لا يمحي . وسبة لا تزول .

* * *

ثم ان علياً بعد ان اعتزل الزبير الحرب افاض في نصح طلحة فلم ينته . وتصاف الفريقان وعلي لا يريد القتال فرمى بعض اصحاب طلحة رجلا من اصحاب علي

فقتله فهاج الناس والتحم القتال يوم هذا . ثم احتجزوا ولم يزالوا على ذلك يروحون ويغدون كل يوم حتى كانت المرقمة الفاصلة في اليوم الثامن بقتل طلحة وابنه محمد وعرقبة والجمل . فأسرت عائشة ثم مروان ابن الحكم وعمر ابن عثمان وموسى ابن طلحة . وعمر ابن سعيد ابن العاص . واتي بالجميع وكان عبد الله ابن الزبير قد فر الى علي فطلب منهم البيعة فبايعوه واعفاهم من القتل وخلى سبيلهم . ثم دخل على عائشة فقال : يا صاحبة الهودج قد امرك الله ان تقعدي في بيتك فخرجت تقاتلين . أترتحلين ؟ قالت ارتحل . فرحلها الى المدينة ومعها اربعون امرأة لابسات لبس الرجال . وملفحات . فكانت لا تزال بعد هذا تطلب لنفسها التوبة ولابن ابي طالب المغفرة والجنة .

براءة علي من دم عثمان

بعد ان بينت كيف انتهت واقعة الجمل بقي علي ان اوضح كيف ان علياً كان بريئاً من دم عثمان . وكيف ان هؤلاء الثلاثة خرجوا عليه بمن معهم ظالمين له فوجبت عليه مواقفتهم فاقول :

اولا — ان هؤلاء الثلاثة كانوا من اكابر المحرضين على عثمان كما هو منطوق كتب التاريخ . فكيف يتفق هذا مع خروجهم للمطالبة بدمه ان لم يكن المقصود لهم علياً .

ثانياً — تقدم ان الزبير تذكر من علي حديثاً عن رسول الله يدل على انه سيقاتله ظالماً فاقتنع وامتنع .

ثالثاً — كان مما روى عن رسول الله قوله لعائشة ما معناه : كأني بك يا حميراء تنبحك كلاب الجوائب وانت خارجة لقتال علي ظالمة . وقد نبحتها كلاب هذا الماء حين مرت عليه فهمت بالرجوع فلم يثنها عنه الا عبد الله ابن الزبير .

رابعاً — قال معبد الخزاعي قلت لعلي بعد وقعة الجمل اني اسائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان فان نجوت اليوم نجوت غدا ان شاء الله . قال سل عما بدالك قلت اخبرني اي منزلة وسعتك اذا قتل عثمان ولم تنصره .

قال : ان عثمان كان اماما وانه نهانا عن القتال عنه . وقال من سل سيفه فليس مني فلو قاتلنا دونه لعصيناه .

قال : فأي منزلة وسعت عثمان اذ استسلم حتى قتل .

قال : المنزلة التي وسعت بن آدم اذ قال لاخيه لان بسطت الى يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين .

قال : فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل ؟

قال : انا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا كما قال الله تعالى « ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل » انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » فقاتلنا نحن من ظلمنا وما علينا من سبيل . وصبر عثمان على ظلمه وغفر وذلك من عزم الامور .

خامسا — قدم الاحنف بن قيس المدينة في حكاية طويلة حدث بها عن نفسه وهو المعروف بالثقة والحزم والعقل . وكان عثمان محاصرا فمر على طلحة والزبير كل وحده يسأله عمن يبايع بعد عثمان . فكلاهما رضي له عليا ولم يعدل به سواه فانطلق الى مكة وما كاد يصلها حتى قتل عثمان فدخل على عائشة بمثل ما تقدم فأمرته بعلي ورضيته له دون غيره ، فعاد الى المدينة فبايع عليا . ثم رجع الى قومه بالبصرة فما راعه إلا قدوم هؤلاء الثلاثة لمحاربة علي . والاخذ بدم عثمان ، فبعث الى علي يقول له أأحضر اليك في مائتين من اهلي ام اكفيك اربعة آلاف سيف من قومي ، فبعث اليه علي بل اكفني ذلك وكفى . فاعتزل بقومه تلك الحرب .

بين علي ومعاوية

الى هنا انتهى علي من تلك الامور التي شغلته عن معاوية زمنا وما كادت تنتهي ويعود الى النظر في امره حتى كان معاوية قد استقام له الامر بالشام وبويع بالخلافة من اهلها كما تقدم وكتب اليه علي يقول :

« سلام الله على من اتبع الهدى . اما بعد فقد كنا واياكم يدا جامعة والفة أليفة

حتى طمعت يا ابن ابي طالب فتغيرت واصبحت تعد نفسك قويا على من عاداك بطغام أهل الحجاز واوباش العراق وحمقى الفسطاط وغوغاء السودان وايم الله لتجلين عنك حمقاها ولينقشعن عنك غوغاؤها انقشاع السحاب عن السماء، قتلت عثمان ابن عفان ورقيت سلماً أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك، وقتلت الزبير وطلحة وشردت امك عائشة ونزلت بين المصريين فحنيت وتحنيت وخيل لك ان الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها وانما تعرف امنيتك لو قد زرتك في المهاجرين من اهل الشام بقية الاسلام فيحيطون بك من ورائك ثم يقضي علمه فيك والسلام على اولياء الله، فأجابه علي :

أما بعد فقدر الامور تقدير من ينظر لنفسه دون جنده ولا يشتغل بالهزل من قوله فلعمري لئن كانت قوتي بأهل العراق اوثق عندي من قوتي بالله ومعونتي به لم يكن عندي بالله يقين فناجي نفسك مناجاة من يستغني بالجد دون الهزل فان في القول سعة ولن يعذر مثلك فيما طمح اليه الرجال واما ما ذكرت أننا واياكم يد جامعة فكنا كما ذكرت ففرق بيننا وبينكم ان الله بعث رسولاً منا فآمنا به وكفرتم ثم زعمت انى قتلت طلحة والزبير فذلك امر غبت عنه ولم تحضره ولو حضرته لعلمته فلا عليك ولا العذر فيه اليك وزعمت انك زائري في المهاجرين وقد انقطعت الهجرة حين اسر ابوك فان يكن منك عجل فاستبقه وان ازرك فجدير ان يكون الله بعثني عليك للنقمة منك والسلام .

ثم كتب الى جرير بن عبد الله وكان قد ارسله اليه لاخذ البيعة منه فاقام عنده ثلاثة اشهر وهو يماطله يقول السلام عليك فاذا اخذت كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل وخيره بين حرب معضلة او سلم مجزئة فاذا اختار الحرب فانبذ اليهم سواء ان الله لا يحب الخائنين وان اختار السلم فخذ بيعته وأقبل الي ففعل جرير ورفض معاوية ودارت بينهما مكاتبات كلها لجاج وحجاج وهأنذا مختار من بينها الآن كتابا رأيته اجمعها لاعذار معاوية وحجج علي عليها وذلك الكتاب من علي الى معاوية ، وهو .

اما بعد فقد اتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وسلم

وآله لدينه وتأييده اياه بمن ايده من اصحابه فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً اذا طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبينا فكنت في ذلك كناقل التمر الى هجر وداعي مسدسه الى النضال وزعمت ان افضل الناس في الاسلام فلان وفلان أمر ان تحم اعتزلك كله وان نقص لم تلحقك ثلمته وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس وما للطلقاء وابناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الاولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم هيهات لقرص قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها الا ترفع ايها الانسان على ظلمك وتعرف قصور ذرعك وتتأخر حيث اخرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر لذهاب في التيه رواغ عن القصد الا تري غير مخبر ولكن بنعمة الله احدث ان قوماً استشهدوا في سبيل الله ولكل فضل حتى اذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء وخصه رسول الله بسبعين تكبيرة حين صلاته عليه او لا ترى ان قوما ما قطعت ايديهم في سبيل الله ولكل فضل حتى اذا فعل بواحدنا مافعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين ولو ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين فدع عنك من مالت بهم الرمية فان صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا لم يمننا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك ان خلطناكم بانفسنا فنكحنا وانكحنا فعل الاكفاء ولستم هناك واي يكون ذلك كذلك ومنا النبي ومنكم الكذب ومنا اسد الله ومنكم اسد الاحلاف، ومنا سيد شباب اهل الجنة ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب، في كثير مما لنا وعليكم فاسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله تعالى « وألوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله » وقوله « ان اولى الناس يا ابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » فنحن اولى بالقرابة منكم وتارة أولى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الانصار يوم السقيفة برسول الله فلجوا عليهم وان يكن الفلج به فالحق لنا ولكم وان يكن بغيره فالانصار على دعواهم، وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك فليس الجناية عليك فيكون القدر اليك وتلك شكاة ظاهر عنك عماؤها، وقلت اني كنت اقاد كما

يقاد الجمل المخشوش حتى ابايع ولعمر الله لقد اردت ان تذم فمدحت وان تفضح فافتضحت وما على المسلم من ان يكون مظلوما مالم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً ببيعته .

وهذه حجتي الى غيرك قصوها ولكني اطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها ثم ذكرت ما كان من امري وأمر عثمان فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه فايما كان اعدى له واهدى الى مقاتله أمن بذل له نصره فاستقعده من استنصره فتراضى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه كلا والله لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلا وما كنت لاعتذر لاني كنت انعم عليه احياناً فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له وقد يستفيد الظنة المنتصح وما اردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب . وذكرت انه ليس لي ولاصحابي إلا السيف فلقد اضحكت بعد استعبار مني الفيت بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين بالسيف مخوفين لبث قليلا يلحق الهيجا يطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد وانا مرسل اليك في جحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان شديد زحامهم ساطع قتامهم مسربلين بالموت احب اللقاء اليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها في اخيك وخالك وجدك واهلك وما هي من الظالمين ببعيد .

الحرب في صفين

بعد هذا لم يبق بين الخصمين الا السيف فلم يترك معاوية عظيما من اتباع علي ولا ممن وقفوا انفسهم على الحيدة ولا ممن لهم طمع في مال ولا ولاية وهم كثير الا كتب ينفره من علي ويستميله اليه فمنهم من ثبت ومنهم من مال وكان ممن مالوا وطمعوا عمرو بن العاص فاصطفاه معاوية لاخلاصه ودهائه واتخذه ذا مشورته في كل اموره وكتب له بولاية مصر ليطمعه ثم خرج من الشام الى علي في خمسة وثمانين الفاً وخرج اليه علي من الكوفة وكان قد اتخذها قاعدة لخلافته في خمسة

وتسعين الفاً حتى التقوا بصفين ودارت الحرب بين الطرفين سجالا حتى اذا ماخطف اهل الشام عمار بن ياسر فقتلوه وكان مرويا عن النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان بني مسجد المدينة وشكى اليه عمار تثقيل الصحابة عليه في حمل اللبن قائلا . انهم يريدون قتلي يارسول الله انه قال له لايقتلك اصحابي ولكن تقتلك الفئة الباغية فلما قتل بصفين وروي ذلك الخبر قامت ام الخير بنت الحريش البارقية على جمل وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهي كما تعمل تهور في شقشقته تقول .

يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . وان الله قد اوضح الحق وأبان الدليل وبين السبيل ورفع العلم ولم يدعكم في عمياء مدلهمة فأين تريدون رحمكم الله افراراً عن امير المؤمنين ام فراراً عن الزحف ام رغبة عن الاسلام ام ارتداداً عن الحق ام سمعتم الله جل ثناؤه يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك ازمة القلوب فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى والف القلوب على الهدى واردد الحق الى اهله هلموا رحمكم الله الى الامام العادل والوطني التقي والصديق الاكبر انها امن بدرية واحقاد جاهلية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بني عبد شمس . قاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون صبرا مقر المهاجرين والانصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأني بكم غداً وقد لقيتم اهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسوره لاتدري أين يسلك بها من فجاج الارض باعوا الاخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وعما قليل ليصبحن نادمين تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة ولات مناص انه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل الا ان اولياء الله استصغروا الدنيا فرفضوها واستطابوا الاخرة فسعوا اليها فالله الله أيها الناس قبل ان تبطل الحقوق وتعطل الحدود وتقوى كلمة الشيطان فالى اين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وابي سبطيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وجعله الله باب دينه وابان ببغضه المنافقين وها هو ذا معلق السهام ومكسر الاصنام صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزيه ببدر وأفنى اهل أحد

وهزم الاحزاب وقتل الله به اهل خيبر وفرق جمع اهوائهم فيالها من وقائع زرعت في القلوب نفاقا وردة وشقاقا وزادت المؤمنين ايمانا قداجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم دب الحماس في جيش علي وكثرت فيه الخطيبات غيرها وحمي وطيس القتال بين الفئتين حتى اذا كان يوم الهدير وهو اشد أيام صفين الستة والاربعين زحف اهل العراق على اهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم وانتهوا الى سرادق معاوية فدعا بالفرس وهم بالهزيمة والتفت الى عمر وقال له ما عندك قال نأمر بالمصاحف فترفع في اطراف الرماح ويقال هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم ففعل .

فلما نظر اهل العراق للمصاحف وجلهم فقهاء ارتدعوا واختلفوا فمنهم من قال نحاكمهم الى كتاب الله ومنهم من قال لا نحاكمهم لأنا على يقين من امرنا ولسنا على شك وكان منهم علي ولكن تغلب الفريق الاول فوقف القتال وبدأت الحادثة المعروفة بحادثة التحكيم وخلاصتها ان تختار كل طائفة رجلا فيجتمع الرجلان ويحكما بينهما عملا بكتاب الله حيث يقول : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » فاختار اهل الشام عمرو ابن العاص وكان من معاوية وله على مايحب واختار اهل العراق ابي موسى الاشعري عبد الله بن قيس فقال لهم علي قد عصيتموني اول الامر فلا تعصوني الآن وكان يريد اختيار أبي الاسود الدؤلي او عبد الله بن عباس فلم يسمعوا له وأبوا الا ابا موسى ثم اجتمع الحكماء بدومة الجندل وكتبا عقد التحكيم الذي يخول لهما حق الفصل ويؤمنهما على كل شيء وامضيا عليه اسماء شهود من الطرفين وكان تاريخه ١٠ صفر سنة ٣٧ هـ وقبل ان نذكر ما فعل الحكماء في اجتماعهما الفاصل الذي حدث في رمضان من السنة المذكورة اسوق عنهما الملاحظتين الآتيتين : اولاهما ان معاوية واهل الشام اختاروا عمرو راضين عنه وكان عمرو يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته ويتفق معه في الغرض الذي كان يرمي اليه وهو المطالبة بدم عثمان.

غير ان هذا كان منهما تعليلا ظاهريا ولذلك اهمله معاوية كل الاهمال بعد ان

استتب له الامر وليس هذا ببعيد عليه فقد تقاعد قبله عن نصرة عثمان وهو محاصر في داره كأنه يريد قتله حتى تتهيأ له الفرصة .

اما علي فقد اكره على اختيار ابي موسى كما تقدم ولم يكن ليرضى به حكما ولا يثق به فقدسبق لابي موسى ان فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه اهل الكوفة يستشيرونه في الخروج مع علي فقال لهم .اما سبيل الآخرة فان تفتحوا واما سبيل الدنيا فان تخرجوا .

وقال والله ان بيعة عثمان رضي الله عنه في عنقي فان لم يكن بد من قتال لا يقاتل معه احد حتى يفرغ من قتله عثمان ولا تكلفوا الدخول في هذا فانها فتنة عمياء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف وانصلوا الاسنة واقطعوا الاوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي الفتنة الى غير ذلك من الاقوال التي تثبط الهمم وتضعف العزائم التي جعلت عليا يعزله عن الولاية فاية نصرة تنتظر منه لعلي بعد هذا لاسيما وانه كان يعتقد فوق ذلك ان عبد الله بن عمر وكان احد من اعتزلوا عليا ومعاوية معا احق بالخلافة واليق لها .

الثانية ان عمر قد اوتي من المكر والدهاء والمكيدة وسعة الحيلة ما اشتهر به لدى العرب كافة وابو موسى رجل دينى لم يذق للسياسة طعما فلم يكن الرجل الذي يقف امام داهية العرب هذ الموقف الذي يحتاج الى الحنكة في السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء اكثر مما يحتاج الى الورع والتعمق في اصول الدين

الاجتماع الفاصل

هذا ولما اجتمع الحكمان الاجتماع الفاصل في رمضان السنة المذكورة كما تقدم استدرج عمر ابي موسى حتى وافقه على خلع علي من الخلافة وذلك ما كان يبغى اذ كان غرضه تجريد علي من تلك الصفة والتسوية بينه وبين معاوية ثم تحكيم السيف في الباقي حيث لايدرك الان وها اني اوضح كيف كان هذا الاستدراج

قال عمر يا أبا موسى رأيت اول ما نقضي به من الحق أن نقضي لاهل الوفاء بوفائهم وعلى اهل الغدر بغدرهم يريد الوفاء لعثمان من قبل معاوية وانصاره والغدر به من قبل علي واتباعه فقام ابو موسى فحمد الله واثنى عليه وذكر الحدث الذي حل بالاسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال عمرو هلم الى امر يجمع الله فيه الالفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين فجزاه عمرو خيرا ثم قال ان للكلام أولا وآخرا ومتى تنازعناه خطبا لم نبلغ آخره حتى ننسى اوله فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب نصير اليه في امرنا فقال ابو موسى فاكتب فدعا عمرو بصحيفة وغلام له كاتب فقال له بحضرة الجماعة اكتب فانك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به احدنا حتى يستأمر الاخر فيه فاذا امرك فاكتب واذا نهاك فانته حتى يجتمع راينا ،اكتب .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص تقاضيا على انهما يشهدان انلا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمداً عبده ورسوله ارسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم قال نشهد ان ابا بكر خليفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله اليه وقد ادي الحق الذي عليه فقال ابو موسى اكتب وقال في عمرو مثل ذلك .

فقال عمرو اكتب وكان قد بدأ الكلام ليبقي لنفسه التكلم على عثمان وهو اول الاستدراج ثم قال وان عثمان ولي هذا الامر بعد عمر على اجماع من المسلمين وشورى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي منهم وانه كان مؤمناً فقال ابو موسى ليس هذا والله مما قعدنا له فقال عمرو والله لا بد من ان يكون مؤمناً او كافراً فقال ابو موسى اكتب قال عمرو فما قتل احد مظلوماً فقال عمرو أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه قال ابو موسى نعم قال عمرو فهل تعلم لعثمان ولياً اولى من معاوية قال ابو موسى لا قال عمرو أفليس لمعاوية ان يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله او يعجز عنه قال ابو موسى نعم فقال عمرو للكاتب اكتب وامره ابو موسى فكتب فقال عمرو فانا نقيم البينة

على ان علياً قتل عثمان فقال ابو موسى بعد كلام يصرفه فيه عن هذا هلم الى امر يصلح الله به امة محمد قال عمرو وما هو ، قال ابو موسى قد علمت ان اهل العراق لايحبون معاوية ابداً وان اهل الشام لايحبون علياً ابداً فهل نخلعها ونستخلف عبد الله بن عمر فصوب له خلع الرجلين ووافقه عليه ، ولكن على ان يختار المسلمون بعد ذلك من احبوا وكان يأمل الاختيار لمعاوية ثم امر الكاتب فكتب وسرعان ما تناول الصحيفة وطواها بعد ان ختماها معاً .

* * *

هذا ما كان . وقيل انهما خطبا بعد ذلك وقدم عمر ابا موسى للخطبة . فقام فخلع الرجلين وقام هو فأمر خلع علي وثبت معاوية ثم انصرف باهل الشام فسلموا عليه بالخلافة ولكن الاول هو الصحيح لان نقض احد الحكمين كلام الآخر امر ان لايؤبه له ولا يعتمد عليه وعمرو ابعد نظراً من هذا وسواء أكان الاول وحده ام حصل الثاني معه فقد اكتسب عمرو موافقة صاحبه على خلع الرجلين وعلى ان عثمان قتل مظلوما وان معاوية احق من يطالب بدمه واطالة الوقت الذي خسر فيه علي من تخاذل جيشه وعدم التفافه حوله والفت في عضد اشياعه بقدر ما كسب معاوية فوق هذا من حسن الاستعداد وتمام الاهبة وبذلك كله تمكن من سلخ ما كان تحت يد علي شيئاً فشيئاً حتى قتل علي سنة اربعين للهجرة فصفا لمعاوية الجو وعظم سلطانه ثم تم له الامر واستتب ملكه بتنازل الحسن بن علي له عن الخلافة في السنة التالية المعروفة بعام الجماعات على شروط خاصة حقنا لدماء المسلمين وتخلصاً للامة من تلك الخلافات والحروب التي سأقص فظيع آثارها وسوء نتائجها بالاجمال

* * *

آثار الخلاف وسوء نتائجه

لو شاء مؤرخ ان يقف حياته في البحث عن آثار هذا الخلاف المشؤوم وتعداد ما اصاب الامة من جرائه لما نضب امامه معين الكلام ولكان كلما خرج من اثر وجد آثارا ولذلك فاني اذا تكلمت عن تلك الآثار ونتائجها فانى القيها كلمات مجملة

كل كلمة تصلح لان تفصل في موضوع حافل مستقل واني ابدأ القول بان استميح العذر في طرق باب الاجمال دون التفصيل :

اولا: بهذا الخلاف وقعت الامة العربية في حروب داخلية انهكت قواها وذهبت بعدد وافر من اولى البأس والشجاعة من ابنائها .

بدأت تلك الحرب بوقعة الجمل وانتهت بوقعة صفين وقد بلغت قتلى الاولى اكثر من عشرة آلاف وقتلى الثانية وهي اشد سبعين الفاً خمسين من جيش معاوية وعشرين من جيش علي وتنتهي حروب اخرى كثيرة كم كان مبلغ ضررها وسوء عقباها، ولو ان معاوية قد نجع بالطاعة لعلي كما قبل غيره من سائر الولاة بالاقاليم لما حصل شيء من هذا ولاستمرت الامة في طريقها الى التقدم سائرة سيراً حثيثاً كما كان لها قبل والمأمول فيها بعد .

ثانياً : بهذا الخلاف وقف الجهاد وتعطل الفتح من سنة ٣٥ الى سنة ٤١ هـ بل وقف نهائيا وعطل تعطيلا لم يتمكن من اصلاحه المستقبل فلو لا هذه الحروب الداخلية لفتحت الامة بمن ذهبوا ضحيتها من الشجعان البواسل الشرق الى المحيط الهادي والغرب الى المحيط الاطلسي وما كان هذا ببعيد على تلك الامة التي اخضعت دولتي العرب والروم وغيرهما في اقل من ربع قرن فظهرت في نهضتها ظهور فرد وقلبت الناموس الطبيعي للامم في رقيها وذلك هو العجب العاجب .

ثالثا : بهذا الخلاف وما نجم عنه من الحروب الداخلية وايقاف الفتح كما تقدم تنفست الامم المجاورة من خناقها وابيحت لها الفرص في لم شعثها واستعادة قوتها واسترداد بعض ما اخذ منها والوقوف للامة العربية موقف المناوىء المعادي بعد ان لزمت موقف الخاشع المستكين فكان هذا اشبه بسد لايزال وحاجز لا يعلى امام ما كان بعد ذلك من جهاد فانحسرت رقعة المملكة الاسلامية عما كان مرغوبا لها ومأمولا منها ولم تزد بعد هذا شيئاً يذكر وما اقسى هذا وامره .

رابعاً: بهذا الخلاف دبت روح الاشتراكية والتضحية في عروق الولاة على حداثة عهدها فتشربت منها ونمت عليها لانه لما طال الامر بين علي ومعاوية وحصل كل ما تقدم بدون نتيجة حاسمة واصبحت الامة تصطلي نيران الخلاف ولظاه عز

ذلك علي اناس كثيرين لاسيما بعد مقالة التحكيم ، التي لم يكن لها في نظرهم مسوغ ولا مبرر ما دام علي معروف الحق والتي لولاها لفصلت الحرب بين الطائفتين ، خرجوا على معاوية وعلي وصمموا على قتلهما ومعهما راس الفتنة والشر عمرو بن العاص وحددوا لذلك ليل احدى وعشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ

فتعهد عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي والحجاج بن الصريمي بقتل معاوية وزازويه وهو مولى النبي الغبر بن عمرو بن تميم بقتل عمرو بن العاص ثم خرج كل واحد الى المقر الذي فيه صاحبه واقام به فلما كانت الليلة المذكورة قصد كل صاحبه بالمسجد فجراً واما عمرو فلم يخرج تلك الليلة لمرض وخرج بدله صاحب شرطته خارجة بني حبيبة فقتله زازوية خطأ ثم اتى به الى معاوية فقتل واما معاوية فقد ضربه البرك ضربة لم تصادف منه مقتلا وقبض عليه وقتل ايضاً واما علي فقد رصد له ابن ماجم بباب المسجد وضربه ضربة كانت القاضية عليه ولما قبض عليه وحمل الى منزله اشار بعدم قتله الا اذا مات ثم وصى اولاده وفاضت روحه رحمه الله رحمة واسعة فقتل الناس ابن ملجم وبايعوا الحسن بن علي ولما لم يزل معاوية خارجا عليه وخاف على الامة عاقبة الحروب تنازل له عنها في السنة الثالثة سنة ٤١ هي عام الجماعة على ان تعود بعده شورى بين المسلمين كما كانت . فطائفة هؤلاء القتلة الثلاثة هي المسماة بالخوارج وقد اعلن امرهم بعد واستمروا يناوئون الدولة باموالهم وحروبهم من ذلك التاريخ ولا سيما بالعراق الى ان اذهب شوكتهم الحجاج بن يوسف الثقفي والي عبد الملك بن مروان عليه كما سيأتي ولهم تاريخ ضاف طويل

خامسا : بهذا الخلاف فقدت الامة العربية جوهرة ثمينة بدأت ملكها وتاجها محلى بها وميزة طبيعية لازمتها ابان نشأتها تلك الجوهرة وهذه الميزة هما انتخاب الخليفة عن غير وراثة فصارت الخلافة ملكا عضوضا يتوارث بالقوة والجبروت وذلك لان معاوية بعد ان استمر عصيانه وخروجه بالشام واخذ ينتقض الخلافة العلوية من اطرافها مدعيا الخلافة وتنازل له الحسن بن علي عنها حقنا لدماء الامة على ان يعود الامر من بعده شورى بين المسلمين ولكن معاوية لم يكفه الاستئثار بها لشخصه بل اخذ يمهد لان تكون ارثا في ولده وبالرغم من ان يزيد ابنه كان سيء السيرة

قبيح المسلك عند ولايه العهـد بشكل اضطبادي طويل يوضح للمطلع عليه مقدار ما يخلفه من الاثر في نفس الامة من النتائج السيئة على الدولة .

سادساً : بهذا الخلاف لم يصف وقت لدولة عربية بعد الا بقدرما يكون للدواء الوقتي من تسكين الداء تسكينا لايلبث بعده ان ينتقض على صاحبه ويهيج وذلك ان معـاوية لمـا خالف شرط الحسن وعقد ولاية العهد لابنه يزيد خرج العلويون عليه خلف امـامهم الحسين ابن علي واستمرأوا خـارجين على الدولة الاموية على يدي ائمة منهم كلما مات واحـد خلفه آخر ومن ورائهم الامة الا آل الزبير ومن تبعهم من موتوري علي بن ابي طـالب في وقعة الجمل فاستمر يزيد مهـدد المركز مزعزع الملك حتى مات فانتشرت الخوارج شرق العراق وخرج عبد الله بن الزبير بالحجاز وانتشر سلطانه حتى امتلك العراق ولم تزل الامور فوضى حتى ولي عبد الملك بن مروان الخلافة فولى الحجاج ابن يوسف الحجاز وفيـه قتل عبد الله ابن الزبير بعد ان قتل اخوه المصعب بالعراق ثم حوله الى العراق فكانت بينـه وبين الخوارج حروب طويلة انتهت بذهاب شوكتهم كما تقدم .

امـا العلويون فاستمروا على دعواهم سراً في هذه الآونة ومعهم اولاد عمهم العباسي ولم يزالوا يداً واحدة حتى ازالوا الدولة الاموية ولكن الخلافـة لم تنتقل اليهم بل استأثر بها العباسيون فاستمر العلويون خـارجين عليهم ولما شردهم ابو جعفر المنصور واسلافه من بعـده الى الرشيد الذي اخلي شمال افريقية من نفوذه هجروا اسيا الى هـذه البلاد ليكونوا في مأمن بين العبـاسيين شرقـا والامويين بالانـدلس بها فأسسوا الدول المنسوبة اليهم منهـا الـدولة الفـاطمية ذات التاريخ الحافل بمصر .

هذه نبذ أجملتها اجمالا عما كان من نتائج الخلاف بين علي ومعاوية وهي توضح ان ذلك الخلاف يعتبر الشجرة الاولى لكل خلاف شجر في الدولة العربية بعد فكان له من سوء الاثر في الدولة ما كان .

يجدر بنا قبل البحث في العوامل التي اهابت بالمسلمين ان يقوموا في مستهل القرن السابع تحت املاء القرآن وقيادة سيدنا محمد النبي العربي بثورة عالمية عامة لقلب جميع النظم العتيقة في كل ضرب من ضروب المحاولات البشرية في العالم كله ، في الدين . والسياسة . والاخلاق . والاصول . والمبادىء . ووجهات النظر . والمثل العليا ، ان نمهد بكلمة جامعة نشرح فيها اقسام الثورات واسبابها ومظاهرها ونتائجها

فالثورات لاتقوم الا عند غليان النفس وعجزها عن احتمال ما هي فيه من اضطهاد وضغط وعسف ومظالم ، وهي انفجار تقوم به الافراد كلها معا . فليس لفرد حق التقدم او القيادة او الزمام لانهم كلهم شعور واحد . وحس واحد . ورأي يبنى على ارادة واحدة ، فقد كانت تنشب الثورات قديماً اذا شعروا بتغيير نظام من نظم حياتهم ولو كان في ذلك التغيير اصلاح لحالتهم وسبيل الى تقدمهم وتطورهم .

وكانت الثورات حتى القرن الثامن عشر تأتي لحرمان قوم من حقوق يتمتع بها اقوام آخرون بغير حق . ثم اخذ الناس يتقدمون فكريا في العصور الحديثة حتى صاروا يقدرون التبعة . ويزنون النتيجة ، فتغيرت الحالة تغيراً محسوسا عن ذى قبل

فالثورات في عهد الرومان ليست هي هي في العصر الحاضر من حيث شدتها وعنفها وصلابة رأي القائمين بها فكان الثوار في عهد الامبراطورية ثم في عهد الجمهورية عصابات عصابات تثوروتهاجم دور الحكومة ومنازل الاشراف ، وكانت المهاجمة مهاجمة المقاتل الذى اسلم نفسه للقتال وهو يثق ان الموت وبعده نيل المطلب خير من الحياة مع الخذلان ، فكانت تضرب الدولة الرومانيه في الصميم حتى يقال ان الثورات في عهد الجمهوريه هي اكبر هزة هزت العرش الروماني .

وكانت مثل هذه الثورات تنبه الرأي العام على ان هناك خطراً لابد من ملاقاته فنال العامة كثيراً من الحقوق في التصويت والانتخاب بعد ما كانا وقفاً على الاشراف والسادة ثم انها تدل على مواطن الضعف في البلاد اذ بطبيعة الحال لابد لكل

نتيجة علة ولكل علة نتيجة ، فثورات الرومان نتيجة عسف الحكام، وثورة انكلترا علتها السياسة الخارجية . وثورة امريكا نتيجة المطالبة بحقوق استقلالها .

وليس هذا فقط بل ان قيام الثورات يعقبها تبصر الحكام على ضوء التجارب والقبض على زمام الامور على ضوء الحكمة والتعقل ؛ وعادة تعقب الثورة فترة يسود فيها السلام .

فانكلترا تمتعت بهدوء الحالة بعد عصر التيودوري عصر الفتن والثورات .

وفرنسا بعد حروبها الطويلة تلذذت برغد العيش حتى قال بعض الفرنسيين ان قيام الفلاسفة كروسو وفلتير ومنتسكيو لم يكن الا نتيجة الثورة . ولم تزدد كفايتهم وتشتد قوة ارادتهم في طريق الافتتاع الا والثورة الفرنسية دائرة الرحى

ولذلك قام كل فرد بنظريته فأخذ روسو في تأليف كتابة العقد الاجتماعي ، وكانت اهم مبادئه نبذ التكلف والزخارف الصناعية المشاهدة في عصره والرجوع الى الحالة الطبيعية ، الحالة التي يكنها الشعور في خفايا النفس ، وعلى هذا المبدأ نادى باصلاح نظام التربية — من مبدء الطفل في المنزل — الى اعلى درجاته ، واتى بمؤلفه هذا واظهر فيه مبادئه السياسية . وقد كان هذا المؤلف اكبر رائد لزعماء الثورة ومناراً للفكر الانساني .

كذلك منتسكيو صاحب كتاب روح القوانين الا ان اهم ما يلاحظ في حياته ماجادت به قريحته في نظرية فصل السلطات .

وتتلخص هذه النظرية في ان اعمال الحكومة تنقسم الى ثلاثة اقسام : تشريع وتنفيذ وقضاء ولكل قسم كفاءة خاصة كافية لان تحميه وتصونه .

وكان منتسكيو من اول الذين اسسوا نظرية الفصل بين السلطات . فقد كان يرى اجتماع السلطة التشريعية والتنفيذية في يد واحدة يؤدى الى ضياع الحرية لاحتمال ان يصدر المشرع قوانين ظالمة ثم ينفذها بنفسه ، كذلك لاضمان للحرية اذا لم تكن السلطات القضائية منعزلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية لانه اذا كان القاضي هو الذي يقوم بالتشريع فلا ضمان للعدالة ، وكذلك اذا كان القاضي الذي يصدر الحكم هو الذي يتولى تنفيذه .

كذلك تسير الثورات الى المضطرب من الشؤون الدولية والمرافق الحيوية ، وكذلك من اسباب الثورة انحطاط الدول في سياستها الخارجية وعدم الخبرة في ادارة دفة امورها الداخلية . وفي كيفية اصدار القانون وهل هو مطابق لافراد الامة من وجهة الميل والطباع ام لا ؟ وجهلها بتحديد ساعات العمل وحفظ الحريات وتوزيعها . وفي سياستها الخارجية في عقد المعاهدات والحياد والتعدي على تخوم الدولة المتقاربة وعدم الانقياد لقانون السياسة الخارجية ، فتأتي الثورة فتنبه الافكار وتوقظ العقول لخطورة الامر ويقدم افرادمنها ممن اوتو العلم والذكاء وسرعة البديهة الى اصلاح الحالة بالوسائل المبتكرة التي نجني نتائجها الآن في العصور الحاضرة . وهذا كله لم يتم الا في اواخر القرن التاسع عشر .

ثم جاء القرن العشرون والبلاد آخذة في التقدم والمعارف والعلوم والاختراع والاكتشاف . وطبعاً هذا لا يتأتى الا في جو ملؤه السكينة والسلام .

* * *

وليست الثووات سياسية فقط . بل هي ايضاً علمية ودينية ، بها يحدث انقلاب في عالم الفكر والعقيدة ، فتقوم آراء وعقائد تخالف سابقتها كل المخالفة ، ويصحب ذلك انتقاض على كل قديم فتتحول الافكار الى وجهة اخرى .

* * *

والثورات العلمية كثيرة الاهميه لعظيم نتائجها فقد اوجدت لنا التجارب — منذ حركة احياء العلوم حتى اليوم — نظريات ومبادىء تثبت ان العلوم تسير على سنن ثابتة فلا تصدر تبعاً لاهواء الآلهة كما كان يعتقد القدماء . فأوجدت بذلك ثورة في عالم الفكر لها نتائج ثابتة لانها تقوم على البحث والتنقيب لا على الشعور والوجدان .

* * *

والثورات الدينية كالسياسية شأن العقل فيها قليل ، والاضطهاد لا يؤثر فيها لانه من الامور المستحيلة القضاء على عقيدة شعب قبل تحويل كيانه الى وجهة اخرى ، وقد يساعد الاضطهاد على نشر العقائد بالعدوى النفسية . فلم تجد الاحكام

القاضية بالاحراق فتيلا ، ومع ما اصاب اصحاب المذاهب من العنف والشدة فلم يثنهم ذلك عن عقيدتهم ودينهم .

* * *

ولا يوجد التسامح اثناء الثورات مع ماقد يكون من التقارب في المعتقدات. واذا نظرنا الى المذاهب الدينية التي خضبت اوروبا بالدماء قرنا كاملا ، نرى انها مجمعة على عبادة اله واحد تخضع له السموات والارض وما بينهما ، والاختلاف قائم على الصورة التي بها يعبدون ، ولو راجعوا العقل قليلا . لرأوا ان الله لايعنى بالصورة التي يعبد بها ، ولا يسود التسامح كذلك بين الشعوب ذات المعتقدات الفوية فقد كانت الاقوام الوثنية اكثر تساهلا منها الان بدليل قبولها الاديان الحديثه

واذا وجد تماثل بين هؤلاء الثورات الدينية والسياسية فهناك فرق ظاهر بين نتائجها . لانه لا توجد اية تجربة تثبت لكل طائفة دينية انها ضالة او تسير نحو الحقيقة ، فيستمر كل منها على مبادئه دون ان يرى الخطأ او الصواب ، اما الثورات السياسية فلا تلبث ان تظهر نتيجتها فيعدل الناس عن مبادىء كانت لهم ديناً ومعتقداً

* * *

وللثورات الدينية تأثير في تهذيب النفوس وتقويمها . فتغير من عواطفها ونزعاتها كما تؤثر في سير الحضاره . فلما تم للنصرانية الانتشار كان كل شيء في العالم يسير على سننها وحسب معتقداتها :

* * *

وتنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت في النفوس . وعن اسباب كثيرة تجمعها كلمة الاستياء الذي اذا لم يكن عاماً وقويا لايسبب حدوث الانفجار ولذا يبالغ الزعماء في تهويله مبينين للساخطين ان الحكومة هي السبب في جميع الحوادث . وان السعادة ستنبثق من النظام الجديد .

والاراء المنطقية هي الاصل في الثورات في كثير من الاحيان . ولكنها لا تبعث الى الثورة الا اذا تحولت من العقل الى الشعور . فليست الجموع مصدر الثورة .ولكن الخاصة هم الذين يبدؤون بها وتستمد بعد ذلك قوتها من الشعب

بعد اثارة عواطفه ، وتكون اكثر قوة اذا دعمها فريق من رجال الجيش . ولو انها تبدأ في الغالب من غير ان يكون لها نصيب فيها . وقد يتولى قيادتها فاذا ماتم لها النصر وقعت شئون الدولة تحت امرته .

* * *

وتقوم الثورات عندما ينضج المعتقد في اللاشعور ، ولايكون للعقل فيها نصيب رغم ظواهر الامور فيكون الشعب مستعدا للتضحية والاستشهاد في سبيل انتصار مذهبه ، ولا اهمية لمخالفة المعتقد للعقل بعد ان يصير حقيقة لاشك فيها في نظر معتنقه ، واعتبار المعتقد حقيقة مطلقة هو السبب في عدم التسامح ، وهذا يفسر لنا السر في الاضطهادات والقسوة التي تقترف اثناء الثورات .

* * *

وقد تحدث الثورات فجأة ومن غير توقع نتيجة لسرعة العدوى النفسية الناشئة عن طريق النشر والاذاعة ، وكثيراً ما تعجز الحكومات عن مقاومتها ويكون ذلك بسبب الاوامر المتناقضة التي تلقى الى رجال الجيش فيتم النصر للثورة من غير كبير كفاح مع ان الحكومة تستطيع ان تقضي عليها اذا دافعت عن نفسها بصرامة وشدة :

* * *

وهناك ثورات تكون الحكومة هي الاصل فيها لما تريد القيام به من اصلاحات فجائية تقابل بالثورة من الاهالى لما تتصف فيه الشعوب من حب الثبات والمحافظة على روحها القومي . ويتطلب النجاح للسير في هذه الاصلاحات وجود ملك قوي له قدرة ودهاء يستطيع به القضاء على كل فتنة . والاثارت عليه الامة واصابه الفشل لان تقاليد الامم الراسخة منذ اجيال لا تتحول فجأة ولكن اذا ابلاها الزمن تصبح من تلقاء نفسها على هاوية الفناء :

ومع ان ثبات الحياة على نسق واحد يدعو الى التقهقر والاضمحلال فان تزعزع روح الامة وعدم ثباته بسبب توالي الثورات حتى يرسخ فيقوم على اساس ثابت

يدل تاريخ الثورات على مجهود الامم في سبيل توطيد روحها الذي يختلف باختلاف الشعوب بدليل التباين في نتائج الثورات تبعاً لاختلاف الامم .

* * *

والزعماء هم الذين يدفعون الشعوب نحو الثورة بما لهم من عظيم النفوذ . ولا تدخل المبادىء في انئدة الامة الا شيئاً فشيئا . فتقبل نحو الثورة من غير ان يكون لها علم بسببها ، ولو ان الزعماء لا يبتدعون المبادىء الا انهم يتخذونها واسطة للقيام بالعمل بما لهم من قوة تأثير . فتتبعهم الجموع طائعة من غير ان تبحث في شهواتهم . ولكنها تثير ممتزة بعددها وقوتها .

* * *

وتنقسم الامة تبعاً للثورات الى قسمين : « الفئة العاملة والفئة المجرمة » ، فالفئة العاملة هي التي تريد استمرار الهدوء لتقوم باعمالها وما تستلزمه حياتها ومعيشتها . وهي وان كانت تستفيد من الثورات الا انها لا تفكر في القيام بها . ولذا يرتاب منها الزعماء لعلمهم بمحافظتها على القديم ، وقد يدفعها الخوف الى الانضمام الى الثورة التي اذا استفحل امرها وقفت هذه الفئة امام الفوضى بدافع المحافظة على التقاليد ، وهي في ذلك تبحث عن زعيم قادر على اعادة النظام :

* * *

« والفئة المجرمة » تتألف ممن لا عمل لهم فلا تتأخر عن اقتراف الجرائم مظهرة غريزتها السيئة .

ورجال هذه الفئة هم الذين يسفكون الدماء اثناء الثورات غير عابئين بالمبادىء والنظريات . ويستولي الخطباء على هذه الجموع الآثمة المشاغبة التي هي السبب في كل عصيان ويمكن القضاء عليها بواسطة يد قوية ترى هذه الفئة عجزها عن مقاومتها .

وتظهر اثناء الثورات عدة عواطف تؤثر في سيرها وتحمل الافراد والجماعات على المضي في الفتنة بمشاعرهم من غير استرشاد العقل .

فتظهر عاطفة الحقد فيمقت كل حزب اعضاء الحزب الآخر ويصفه بالخيانة

والعجز ، وسبب ذلك ان كلا منهم يعتقد انه يسير نحو الحقيقة المطلقة فلا يقبل التسامح مع من يخالفه .

وصدور الاحقاد عن العاطفة يجعل التسامح مستحيلا ، وعندما يتغلب حزب من الاحزاب يسعى في تنظيم المجتمع حسب مصالحه ويكون هذا التنظيم تبعاً لاختلاف القائمين بالثورة . فاما ان يكون عسكريا او محافظاً او متطرفاً ، وقد وقعت اكثر الحوادث في العالم ليستولي على العرش ملك جديد يرى ان استمرار حكمه لا يكون بتقديمه حزبا على آخر . بل يتوقف على الموازنة بين جميع الاحزاب لكيلا يتغلب عليه احدها فيصبح هذا الحزب سيداً عليه .

* * *

والحسد والعجب يساعدان على السير في طريق المنازعات مما يؤدي الى المغالات في الحقد .

وللحسد شأن كبير في ادوار الثورة فهو الذي دفع الطبقة الوسطى في فرنسا الى القيام بها . وقد صرح بذلك نابليون ، فقال : « ليس الحقد الا سبباً للثورة الفرنسية وما السعي للحرية الا حجه باطلة » .

وللخوف كذلك شأن عظيم اثناء الثورات يقرب من شأن الحقد فيطيع الشعب الاوامر ـ صادرة اليه مهما كانت مخالفتها للعقل والصواب . ولذا تسير الثورة في تيار قوي لا تستطاع مجابهته .

* * *

ومما لا شك فيه ان الانسان يتكون من مجموعة عواطف متقاربة تتنازع بتأثير الحوادث فتبدو الفروق الفاصلة بينها ، وهذا يؤدي الى انقلابات فردية واجتماعات عظيمة .

والروح الدينية هو اساس جميع المعتقدات الدينية والسياسية ولذا تستمد الفتن قوتها منه . واذا كان الناس لا يبذلون حياتهم في سبيل المعقولات الا قليلا فانهم يضحون بها طوعاً في سبيل خيال معتقد اصبح لهم ديناً ومعبوداً ، ولذا كثيراً ما يظهر الزعماء الروح الدينية في ادق اعمالهم . ولا زال يوجد حتى اليوم كثير

من السياسيين يتخذون المعتقدات الدينية وسيلة لتبرير مذاهبهم السياسية . وهذا اثبت لنا ان الثورات تسير بالعاطفة تبعا للمعتقدات التي سلطان العقل فيها ضئيل، وتنشأ النفسية الثورية عن مغالاة في التدين والتشيع للعقيدة .

وللعصيان درجات متفاوتة تتراوح بين الاستياء الظاهر في الحديث . وبين الميل الى التخريب .

والاستياء المنحصر في الجدال له اهميته ، فقد يكون مبدءاً لمبادئ تفيد في تقدم الامة خلافاً للنفسية المجرمة التي تظهر عند المغالاة ، والافراط بين الطبقة المشاغبة التي لاوزاع لها الا القانون الذي اطاعته في الاوقات الاعتيادية ، ولكنها وجدت في الثورة وسيلة لاشباع نفسيتها فتطلق العنان لغرائزها من غير ان يهمها الباعث الحقيقي للثورة .

* * *

والجماعة سريعة التأثر والانفعال بخلاف الافراد الذين تفنى مشاعرهم في اللاشعورية الجماعة التي تتصف بالمغالاة في سرعة التصديق والعجز عن التأثر بالمعقول . وليس للحقائق والتجارب تأثير فيها . بل يمكن حملها على تصديق كل امر . اذ لا يوجد ما هو مستحيل امامها . ولا يمكن اقناعها الا بالتأكيد والتكرار والنفوذ .

* * *

ومما ينشأ عن تأثير الجماعات في الافراد توحيد المشاعر والقوى ولذا تكتسب قوة عظيمة وتكون العدوى النفسية هي الباعث لهذه الوحدة فتهتف الجماعات على الفور حقداً او غضباً او مودة . وتصدر العدوي عن زعيم له قوة تأثير . ولما كانت القوى اللاشعورية هي الدافعة للجماعات فقد تقول وتنادي خلاف ما تريد ، والشعب كالجماعة متقلب متحمس ظالم هادم الا انه توجد وراء ذلك تقاليده وارثه القديم ، فيتغلب كل ذلك على روح الهدم والتخريب . ولا تسري هذه الدعوى النفسية في كثير من الاحيان الا رويداً رويداً ، وقد تثيره فجأة حادثة

فتدفعه نحو الثورة . وتنتقل الشعوب من اجلال الاشخاص الى الحقد عليهم فتلعن اليوم من عبدته بالامس ، الا ان هذا الانتقال يقع شيئاً فشيئاً .

* * *

وتتشبع الروح الثورية بالتدين فيعتقد الشعب بوجود كائنات لها القدرة الالهية والحكومات واعاظم الرجال . ولذا يحتاج الى معبود يخضع له خشعاً سواء كان رجلا او مذهبا ، ويبحث عندما تروعه الفوض عن عظيم منقذ . وترتبط روح الجماعة اللاشعوري بروح قائدها فهو الذي يمنحها ارادة واحدة ، ويلزمها الطاعة المطلقة ، وذلك بواسطة التلقين حسب نفسية الجماعة . اما هادئة ، او هائجة ، او مجرمة .

* * *

وتجمع المجالس السياسية احزاباً متباينة خاضعة لنفوذ زعمائها . ولا يضم وحدتها الا الظروف الاستثنائية .

ولكل حزب في المجلس كيان تعين فيه ارادة افراده . فكثيراً ما يصوتون خلاف مايرغبون . ولذا تسير هذه المجالس تبعاً للشعور كالجماعات

اما الاندية السياسية فتمتاز بوحدة مشاعرها وقواها . وهي رغم ذلك تخضع لزعمائها . الا ان تأثير هؤلاء الزعماء يكون اكثر صعوبة من تأثيرهم في الجماعات لوحدة المشاعر والمنافع بين الجميع .

* * *

هذه هي اقسام الثورات واسبابها ومظاهرها ونتائجها اجملناها فيما تقدم للدلالة على مجهود الامم في سبيل توطيد روحها الذي يختلف باختلاف الشعوب .

واذا كان للامة الانكليزية ان تباهي سواها بانها اول من وضع بثورتها في القرن الثالث عشر اسس الدستور .

واذا كان للامة الفرنسية ان تفخر بانها بثورتها المشهورة اول من استن بسنة انكلترا من دول القارة في آواخر القرن الثامن عشر ، فان للمسلمين ان يساموا امم الارض قاطبة في انهم قاموا - كما تقدم - في مستهل القرن السابع تحت املاء

القرآن وقيادة محمد « بثورة عالمية عامة » ليس لوضع نظام للحكم كما فعلت هاتان الامتان فحسب ، ولكن لقلب جميع النظم العتيقة في كل ضرب من ضروب المحاولات البشرية في العالم كله في الدين والسياسة والاخلاق والاصول والمبادىء ووجهات النظر والمثل العليا ايضاً :

نعم هي ثورة عالمية عامة ولا يمكن ان يسمى ظهور الاسلام بغير هذا الاسم في عرف العلم الاجتماعي - مخضت العالم كله مخضة عنيفة اسقطت بها عروشا كانت مخلدة ، ونسفت صروحا كانت تحسب اثبت من الشواهق رسوخاً ونسخت لغات كانت تعد لغة الملاء الاعلى ، وغيرت خريطة العالم في سنوات معدودة تغييرا لم تحدثه الحروب في اجيال كثيرة ، وامتد تأثيرها الى الاصول الموروثة والمبادىء الممزوجة بالارواح والعقائد السارية في النفوس سرى الحياة ، فقلبتها راساً على عقب ومست الطوائف والفرق والجماعات التي كانت تعتقد ؛ ويعتقد الناس ان لها حقا في استعباد النفوس وتسخير العقول فزعزعت اركانها ، وبثت في مستعبديها كيف ينازعونها سلطانها . وسرت هذه الثورة الى العلم والفلسفة فاقمت دولة العقل والنظر الحر المستقل ، وجعلت الطبيعة وما نصب فيها من اعلام الحق مرجعاً لكل خلاف وميراثاً لكل حقيقة .

ان هذه الثورة عالمية محضة غير مصطبغة بصبغة محلية ، فكانت معدة لحالة جمود عقلي وتحجر كان الناس عليها منذ قرون . نادت بهم الى ان يكونوا في ايدي قادتهم اشباحا يستغلون قواها . ويسخرونها لشهواتهم ويدفعونها جماعات الى المجازر تحصيلا لفخر زائل ، او تثبيتاً لسلطان حائل او شفاء لحقد قاتل .

نعم هي ثورة عالمية غير محلية ، اما رأيت ان القرآن الكريم كان يوجه الخطاب الى الناس كافة لافرق بين ابيضهم واسودهم . وابعدهم واقربهم . فيقول :

يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

« يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » .

« يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » .

« يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » .

« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين »

ثم الم يكتب النبي صلى الله عليه وسلم الى الامم المعروفة على عهده يبلغهم انه ارسل الى العالم كله ، ويحملهم تبعه تداعسهم عن الاخذ بما جاء به ؟

لقد جرت سنة الخالق ان يفتتح كل دور من ادوار الانقلابات العالمية بحادثة جلى ترتج لها الارض ، وتميد رواسيها ميد ، ليثنى لمن اعمتهم الكبرياء واصمتهم الغشمرة من القادة ولمن خدرتهم الذلة . واماتتهم المسكنة من الشعوب . ان يفيقوا من غشيتهم وينتبهوا من رقدتهم ، هي ظهور « امة عالميه » تألفت في قاصية من الارض « وفي غفلة من الامم ، وفي بيئة ليست مظنة لانبعاث اية حركة محلية فضلا عن قارعة عالمية تملي على العالم ارادتها وتوجب عليه حركتها ، ولكنها في هذه المرة ليست بارادة المتغلب يهلك الحرث والنسل ، ولا بحركة الفاتح يستذل الامم والجماعات ، وانما هي صيحة الحق تنبه الامم الى وجودها وتوقظها من سباتها ، وتثير فيها قواها الادبية ، وتستجيش ملكاتها الفطرية ، وتعيد الحياة الى ما تحجر من غرائزها ، وتعطل من عواطفها ، وتحمل اليها نورا تستعين به مابين يديها وما خلفها ، وتهبها شعورا تدرك به القهر الواقع عليها من سادتها ، فهي فهي لاترى في هذه المرة جيوشا تنساح في بلادها وتهين مقدساتها ، وتنتهك حرماتها ، ولا قادة يجعلون جزرا للقشاعم في ساحاتها ، وخولا اذلاء امام اعينها ، ولكنها ترى اخوانا يأتون لنجدتها ، وايقاظها من رقدتها وتخليصها من ايدي قتلتها ، وقد ادركت هي ذلك فشرعت تستدعيهم لتحريرها ، ولم يؤثر مثل ذلك عن الامم من قبل .

وما ان استقر للمسلمين المقام في بلادها حتى شرعوا يقيمون العدالة في مواطنها ، ويسنون بسنة الانصاف في معاملاتها ، ويشيدون دور العلم لانفسهم ولها ، ويستخرجون ما دفن من الكنوز العقلية لاروائها ، ويستعيدون ما درس من فنونها وصنائعها ولم يجبروها على ترك دينها ، ولم يحرموا عليها اقامة شعائرها ، ولم يهدموا معبداً من معابدها ، فكانت حركة لم يحلموا بمثالها ، وحالة لم ينعموا بشبيهها ،

وكان ما بقي من اجزاء العالم التي لم تطأها اقدامهم قد احست بهذه الرجفة العنيفة حولها فهبت لتجمع قواها لدرء ما كان يدعوه فاذا بها خطراً على وجودها ، فنبه ذلك شعوبها للنظر ، ودفعها الى اليقظة والسهر ، ثم ما عتمت ان رأت على مقربة منها انواراً تتألق . ومعين حياة يتدفق ، وكرماً للعاشين اليه ، والحائمين حوله ، وايدياً تمتد اليها بالترحيب ، ونفوساً تتلقاها بالرحمة ، فكان رجال منها يترددون الى بلاد المسلمين يعبون من مناهلهم ، ويستنيرون بمعارفهم . ثم يعودون الى بلادهم عاملين على ايقاظ اقوامهم ، واحياء موانهم ، وما هي الا سنين حتى عمت هذه الحركة المباركة اكناف الارض ، وحدث بسببها في الشعوب بعدها ما حدث من الاصلاحات الدينية والنهضات العقلية والعلمية التي تولدت منها المدنية العصرية .

فهل كذب مؤرخوهم حين قالوا ان اول جامعة اسست في بلادهم كانت بايدي المسلمين .

وهل غلوا في دعواهم ان المسلمين كانوا اساتذتهم ومعلميهم ؟

* * *

هذه الثورة العالمية العامة التي قام بها الاسلام اختار الله ان يكون مصدرها جزيرة العرب حيث لا توجد حياة اجتماعية ، ولا علوم عقلية ولا نقلية ، ولا عمران ولا مدنية ، فهي زاوية من الارض قاحلة كانت قد استنفدت كل مواردها في تنازع البقاء ، والتناحر على احقر الاشياء . لم يقم فيها قائم بدعوة الى الاجتماع فضلا عن الانتداب لاحياء الامم وبعث الرمم ، وهذا ما حمل عاهل الفرس اذ ذاك وقد قرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي وجهه اليه لدعوته الى الاخذ بما جاء به ، على ان يمزق ذلك الكتاب ويقذف به وجه حامله .

* * *

في هذه البقعة شاء قيم الوجود ان يؤلف امة لا على طراز الامم ، ولا على الاصول المقررة لها ، ولكن على غرار لم تقم على مثله امة حتى اليوم ، « امة عالمية » لا تقوم على الجنسية ولا على الرابطة اللغوية ، ولا على التقاليد القومية ، ولا على الوشائج التاريخية ، ولكن على المبادىء الانسانية الخالدة ، والحقائق الاولية العامة

بحيث تمتزج فيها الاجناس بالاجناس ، وتختلط الاصول بالاصول وتندمج الميول في الميول ، لاتفرق بينهـا الالوان ، ولا يعتد فيها باختلاف الموالد والبلدان ، تجمعها اخوة الادمية وتضمها رابطة الفضائل النفسية ، فتتضافر على بلوغ غرض عال هو الكمال باخص معانيه ، وتتعاون على تحقيق مراد سام هو الاصلاح العام للجماعات الانسانية .

* * *

تألفت هذه الامة تحت املاء القران ورعاية محمد عليه الصلاة والسلام فكان فيها الزنجي والديلمي والهندي والفارسي والعربي ، وغيرهم ممن كانت تفرق بينهم الاجناس والالوان ، في بحبوحة من الوحدة والاخاء تحركهم روح واحدة الى تحقيق غرض جلل لم تندب لمثله ولا لما يقرب منه امة الى اليوم ، ولم يطف بخيال مصلح من قبل ولا من بعد .

ان اية ثورة قامت في الارض لم تتخط دائرتها الى مرام عالمية ، ولم تعن بشيء غير المصالح المحلية . ولكن الثورة الاسلامية التي سبقت اقدم ثورة بقرون كثيرة قامت على مبادىء لم تقم عليها اية امة تعتبر اقصى ما يمكن ان تتخيله فلسفة انسانية فمحقت الفوارق بين الاجناس ، والامتيازات بين الطبقات ، والحقوق المغتصبة للطوائف ، والاوهام الموروثة بين الجماعات ، والحواجز الوهمية بين الالوان ، فصبت العالم كله في قالب فذ ، ظهرت على اهلهـا بسبب ذلك مدهشات تشبه المعجزات ، فتألفت من هذه العناصر المختلفة لاول مرة في تاريخ البشر اخوة عامة بين القطر المتباينة آنت ثمراتها في سنين معدودة كانت اعمالا ضخمة لم يسجل تاريخ الانسانية مثلها في تاريخ اية امة من الامم . فرأينا من كانوا في امسهم عبدانا سودا . وموالى اذلاء ولاة وملوكا وأئمـة وقادة ، وشهدنـا الذين كانوا افرادا في شعوب ورائة الاحقاد امادا طويلة اخوانـا متماسكين بارقى الروابط الادبية ، لتحقيق اغراض عالية لم تطف في خيال اكبر الفلاسفة من قبل .

ألم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم بلالا الذي كان مملوكا حبشيا واليا على المدينة ؟

ألم يول اسامة بن زيد وهو واحد الموالى قيادة جيش كان فيه ابو بكر وعمر ؟

ألم يكن عبادة ابن الصامت سفير المسلمين الى المقوقس اسود فاحم اللون ، حتى قال عاهل القبط ابعدوه عني وقدموا غيره ، فقال له اعضاء وفده لانستطيع ذلك لانه رئيسنا وافضلنا عقلا واسدانا رأيا .

ألم يقل عمر وهو يجود بنفسه وقد شغله امر خلافته ، والله لو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا ما جعلتها شورى ؟

ألم يتول كافور ملك مصر وكان مملوكا زنجيا وفيها عدد لايحصى من ذرية النبي ونسل علي ولم يعترض على ذلك احد ؟

ألم يول النبي صلى الله عليه وسلم رجالا من الفرس والديلم الولايات والخطط في بلاد العرب الذين كانوا الى عهد قريب من ذلك يحسبون حسابا دقيقاً للفروق القبيلية ؟ فماظنك بالعبدان السود . ومن لا يعرف له اصل من جالية الامم .

ألم تك جمهرة أئمة الدين وعلمائه واصحاب الحديث من امم شتى ؟

تلك بعض آثار الثورة العالمية التي قام بها الاسلام قبل نحو اربعة عشر قرناً . فاذا كانت الامم تنقب عن اصولها الماجدة واعمال آبائها الخالدة ، وآثار قدمائها في ترقية الانسانية ، فأي سابقة لامة تعلو هذه السابقة ، واي مجد بعد هذا المجد الباذخ ؟

فاذا لم يبحث كتابنا في القرآن وهو ينبوع كل هذه الاصول العالمية ، فاي موضوع للبحث اعظم منه في نظرهم ، واعود فائدة منه على امتهم ؟

واذا كان محمد لاتدرس شخصيته وهو الذي قام باضخم عمل سجله التاريخ لواحد من البشر ، فأية عبقرية يجب ان تدرس وتحلل قبل هذه العبقرية .

هذا امر عظيم يجب ان يتناوله كتابنا بالبحوث المستفيضة ، وان يتدارسوه وينشروا عجائبه بين البشر لانه اكبر الحوادث التاريخية واولاها بالعناية . وافعل في اعادة مجد هذه الامة من كل محاولة يقوم بها اهل الثقافة في هذا العهد الذي تفخر كل امة فيه بماضيها . وتعمل على تسجيل مجدها باحرف بارزة في صفحة الوجود .

الوحدة الإسلامية

للاسلام عنايـة بامر الوحدة ، واهتمام بما يحفظها ، ورغبه في اجتثات منابت الفرقة ومناشيء النزاع ، ذلك واضح في تعـاليمه المتعلقة بالعقائد والاداب وقانون التعامل واحكام التقاضي وضروب العبادة ، ففي الصلاة امر بالتوجه لقبلة واحدة وكان نظام الصلاة ولوازمها واحدا ، وكذلك امر بصيام شهر واحد معين،وجعل نظام الصيام واحدا ، كذلك كان شأنه في امر الزكاة فمقاديرها واحدة ومصاريفها واحـدة ، وكذلك شـان الحج . مشاعر واحدة وتكاليف متحدة . وما كان ذلك الا لجمع القلوب وربطها بروابط متحدة كي لاتجد الفرقة سبيلا الى النزول بأي موطن من مواطن العبادة ؛ واي ضرب من ضروب التوجه والاخلاص للواحد الاحد : اما العقائـد فهي واحدة فيما يتعلق بالآله وما يتعلق بالرسـل . وما يتعلق بالدار الاخرة . وواضح ان العقيدة متى كانت واحـدة . وكانت العبـادة واحدة ارتبطت القلوب والمـدارك بزباط واحد . واتجهت لجهة واحـدة فكان الاتحاد متيناً ويئست الفرقـة من ان تجـد لهـا مكانا . وخاصة اذا كانت الاحكام المتعلقة بالتعامل ووجوه التصرف في الاموال وطرق الفصل في الخصومات ووجوه تأدية الشهادات واقامة الادلة والبينات – متحـدة متماثلة : وتلا ذلك اتحاد ما حثت عليه الشريعة من مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم . فان هذا جميعه ينتهي الى وحـدة في العقيده . ووحدة في طرق العبادة . ووحدة في النظام المدني ، ووحدة في الاداب ووحدة فيما يرجع الى القوانين المحافظة على الامن والكفيلة بصيانة حقوق الافراد والجماعات .

ومتى تحققت الوحدة في تلك الشؤون توحدت مقاصد الامة . وارتبطت بعروة وثقى تجعلها بمنجاة من التفرق . ومفازة من الاختلاف ، فـلا خلاف في العقيدة ، ولاخلاف في شؤون العبادة ، ولا خلاف في القوانين المدنية ، ولا خلاف فيما يرجع الى الاخلاق والاداب ، فتتحد الميول ، وتتفق المشاعر ، وتتماثل المدارك ، وتصبح الامة عبارة عن جمعية منظمة لها غرض معين تسعى اليه بقلوب متحده . واراء

متماثلة . ومتى اجتمعت القلوب والعقول على ادراك مقصد معين ادركته لامحالة . وخاصة اذا اهتدت بكتاب « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وسنة معصومة من الخطأ .

ذلك هو دين الاسلام قول الحق الذي فيه يمترون .

وضع الاسلام اسس الوحدة وناط حمايتها بالامام وجعله حارس العقيدة . ووكل اليه سياسة الدنيا بما ورد به الدين ، والعقيدة كما قدمنا واحدة ، ووظيفة الخليفة هي المحافظة على تلك الوحدة ، ومنع الاعتداء عليها والوقوف في وجه الفرقة مخافة ان تتسرب الى العقيدة وتدخل اليها من ناحية من نواحيها . اوتطرقها من جهة من جهاتها فيضعف اساس من اساس الوحدة ، ويتداعى ركن من اركان الالفة .

ويلي تلك الوظيفة من وظائف الامام وظيفة اخرى هي سياسة الامة في فروع حياتها بما وردت به الشريعة : والاحكام العملية وان كان الخلاف قد وقع فيها بين المجتهدين ، الا ان الاسلام جعل للامام ميزة هامة ترفع هذا الخلاف وتجعله عديم الاثر . قليل الخطر . غير مؤد الى الفرقة . فتقررت فيه قاعدة جليلة مؤداها ان حكم الحاكم يرفع الخلاف بين المذاهب . ويمنع الفتوى بغير ما قرره الحاكم ويجعل صاحب الرأي ملزماً بتنفيذ ما قرره الحاكم وواقفاً عند الحدود التي حددها . فوحدة التشريع في يد الامام وبذلك زال خطر الخلاف الواقع بين المذاهب . واضحت الوحدة في التشريع مصونة بما للامام من حق رفع الخلاف اذا حكم . وفصل النزاع متى امر . فهو اذن حارس العقيدة وهو بعد ذلك حامي وحدة التشريع .

فصيانة الوحدة في العقيدة ، وفي تشريع الاحكام من وظائف الامام . ومتى علم خطر تلك الوظائف وقيمتها . وقدر حق قدره . ووزن بميزان عادل تبين ما للخلافة في الاسلام من مكانات الشرف . ومنازل الرفعة . وظهر ان اليها يرجع الامر كله في حماية الوحدة الاسلامية ، واذا كانت الوحدة هي اهم مقاصد الملة . وكانت محل عناية صاحب الشريعة مدة حياته كانت حمايتها ايضاً من اهم مقاصد الملة . وكانت الوظيفة التي تكفل القيام بتلك الحماية وهي الخلافة كذلك من اهم

مقاصد الملة، وكانت منزلتها بالنظر للاحكام والعقائد بمنزلة العقل المدبر والحارس الامين من اجل ذلك كان اهتمام الصحابة لاحد له بمسألة الخلافة فقدموه على دفن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وعنوا به عناية من ادرك روح الاسلام . وعلم ان صيانة الوحدة معقودة بوجود امام يحرص على العقيدة . ويقوم على حفظ الملة فبحثوا وناقش بعضهم بعضاً وسهروا الليالي وتناسوا مصالحهم الشخصية وتجنبوا حظوظ النفس واهواءها حتى خلصوا للمصلحة العامة وكانوا طلاب هدى فهداهم الله الى حكومة لم تر عين الزمان لها مثيلا منذ نظرت الى هذا الوجود . ولم يروجه الارض نظاما تقررت فيه المساواة كاملة غير منقوصة في جميع فروع الحياة ووجوهها المختلفة كذلك النظام الذي نفذته حكومة الخلفاء الراشدين .

وعندما ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم . ابلغ النبي صلى الله عليه وسلم رسالته بامر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر واخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سننه الائمة من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة . فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على ايديهم وانها لو ابه على تلك الامم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال اهبتها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب اوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين واباحوا لهم البقاء على اديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين . ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه اهلهم واموالهم وفرضوا عليهم لقاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينه وكانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينهم يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر . وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة . ولم يقع ذلك لفاتح ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل في نشره ويقفون مساعيهم على بث عقائده بين غير المسلمين . بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عاداهم ومحاسنتهم في المعاملة حتى شهد العالم باسره ان

الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا وقد رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى اربابها . وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغيره حتى بلغ الامر بالمسلمين فيما بعد ان لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد انه اسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا ووصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال اولئك العمال صد عن سبيل الدين لاحالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض اهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى اعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا فاشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوروبا فراراً منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها .

هذا ما كان من امر المسلمين في معاملتهم لمن اظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى انهم حملوا الى اولئك الاقوام كتاب الله وشريعته ، والقوا بذلك بين ايديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه . ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئاً من القوة . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل آداءه على من ضربت عليه مما حمل اهل الاديان المختلفة ان يقبلوا على الاسلام ، واقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه افواجاً . وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب انفسهم .

وان من يطيل التفكير في ماضي الاسلام يدرك ان قوته كانت معقودة بقوة الخلافة . وان قوة الخلافة كانت مربوطة بصيانة الوحدة في العقيدة وفي التشريع وفي آداب السلوك في الحياة . وان شيئاً من ذلك متى ضعف باهمال الخلفاء وغفلتهم عن رد عادية المعتدى على تلك الوحدات التي عنيت بحمايتها الشريعة تبعه لا محالة ضعف المسلمين وتسلط الاجانب على بلادهم في الايام الاخيرة او وقوف الفتح وانتشار الدعوة في القرون الاولى .

سار نظام انتشار الدعوة في زمن الخلفاء الراشدين سيراً مضطرداً الى ابتداء الفتنة في زمن عثمان . و في ذلك الوقت وقف انتشار الدعوة الى ان كان عام الجماعة. وارتبطت القلوب برباط واحد في عهد معاوية . فرجع النظام في نشر الدعوة سيرته الاولى . ومشى بخطوات الجبابرة. وتقدم تقدماً مضطرداً في نواحي الارض الى ان اختلف المسلمون في ايام يزيد فوقف انتشار الدعوة واهمل امر الفتح الى ان تم الامر لعبد الملك وارتبطت القلوب مرة اخرى برباط واحد . وهنا اضطرد سير انتشار الدعوة وعم الاسلام مشارق الارض ومغاربها ولكنه كان يقوى متى قويت عناية الخليفة بتنفيذ اوامر الملة . ويضعف متى ضعفت تلك العناية . ولكنه موجود لوجود الوحدة الى ان تأذن الله بانقراض الخلافة الاموية . وتبع ذلك استقلال الاندلس استقلالا نهائياً على يد عبد الرحمن الداخل فكان هذا الاستقلال اول محطم لجزء من اجزاء الامبراطورية الاسلامية . وعلى الرغم مما بذله الامويون في الاندلس على الجهود في سبيل تقدم بلادهم ورقيها وسعادتها فان استقلال الاندلس مثال احتذاه الطامعون من ذوي المطامع واصحاب الرغبة في ايجاد ممالك ، فاستقل اعظم جزء من شمال افريقيا . واستقلت اجزاء في اواسط آسيا وكان من آثار التمزيق في المملكة ان انصرف ذوو الهمم الى الانفراد بجزء من اجزاء الامبراطورية وصرفوا عزائمهم في تنميتها بعد ان كانت تلك الهمم لا تصرف الا في حماية الامبراطورية الاسلامية وتنميتها وتوسيع رقعتها ، ومد ظلها على اجزاء جديدة من الارض .

وفي ظل هذا الانقسام والتفرق ظهرت المذاهب الخطرة وحاولت احداث بدع جديدة في الاسلام فضعف شأن الوحدة لضعف القوة الحامية . ولو ان القوة الحامية ظلت ساهرة على صيانة الوحدة ومنعت الاعتداء على العقيدة وحافظت على وحدة التشريع بما لها من حق رفع الخلاف . وقامت بتوحيد القلوب وحرصت على توحيد الروابط . ووقفت في وجه البدع الطارئة لظل انتشار الوحدة مضطرداً . ولما حصر داخل حدوده الحاضرة ولما ظهر الضعف والتقهقر في الامبراطورية الاسلامية فالخلافة في الاسلام هي اجماع الوحدة . وهي الحافظة والحارسة للالفة . وهي القادرة على ان تجعل من المسلمين جمعية منظمة لها غرض واحد تحصر جهودها في السعي لنواله كما عملت في الصدر الاول

التشريع والقضاء في الأردن

لا ريب في ان الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون لوفرة ابحاثها وغنى افكارها ؛ وليس يخاف على الناس عامة ورجال القانون خاصة ما اوردته الشريعة الاسلامية خاصاً بالمعاملات والتصرفات من بيع وايجار وهبة ووصية وميراث واثبات .

ولو رجعت الى قولة تعالى [يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً او لا يستطيع ان يمل فليملل وليه بالعدل ...] لرأيت وجوب اثبات الدين . ولخرجت من الآية بكل ما يتعلق بالقوام والوصاية من قواعد وحكمة في التشريع ، ثم قال تعالى [واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى] فنظم قواعد الشهادة وأوجب في آية اخرى ادائها ، ورتب الجزاء على كتمانها . فقال [ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه] .

* * *

بناء المجتمع

وعني التشريع الاسلامي اشد العناية بالاسرة فأقامها على احكم الدعائم ، اذ يمكننا بكل طمانينة ان نقول ان للمرأة المسلمة حقوقاً اوسع ، وشأناً اكبر من المرأة الاوربية . فمن المقرر ان المرأة المسلمة هي صاحبة السلطان في التصرف في اموالها وليس الحال كذلك في القانون الفرنسي . فكل تصرف لا تستأذن فيه زوجها باطل .

وجعل اختيار الزوجة امراً متروكا للزوج ، كما جعل امر اختيار البنت امراً متروكا لها ، ولا بد ان تبدي فيه رأيها ، وان مايتداوله الناس غير ذلك خطأ محض

ففي صحف التاريخ ان رجلا قدم الى النبي صلى الله عليه وسلم واخبره انه عازم على الزواج . فقال له انظرت الى خطيبتك ؟ قال لا . قال له : فاذهب وانظر اليها فان ذلك احرى ان يؤوم بينكما » .

فالزواج ان لم يكن نتيجة اختيار فلا دوام له . اذ لابد له من تألف وتقارب في المشارب والاخلاق والعادات والطباع. والا انحطت الحياة الزوجية وتفككت عرى الاسرة وهي بناء المجتمع .

تعدد الزوجات

وقد هوجمت الشريعة الاسلامية لوجود نظام تعدد الزوجات والطلاق فيها فقالوا : ان تعدد الزوجات يؤدي الى توزيع جهود الزوج وتفكك الاسرة ، والواقع ان هذا القول بعيد عن الصواب . اذ الشريعة الاسلامية لم تبح تعدد الزوجات الا لقادر عادل . فقال تعالى « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » وليس العدل بين الزوجات امراً سهلا . ولذلك يحجم كثير من العقلاء عن تعدد الزوجات هذا ولا يخفى ان من طبيعة تكوين الانسان التغيير . فلم تبح الشريعة الا خشية الوقوع في المفاسد والادران . فمن اكتفى بواحدة فذلك افضل عند الله بل خير وابقى .

* * *

ان الاسلام لم يبتدع تعدد الزوجات وانما قلله ونظمه ؛ فقد كانت العرب لاترى قيداً في التعدد ولا وقوفاً عند حد ، فألزمهم الله تعالى الاقتصار عند الضرورة الماسة على ذلك العدد مع استعمال القيود اللازمة من عدل في النفقة والكسوة والمبيت وعدم المضارة والمضايقة والميل الظاهر . كما قال عليه الصلاة والسلام :

[من كان له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيمة وأحد شقيه مائل] .

وما كان في الديانة المسيحية من الاقتصار على واحدة فذلك عقوبة لبني اسرائيل حيث اسرفوا في التعدد بعد ان رخص لهم الله فيه حيث قل الرجال وكثر النساء بما كان يصنع فرعون وقومه من قتل ابنائهم واستحياء نسائهم .

اما اسرار ذلك التعدد فمنها :

١ — استعداد الرجل للتناسل طول عمره ، وعدم استعداد المرأة بعد سن اليأس قد يفوت الولد على الرجل في اخر ايام حياته سيما اذا مات بعضهم اوكلهم والولد مطلوب في كل آن ، فالاتيان باخرى ولود قد يكون من اشد المطالب واهمها .

٢ — من الرجال من تغلبه شهوته خصوصاً اذا طال النفاس او كانت المرأة محياضاً ، فيقع بين امرين : مخالطة المرأة في الحيض والنفاس ، او الوقوع فى الزنا جهاراً او باتخاذ السراري .

٣ — قد يربو عدد النساء على الرجال بحرب او غيرها ، والنساء لاغنى لهن عن الرجال للاحصان والنفقه والقيام بمهامهن فان منع التعدد كان فتنة وفساداً .

٤ — لابد للامة من ايد عاملة . ورجال يدفعون عنها شر الاعداء ، ولا يتم ذلك الا بكثرة النسل الناشيء عن التعدد ، وكم امة حرم دينها التعدد ، ودث — من هذه الناحية — ان لو اطلق لها المعنان بعد ان احست الحاجة الى السواعد القوية والقوى المفكرة .

* * *

واما اسرار الوقوف في التعدد عند حد الاربع فمنها .

١ — موافقة هذا العدد لاخلاط البدن المتولدة عنها انواع الشهوة المستوفات غالبا بهن .

٢ — موافقة المصادر الاصلية للثروة . وهي الزراعة والصناعة والتجارة والامارة

٣ — اذا كان القسم على اقل زمن ممكن وهو ليلة لكل من الزوجات بعدت المرأة عن زوجها ثلاث ليال وذلك يشوقها الى زوجها ويبعد الالفة بينها وهي من مقاصد النكاح الشريفة .

الزواج والطلاق

اما الطلاق فلحكم كثيرة شعرت امم اوربا بها في العهد الاخير وعرفت موضع

الداء والدواء . فاباح القانون الفرنسي الطلاق . وكذلك فعل القانون الامريكي رغم ان المسيحية لاتبيح الطلاق . وذلك لانه قد يجد بين الزوجين من الامور الخلقية او العيوب الجسمية ما يستوجب الانفصال ، فكيف يسلم العقل باجبار الزوج على الاستمرار في الزوجية مهما لاح له اوبدى من سقم اوعلل او نشوذ او سوء في المعاملات والاخلاق ؟ ؟

ومن المعلوم ان الزواج ما خلق الا ليروح عن الزوج تعب الحياة والامها . ويجد في زوجته خير شريك له وخير الیف ، ان حل به الهم فرجته وان نظر اليها سرته . وان غاب عنها حفظته . وان امرها اطاعته « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

* * *

وليس تحريم الطلاق الا ضرباً من ضروب السجن الابدي الذي يهيئه سوء الحظ للزوج المنكوب . وان ابسط نتائج هذا التحريم لهو الضلال والهروب من البيت الى حيث يجد تسلية وسلوى .

وقد كانت الشريعة الاسلامية امراً وسطا بين اليهودية والنصرانية اذ الاول يستوجب والثانية لاتستوجب الزواج انما تحرم الطلاق،وجاءت الشريعة الاسلامية تحث على الزواج للقادر عليه . واحاطته بسياج من نور ، وحفظ للزوجة حقوقها في الميراث والنفقة . ولم تحرم الطلاق للحجج التي اوردناها ، ولا الزواج على رجال الدين كما فعلت المسيحية تمشيا مع طبيعة تكوين الانسان ، ولايبعد عن الذهن ان منع الزواج عند رجال الدين يعرضهم الى مالا تحمد عقباه من ضياع السمعة والكرامة . وهم اولى الناس بالمحافظة عليها .

* * *

ومما يؤيد قولنا ان « جستاف لوبون » اورد في كتاب له : ان تعدد الزوجات على امثال ما اورده الاسلام من افضل النظم وانهضها باداب الامة التي تعتصم بمكارم الاخلاق . حتى قال : ان المرأة المسلمة اسعد حالا من اختها الغربيه » .

تلك حكمة موجزة عن اثر الشريعة الاسلامية في الاسرة والمعاملات .

الاداب والاخلاق

اما اثر الشريعة في الاداب والاخلاق فالبحث فيه امر مستفيض ؛ فقد امر الدين باتحاد الكلمة والجهاد في سبيل الله . والصدق في القول . والاخلاص لله . ثم عنى باداب الكلام والجلوس والاكل حتى كان المسلمون لايبدأون الكلام الا اذا بدأ الرسول كما كان يفعل الا اذا ضمتهم اكلة واحدة؛ وكان عليه الصلاة والسلام المثل الاعلى في الحلم وسعة الصدر وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيما .

العدل والعفاف والحلم

والعدل هو اساس الملك كان اول ما عنى به الاسلام [ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها . واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل] وقال: [ولا يجرمنكم شنآن قوم ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى] .

وقال : [ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من اموال الناس بالاثم وانتم لا تعلمون] .

وتحدث الناس بخلق النبي عليه السلام حتى شهد القرآن بهذا الخلق فقال تعالى: « وانك لعلى خلق عظيم » وفي حديث له : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » فكان نبراساً لعظمة الخالق اهتدى الكون لصفاته وكان لهم فيه اسوة حسنة . فسلكوا مسلكه واتبعوا سنته .

* * *

والعفاف وعلو الهمة من اخص الصفات التي اورثها المسلمون للناس . ثم اللطف في القول واخذ الناس في الحسنى من اهم ما عنى به كذلك « لو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك . »

* * *

وكذلك رغب الاسلام في الحلم « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله ان الله لا يحب الظالمين .

أوائل المشترعين في الاسلام

وكان الصحابة بعدعصر الرسول يقضون بالاحكام الفقهية تبعاً لاحكام القرآن واقوال النبي وافعاله ، فلم يكن هناك حركة فقهية بالمعنى العلمي المعروف . ولكنهم كانوا يقضون بالاجتهاد والرأي واتباع الرسول تبعا لاحوال البلاد المفتوحة بشرط ألا يتعارض قضاءهم مع الكتاب والسنة الصحيحة ، وان يبنى على اساس القواعد العامة فيها .

ولم يكن الصحابة على حال واحدة من الفقه والقضاء بعد النبي عليه السلام . بل اختلفت احوالهم تبعاً لاختلاف علمهم وشجاعتهم الادبية وطول ملازمتهم للرسول . ولكننا لا نجد بينهم امضى في الفقه من عمر بن الخطاب . فكان يمضي فيه على اجتهاد ورأي ومعرفة . ولقد تمت على يديه بعض مبادىء في الفقه والتشدد في الرجم ، والحد في الخمر ، وصلاة التراويح جماعة ، والنهي عن التمتع في اشهر الحج . وهي مبادىء تدل على اتساع نظر هذا الخليفة الفقيه . وعلى جرأته كما حدث في عقوبة الرجم في الزنى . فقد تشدد في تنفيذها واوصى بها ، واستدل بما سمعه هو وغيره من الصحابة من رسول الله ، وبما رأوه من عمله ، فقال عمر : « لقد خشيت ان يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة انزلها الله . الا وان الرجم حق على من زنى وقد احض اذا قامت البينة او كان الحمل او الاعتراف ، الا وقد رجم الرسول ورجمنا من بعده ، ولم يخالف في الرجم الا بعض الخوارج وبعض المعتزلة ، ثم استقر اجماع المسلمين على وجوب الرجم .

اما حد الخمر فهو عند عمر ثمانون جلدة ، وقد كان العمل قبله يجرى على خلاف ذلك فقد كان الشارب في عهد النبي وابي بكر واول عهد عمر يضرب بالايدي والنعال والاردية . فجعل عمر حده اربعين جلدة ثم زاده الى ثمانين : ويعد عمل عمر في هذا من باب التعزير . وقد الجأه اليه شدة الحاجة اليه لانهماك الناس في الشراب .

اما جمع الناس على التراويح في رمضان فقد روي عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثر الناس . ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة او الرابعة فلم يخرج اليهم رسول الله ، فلما اصبح قال . رايت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج اليكم الا اني خشيت ان تفرض عليكم ، وذلك في رمضان » .

فلما جاء عمر خرج فرأى الناس اوزاعاً يصلون في المسجد فجمعهم على صلاة التراويح ، ولعل شخصية عمر القوية وقوة عزيمته كانتا افعل الاسباب في اخذ الناس بما لم يألفوه في عهد الرسول والصديق . فلو كان غير عمر ما استطاع ان يستحدث في الاسلام مالم يحدث في عهد سلفيه الا انه جمع الى صفة الامام الحاكم صفة الفقيه المشترع ، وكانت هذه الصفة اكبر عون له على مواجهة الناس بما لم يعهدوه في عهد الرسول :

ولقد عد بعض الناس عمله هذا بدعة جديدة في الاسلام ولكنه هو نفسه رد عليهم ذلك رداً حاسماً . فانه لما رأى الناس في المسجد مجتمعين حول ابيّ بن كعب يصلي بهم التراويح قال : «نعمت البدعة هذه ؟» والبدعة هنا هي الجماعة في التراويح فقد امتنع النبي عنها خشية ان يشق على امته افتراضها عليهم . والبدعة هنا كذلك هي زيادتها الى عشرين ركعة ، وقد كان النبي لا يزيد في النفل على احدى عشر ركعة.

ولم يكن عمر رضي الله عنه يحكم في الامور استبداداً برأيه ، بل كان يشاور الصحابة ويناظرهم حتى ينكشف وجه الحق . ولهذا وجدت فتاوية من المسلمين صدرا رحبا وقبولا كثيراً ، فلم يتحرجوا بها ولم يضيقوا . على خلاف علي كرم الله وجهه الذي كان يتابعه اهل الكوفة . وكان عند عمر من المرونة الفقهية ما يجعله فقيها بطبعه .

وكان للراي والاجتهاد عنده اعتبار كبير ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ويتعصب لمذاهبه ، حتى قال : «لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر واديا وشعبا . لسلكت وادي عمر وشعبه » وبلغ من ثقة عمر

فيه ان ارسله الى الكوفة ليعلم اهلها ويفقههم ، وقال لهم : لقد آثرتكم – بعد الله على نفسي .

ولم تكن حياة ابن مسعود في الكوفة اخلاداً الى السكون وركونا الى الدعة بل كثيراً ما ملأها بعلمه ومناظراته وفتاويه .

وهناك فقيه رابع من فقهاء الصحابة واعلمهم واجدرهم بالتصدر للفتيا والقضاء هو زيد بن ثابت . وتأتي منزلته في الفقه من طول ملازمته للنبي عليه السلام . وكتابته الوحي . وقد امتاز بالامانة في النقل والتعمق في الفقة . ولهذا وثق به عمر واستخلفه في كل سفر . ولقد فرق عمر الناس في البلدان واستبقى في مدينة الرسول زيداً ، فهو اثير عنده . فريب منه يرجع اليه في الغامض ، ويستشيره في الامر العارض ويقدمه على كبار الصحابه ولا يقدم واحد منهم عليه . وكذلك كان مع الخليفة عثمان . وقد شهد له سعيد بن المسيب ازكى شهادة .

* * *

اما عبد الله بن عباس فقد كانت له في الفقه قدم راسخة شهد له الكثير بالعلم والفقه والتضلع من العربية والتمكن من الشعر والفهم لكتاب الله والتثبت من الحساب والفرائض وكان عمر يعظمه ويجله لا لقرابته من رسول الله ولكن لعلمه وفضله .

وهو احد الستة الذين هم اكثر رواية عن النبي . وهم ابو هريرة وابن عمر . وجابر . وابن عباس . وانس . وعائشة : واذ اختص انس وابو هريرة بالرواية فقد جمع ابن عباس اليها الفقه والعلم . فهو من اوائل فقهاء الاسلام . وكان لغزارة علمه يقيم في مكة فتشد اليه الرحال . ويقصده الطلاب من جميع الاقصار ، وكان هو وابن مسعود وزيد بن ثابت الثلاثة الذين يقولون الصحابة بقولهم في الفقه ويعتدون بكلامهم .

وقد شهد له العلماء جميعاً بغزارة العلم والتبحر فيه . وممن ذكره منهم على ابن المديني ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن طاهر والازرقي صاحب كتاب مكة . وله غير ذلك اخبار طوال في كتب التاريخ والطبقات .

واذا صح ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي وعمر بن عباس ثلاث عشر سنة في رأى ، او خمس عشرة سنة في قول ابن حنبل ـ اذا صح ذلك كان عجيبا ان يعد ابن عباس من اكثر الصحابة رواية للحديث . وموضع العجب ان تسمح له حداثة سنه بحفظ قدر من الاحاديث يضعه في مصاف الستة الكبار من رواة الحديث . ولكن العلم لا تمنع منه حداثة ، والفضل لا تقف دونه طراوة السن . وقديماً قال الشاعر :

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

* * *

وهناك عبد الله بن عمر ، ولكنه يختلف عن ابن عباس . فابن عباس كثير الرواية . كثير الفتوى ، وابن عمر قليل الكلام قليل الفتوى . ولكن اقلاله من القول والفتوى لم يمنع من قيمته الفقهية . فهو يقيم بالمدينة . ويفد عليه الوفود من الناس بغية الاغتراف من علمه .

* * *

ولشأ الاقدار السعيدة ان يكون للمرأة المسلمة حظ المشاركة في الحركة الفقهية القائمة في مكة والمدينة وغيرها بعد وفاة الرسول . فليس الفقه خاصا بالرجال . ولا وقفاً عليهم فترى السيدة عائشة تشترك مع الرجال في رواية الحديث . وتراها الاكثر رواية لحديث الرسول وترى خلقاً كثيراً من الصحابة والتابعين يروون عنها . ولم يصح انها دخلت الشام .

هؤلاء السبعة هم اكثر الصحابة اشتغالا بالفقه بعد وفاة الرسول . وكان عمر اعجبهم في هذا . فلم تشغله الخلافه عن الفقه . وهو في احكامه رحب الصدر لا يضيق بالنقد كما يفعل ضيقوا العطن : وقد يخطىء في المسألة فيعترف بالخطأ ويقول اصابت امرأة واخطأ عمر : ويكتب كتابا في مسألة « الكلالة » في الميراث ثم تحضره الوفاة . فيمحو الكتاب ويقول لاصحابه : « ترون في الكلالة رأيكم ».

وكان من الطبيعي ان يحدث اختلاف بين فقهاء الصحابة في بعض المسائل ، وهو خلاف لا يرجع الى صلب الدين الاسلامي نفسه . فذلك مالا يقول به منصف

ولكن مرده كان الى فهم الفقهاء والى اختلاف البيئات ، والى تفرق الصحابة في الامصار . فكان كل منهم يفتي بما رأه عن النبي او سمعه ، والى تأخر تدوين الحديث

ولكن هذا الخلاف كان فيه بعض الخير ان لم يكن فيه الكثير منه . فقد كان تمهيداً لمدارس الرأي التي ظهرت بعد ذلك . والتي كان الجدال بينها مشهداً من مشاهد الحركة الفكرية في الاسلام .

* * *

فلله ذلك الدين الذي يسرق احد الناس في عصر صاحبه ، فيهم عليه الصلاة والسلام بان يقيم عليه الحد ، ثم يأتيه اعز الناس عليه وأقربهم اليه « اسامة » ويريد ان يشفع للسارق . فيغضب عليه السلام ويقول له في شدة وحدة : « لاتشفع في حد من حدود الله يا اسامة ؟ والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

دين يأمر عمر بن الخطاب امير المؤمنين واعظمهم واكبرهم . يأمره ان يقيم الحد على ابنه وفلذة كبده فيقيمه عمر بدون محاباة او مداجاة ، راضي النفس مطمئن الخاطر ، هادىء القلب ، ممتثلا امر الله الواحد القهار ، ذلك الدين القيم . دين العدالة والقداسة والمساواة .

المساواة في مجلس القضاء

امر الاسلام ان يسوي بين الخصمين في مجلس القضاء ، مهما عظم احدهما وحقر الآخر . ومهما كان احدهما صغيراً والآخر اميراً . حتى انه ليس للقاضي ان يجعل احدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، لان في ذلك امتيازاً لصاحب اليمين ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ابتغى بالقضاء فليسو بينهم في المجلس والاشارة والنظر » .

وقد فرع فقهاء الاسلام على ذلك فقالوا : اذا تقدم شخص من عامة الناس الى ساحة القضاء لخاصمة السلطان ، ثم التقى الخصمان في مجلس القضاء وجلس السلطان بجانب القاضي كان على الاخير ان يتخلى عن مجلسه ويجلس فيه الخصم الآخر بجانب

السلطان ليكونا مستويين في درجة واحدة ثم يكون هو قبالتها للفصل بينها والنظر في خصومتها .

وقد اباح الدين الاسلامي ليهودي ان يخاصم علي ابن ابي طالب امام القضاء ، وتسامح مع يهودي آخر اقرض النبي عليه السلام قرضاً وقد جاء يطالبه فاشتد في طلبه واسرف فيه . وتطاول على مقام النبوة ؛ حتى اذا هم بعض الصحابة ان ينهره وان يزجره . قال له النبي في رفق وهوادة « دعوه فان لصاحب الحق مقالا » ذلك لان النبي عليه السلام قال في اهل الذمة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

واجاز الاسلام لامرأة نصرانية ان تمنع عمرو بن العاص والي امير المؤمنين عمر ابن الخطاب على مصر ، تمنعه ان يوسع مسجداً من بيتها الا اذا اخذت مقابل ذلك عوضاً عادلا يرضيها ويشبع نفسها . ثم تنصف وترضى وتأخذ ما تأمر به العدالة والانصاف .

ذلك هو الدين الحق . دين الاسلام الذي الغى العصبية المحلية ، والفوارق الجنسية . وبسط القومية العامة والقوانين الشاملة ، وجعل المالك في قصره ؛ والسوقي في كوخه ، والوزير في وزارته ، والعامل في زراعته ؛ والسيدة في خدرها ، والخادم في دارها ، الكل امام الله وامام شريعته سواء ، لا يفضل احد الآخر الا بتقواه وعداه ، وقربه من الله .

* * *

ويظهر لمتتبعي « التاريخ الاسلامي » ان الاسلام كان في ناحيته الشرعية اثراً منه في نواحيه الاخرى ، فقد خلقت الشريعة الجديدة من القبائل العربية مجتمعاً منظماً متماسكا . واستبدلت العرف وحكم الاهواء بقوانين حكيمة تستند في روحها الى اقوى مبادىء الطبيعة البشرية ومشاعرها ، ولا ريب في ان الشرائع التي تحكم العالم المعنوي اشد ما تكون اثراً ، واعظم ما تكون فوزاً اذا ألمت في احكامها بنواحي التفكير ووجهات المواطف في المجتمع الذي تسن له . وهذا ما روعي في احكام الشريعة الاسلامية مراعاة شديدة ، وما جعلها مدى القرون قانوناً سياسياً واجتماعياً لكثير من الدول والمجتمعات الاسلامية ، بل هذا هو السر في كثير من

المجتمعات الاسلامية المتمدنة ما زالت في عصرنا تحتكم الى الاحكام والنصوص التي وضعت منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً . وهذا ما يشير اليه المؤرخ « فنلي » في قوله: « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول اتباعه واعمالهم ، ووضعت عبقريته اساس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر من اجناس مختلفة وصفات متباينة ؟

ان نجاح محمد كمشرع بين اقدم الامم الاسيوية وثبات نظمه مدى اجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي دليل على ان ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات « ليكورغ والاسكندر » .

ثم ان مبدأ الوحدة كان له اثر عظيم في ربط القبائل :

فوحدة الاله .

ووحدة العرب القومية .

ووحدة الادارة الدينية والمدنية والقضائية والعسكرية واندماجها جميعاً في نظام رئيس واحد كانت عاملا قوياً في التفاف القبائل حول الدين الجديد واجماعها على بث دعوته ورفع سلطانه بحماسة وعزم كان لهما اثر عظيم في سير الفتوحات الاسلامية الاولى » .

تاريخ القضاء في الاسلام

وتاريخ القضاء في الاسلام مثله كمثل تاريخ التشريع يبتديء من هجرة الرسول عليه السلام الى يثرب لان التشريع المكي كان بمثابة سن الدستور الاساسي للدولة ولا تأتي القوانين عادة في الدولة الا بعد توطيد اركانها واستقرار جهازها الحكومي . وظل القضاء في المدينة عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة بسيطاً ساذجاً لم يفرق بينه وبين قوى الدولة الاخرى والنبي عليه السلام لم يكن شارعا وحاكما فحسب . بل كان قاضيا فوق ذلك ايضاً واليه مرد الامر كله . وقد انعدمت الخصومات في هذا العهد بين الناس او كادت . فلا تجد احداً يجترح اثماً ويرم به بريئاً . ولا تجد مدرهاً يأكل اموال الناس بالباطل ليدلي بها الى الحكام . ويأكل

فريقاً من اموال الآخرين ظلماً وزوراً لان تعاليم الاسلام الحنيف كانت من المنعة والقوة بحيث اصبحت ملء القلوب والاسماع والابصار حتى اذا حاد احدهم عن سبيل الحق جاء الرسول يسأله اقامة الحد ويلتمس منه العفو والغفران . ولما تعدى الاسلام الحرمين الشريفين ورفعت رايته على بلاد اليمن بعث اليهم الرسول معاذ ابن جبل عاملا وقاضياً . ثم الامام علي ابن ابي طالب الى بعض انحائه .

مصدر قضاء الرسول

وكان مصدر قضاء الرسول هو القرآن الكريم وحده وكان اذا شجر خلاف بين المسلمين سألوا الرسول فيجيبهم بآية من كتاب الله او بما يوحيه اليه الحق وتوجبه العدالة من اعمال واقوال . فان ادت تلكم الاعمال والاقوال الى التباس وارتباك ارشده الله الى الصواب بآية ينزلها عليه . ولقد اوسع شرع الجاهلية تحويراً وتعديلا ونقضاً حتى اذا جاءه بعض المسلمين يريدون ان يتحاكموا الى الجبت والطاغوت . وقد نهوا عنه نعى اليهم ذلك بقوله تعالى : « افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » ومن يطالع ما كتبه الامام الطبري في في تفسير هذه الآية يجد حديث هؤلاء مذكوراً .

ولما نهض ابن ابي قحافة بالامر وكان القضاء من شروط الخلافة اختط نهج الرسول عليه السلام في استمرار الاحكام من القرآن والسنة فان لم يجد فيها ضالته عمد الى الراسخين في العلم فاذا تكون الرأى قضى به وفصل بين الناس . وعلى هذا السبيل مضى من كان يعهد اليه الخليفة باعمال القضاء من عماله ووكلائه .

وكان ابو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الامر سنة قضى بها ؟ فان اعياه خرج فسأل المسلمين وقال : اتاني كذا وكذا فهل علمتم ان رسول الله قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله فيه قضاء . فيقول ابو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان اعياه ان يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان اجمع

رأيهم على امر قض به . وكان عمر يفعل ذلك فان اعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان لابي بكر قضاء فان وجد ابا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على امر قضى به .

ولما اسند الامر الى عمر بن الخطاب وانبسط ملك المسلمين وسمت كلمة محمد في نصف المعمورة وجد الخليفة نفسه مضطراً للتفرغ لسياسة هذا الملك الواسع وتلك الامم المختلفة في مدنياتها واجناسها والوانها واديانها فعهد بالقضاء الى اناس قد تخيرهم وكان هؤلاء يولون القضاء والتشريع فاتخذ ابا الدرداء قاضيا في المدينة مقر الخلافة وبعث شريح بن الحارث الكندي على قضاء البصرة . وولى ابا موسى الاشعري على الكوفة . وكتب الى عمرو بن العاص ان يولى القضاء في مصر كعب بن يسار بن ضبة المشهور بقضائه في الجاهلية فامتنع وقال قضيت في الجاهلية ولا اعود اليه في الاسلام فولى مكانه عثمان ابن قيس بن ابي السهمي . واتخذها سنة ولاة مصر من بعده فصاروا يعينون القضاة من عندهم دهراً طويلا .

وهناك احاديث كثيرة تزهد في لقب القضاء من ذلك ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من ولي القضاء فقد ذبح بدون سكين » ومنها ماروي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب مايتمنى انه لم يقض بين اثنين في تمرة قط » ومنها قوله عليه السلام « القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار . قاضي عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة ، وقاضي علم الحق فجار متعمداً فهو في النار وقاض قضى بغير علم واستحيا ان يقول لا اعلم فهو في النار .

القضاء في فجر الاسلام

لذلك كان الناس في فجر الاسلام يتهيبون القضاء ويرباؤون بدينهم عن ان يقضوا قضاء لا يرضى انفسهم فيفرون منه ومن كل ولاية وينتحلون الاعذار في رفضها وقد يجبرون على قبولها اذا لم يوجد من اهل افضل منهم : فقد روى ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه دعا سعيد ابن عامر الجمحي فقال : اني مستعملك على

ارض كذا وكذا فقال : لا تفتني يا امير المؤمنين فقال عمر : والله لا دعك قلدتموها وتتركوني وانفذه الى عمله مكرهاً . وقد اوذي ابو حنيفة لرفضه القضاء اذ عرض عليه يزيد ابن هبيرة القضاء فأبى فضربه من اجل ذلك ثم عرض عليه المنصور فأبى وقال له : اتق الله ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضى فكيف اكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او تلي الحكم لاخترت ان اغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ولا اصلح لذلك . فقال « كذبت » انت تصلح . فقال له لقد حكمت على نفسك كيف يحل لك ان تولي قاضياً على امانتك وهو كذاب ؟ ؟ فلم يرض جوابه هذا المنصور فأمر بضربه وحبسه .

وممن عرض عليهم القضاء فأبوا فراراً بدينهم حياة ابن شريح فقد دعي الى قضاء مصر هو وابو خزيمه وعبد الله بن عياش البستاني . عرض الامير اولا على حياة بن شريح فامتنع فدعا له بالسيف فلما رأى ذلك اخرج مفتاحاً كان معه وقال هذا مفتاح بيتي وقد اشتقت الى لقاء ربي ، فلما رأى الامير عزيمته تركه . ثم دعا بابي خزيمة فعرض عليه القضاء ايضاً فامتنع فدعا له بالسيف فضعفت نفسه ولم يحتمل فاجاب الى القبول وولى القضاء بمصر فكان عالماً جليلا توفي سنة اربع وخمسين ومائة . وكان ابن جريج وقت وفاته في العراق . قال دخلت على امير المؤمنين ابي جعفر فقال : يا ابن جريج لقد توفي ببلدك رجل اصيبت به العامة قلت يا امير المؤمنين ذاك اذاً ابو خزيمة قال نعم : ولما رأى الفقهاء زهد الناس بالقضاء وفرارهم منه خافوا مغبة هذا الورع فانبروا لبيان فضائل القضاء والترغيب فيه .

قال ابو بكر بن مسعود علاء الدين صاحب كتاب البدائع : ان تولية القضاء فرض لان القاضي بنصب لامر مفروض وهو القضاء . قال تعالى : « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق » والقضاء هو الحكم بين الناس بالحق فنصب القاضي لاقامة الفرض فكان فرضاً .

ترتيب الجرائد للقضاة

وكان عمر بن الخطاب اول من رتب الجرائد للقضاة . وجعل لكل منهم مئه درهم في كل شهر ومؤنته من الطعام لانقطاعه الى العمل . وسلك عثمان بن عفان سبيل عمر وآثر لقضائه زيد ابن ثابت وفعل مثل ذلك علي ابن ابي طالب الذي اشتهر بسماع ظلامات الناس وتحرى العدالة المطلقة . وقد ولى شريحاً وابا الاسود الدؤلي .

ويمتاز هذا الدور من تاريخ القضاء الاسلامي بان كان قضاته يولون التشريع والقضاء معاكما ذكرت وذلك واضح الدلالة في الكتاب الذي بعث به عمر الى ابى موسى الاشعري ، والذي يقول فيه : « آس بين الناس في مجلسك وعدلك ووجهك حتى لايطمع شريف في حيفك . ولا يخاف ضعيف من جورك . والصلح جائز الاصلحا احل حراماً وحرم حلالا . ولايمنعك قضاء قضيت به بالامس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه رشدك ان ترجع عنه فان الحق قديم والرجوع اليه خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم عندما يتلجج في صدرك مالم يبلغك به كتاب الله ولاسنة رسوله . اعرف الاشباه والامثال . وقس الامور عند ذلك . ثم اعمد الى احبها عند الله ورسوله واشبهها بالحق . واجعل للمدعي حقا غائباً امدا ينتهي اليه فان احضر بينة اخذت له بحقه والا وجهت اليه القضاء . فان ذلك انفى للشك وابلغ في العذر » .

صلاحيات القضاة

وتطورت صلاحيات القضاة قليلا في هذا العهد . فبعد ان كانوا يفصلون في الخصومات المدنية صاروا يقيمون الحدود ويوقعون العقوبات ثم اعطوا حق انزال الجزاء المانع قبل وقوع الجريمة .

وكانوا يقيمون في المساجد للحكم . واجتهادهم لاينقض بمثله وتعينهم من حق الخليفة . وقد نيب عنه هذا الحق الى ولاته كما هو بين من كتاب الامام علي ابن

طالب للاشتر النخعي يوم ولاه مصر اذ يقول له ما نصه : « ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم . ولا يتمادى في الزلة . ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم الى اقصاه . او مفهم في الشبهات واخذهم في الحجج واقلهم تبرما بمراجعة الخصم . واصبرهم على تكشف الامور واصبرهم عند ايضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء واولئك قليل. ثم اكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل مما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس . واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك .

* * *

وما كانوا ليدونوا الدعاوى التي يحكمون بها في سجلات تظهر احكامهم وطرق تنفيذها . وانقضى هذا الزمن ولم يكتب فيه غير القرآن . وكانوا لا يكتبون اقوال النبي لانه نهاهم ان يكتبوا عنه غير القرآن . كما انهم لم يسجلوا غير فتاوى الصحابة ومطالعاتهم فيما كان يعرض عليهم من قضايا حتى لا يصرفهم ذلك عن كتاب الله .

ولم يكن اختيار القضاة ليمنع الخليفة من النظر في بعض الخصومات . فحق القضاء له ولا ينتزع منه الا بالانابة ، الا اني اعتقد ان القاضي اذا فصل في امر معين فليس للخليفة ان ينسخ حكم القاضي ويقرر من عنده ما يشاء لأن الاجتهاد لا ينقض بمثله . وحديث عمر مع هذا الذي اراد ان يحكم له دون خصمه مشهور متداول .

* * *

ولقد لعب قضاة هذا العهد دوراً خطيراً في ازدهار الشرع الاسلامي ، فكانت احكامهم تستمد من صريح القرآن والسنة فان ابهم عليهم الامر قاسوه بما شاكله وخرجوا من ذلك القياس . فان لم تستبان لهم الحجة البيضاء جمعوا اهل الحل والعقد من القراء واستخاروا الله فيه واخذوا ما استقر عليه رأي الجمهرة منهم .

* * *

ويخطئ الباحثون عن القضاء في الاسلام حين يزعمون ان اساس القياس هو قول عمر ابن الخطاب لابي موسى الاشعري ... الفهم الفهم ... في كتابه الذي اثبتنا بعض مقاطعه فيما تقدم . لاني اعتقد ان الرسول عليه السلام هو اول من اقرّ ذلك واوصى به وذلك ظاهر فيما قاله سيد فقهاء الشام معاذ بن جبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم جوابا على سؤاله : ان لم اجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله اجتهد رأي . واما ذلك الاجماع فاصله مستمد من الرسول ايضاً فقد جاء في الحديث الشريف فيما رواه علي ابن ابي طالب : « اذا جاءكم امر لم ينزل فيه القرآن ولم تحض فيه السنة فاجمعوا له العالمين من المؤمنين واجعلوه شورى بينكم.

٨ مميزات القضاء في الاسلام

ويمتاز القضاء في الاسلام وخاصة في هذا العهد بالنزعة الموضوعية والاعتماد على الظاهر وان يكون الامتثال للقانون فوق ذلك عن ايمان وعقيدة لا عن خوف ورهبة . وفرق بين قانون يطاع خوفاً من العقاب وبين قانون يمتثل له عن رغبة فيه واخلاص له وتمسك به .

وهذه النزعة الموضوعية في القضاء تعد من ارقى المعارج التي ظهر عليها القضاء عند الامم الراقية التي تعاصرها وتصارعها ، ويتجلى ذلك في قول الرسول عليه السلام لرجلين اختصما اليه « انكم تختصمون الي وانما انا بشر ولعل بعضكم الحق عجبته من بعض وانما اقض بينكم على نحو ما اسمع فمن قضيت له من حق اخيه شيئاً فلا يأخذه . فانما اقطع له قطعة من النار يأتي بها اسكاما فقوما فاذهبا فلتقتسما ثم توخيا الحق ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منهما صاحبه » . وجاء في الصحيح ايضاً لو يعطى الناس بدعواهم لادعى اناس دماء رجال واموالهم .

وقضاة هذا العهد وفي طليعتهم الخلفاء هم المثل العليا لقضاتنا في جميع الاعصر بما كانوا يقيمون الحق وينصرون الضعيف ويحمون الذليل ويطيعون روح الشريعة ويدركون سمو الامانة التي غلت اعناقهم وكانت قد عرضت على السماوات والارض فابين ان يحملنها واسفقن منها ، وكانوا لا يخضعون لغير القانون ولا يرغبون عن

الحق ، وسواء لديهم اساء عدلهم عاقبته واثار سخط الفجار والظالمين . ام سر منقلبا وارض الولاة الصالحين . فقد كان حسبهم من عملهم ان يلقي الله عليهم محبة منه وتأييداً وسكينة .

واذا رجعنا الى اخبار القضاة لابي بكر وكيع القاضي المتوفى سنة ثلاثمائة وست والذي جمع اخبار قضاة الدولة الاسلامية الناشئة على الترتيب منذ عهد الرسول عليه السلام حتى اواخر ايام المؤلف نعرف الوقائع التي وقعت والقضايا التي عولجت وندرك الاثر العظيم الذي خلفه هؤلاء القضاة العدول . ولقد كان لسمو مداركهم وجمال مطالعاتهم الاثر المنظور في توسيع النظر وتعديل المقاييس والآراء . حتى ان الباحثين عن القضاء في الاسلام كادوا يقتصرون ابحاثهم على اثبات ما جرى على السنة هذا النفر الطيب من القضاة وما وقع لهم من نوادر وهي كثيرة في دفع الظلم وكف الاذى وازالة المنكر .

ادب القاضي الفاطمي

ومن اطراف ما يحكى عن ادب القضاة في عهد الدولة الفاطمية . فقد كانت هناك ظاهرة واضحة الاثر جليلة الخطر في الادب الفاطمي . وهذه الظاهرة هي انعقاد زعامة الشعر والكتابة في رجال القضاء .

ورجال القضاء في هذا العهد لم يكونوا قضاة شرعيين ولا مدنيين فحسب ، بل كانوا جميعاً يحكمون بما انزل الله ويقضون بما قضى به في النفس والمال ، وفي الوقف والوصية ؛ وفي الزواج والطلاق ، وفي المصريين وغير المصريين ، وكانوا احيانا ابعد مدى من كل ذلك فقد كانوا يعاونون الخلفاء في تدبير الخلافة وتصريف الملك وتوطين الحكم وتوطيد الامن بين الناس . وكانوا مع ذلك اعلام الشعر واقطاب الكتابة . وكانت هذه الظاهرة واضحة ظاهرة الوضوح في العهد الفاطمي كله ، ولكنها كانت اكثر وضحا وابعد غاية في النصف الثاني من ذلك العهد الزاهي المجيد . لان الازهر الفاطمي كان قد بدأ يؤتي ثمرته ويؤدي رسالته . وكانت الثقافة الادبية والدينية في هذا العهد العظيم وحدة لا تتجزأ ، قائمة الفقه هم أئمة

الادب وهم في ذلك لم يأتوا بدعا من الامر . فالقرآن الكريم قرن هاتين الثقافتين في عقد واحد . ووضعها في نطاق واحد . فبيناهو يشرع الشريعة ويبين الاحكام اذا هو بهذه الآيات نفسها يسن للناس شريعة من الادب لم يكن يعرفها العرب ، ومن اجل ذلك كان أئمة الفقه في الرعيل الاول من المسلمين هم فحول البلاغة واعيان البيان .

* * *

ونهج المسلمون في العصر الاموي هذا النهج الذي رسمه الله . فلم يكن منهم فقيه غير شاعر او كاتب او اديب او خطيب .

ولا ننس ان ننس ان انس بن مالك كان من اعلم الناس بضروب الغناء .

وان عروة ابن اذينة كان من اطبع الناس على الغزل والنسيب .

وان الشعبي كان سيد خطباء هذا المصر .

وان أئمة الخوارج والشيعة في هذا العهد كانوا جميعاً في الذروة العليا من مضاء اللسان وسنان البيان .

والذين فصلوا بين الثقافتين الدينية والادبية هم فقهاء الاعاجم الذين اعجزهم الدخول الى بيان القرآن فحللوا الآيات تحليلا صناعياً لا اثر للروح العربي فيه حتى انحرفوا بها عن محجتها الواضحة والتووا بها عن سبيلها القويم ، وعن هذا السبيل فهم الناس جهلا ان الفقيه لا يكون شاعراً . واذا قال الشعر فهو غث وخم ثقيل . ولا اذكر من هذا الذي سمع هذا البيت :

لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالي

فقال ان هذا الشعر لم يقله الا فقيه !

ولا بد ان تكون هذه النادرة قد صنعت صنعاً في عهد استبداد الاعاجم بالفقه الاسلامي حالوا بينه وبين الادب . وحتى خيلوا للمتفقهين ان هذا النوع من العلم اذا اعتمد على الادب فسد وضاع .

ولو اتيح لهؤلاء ان يقرأ كتاب « الام » ، لامام الفقهاء وامير الادباء محمد بن ادريس الشافعي لرأوا فصولا من الادب الاعلى لا يرتقي الى مثلها ادب ابن المقفع

ولا ادب الجاحظ . ولا ادب ابن العميد . ولا ادب اشباههم من أئمة الكتاب .

وهذا الكتاب اجمع كتب الفقه في مذهب هذا الامام الالمعي العظيم .

ليس من العجب ان يكون القضاة والفقهاء ادباء . بل من العجب كل العجب لا يكونوا أئمة في الادب .

الادب وحده هو الذي يطبع القاضي على صفاء النفس . وسمو الروح . ورقة الوجدان . ولمحة الخاطر . وانتباهة الضمير . وحسن التقدير . وروعة المنطق . وحسم الدليل .

وعلى قدر ابتعاد القاضي عن الادب يكون بعده عن تلك السماة العالية في القضاء .

قد يقول القضاة ان اسلوب الادب اذا جاز ان تساق به الادلة ، وتصدر عنه الاحكام ايام كان القضاء يستضيء بكتاب الله وسنة رسوله فهو غير سائغ في تطبيق مواد القانون في هذه الايام .

اكتب هذا الاعتراض الذي يتحدث به بعض القضاة وبين يدي مرافعة هي ابلغ ما كتب الكاتبون في ادب الفقه وفقه الادب .

اقرأ هذه المرافعة واقرأ ما كتب الكاتبون من أئمة الادب واقطاب القضاء في العصر الفاطمي فأجد كل ذلك ينزع عن اصل واحد . ويجري الى غاية واحدة وهي من صميم القانون لم تجاوز القول الفصل والدليل الحاسم المبين .

في هذه المرافعة تناسق وتوافق ، وفيها مشاكلة ومقابلة ، وفيها اختيار للفظ واضطراد في الاسلوب ، وفيها ارسال للحكمة واستشهاد بالشعر ، وفيها كثير من سماة الادب الجزل والقول الفصل ، فهل استطاع القانون ان ينكر شيئاً من ذلك ام هو ازداد بها جلاء ومضاء وروعه وصفاء .

ذلك هو اثر من آثار الادب الفني في لغة القضاء ، فهل عرف المعترضون على لغة الادب كيف يأتلف القانون بالادب ؟

ان هذا الادب قبس من نور الله يضيء قلب الاديب من كل ذي فن وذي حرفة فيهديه سبيل الحكمة وفصل الخطاب ، فهل علم الذين يتجافون عن الادب .

والذين يؤثرون شوارد الحديث عن الاخذ بحديث الادب انهم فقدوا جلوة النفس وصفاء الفطرة . ووضوح المنطق . واتزان الكلام ؟

* * *

لقد كان القضاة الفاطميون من السلالة العربية التي لم يفسد لها عرق . ولم يختلط بها دماء . وكانوا يدرسون الكتاب والسنة على انهما اصل الادب والدين . فكانوا اذا اجتمع بعضهم ببعض ارسلوا انفسهم على سجيتها . ودفعوا اقوالهم على غلوائها . واذا جلسوا مجالسهم للفصل بين الناس اقاموا موازين العدل . واضاءوا مصابيح الهداية .

كانوا ذلك حتى غلب صلاح الدين على ملك الفاطميين . فلم يكفه انه ورث ديارهم واباد سلالتهم، بل لقد اطلق السنة النار فيما ابتدعوا من علم . وما اخترعوا من اداب . وكان ذلك اضعاف ما تركه العباسيون والاندلسيون ، ثم اراد هو وخلفائه ان يكيدوا للازهر الفاطمي ، فقالوا ان الازهر الفاطمي مباءة الشيعة الباطنية ، ثم امنعوا في الارجاف فقالوا انه بمثابة الزيغ والالحاد ؟ .

ومن وراء تلك القالة المحدثة عبثوا بالعلم والادب . وهجروا الازهر العظيم هجراً غير جميل ، وهدم صلاح الدين دار المعونة . ووكل الى طواشيه بهاء الدين « قراقوش : امر القيام بافناء السلالة الفاطمية . وتدمير المكتبة الفاطمية . وكانت اعظم المكتبات في الشرق والغرب فجعلت تلك الكتب كما يقول المؤرخون وقوداً لحامات مصر تشتعل بها ليلا ونهاراً مدة ثلاثة اشهر كاملة .

القاضي الاعز

وكان القاضي الاعز وهو من القضاة الفاطميين والمعروف في كتب الادب بابن « قلاقس » نبعة من دوحة الازهر الباسقة . وهو من سلالة اللخميين ملوك اليمن والحيرة في الجاهلية . وكان اللخميون ومن اليهم من اهل اليمن اكثر العرب وروداً الى مصر منذ الفتح الاسلامي . ولم ينقطع تواردهم طوال العهد الفاطمي . ولا شك ان الروح اليماني الذي انبث في دماء المصريين هو الذي طبعهم على

ما عرفوا به من وداعة النفس ورقة الحاشية ؛ والفة السرور . وطرافة النادرة . واكرام النزيل .

ولم يذكر المؤرخون متى وفد القاضي الاعز الى الازهر ولعل ذلك في مطلع فجر صباه لانه تولى منصب القضاء وارتقى الى زعامة الشعراء في اول عهد الشباب ولانه خاض البحر . وجاب القفار . وانتظم الاقطار في روعة الشباب . ولانه طوى العمر كله ولم يجاوز ضحوة الشباب ، فقد ادركته منيته في الخامسة والاربعين من حياته الدائبة الناصبة .

اقام القاضي الاعز في مصر ما شاء ان يقيم حتى انه اطفأ شعراء عصره على انهم نجوم سماء يزهر مصابيحها . وتهب في مهب الصبا ريحها . فكسدت بسببه بضائعهم . وفسدت بادية صنائعهم . وكان الشعراء في هذا العهد يتحدى بعضهم بعضاً بديهية وارتجالا . وفي المجالس الحافلة والمجامع الحاشدة فكان هو اسبق الشعراء شأواً ، وابعدهم غاية . وادناهم الى الكمال .

واذن فقد اجتمع الى هذا القاضي قوة الشباب وعزة النبوغ . وهمة المنازرة . فأرينه جميعاً ان مصر اصبحت لا تتسع له . وان من حق تلك الصفات عليه ان يثب بها الى اطراف الارض لعله ينال ما لم يكن يناله في مصر . والشعر يطيل عنان الخيال .

وقد قرأنا اخبار شعراء اليمن ونظرنا اشعارهم فما وجدنا واحداً منهم قرّ في وطن او اطمأن الى مكان .

ثم كذلك من عهد امريء القيس الى عهد المتنبي واكثر هؤلاء كانوا يطلبون الملك فان اخطأوه فلعلهم لا يخطئون الغنى ، فما لهذا القاضي لا يطلب ذلك ؟ وإلا فما له يترك مصر وفيها سطع نجمه وارتفع لواءه .

وكان صلاح الدين قد اخذ في هذا العهد يستأثر بالامر دون الخليفة العاضد الفاطمي ، وهو كان يحب ان يصطنع الشعراء ويقربهم منه ، وينفحهم بمثوبته . وقد امتدح القاضي الاعز وزيره القاضي الفاضل بقصيدة من الطراز الاول في الشعر ، ولا بد ان يكون قد ناله منه خير كثير . ولكنه رغم ذلك آثر الهجرة ، واعتزم

الرحيل لانه وثاب الهمة لا يطيق الثواء في مكان .

وماذا نقول في الاماني العذبة والاحلام السعيدة عند الشاعر الشاب ؛ هو يجد الخير الجزيل في وطنه . ويجد الذكر الجميل من عشيرته ولكنه يقول .

والناس كنز ولكن لا يقدر لي ... إلا مرافقة الملاح والحادي

ويقول ايضاً :

سافر اذا خولت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى ... طيباً ويخبث ما استقرا

* * *

هكذا كان يرى السفر . وهكذا اعتزم السفر . فماذا جنى ، وماذا ادخر ؟ لم يجن الا شقاء الجد . وخيبة الامل . وسوء المنقلب .

ذهب في رحلة الى الشام والعراق وديار بكر فأكرم الناس وفادته . واجمل الامراء مثوبته . وعاد بالمال يحمل بعضه بعضاً . ويضطرب بعضه ببعض فلما كان ببعض الطريق اغير عليه فسلب ماله . وسلبت كذلك ثيابه . وفي ذلك يقول للشاعر بن الحباب :

ان كنت يوماً معيني عند حادثة ... فاليوم اني بين الظفر والناب
ما زلت املك اسلاب الملوك الى ... ان ملكت سوقة الاقوام اثوابي
قالوا الثواب من الابواب قلت لهم ... خذوا ثوابي وردوني لأثوابي

* * *

وذهب مرة الى صقلية في ضيافة اميرها القائد ابي القاسم بن حجر فاكثر رفده واجمل مقامه ، حتى الف باسمه كتابا وسماه « الزهر الباسم في اوصاف ابي القاسم »

فلما اراد الرحيل زوده بالنعمة الفاشية والخير الجزيل ، فبينما هو يعبر البحر ليصل الى مصر ، عصفت به الريح وعبث به البحر . فلم يشعر الا بالسفينة تنقلب الى صقلية فعاد الى صاحبه يقول له :

منع الشتاء من الوصو ... ل مع الرسول الى دياري

فأعادني وعلى اختيار ي ري جاء من غير اختياري
ولربما وقع الحما ر فكان من غرض المكاري

* * *

وذهب مرة يخوض البحر الاحمر حتى بلغ مدينة عدن . وقصد هنالك الوزير السرى العالم الاديب ابا الفرج ياسر بن ابي الندى ، ففرح به فرحة الاديب بالاديب واقامه معه في ارغد عيش وارفه حال ، فلما اراد الرحيل اعطاه حتى اغناه .

ثم ماذا ؟؟

ثم حالفه بؤس الحظ وادركته حرفة الادب. فما سارت به السفينة غير قليل حتى هاج البحر وعصفت به الريح فحطمت السفينة على جزيرة الناموس . وحين عصفت الريح بالسفينة خلع ثيابه حتى يصل الى الجزيرة سابحاً فذهب ماله . وذهبت ثيابه ، وعاد الى صاحبه عاري الجسد . وهنالك انشده قصيدته النادرة التي يقول في مطلعها :

صدرنا وقد قال السماح لنا عودوا فعدنا الى مغناك والعود احمد

وقد عوضه الوزير كثيراً مما فقد منه .

ولكن .

ولكن لم يكد يصل الى ارض الوطن حتى ادركه المرض في عيذاب على مقربة من القصير . ثم اسرع اليه الموت وكان ذلك عام سبعة وستين وخمسماية. وفي هذا العام مات الخليفة العاضد الفاطمي . وانتهى امر الدولة الفاطمية . ولله الامر من قبل ومن بعد .

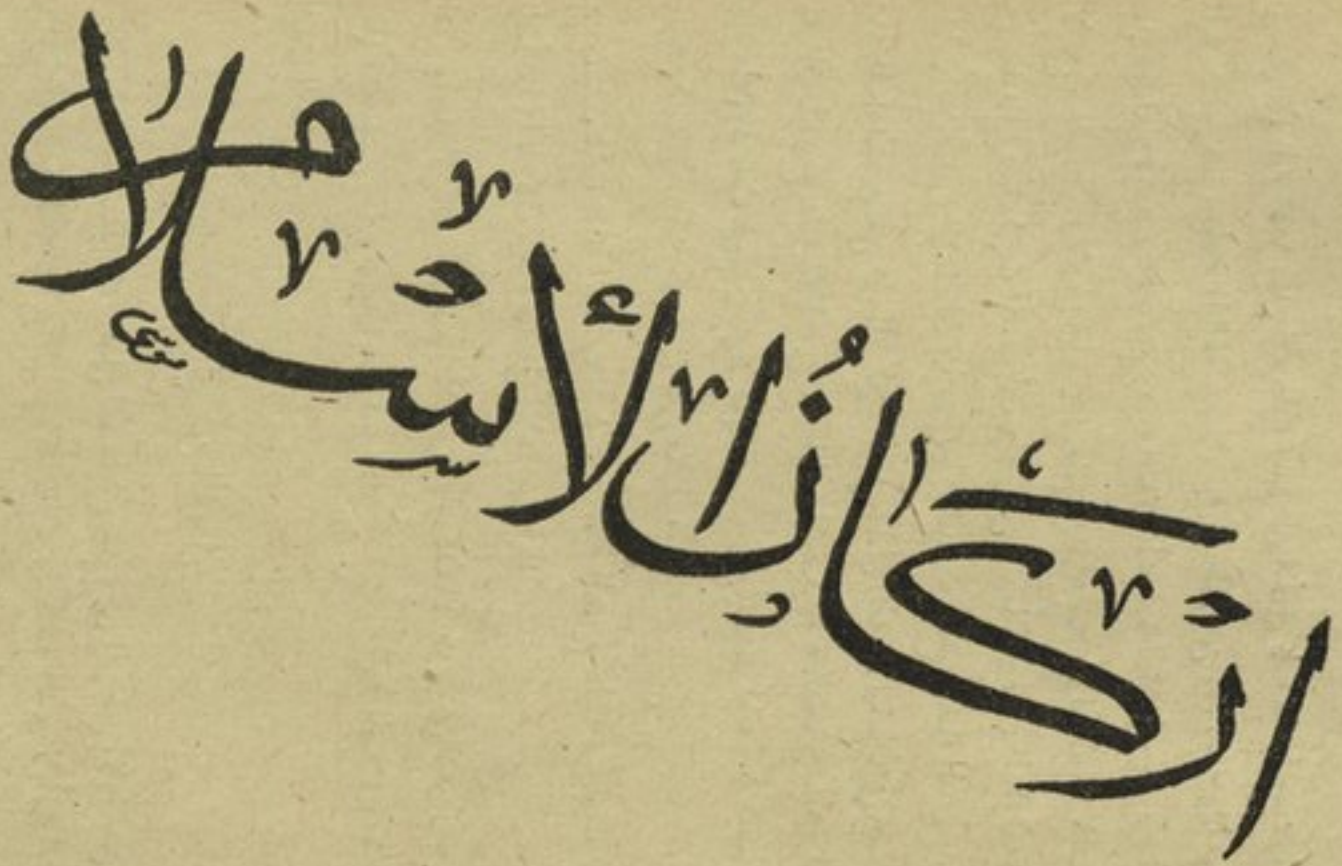

لما ارسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة داعيا ومبشراً ونذيراً اوحي اليه كتابا هو حجته البالغة — لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، جمع بين دفتيه اصول السعادة للامة والفرد ، لم يدع فضيلة الا حث عليها ، ولارزيلة الا نفر منها ، واهاب بالانسان ان يقلب فكره ونظره في نفسه وفي ملكوت السموات والارض ، وما اودع في الكون من بديع الصنع وآيات الاحكام والاتقان ؛ وحبب في العلم . ومدح العلماء الذين يدركون من اسرار الكون . ونعى على الركود العقلي الذي الفه الانسان في جاهليته ، وانقاد به الى ما درج عليه الاباء من غير نظر ولاتفكير ، فقال جل شأنه « لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

وقد تضمنت آيات هذا الكتاب الكريم فرضية الصوم علينا . ونبهت الى انه لم يكن خاصاً بنا وانما كان مفروضاً على الامم من قبلنا .

والصوم احد اركان الاسلام الخمس ، والاركان الاخرى هي الاقرار بوحدانية الله عن طمأنينة نفس ، وبرسالة سيدنا محمد كذلك واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت للمستطيع .

الركن الاول

اما الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهي الركن الاول من اركان الاسلام لعظمته التاريخية التي غير بها وجه العالم ، ولكتابه الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من عزيز حميد ، لانه المعجزة الخالدة التي لم يستطع العالم معارضتها على شدة خصومتهم للاسلام . وتوافر اسبابها الى اليوم .

الركن الثاني

واما الصلاة وهي الركن الثاني من اركان الاسلام فحكمها استحضار معنى الالوهية . واذكاء الخوف والرجاء في نفوس المؤمنين كي لايتعرضوا لمخالفة امر الله ولا يبغي بعضهم على بعض ليقوى عنصر الخير على صد عادية عنصر الشر وحصره في حدوده الطبيعية فلا يعم الفساد . ولا تتهدم نظم السعادة . ولذلك يقول الله تعالى « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر » .

الركن الثالث

واما الزكاة وهي الركن الثالث من اركان الاسلام فحسبنا من اسرارها انها تنمي عاطفة الرحمة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وتدفع غائلة البؤس والشقاء عن الفقير المسكين ؛ وتولد بين الناس فضيلة التعاون والتراحم ، ولا يحسد فقيرهم غنيهم ، فبمنعها تنشر الفوض . وتتمزق اوصال الجماعة .

الركن الرابع

والصيام هو الركن الرابع من اركان الاسلام ، وهو كالاركان الثلاثة التي تقدم بحثها لاتخص دين الاسلام فحسب ، وانما هي عامة في كل دين سماوي ، لاتختلف في جوهرها وان اختلفت في صورها واشكالها واوقاتها وتعيين الرسل لكل امة بحسب استعدادها وطرق اصلاحها وتهذيبها . والفساد الذي كمن فيها ، والاصلاح المقدر لها . فالغرض من شرائعه تعالى كلها مصلحة العباد والسير بها في الطريق الموصل الى السعادة .

اما التدين الخالي من الاعتماد على قواعد الخلق . والذي لايستمد جماله ورونقه من روافد الفضيلة وينابيع الكمال يكون تديناً مدعى ، ويكون اصحابه محترفين دينيين فحسب ، ولا يلبث هو ان يظهر زيفه ، ويتوارى طيفه ، ولا يلبثون هم ان يحل بهم الفشل في كل ما يحاولونه من طرق ، ويتحلون من اساليب ، وانهم

ان استطاعوا في بعض الاحايين ان يتخذوا من هذا الدين ما يطلبه ان يكون مثل الطراز على الثوب والهداب على الستر فانهم لابد يوما صائرون الى انكشاف امرهم وانجلاء حقيقتهم ، لان العاصم لهم من الوقوع في الشرور والاثام ـ وهو الخلق ـ مفقود فيهم . ومنزوع منهم . فلا يجديهم تحرز ، ولا يدوم لهم طلاء . وانهم ان نالوا شيئاً مما يسمونه « المجد » فانما ذلك الى جهل الناس بحقيقتهم وسوء تقديرهم لاعمالهم وقبح اغترارهم بمظاهرهم . وهذا كله لايلبث ان ينهار بنيانه . وتتقوض اركانه . ويسقط صاحبه الى الدرجة التي يستحقها ثم تكون العاقبة للفضيلة والعاملين بها .

تاريخ الصوم

واذا بحثنا في تاريخ الصوم يجب علينا ان نجعل نصب اعيننا الاية الكريمة « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ففيها اثبات واضح لمشروعيه الصوم على الامم التي سبقتنا ، كما ان فيها ذرائع للوصول الى مقصدنا ، وفي كل كلمة منها نبراس تاريخي . وحكمه سامية ، ومشكاة مضيئة نهتدي بها الى ان الصيام مفروض على البشر من النشأة الاولى من لدن ادم عليه السلام ، الى عصر الاسلام ولاخلاف في ذلك كما يعلم من شرائع الانبياء والمرسلين ، ومما ثبت في التاريخ ، وفيما نصت عليه الآيات الشريفة . بيد ان الخلاف في كيفيته وعدته .

وقد انبأنا تاريخ القدماء انهم كانوا يصومون كثيراً ممسكين عن الطعام والشراب ، ولا سيما ايام الصيف تذليلا للنفوس وخاصة عندما يريدون الرياضه النفسية التي تقرب من « الخلوة » في عصرنا .

* * *

ويغالى الهنود والصينيون في الصيام طولا وامساكا عن الطعام والشراب . ويتالون به رياضة تغير حالهم النفساني وتقربهم زلفى الى مآربهم .

* * *

وكان اليونان يصومون ولاسيما اذا ارادوا الاندماج في سلك المطلعين على بعض الاسرار الخفية .

* * *

وكذلك كان يصوم الرومان كثيراً ولا يفوقهم في الكثرة الا الهند والصين وجل اولئك كانوا يتعبدون بالصيام ويستعينون به على ابراز قوى الخلفاء التي تشبه اليوم استحضار الارواح والتنويم المغناطيسي وغيرها .

واما الاسرائيليون فيصومون كما نصوم شهرا في السنة بنص التوراة القائل « ويكون لكم فريضة دهرية في الشهر السابع من الشهور العبرية تذللون نفوسكم » وهم يوافقوننا ايضاً في الكيفية بنص كتابهم « تذبح الذبيحه وتعد للاكل منها ليلا ولا يبقى منها اثر في الصباح »

وكانوا يصومون اياما متفرقة اخرى كيوم عاشوراء ، كما روي عن ابن عباس قال : قدم النبي الى المدينة ، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء : فقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني اسرائيل من عدوهم ؛ فصامه موسى ، قال : فانا احق بموسى منكم فصامه وامر بصيامه » .

* * *

واما المسيحيون فيصومون ولكن مع الفارق في الكيفية ، والامساك ، والزمن على ان الانجيل متمم للتوراة وفيه « طوبى للجياع والعطاش .

* * *

وجاء في تفسير البيضاوى « ان رمضان كتب على النصارى فوقع في حر شديد فحولوه الى الربيع ، وازدادوا عليه عشرين كفارة لتحويله » .

والاناجيل الاربعة المشتهرة متفقة على التجربة التي جرب فيها السيد المسيح بصيام اربعين يوما لم يذق فيها طعاما ولا شرابا ، ونحن لانتكر ذلك على رسول جليل كهذا .

ولزم المسيحيون صيامهم على مذهبي الكاثوليك والارثوذكس حتى قام المصلح

مارتن لوثر في القرن السادس عشر بدعايته وناصره كثير من رجالات الغرب وفي مقدمتهم الامراء البروستانت حتى تقوى مذهبهم الجديد الذي يدين به معظم اوروبا وامريكا الان ، وهو يقضي بالحرية في الصيام :

* * *

اما نحن معاشر المسلمين فكنا نصوم يوم عاشوراء كما مر في الحديث المروى عن ابن عباس . وكما روي عن السيدة عائشة . قالت : « كان يوم عاشوراء تصوم قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وامر بصيامه فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه » .

ومن هذا الحديث نستدل على ان شريعة الخليل التي كان يدين بها معظم العرب في الجاهلية كانت تفرض الصيام كغيرها من الشرائع :

هذا هو تاريخ الصيام ، وهو الركن الوحيد الذي تعلقت به جميع الامم وحافظت على التمسك به لما فيه من الخير والحكم « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »

والصوم يعد المؤمنين لتقوى الله ومراقبته . وانه ايام معدودات . وان هذه الايام هي شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وقد تضمنت آياته اباحة الفطر لمن كان مريضاً او على سفر مع التزام القضاء في ايام اخر . كما وان الضعف المزمن الذي يشق معه الصوم يبيح الفطر بلا قضاء مع التزام الفديه ، وهي كما قال تعالى : « طعام مسكين » . . . ثم ختم هذه الايات بقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

ومعنى هذا ان الله تعالى لا يريد اعناتنا بالصوم وانما يريد اصلاحنا وتربية نفوسنا . واستكمال استعدادنا في حالتي القدرة عليه والعجز عنه ، وقد اشارت الاية ايضاً الى اسرار وحكم لا يتسع المجال للافاضة بها .

* * *

وللصوم المفروض شروط وآداب . وللفطر فيه دواع ومرخصات ، بينها الائمة

المجتهدون اخذاً من كتاب الله وسنة رسوله . والقياس الصحيح الذي هو حجة في دين الله كما هو حجة في كثير من نظم الحياة العلمية والعملية .

الغرض من الشرائع الالهية

وليس الغرض من شرائع الله في جميع الازمان احراج عبيده او تعذيبهم . فانه لايعود عليه من امتثالها نفع . ولا من مخالفتها ضرر ، لانه الغني المطلق الذي يستمد منه كل وجود ، وانما الحكمة العالية في التشريع هي اصلاح العباد بما يعدهم للكمال ، ويوصلهم للسعادة ؛ وبذلك يستقيم الفرد وتستقيم الجماعة . ويستتب النظام المحكم العادل ، فان اثر الايمان بان الايمان سكون النفس وطمأنينتها للقوة الغيبية التي يشعر بها الانسان خصوصاً اذا دهمته الفواجع . وتقطعت به اسباب الخلاص منها.

والعقل وحده بدون ارشاد الانبياء المؤيدين من الله بالمعجزات القاهرة لايستطيع فهم الصفات اللائقة بمقام الالوهية المنتشرة الاثار في تضاعيف الوجود

ولايزال الى اليوم من لا يؤمن بالرسل حائراً مضطربا في فهم هذا الغيب الذي هو سر المادة كما يقول الماديون او سر ما وراء المادة كما يقول العقليون .

تربية المقاومة

فرض الله صيام شهر رمضان ، ولا شك ان صيام شهر كامل امر فيه مشقة كبيرة وفيه قهر للنفس. وقمع لكثير من شهواتها ذات القوة والسلطان عليها.

ولم يكلف الله المسلمين هذه العبادة لان اعناتهم غرض من اغراضه. والمشقة عليهم غاية من غاياته ، وانما كان هذا لأغراض اخرى كثيرة صحية وخلقية وروحية افاض الناس فيها كثيراً . وما زال كتابهم يبدؤن ويعيدون . ولست احاول ان انبه الى مقصد منها اري انه اهمها واجدر بان يتحمل الناس في سبيله الآلام ، ويعانوا الشدائد ، ذلك هو « تربية المقاومة »

* * *

وقد تعددت الوسائل في معالجة خور الارادة وضعف العزيمة . فمن الناس من

يتخذ وسيلته لذلك الرياضة البدنية ، ومنهم من يعالج ذلك في نفسه بركوب الاخطار ومزاولة فنون من الرياضة محفوفة بالمهالك كصيد الوحوش الضارية ، ومنهم من يعرض نفسه لآلام جسدية شديدة ويصبر على تحملها صبراً طويلا .

فهذه الوسائل وغيرها على اختلافها نتتجة الى غاية واحدة هي تمرين النفس على تحمل احداث الحياة التي تهزها هزا عنيفا والصمود لها ومقاومتها حتى تنجلي غواشيمها .

والحياة مليئة بهذه الاحداث يتعرض لها الفرد وتتعرض لها الامة ، ولا يملك بنو الانسان صرفا لها ولا تحويلا . وانما الذين يملكونه اذ يعدوا لها عدتها من العزيمة الصلبة ، والارادة القوية . والصبر الكريم ، فاذا فاجأتهم العاصفة الهوجاء تركتهم سالمين .

ارادة الله وارادة البشر

والارادة هي الواسطة بين الناس والعقل وهي مرتبطة بالضمير المنبعث من النفس « الامارة بالسوء الا ما رحم ربي » وفي هذه الآية حكمة اخلاقية كبيرة كانت مثار الجدل قديماً وحديثاً في مذهب الخير والشر . ومنها نستدل على ان هذه النفس توحي الى الضمير فيأمر بالسوء كما يأمر بالخير في الاستثناء المصحوب برحمة الله التي وسعت كل شيء ، بل ان امرها بالخير حيث تشمله الرحمة اكثر من امرها بالشر متى كانت الارادة المنفذة لاوامرها طيبة مطمئنة محصنه بالصوم الذي يلجمها عن الشهوات ، وبذا نستطيع ان ندرك المغزي المعني في الاثر القائل « عليه بالصوم فان له وجاء » والوجاء هو الرباط الحافظ الواقي ، كما نفهم معنى قوله عليه السلام « الصيام جنة » والجنة الوقاية .

والفرق بين ارادة الله وارادة البشر ، ان ارادة الله هي محبة يفسرها قوله تعالي في آيات الصيام « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وقوله يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » .

وارادته في النشأة البشرية اذ يقول : « اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا

اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك : قال اني اعلم ما لا تعلمون .

فجواب الله سبحانه وتعالى للملائكة وارادته في الآيتين السابقتين تتجلى فيها محبته للبشر والتخفيف عن الانسانية ، ولكنها تتمادى في الشرور ولا تقيد نفسها بالصيام الذي ينقذها من الخسران « ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وكلا الحق والصبر من الصفات الملازمة للصائم .

ومن هنا يتضح الفرق بين ارادة الله التي هي واسطة بين النفس والعقل ، فمثلها كمثل القوة التنفيذية للملك المعبر عنه بالضمير الحي الذي احياه الله بالعلم والمعرفة والاستقامة والنقافة الممثلة في الصيام، وفي قوله تعالى « اني اعلم مالا تعلمون» اشارة جميلة الى ان الانسان يميل للخير اكثر مما يميل للشر اي اعلم ان هذا الجنس الصالح لعمار الارض ، وكأني ببراعتي تجرني الدور والتسلل ، وتقودني الى الخوض في موضوع الاثرة والايثار ، والاثرة والانانية شهوة طاغيه تخرج بالانسان عن القانون ، وتبغض الناس حيث لا ضمير يردعها ولا ايمان يكبحها . كما ورد في الاثر « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

الايثار والاثرة

وان الايثار حب الناس والعمل لصالحهم والتحلي بالمكارم . وجميع الحكماء متفقون على ان الضمير مبعث الايثار ويستأثر بعاملين : البيئة الدينية ، والعقيدة المثقفة ، وبهذين العاملين تظهر جهود الارادة المنفذة لاعمال الخير الايثاري والتفاني في خدمة الوطن والانسانية .

وقد رأى بعضهم التوفيق بين الاثرة والايثار والتوسط فيها مخالفاً بذلك مذهب اللقانية والرواقيين القائلين بضبط الارادة حتى يتسر بل المرء بالصفات الايجابية المقتبسة من طول الصيام .

وهناك مذهب فاسد يرى الحرية في الامساك بل وفي العبادة . وعندي ان

اربابه فقدوا الارادة واماتوا ضمائرهم فلم يدركوا فروقاً بين الخير والشر ، ولا بين الاثرة والايثار ، ولا بين الجنة والنار .

واني لاعتقد ان الطفل في مهده يدرك بارادته الضئيلة فروقاً منوعة بين السمين والغث . وبين الرشد والغي ، ولكن اولئك لا يفقهون حديثاً ولذا نرى اتباعه فتيات وشباناً ، حملهم التزق الى الافطار وجرتهم الاثرة الى الاستهتار والخروج عن الحدود ؛ فأماتوا ضمائرهم . وفقدوا وجدانهم . ومرضت قلوبهم . « فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » يأتون بالشر ويخالونه خيراً ، وان عملوا حسنة حسبوها شراً فكانوا من الاخسرين اعمالا « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

حكم الصوم واركانه

عرف المسلمون من زهاء ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، ان الصيام امساك عن الطعام والشراب والباءة طيلة النهار من قبيل الفجر حتى غروب الشمس ، ولا تخلوا قرية من القرى ولا مدينة من المدن من المتفقهين في دين الله الذين ينشرون احكام الصوم ويدعمون اركانه ، بيد انه لا يزال بين ظهرانينا طوائف غفل عن حكمه التي هي ملاك التهذيب . وقوام الثقافة والترغيب .

والانسان مخلوق مكرم ، او حيوان عظيم الشأن ، معقول المزاج ، قوي الاحساس ، قاهر فوق الخليقة ، يتصرف في الكائنات المسخرة له ؛ بعقل حكيم ونفس لطيفة ؛ سجين بعظم ولحم واعصاب وشحم وشرايين واوردة موقاة بكيس جلدي ، وتلك السياج هي جسم الانسان الذي حوى الروح والعقل . فهل تستفيد تلك المجموعة الثلاثية التي تألف منها الانسان من هذا الصيام .

اجل : ان الصوم يفيد ثلاثتها . وقد كان سبباً في اظهار آيات عظيمة مدركة بالحس في العالم . وشهد بفضلها اولو المعرفة . الا ان قوام هذه المجموعه ودعامتها هي النفس :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ان الطعام يقوي شهوة النهم

هذا كلام شاعر بالحقيقة من سبعماية سنة مضين اوحى اليه ملاكه بحكمة رائعة لو اجتمعت الافكار الحديثة على نقضها لردت خاسرة ولعجزت عن تقويض هذين البيتين :

ولو حلل تلك الحكمة . بونج السويسري ؛ وبودوان الفرنسي ، ورفرز الانكليزي ، وادلر الالماني ، وجميع فلاسفة الغرب وعباقرة الثقافة الحديثة ونطس الاساة لما وجدوا فيها اودا ولا ادا ، بل يجمعون امرهم على توطيدها ودحوها للنفس البشرية تهتدي بنبراسها وتقتبس من مشكاتها ، الا ان الصيام يكف النفس عن الشهوات ويكبح جماحها ، ويكشف للانسان عن ظلمات الحجب التي تغطي الارواح وترين على القلوب .

ومتى كانت النفس شفيفة لطيفة تتشبه بالملائكة وتنظر حقائق تتجلى امامها وها هي اعمال الروحانيين والمغناطيسين في الشرق والغرب تتجلى على مرأى منا . اولئك يقضون جل حياتهم في صيام حتى كانوا امثال المعرفة والحكمة والزهد وكشفت لهم عن حجب الملكوت فابصروا ما لم نبصر ، وشهدوا مالم نشهد .

ومما لاريب فيه ان الصيام يعلمنا الصبر والعدالة وصفات الروح المميزة له ، وصورة الوسط الدنيوي التي يحكم بها على المرء ، ومقياس السعادة كما يرى « زينون وافلاصون » ، ومن تبعها من فلاسفة المسلمين كالغزالي والرازي وابن سينا في آخر ايامه .

ومن انصار هذا لرأي « كانت » الالماني المتوفى في القرن الماضي ، و « تولسوي » الروسي ، واللورد افبري في اخريات حياته و « جيمس بريد » وغيرهم من فلاسفة هذا العصر .

ويخالفهم في هذا الرأي « ارسطو » و « ابيقور » من اليونان والفارابي من المسلمين ، وانصار داروين « و نيتشه » من الطبقة الحديثة الذين يرون ان السعادة في الاستحواز على الاعراض والملذات الدنيوية التي هي (كسراب بقيعة يحسبه

الظمآن ماء) او (كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح) .

وعلى ذلك الرأي الراجح الذي استمسك به اولو المعرفة والحكمة يكون الصيام وصلة السعادة في الدارين ، اذ اصبح صياماً استشعرنا به امهات الفضائل السابقة التي اجمع الفلاسفة على تحليلها فهم يرون ان العدالة التي ربحتها في الصوم تتولد منها المروءة والتودد والصداقة والالفة وحسن المعاملة وطهارة القلب من الحقد والحسد والارجاس والادناس ، ومن العفة التي استشعرتها في الصيام يتولد الحياء والامانة والقناعة والدعة والطمأنينة التي تكسو النفس الثوب المنوه عنه في قوله تعالى « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » كما يتنوع من العفة الحرية . وينموا الضمير الحي ، الذي يعرفك الحقوق الانسانية . ومن الكرم يتولد العفو والمواساة والايثار .

* * *

وبما ان الصبر والشجاعة توأمان ، وقد علمت ان الصبر وليد الصيام . فالشجاعة آتية للنفس من هذا السبيل ومن بناة هذين الخلقين الثبات وقد رأيته مجسما في اعمال الفاتحين ، والحكم وكان ابطاله المسلمين كما ترى في مؤلفاتهم .

ومن هذا التعليل الخلقي يمكنك تكوين مقدمات منطقية ، وقضايا قياسية ، ونتائج حقيقية ، فان من لوازم الشجاعة مثلا الصبر ، فكل صبور شجاع ، والامانة والحياء من بناة العفة ، وكل عفيف امين فانع حي ، وهكذا نبني ونقيس ونحكم .

ولا يغرب عنا ان الوطنية الصحيحة يخلقها الصوم . وبما ان ذلك من اركان الوطنية الدفاع عن الوطن وايثار خدمته ، وتأدية الواجب مع اتقانه ، وتشجيع المنتجات الوطنية ، واذا حللت هذه الخلال لرأيتها متدخلة في امهات الفضائل السابقة .

ومن التحليل الاول نستنتج المراد من قوله تعالى عن النفس « قد افلح من زكاها » وهي لاتزكى ولا تزكو ولاتسعد لتصمد بالاخلاق الايجابية ، الاتية عن

طريق الصوم الصحيح ، كما تدرك السر في رجاء التقوى بالصوم في قوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

جارحة القول وترجمان الضمير

واللسان جارحة القول ، وترجمان الضمير ، والة المنطق والبيان ، وهو وان كان عضوا بسيطا مركبا من اللحم والدم والاعصاب والشرايين والاوردة كباقي الاعضاء الا انه سر الحياة الصحيحة .

وهو من هذه الوجهة يؤثر فيه الصيام تأثيراً واضحا اذ يجفف رطوبته ، ويخفف حركته . ويقوي اعصابه ، ويهيء صاحبه الي اللسن واللباقة والفصاحة والخطابة .

ومن الوجهة العقلية فانه مؤتمر باوامر الارادة . وهي المنفذة للضمير ، حق عبروا عنه بنصف الانسان والجزء الذي لايتجزأ من الجنان ، وفي ذلك قال حكيم الشعراء زهير ابن ابى سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ويؤيد هذا الرأي الاثر القائل « المرء باصغريه قلبه ولسانه »

واطنب السالفون في اهمية اللسان . واثبتوا ان جراحات السنان متداركة وجراحات اللسان تودى بحياة الانسان وهذا ما يؤيده قول الشاعر العربي

جراحات السنان لها التأم ولا يلتام ما جرح اللسان

وهو بذلك ينمو بنمو الضمير الذي يحي بالحمية والصيام .

* * *

واما اللسن فهو الفصاحة وحسن البيان ، وجمال المنطق الى غير ذلك من صفات اللسان ، وكلها تتربى وتقوى بالحمية والاعتدال في التغذية . ويعالج العي واللكن وبعض انواع البكم بالصيام كما يعرف من كتب الطب .

الا ترى ان البلاغة وما تتطلبه من جزالة اللفظ والتعبير وما بين استار المعاني من انشاء وايجاز واطناب ، وما يكنه علم البيان من مجاز واستعارة وتشبيه ، وما

تزخر به الكتابة من محسنات البديع كالجناس اوزان وتفاعيل . كل هذه اصطلاحات نطق بها العرب وامثالهم قبل وضعها .

بل ان الواضع اقتبسها من اقوالهم وتلمسها في كتابتهم التي ما فتئت حجة قائمة باللغة حتى انغمس الناس في الترف والنعيم في عصر بني العباس الذي تغلب فيه الاثرة على الايثار فنجم الاسراف والتهاون في الصيام فانقطعت الحجة من ذاك الحين ، وقد عزز حسمها تدخل الاعاجم بشهواتهم بين العرب ، وانك لتجد صحة هذه النظرية ممثلة في كثير من عامة الناس الذين يثقفون السنتهم وقد تذوقوا الام الجوع واستمسكوا بالصيام اذ نرى مقاولهم تندلع الى طرف من الفصاحة ، ونبذ من البلاغة ، كما نري في المواليا واربابها ، الذين يرسلون القول بليغاً جذلا . ويؤلفونه سلساً سهلا وهم لايشعرون ، وقد يتلقفون البلاغة مما يقرأون ومما يسمعون كالكهرباء تلتقط الاخبار من الهواء متى تنائت عن متناخمة ما يعوقها من العقبات كما اسلفنا ذلك في الحس والوجدان ، وما العقبات الا عثرات اللسان المجسمة في النهم والشراهة . هذا من ناحية الثقافة الانسانية ، واما الثقافة العامة فقد تكلمنا عنها وبرهنا في تحليل الحس ان الضمير يوحي الى اللسان ما يشاء والارادة تحركه ، فينطق بمكنونات الضمير وما يتخلق به المرء من صفات ايجابية تعلي من شأن صاحبها وترفع من مكانته ، او من اخلاق سلبية تودي بذويها الى الردى وتنحدر بهم في مهاوي الدرك الاسفل لانها ناشئة عن الاثرة الطاغية التي تثور على النظام والقانون ، وتعبث بالتشريع والشرائع لعدم اعتصامها بالحمية والصيام وهنا يكثر الكلام .

فالاثرة تقود الى الثرثرة فترى ذويها يقولون ما لا يفعلون ، ولا يذللون انفسهم بالحمية والصمت . ولا يكبحونها بالصيام ، وقد يخرجون على النظم ويشوهون القيود العمرانية والقوانين الاجتماعية ، وقد نسوا « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول »

والاثر يقول « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما احب او كره مالم يؤمر بمعصيه »

فالخروج عن الطاعة وافتراء الاكاذيب وقول الزور والبهتان يبطل الصيام . ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه » .

واذ قيل لنا ان الشرط المحمول في التنازع وجوابه المؤول بالردود الشرعية الذين في آية الطاعة تحملها على المعارضة الشريفة ، والصراحة المحمودة ، والشجاعة الادبية .

اقول واين هي تلك الصفات التي تخرج من الافواه الطاهرة . اوالقلوب المقدسة التي طهرها الصيام وحفظها من هجر الكلام . وانها لذريعة الى الحرص والدقة في العمل ، ولكنها بما نشهد اليوم غير محمودة العقبى .

ولعلنا نرى بعد هذا اثر الصيام واضحا في السنتنا وقد جمحها عن غوايتها، وردها عن هواها حتى يسلم الناس من شرورها « والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه »

اثر الصيام في الجرائم

وللصيام اثر عظيم في تخفيف وطئات الجرائم ، ولا مرية في هذا الاثر المشهور في رمضان .

وتحليل الموضوع ان الجريمة او التبعة الاخلاقية لا تقع الا حيث تكون الارادة فمتى وجدت ، وجدت المسؤولية سواء أكانت وضعية كمخالفة قوانين الدولة او الهيئة ، او طبيعية كالخروج عن الحدود الشرعية ، وجميع المخالفات موكولة للضمير والارادة ، وهذا الضمير لا يحيا الا بحياة الارادة ، وكلاهما توأمان فهذا يأمر وتلك تنفذ .

وقد بينت فيما سبق ان الضمير الحي من بنات العفة ومتولد منها . وهو كما رأيت يعف عن ارتكاب كثير من الجرائم واستنكارها واستقباحها ولا سيما ما كان خاصاً بما بينك وبين الله عز وجل .

اما الجرائم الانسانية الكبرى كالقتل والانتقام والاستهتار بالقيود الحافظة

لكيان البشر فانها متولدة من الاثرة التي هي شهوة نفسية تجر صاحبها الى الشرور والخروج عن القانون .

والاثرة والايثار ضدان لا يجتمعان في نفس واحدة كما ان الحرارة والبرودة لا يتحدان في جسم واحد .

وقد علمت فيما سبق ان الايثار يحييه الصيام لانه من بنات الكرم والمدالة فله مصدران مؤيدان بالبراهين الماضية .

واذا قيل ان الخمر ام الخبائث فاننا نثبت ان افطار رمضان ابو المساوئ ومبعث الشرور والبغي والفجور ؛ لان المثل قد شلبت الحرة ارادته فهو مجنون او معذور اذا ارتكب كبيرة ، ولكن مفطر رمضان قد دفعته ارادته الى هذا الاثم العظيم فجرد من الاخلاق الايجابية ، واحدقت به الصفات السلبية ، ومتى جرد من النفسية العالية ، والاخلاق السامية وتسربل بالكذب والاستهتار والجشع والشراهة والاجحاف والجزع والفظاظة وتدنيس الضمير والخيانة والجبن ، وغير ذلك من النقائص التي هي اضداد الاخلاق الايجابية سهل عليه ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات ، والخروج عن الحدود ، والفرار من القيود ، اذ لا ضمير له يوحي الى ارادته بالخير ولكنه « اتبع هواه وكان امره فرطاً » .

ومن هذا التحليل نعلم ان الصيام يكبح النفس عن شهواتها ويردها عن غيها ويلبسها لباس التقوى فيقل البغي والعدوان وتتضاءل الجرائم والآثام ، وتسلسل شياطين الانس باصفاد الصوم . وبهذا ندرك المعنى المقصود من قوله عليه الصلاة والسلام « اذا جاء رمضان فتحت ابواب الجنة وغلقت ابواب جهنم . وسلسلت الشياطين » .

الرابطة بين العقل والنفس

ولئن صح ما يقوله الحكماء الاقدمون من ان العقل قوة في القلب يشع نورها الى الرأس . فانما يعنون بذلك شدة الرابطة بين العقل والنفس « وانهما توأمان يدل كل منهما على ما اودع في الاخر من الاخلاق والمعارف .

والمذاهب الحديثة في ذلك : اثنان : راي يقول بقوة باطنة واحدة في الجسم ويعبرون عنها بالنفس العاقلة، ويبرهنون على هذا بان النطق ميزان الانسان ومقياس العقل الذي يحي به الجسم ، واولئك هم فلاسفة المادة والحس ، ومذهبهم يكاد يتلاشى بالمغناطيسية الحديثة التي نقضت ارأهم .

والراي الثاني يقول : بوجود قوتين ناطقتين في الانسان : قوة عاقله وقوة روحية ، وهذا الراي يشبه ما قاله الفلاسفة الاولون . وعليه نعتمد في تحليل العقل وقواه . ومبلغ الصيام فيه .

علمت فيما سبق ان هناك واسطة بين العقل والنفس تعرف بالارادة التي تتحرك بالضمير .

فما هو هذا الضمير يا ترى ؟ ؟ ؟

الضمير الذي تخيلناه فيما مضى ملكا قاهراً يصرف ارادة الانسان آنى شاء ، وكيف شاء ، انما هو الشعور او الاحساس او مجمع الاعصاب المنتشرة في الجسم انتشار الاسلاك البرقية الكهربائية في المملكة . ولهذه الاعصاب محطات تعرف بالحواس الخمس وهي : السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، فاذا حدث صوت ما يتماوج في الهواء ويقرع طبلة الاذن التي تتصل اعصابها بالمخ ، فتسمع هذا الصوت . وهكذا تنطبع المرئيات في العين كما تدرك المذوقات بالذوق . وتتعرف الملموسات باللمس . ولكن بأية وسيلة يحدث الادراك والحكم على المدركات الحسية ؟ ! .

ان هذه المدركات انما تدرك بمركز الاعصاب ، ومبعث الاحساس الرئيسي الا وهو المخ ، او العقل . ونستدل على ذلك بقوله تعالى « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة .»

وعلى هذا فالاعصاب الحسية الدقيقة المنتشرة في الجسم اذا ضغط عليها الشحم واللحم الآنيان بطريق الامتلاء وكثرة الاطعمة تقف تياراتها الكهربائيه ، وبخبو تأثيرها المغناطيسي الحساس كما قد يطغى ذلك على المخ نفسه فيذويه ويميته .

وانك تعرف هذه الظاهرة في الاسلاك الكهربائيـة اذا تاخمتها كائنات اخرى

واحاطت بها اجسام غريبة ، تضعف قوتها الموصلة ، واذا ضغط عليها بمؤثرات اقوى بطل عملها ، وتلاشت قوتها وكذلك الاحساس في جسم الانسان يميته كثرة الطعام .

ومن هنا نعلم ـ ما اعتمده علماء التشريح والاعصاب الحديثة «الفسيولوجيا» ـ ان الاعصاب تتنبه وتؤدي وظائفها جيداً بالحمية والصيام الامر المشهود في الانسان حينما يتخم ويبطن فيشع بصره ثم يضعف ، وتطن اذناه ثم يصم ، وتحول الطبقة الدهنية في جسمه بين اللمس والذوق والشم ويكون اقرب الى الحيوانية منه الى الانسانية ، ومن ذلك نفهم معنى قوله تعالى « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لايبصرون بها ، ولهم اذان لايسمعون بها . اولئك كالانعام بل هم اضل » فالانعام تفقد احساسها بكثرة ما تدخله في جوفها من كثرة التغذية .

قارن بين عقلية طفل يعيش ليأكل ، وبين طفل آخر قانع ، يأكل ليعيش ويسد رمق الحياة ، ترى تباينا عظيما بينهما . وفروقا واضحة في عقليتهما .

الا ترى ان كثرة الاكل تربك الذهن وتخلط الحس ، وتذهل الشعور . فيضعف التصور وتتضاءل الفكرة . ويرين على الحافظة فتمحوا ما ادركته من محسوسات وغير محسوسات ، وتنعكس التخيلات ، وتستحيل الى هواجس واضطرابات نخية ، وتلك هي القوى العقلية يفسدها الطعام ويحييها الصيام .

ومن هنا ندرك الحكمة القائلة « كثرة الاكل تميت القلب ، وتخمد الفكر » لا : بل هناك آفة كبرى تمر على القوى العقلية فتذرها قاعا صفصفا ؛ وتلك هي آفة النسيان التي علم انها تطغى عند انهماك الحواس بالملاذ الناجمة من كثرة التغذية فتتلاشى المعلومات ويقف العلم جامدا ، والمعرفة واجمة امام هذه القوى التي تلفظه لفظ النوى . وتجرده من المعارف والاخلاص لان العلم نور . ونور الله لايهدي لعاصي والعلم والمعرفة حياة الالباب التي تتحرى عى الحمية والصيام والثواب فتشع الافكار السامية والاداب ، « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون انما يتذكر اولوا الالباب » .

الركن الخامس

والحج هو الركن الخامس من اركان الاسلام دل على فرضيته الكتاب والسنة واجماع الائمة. قال تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » وانعقد اجماع الائمة على فريضته من لدن رسول الله الى عصرنا هذا وصار معلوما من دين الاسلام بالضرورة .

وهو الركن المالي الاجتماعي في الاسلام تتجلى فيه وحدة المسلمين التي يدعو اليها الاسلام في كل شيء وتزول اثناء تأديته كل الفوارق الجنسية والقومية من بين المسلمين فتراهم اخوانا متحابين تربط بين قلوبهم روابط الاسلام القوية في اطهر بقاع الارض . وهي الارض المقدسة التي سطع من آفاقها نور الاسلام وتفجرت ينابيع العدالة والسلام . فجرت سلسبيلا عذبا روى غليل الامم . وانبت فيها ثمار المبادىء القويمة والاخلاق الفاضلة التي نعم بها الناس في مختلف العصور .

اسرار الحج وحكمه

شرع الله الحج لحكم جليلة :

اولا ـ منها تقوية الروابط بين الشعوب الاسلامية على اختلاف اجناسها وتباين اقطارها ، وازالة ما بينها من الفوارق الجنسية والقومية لتتحقق الوحدة الاسلامية التي هي اهم ما يدعو اليه الاسلام . فاذا اجتمع المسلمون في موسم الحج في بقعة واحدة ليؤدوا المناسك وتجردوا من كل مظاهر الحياة الفانية ، فلا بد ان يتولد في نفوسهم شعور بانهم اعضاء مجتمع اسلامي كبير له خصائصه ومميزاته . وانهم لا يحيون الا بحياته ، ولا يسعدون الا بسعادته . فتتصل قلوبهم وترتبط بروابط المحبة والمودة والاخلاص .

وذلك سر كل عمل شرعه الله لاجتماع الناس كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين الا ان هذه الاعمال لما كان اجتماع الناس فيها جزئياً ومقصوراً على عدد معين من

ابناء كل بلد في كل امة ، شرع الله الحج ليتسنى لاكبر عدد ممكن من جميع الامم الاسلامية الاجتماع في بقعة واحدة لينموا في قلوبهم الشعور بالوحدة الاسلامية .

وقد كان من الواجب على اقطاب المسلمين وزعمائهم في جميع الامم الاسلامية ان يكونوا في طليعة الحجيج الى بيت الله الحرام ليعقدوا هناك مؤتمراً اسلامياً عالمياً للتشاور في مصالح شعوبهم ، وفي كل ما ينهض بالمسلمين من كبوتهم ، ويجعل عندهم الصلاحية لمسايرة الامم القوية في مضمار الحياة وانهم لو فعلوا ذلك لأسدوا الى الامم الاسلامية يداً بيضاء يسجلها لهم التاريخ بأحرف من نور على صفحات الفخار .

* * *

ثانياً — ومنها تهذيب النفوس فان الحاج يتجرد في اثناء الحج عن كل مظاهر الحياة التي تملأ النفس غروراً . ويقبل بقلبه وروحه الى الله تعالى . ويؤدي اعمالا تملأ القلب يقيناً بالله ، وشعوراً بعظمته وسلطانه الغيبي الذي تعنو له الوجوه وتخضع له جميع الكائنات . ووجود الانسان في هذا الوسط الذي استغرق في عبادة الله تعالى ، وفي البلاد المقدسة التي تغمر نفسه بذكريات نشأة الاسلام ونبي الاسلام وابطال المسلمين وخيار العباد من الصحابة والتابعين . وفي المواطن التي نزل بها القرآن الكريم ، وهبط فيها جبريل الامين على خاتم الانبياء ، كل ذلك كفيل بان يسمو بروح الانسان عن اقذار الشهوات ، وعن المنازع الدنيئة التي تفسد قلبه وخلقه ، الى الغايات الفاضلة التي تجعله انساناً كاملا مهذباً يتمتع بانسانيته التي انسلخ منها اكثر المفتونين بالحياة .

فالحج على هذا يعتبر من اقوى العوامل في تهذيب النفوس . ألست ترى الحاج وقد فارق بلده وأهله وماله وخلانه ، وتجرد عن فاخر ثيابه ولبس ثياب الاحرام المجردة عن وشي الزينة . وطرح وراء ظهره مطامعه وآماله وشهواته وأهوائه ؛ ورجع الى بساطة الفطرة في ملبسه ومأكله ونومه وجلوسه ، وعمر اوقاته بتكبير الله وتحميده وتسبيحه والصلاة والسلام على نبيه وبالطواف والسعي والوقوف بعرفة ورمي الجمار . الى غير ذلك من الاعمال التي تجعله ذاكراً ربه في

كل حين . فانى تكون للاهواء سيطرة على قلبه الذي تفرغ لعبادة ربه ، وانى تكون للعادات المرذولة سلطان على نفسه ؟ وقد وجدت من الانس بالله وعبادته ما هو خير عندها من الدنيا وما فيها .

* * *

ثالثاً — ومنها انتشار الثقافة الاسلامية ، لان اجتماع المسلمين في تلك البقاع الطاهرة لاداء فريضة الحج فضلا عن كونه يوثق عري المحبة بينهم ، فانه من اكبر الوسائل لنشر الثقافة الاسلامية اذ يلتقي بالعلماء المستنيرين الذين استبطنوا دخائل الدين ، وسبروا اغواره وفهموا اسراره ، فيتعلمون منهم ثم يرجعون الى بلادهم بثروة علمية يذيعونها بين اقوامهم. وبذلك تنتشر تعاليم الاسلام الصحيحة ، وتقل الاوهام الباطلة .

* * *

رابعاً — ومنها رواج تجارة وصناعة الامم الاسلامية واقتباس كل امة من غيرها احسن ما وصلت اليه في ابتكار المصنوعات النافعة .

وبالجملة ففوائد الحج ترجع الى امرين . فوائد دينية اشرنا الى بعضها ، وفوائد اخروية واهمها ذكر الله في ايام الحج واداء نسكه ، والى ذلك اشار الله تعالى بقوله « واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

* * *

خامساً — ومنها ان الله جعل الحج خيراً وبركة على سكان البلاد المقدسة الذين يعيشون بما يصل اليهم من خيرات البلاد الاخرى ، ومما ينفقه الحجاج في موسم الحج اجابة لدعوة سيدنا ابراهيم الخليل اذ قال « رب اجعل هذا بلداً امناً وارزق اهله من الثمرات » .

* * *

واذا كنا نعلم انه ليس من عبادة فرضها الله على عباده او ندبهم اليها الا كان القصد منها تطهير النفوس ، وتهذيب الاخلاق . وتكوين الفضائل . وتنمية خشية الله في القلوب . وتعويدها مراقبته تعالى ، فانا نجد الحج قد احتوى من كل عبادة طرفا .

فاذا كان في الصلاة انقطاع عن شؤون الدنيا ؛ واتصال بالخالق ، ففي الحج انعزال المرء عن اهم مشتهياته ، وانقطاع عن معتاده . فاذا اثرت الصلاة في النفوس خلق الصبر فلأن يؤثر ما في الحج من ذلك الانقطاع اولى واوضح .

واذا كان في الزكاة انفاق وبذل فان في الحج انفاقا اغزر ، وانحلالا من المال اكثر .

ولئن كان في الصوم انقطاع المرء عن ملاذه ومشتهياته . ففي الحج كذلك انحباس عن ملاذ ومشتهيات كثيرة . فليس في الحج نساء ولا طيب ولا لباس ولا زين ، بل المرء فيه مطالب ان يكون اوضح مظاهره الانخلاع من شؤن تلك الحياة . فاذا كان في الصيام تعويد النفوس الصبر عن ملاذها ومشتهياتها ، فللحج اعمق في ذلك اثراً واشد تعويداً ، هذا الى ما نجده في الحج وراء ذلك من مصاعب ومشاق ، ففي الحج مفارقة المرء لبيئته وعشيرته وارتحاله عن وطنه ، وفي ذلك من مؤلمات النفس ومدميات الاكباد ما لا يحتاج الى تدليل او بيان .

وفي الحج مفارقة المرء لزوجه وولده ونحن نعلم مقدار اتصال القلب بالزوج والولد ، كما نعلم مقدار ما يساور المرء من خواطر وآلام ومخاوف حين يفارق افلاذ كبده ومسكن نفسه ، كما اننا لا ننسى انهم قديما قالوا « السفر شقة من العذاب » .

هذا وهناك معنى اخر ذلك ان الانسان اذا تصور ما في نهاية سفره من متع وملهيات ومظاهر شيقة من مظاهر الحياة كان له في ذلك بعض العزاء عما يلاقيه من مصاعب ومتاعب . اما والحاج انما يذهب الى تلك البقعة التي تجردت عن كل متعة ، وعن كل مله ، وعن كل مظهر من مظاهر الحياة الخصيبة ، لذلك كان الحج من ادل العبادات على الامتثال واخلاص العمل لله ، فلا غرو ان يكون الحج

من افضل ما يسطر للمرء في كتاب اعماله الذي سيلقاه او سيقرؤه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .

نعم : للحج من بين العبادات مظهر خاص . فهو اكثرها احتواء لرموز العبودية والتقديس ، واوفرها تلويحاً الى حاجة العبد الى ربه .

ففي الاحرام حين يداني الحاج مكة رمز الى شعور المرء بدخوله حرم المليك وحلوله في ساحته ، فهو لهذا يتجرد عن ملبسه وزيه الذي اعتاده والذي قد يكون فيه معنى من معاني النعيم والاعتزاز الى مظهر هو عنوان الذلة والخضوع ، فلا مخيط من الثياب ولا طيب وتيجان على الرؤوس ، ولا قلانس ولا تحليه ولا تزيين يقوم الحاج بهذا الرمز حين يداني الكعبة بيت الله الحرام حتى اذا وصل الكعبة قام برمز آخر اذ يطوف حول البيت طواف القدوم وكأنه يشير بذلك الى ما يقوم به الوافدون نحو ملوكهم من تمسح بالاركان . وتردد على الاعتاب . ومحاولة الاتصال واظهار العبودية والخضوع ، فاذا اظهر الحاج هذا الخضوع وهذه المحاولة للاتصال بمليكه كان بعد ذلك ما يشبه الوقوف بحضرة المليك بعد اظهار الاخلاص والتمسح بالاركان ، فيقف الحجاج بعرفة وكأنهم في هذه الحالة في حضرة مليكهم يتسمع الى مطالبهم . فكل يدعو ربه بما يريد كما تتقدم الرعية الى امرائهم وملوكهم بحاجاتهم حتى اذا اتبعوا هذا المظهر بمظهر آخر وهو السعي بين الصفا والمروة يرمزون بذلك الى تأكيد الاخلاص ؛ وانهم لم يكونوا فيما اظهروا من خضوع انما يحاولون الحصول على مطالبهم ثم يسارعون الى الانصراف من ساحة المليك ، بل يريدون ان يقولوا انا خاضعون ومحبون لذاتك . ولا نبغي من وراء تقديسك وعبادتك سوى وجهك الكريم .

* * *

هذا الى رموز وتلويحات اخرى تحقق ان الحج من افضل العبادات واكثرها ثوابا عند الله ، ولا ادل من هذا من انك تجد اسلوب فرضه على الناس يغاير كل اسلوب طلبت به عبادة اخرى .

ففي الصلاة يقول الله تعالى «اقيموا الصلاة واتوا الزكاة» فلم يزد على الامر بها دون ان ينسب في الاية الامر لنفسه .

وفي الصيام يقول جل شأنه : «كتب عليكم الصيام» فتفهم الاية انه مفروض دون ان ينسب هذا الالزام لله تعالى ، حتى اذا قرأت اية فرض الحج وجدت اسلوبا بغاير ذلك كله ، اقرأ اذا شئت قوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين» فانظر كيف عبر باوضح اساليب الاختصاص ايذانا باختصاصه بهذا الحق . ثم انظر كيف اتبع ذلك باظهر اساليب الالزام اذ يقول : على الناس . تراه الى هذا قد نوه بمشقته وصعوبته فقال : «من استطاع» ولا يقال في جانب الامر مستطاع او غير مستطاع الا وهو شاق خطير ثم هو الى هذا قسم الناس قسمين فجعل منهم المستطيع وغير المستطيع مما يدل على عظم المشقة ، ووراء هذا وذاك تراه قد جعل الاعراض عنه واهماله كفراً اذ يقول «ومن كفر فان الله غني عن العالمين» .

فمن حق ما في الحج من فضل بمشقته ومن وفر عبوديته بما فيه من رموز التقديس ، ومن حق ما كان في طلبه من عناية ان يدعو المؤمنين الى القيام بهذه العبادة لينالوا من ربهم اجزل اجر واحسن جزاء : وفي الحديث الشريف «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته امه» .

ومعنى ذلك ان الانسان يولد على الفطرة طاهر النفس ، صافي الروح لا يدرك من هذا العالم المادي وما يضطرم فيه من النزعات الماديه شيئاً . ولا تعلق روحه باوزاره ، ولا تنزع الى ما يستهوي الناس من متعه التي طغت على صفاء الارواح فصارت سجناً لها وقيوداً حالت بينها وبين المثل العليا . والكمال الروحي الذي استمتع به من اصطفاهم الله تعالى من خلقه ، ولا يزال الوليد على هذا الصفاء الفطري لأول عهده في هذه الحياة الدنيا ، ليس بينه وبين المادة وظلماتها اتصال .

وما اشبه روحه في هذا الطور من اطوار حياته بصفحة بيضاء ناصعة لم تختط فيها يد الاهواء سطراً من سطور الآثام ، ولا تطمح نفسه الى شيء من الدنيا غير قطرات من اللبن يسيغها حلقه فتطفيء غليل الجوع والعطش في معدته وامعائه ، فاذا

هو بعدها رضي النفس . باسم للحياة . قانع بما قسم الله له من الرزق . لا يطلب شيئاً ولا يطمع في شيء . ولا يزعجه شيء اللهم الا ما يتعرض له كل مخلوق من ألم في الجسم لا يعبر عنه الطفل الا بالبكاء والدموع . ثم هو بعد ذلك سابح في صمته الطويل ينظر الى هذه الدنيا نظر الغريب الى ما حوله لحداثة عهده بها ، فاذا داعب النوم اجفانه استسلم له وسبح في احلامه اللذيذة حتى يقضي اربته منه ، فاذا درج الطفل الى الصبا ونضا عنه ثوب الطفولة واخذ يدرك ما حوله من الاشياء تلبهت غرائزه الكامنة في نفسه . واستيقظت من غفوتها لتحدث أثرها في حياته.

وان من اقوى الغرائز سلطاناً على نفسه في ذلك الطور من حياته غريزة حب التملك التي تسيطر على الانسان طول حياته ، فترى الصبي يحب ان يتملك كل ما وصلت اليه يداه ؛ ويحس من ذلك بلذة لا تعدلها لذة ، ويبكي ان حاول غيره ان ينزع ما في يده ، وكلما تقدمت به السن قوي سلطان هذه الغريزة في نفسه حتى لقد تدفع بعض الناس الى انتهاك الحرمات واقتحام الاخطار في سبيل ارضائها . ولا يزال الطفل تتنبه غرائزه الواحدة بعد الاخرى حتى يصل الى طور الشباب فاذا هو محاط بجند قوي من غرائزه ان لم يواته الحظ باخضاعه لسلطان العقل والدين والحكمة والعلم والخلق القويم . فيوشك ان تضل غرائزه فيرتفع عن سبيل الحق والرشاد .

وعندما يبدأ اتصال الطفل بالبيئات المختلفة التي يعيش فيها فلا بد ان يتأثر بكل ما يسود تلك البيئات من عوامل الخير والشر . وتنطبع في نفسه صورة منها ، ويقوى تأثره بها ، ويضعف بحسب استعداده ومزاجه وقابليته لعدوى البيئة ، ومناعة نفسه او ضعفها فتسمو نفسه وتتصقل بحسب ما يسري اليها من عدوى البيئة.

فاذا وصل الى طور الشباب وزاد اتصاله بالعالم تجاذبته العوامل المختلفة التي تسيطر على نفوس الناس جميعاً . فيجد نفسه في عالم يموج بشتى النزعات ، ويجدها محاطة من شهواته وغرائزه بقوة جبارة لا ينجو من سلطانها الا من وفقهم الله تعالى للسمو عليها بما يهبهم من سلطان الدين والحكمة .

واكثر ما يستهوي الانسان في هذا الطور من حياته هو حب المال والنساء

ومنافسة غيره في متاع الحياة الدنيا وزخرفها البراق الذي يخدع افكار الناس فيصرف ارواحهم عن متعة الحياة الروحية ، والاتصال بالله تعالى اتصال عبودية صادقة وايمان قوي ، الى التعلق بالحياة المادية التي اذلت الناس وقتلتهم وهم يحسبون انهم يحيون بها . وما اكثر ما تجره الحياة المادية على الناس من محن وارزاء ، وهم في غفلتهم يعمهون .

* * *

يشقى الناس بهذه الحياة المادية . ويكثر الفساد في الارض لولوعهم بحبها . وكلما زاد افتتانهم بها زاد شقاؤهم وكثرت آلامهم ولقد كثرت الشرور في الارض من جراء تهالك الناس على تقديس المادة حتى اصبحت حياة اكثرهم سجناً لا يحتمل .

افليس من حكمة الله العليم بما يصلح خلقه ، الحكيم في تدبيره وتشريعه وقدره ان يشرع للناس من العبادات ما يخرجهم بها من سجن الحياة المادية . الى اطلاق الحياة الروحية التي يسمو بها سلطان الروح على قيود المادة الثقيلة المرهقة وترجع بها الروح الانسانية الى صفاء الفطرة . وتسمو بها عن الاهواء والشهوات والمنازع المادية الى افق الكمالات الانسانية . وتتصل فيها بالله تعالى اتصال ايمان وعبودية فتشهد من عظمته ما تعنو له وجوه الكائنات وتشهد من اسرار حكمته ما يتضاءل امامه كل مافي الكون من مغريات وتتنزه فيها النفس عن كل ما يدنسها من اقذار المطامع المادية والاهواء الرديئة . ويجد فيها الناس جميعاً ما يجذب ارواحهم بعضها الى بعض فيوثق بينها العلائق على اساس المحبة الكاملة لانها محبة بالله لايشوبها من الاغراض ما يكدرها ويحيلها الى علاقات معلولة ضرها اكثر من نفعها ؟ لذلك شرع الله الحج على كل من استطاع اليه سبيلا ليجد المسلمون اثناء تأدية مناسكه فرصة يتجردون فيها من تعلقهم بالحياة المادية . ويروضون فيها انفسهم بعبادة الله لتعود الى صفاء الفطرة نقية من الاوزار والذنوب وكل ما يحجب العبد عن الاتصال بالله تعالى ، فكان تشريعه من اجل مظاهر الرحمة الالهية بنفوسنا

المريضة مما يلح عليها من اوزار المجتمع . وما يستهويها من فنون الحياة الدنيا .

* * *

ولكي تتم الحكمة المقصودة من تشريع الحج امر الله تعالى كل من فرض عليه الحج في اشهره ان يتجنب الرفث (١) والفسوق والجدال في الحج ، فاذا حج العبد ولم يرفث ولم يفسق طهرت نفسه من الاوزار والذنوب ، ورجع من حجه نقي النفس طاهر السريرة كالطفل يوم ولدته امه ، وقد اسلفنا ان انقى ما تكون النفس الانسانية انما يكون في طور الطفولة . فاذا تطهرت من ادران الذنوب رجع الانسان من حجه مغفوراً له ليس عليه تبعة ولا مؤاخذة كيوم ولدته امه ، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام « من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته امه » والحديث ظاهر في ان الله تعالى يغفر له بحجه الصغائر والكبائر والتبعات .

ولم يدعنا اللطيف بعباده ، الحكيم بفعاله الى زيارة بيته وتأدية نسكه الا ليختبر اينا احسن عملا واهدى طريقا . واينا يدرك هذه الحكمة الالهيه من اجتماع المسلمين في بقعة واحدة فيتعارف الشرقي بالغربي ويتعاون العربي والعجمي ؛ فيسهل عليهم ان يضعوا دستوراً لمعاشهم . ومنهاجا لصلاحهم ويدعمونه بسلطان من شجاعتهم ، وقوة من نفوذهم ، ولا يحس الدين بما جرته سياسة الطغيان من انفراج الحال بين المذاهب الاسلامية ، وجفاف الثرى بين الوشائج المحمدية . وهناك يتسع افق تفكيرهم وينفسح مدى نظرهم ، فلا يقنعون بالدون ، ولا يستنيمون الى الهون فتنقلب اشتات الامة الى الوحدة ، وترتد اموات الجهالة الى البعث وتفيء اسرى العبودية الى التحرر .

* * *

(١) الرفث هو الجماع او دواعي الجماع او فحش الكلام ، والفسوق هو الخروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات ، او بالسباب والتنابز بالالقاب وعمل اي معصية ، والجادلة هي المراء والمناقشة التي تؤدي الى ايغار الصدور .

هذه حكمة من معاني الحج وقبس من نوره ادرك آباؤنا السابقون سره ، وعقلوا امره ، وتمثلوه روحاً ومعنى ، فملأهم الدين بما فهموا عزة وقوة ، وآتاهم حكمة وعلماً ، ووهبهم خير النظم كفالة للحق وضماناً للحرية والكرامة ، فوحد الله بة عقائدهم وألف بين قلوبهم وربطهم بحبل من تراحم وتضامن ، واحلهم من سمو الخلق والعزة مكاناً لم تبلغه قبلهم امة من الغابرين ، فكانوا يدركون من اسراره انه شريعة اجتماعية تؤديها الكعبة الى الامم الاسلامية ، هي تعارف ابناء الاسلام واجتماع كبرائهم وقادتهم يتشاورون فيما يعود على الدين بالقوة وعلى ابنائه بالسعادة ، ويشرفون على تجلية الروح وتهذيب النفوس المحمدية وتنظيم الدواء لهذه الالادواء ، ومعالجة المشاكل التي تمس العصر وتنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الاغنياء والفقراء ، واسداء النصح فيما يعرض للمسلمين من صعاب ، ويوثقون وشائج الارحام . ويربطون صلات التآلف والتعارف فيقضى على المنازعات والخصومات .

* * *

هذا هو الحج كما كان وكما ينبغي ان يكون ، قوي الاثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية . يغار على تأديته المؤمنون ويرون ان منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه :

المتعلمون في نشر ثقافته .

والاغنياء في تشجيع فريضته .

والفقراء في تمني فضيلته .

التصوف في الإسلام

كان الاقبال على الدين والزهد في الدنيا غالبين على المسلمين في صدر الاسلام ؛ وكان المسلمون الاولون في حكم بداوتهم وبحكم دينهم ابعد شيء عن اسباب الرفه واقرب الى الفقر والخشونة ، فلم يكن في الوصف بالزهد والفقر والعبادة تميز لمسلم على مسلم ، ولم يتسم افاضل المسلمين في الجيل الاول بتسمية سوى صحبة رسول الله اذ لا افضلية فوقها ، ولا ادل على كمال الدين منها، فقيل لهم « الصحابة ».

ولما اتسعت الفتوح وكثرت الغنائم بهر العرب ما رأوا من وسائل الترف والنعيم، وعجزت انفس عن كبح جماحها فنشأ الاقبال على الدنيا ، وجنح الناس الى الخروج من الخشونة الاولى الى مخالطة المتاع الدنيوي

هنالك قبل للخواص ممن لهم شدة عناية بامر الدين ومراعاة احكام الشريعة بحيث يبدو ذلك في فقرهم ؛ وزهادتهم ، وفي ملبسهم الخشن : عباد، وزهاد، وفقراء، وسموا « صوفية » ايضاً نسبة الى الصوف الذي كانوا يتخذون منه ومن مثله ثيابهم الغليظة :

فلفظ « الصوفي » اطلق بادىء الامر مرادفاً للزاهد والفقير ؛ يوم كان الفقر والزهد ولبس الصوف ، سمة لمن كمل دينهم فلم تفتنهم زخارف الدنيا . فان كلمة « الصوفي » اصبحت دلالة على كمال الدين .

وكانت احكام الشريعة تتلقى من صدور الرجال لافرق بين عباداتها ومعاملاتها وعقائدها ، ثم تحدث الناس في امور الدين على نظام علمي ونشأ التدوين فكان اول ما توجهت اليه الهمم وانصرفت اليه الافكار « علم الشريعة » بمعنى الاحكام العملية الظاهرة حتى لحسب الناس ان الاشتغال بهذا العلم هو غاية الدين ، وشجعهم على ذلك ما كان يجد الفقهاء من الكرامة عند العامة والمداراة من ارباب السلطان .

وهنالك نشأ بين الصوفية الذين لاتزدهيهم مداراة اهل السلطان ، ولاتغويهم

حفاوة العامة طموح الى علم ديني يحقق منازعهم الى الكمال الديني والى جانب العلم الفقهي .

وفي مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ « وقال سفيان كتب ابن منبه المتوفى سنة ١١٤ هـ الى مكحول المتوفى سنة ١١٣ هـ انك قد اصبت فيما ظهر من علم الاسلام شرفاً فاطلب بما بطن من علم الاسلام عند الله محبة وزلفى . واعلم ان احدى المحبتين سوف تمنع الاخرى .

علم الظاهر وعلم الباطن

وقد انقسم علم الشريعة الى قسمين :

الاول — علم الاعمال الظاهرة التي تجري على الجوارح والاعضاء الجسمية وهي العبادات . كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج الخ ...

والاحكام كالحدود والطلاق ، والعتق ، والبيوع والفرائض والقصاص .

وسمي هذا العلم علم الفقه ، وهو مخصوص بالفقهاء واهل الفتيا في العبادات والمعاملات :

* * *

والثاني — علم يدل على الاعمال الباطنة ويدعو اليها والاعمال الباطنة هي اعمال القلوب وسمي هذا العلم الثاني « علم التصوف » وسمى المتصوفون أنفسهم . ارباب الحقائق . واهل الباطن . وسموا من عداهم : اهل ظواهر . واهل رسوم

واهل الرسوم طائفتان : القراء ، والفقهاء ، فالقراء هم : اهل التنسك والتعبد ، سواء كانوا يقرأون القرآن ام لا ، وهمتهم مقصورة على ظاهر العبادة . دون ارواح المعارف واعمال القلوب .

والفقهاء هم المشتغلون بالفتيا وعلوم الشريعة ، وهولاء عند الصوفية اهل رسوم ، ففريق مع رسوم العلم ، وفريق مع رسوم العبادة ، والتصوف في هذا الدور عبارة عن : الاخلاق الدينية . ومعاني العبادة .

قال بن القيم المتوفى ٧٥٦ في « مدارج السالكين » واجتمعت كلمة الناطقين

في هذا العلم : ان التصوف هو : « الخلق » .

وقال في موضع آخر « ان هذا العلم مبني على الارادة فهي اساسه : وبجمع بنائه وهو يشتمل على تفاصيل احكام الارادة ، وهي : حركة القلب ولهذا سمي « علم الباطن » كما ان علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الجوارح . ولهذا سمي « علم الظاهر » وبذلك يتبين : ان اول خطوات التصوف في سبيل التكون العلمي كانت عبارة عن نشأة علم الاخلاق الاسلامي .

العلوم الدينية

ثم اتسعت انظار الباحثين في العلوم الدينية ودقت ؛ وترامت هممهم الى كلام في اصول الدين بعقولهم ، ولطفت اذواق المراقبين منهم لمعاني العبادات وحركات القلوب . فأخذ التصوف يتسامى الى نظرية خاصة في المعرفة . وفي السعادة وسبيل الوصول وهذه النظرية على ما بينه الغزالي في كتاب احياء علوم الدين هي : « السعادة التي وعد الله بها المتقين : وهي معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات اذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وافعاله . والكون كله من افعاله .

فما يتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم . وهو سبب استحقاق الجنة عند اهل الحق . وتكون سعة نصيب الانسان من الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما يتجلى له من الله وصفاته وافعاله .

وانما مراد الطاعات كلها ، واعمال الجوارح ، تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه وهذه المعرفة تحصل للانسان من وجهين :

احدهما : — طريق الاستدلال والتعليم ، ويسمى اعتبارا واستبصارا ويختص به العلماء والحكماء .

والثاني — مالا يكون طريق التعليم ولا الاستدلال ؛ ولكنه يهجم على القلب كأنه القي فيه من حيث لايدري .

وهو ينقسم الى مالا يدري العبد كيف حصوله ومن اين حصل .

والى ما يطلع معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك

الملقى في القلب على انه في الحالتين موقن بان العلم جاءه من الله، والعلم في الحالين بواسطة الملك ، فان العلم انما يحصل في قلوبنا بواسطة الملك .

والاول يسمى : الهاماً ونفثاً في الروع ، ويختص به الاولياء .

والثاني يسمى : وحياً ، ويختص به الانبياء . واهل التصوف يؤثرون العلوم الالهامية دون التعليمية ، ويعدونها المعرفة الحقيقية ، والمشاهدة اليقينية التي يستحيل معها امكان الخطأ .

ولذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون . والبحث عن الاقاويل والادلة ، بل قالوا ان الطريق الى تحصيل تلك الدرجة بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

طريق الصوفية

وطريق الصوفية يرجع الى تطهير محض ، وتصفيه وجلاء ، ومحاسبة للنفس ، ثم استعداد ، وانتظار للتجلي .

والمريد في مجاهدته وعباداته لابد ان تنشأ له عن كل مجاهدة حالة نفسية نتيجة لتلك المجاهدة، واصل المجاهدات كلها الطاعة والاخلاص: ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات ، نتائج وثمرات . ثم تنشأ عنها اخرى ، واخري الى مقام التوحيد والعرفان ، ولا بد للمريد من الترقي في هذه الاطوار النفسية المسماة بلسان اهل التصوف . المقامات . او المنازل ، او الاحوال .

كان التصوف طريقا من طرق العبادات يتناول الاحكام الشرعيه من ناحية معانيها الروحية واثارها في القلوب . فهو يقابل علم الفقه الذي يتناول ظواهر العبادات ورسومها ثم انتقل التصوف فاصبح طريقا للمعرفة يقابل طريق ارباب النظر في المتكلمين .

قال الغزالي في الاحياء : « ان للايمان والمعرفة ثلاث مراتب »

المرتبة الاولى — ايمان العوام . وهو ايمان التقليد المحض :

المرتبة الثانية — ايمان المتكلمين . وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام .

المرتبة الثالثة ــ ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

وكما كان الصوفية خصوم الفقهاء في الدور الاول ، اصبحوا خصوم المتكلمين اهل النظر في هذا الدور .

مباحث علم التصوف ومعرفته

والتصوف علم جليل الشأن . ونحلة عظيمة القدر . وهو الطريق الذي يوصل الى السعادة في الآخرة ، والدواء الذي يشفي صاحبه من مرض النفوس ، والمنهاج الذي يزكي القلب . ويصفي الروح . ويذهب الرجس من الجسم ــ لذلك كان اهم ما يبحث ويحض على معرفته في العبادات ما يأتي :

١ ــ الاستقامة في العبادة والمعاملة ، قال تعالى «فاستقم كما امرت ومن تاب معك» .

٢ ــ علم الاخلاق الاسلامي ــ بصفاء القلب من الادناس وتأثيره بالعبادة وحسن الخلق .

٣ ــ الكمال الديني بالتمسك بالشرع والزهد في الدنيا ومحاسبة النفس في كل اوان استعداداً للتجلي الالهي .

٤ ــ علم السلوك وهو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات التي هي الاخلاق الباطنية . والملكات النفسية .

٥ ــ العرفان الحقيقي لله تعالى والتزام حدوده كمعرفة صفاته وافعاله . وجلاء مرآة القلب وتنقية جوهر الروح بالكف عن الشهوات . والاقتداء بالانبياء تأدباً في عبادة الله .

٦ ــ علم الصفات النفسية كالصبر والشكر والخوف والرضا والرجاء والزهد والتقوى والقناعة والاحسان والصدق والاخلاص .

قواعد التصوف

وقد بني التصوف على خمس قواعد : وتلك القواعد مما شية تعاليم الدين .

مسايرة الشريعة من حيث احكامها الباطنة . ونواميسها الخفية وتلك القواعد هي :

١ — صفاء النفس ومحاسبتها .

٢ — قصد وجه الله

٣ — التمسك بالفقر والافتقار

٤ — توطين القلب على الرحمه والمحبة

٥ — التجمل بمكارم الاخلاق التي بعث الله بها النبي لتمامها .

القاعدة الاولى

ومعناها ان كل من اراد ان يدخل في سلك المقربين ليعد الجواب لسوأل الحق تعالى وذلك ان يحاسب نفسه قبل ان يحاسبه الله . ويزن اعماله قبل ان توزن بقسطاس الاخرة ويصفي نفسه من شوائبها ووساوسها ؛ قال عليه السلام «حاسبو انفسكم قبل ان تحاسبوا . وزنوها قبل ان توزن عليكم» وقال الله تعالى « ونزعنا ما في صدورهم من غل » .

القاعدة الثانية

ومعناها ان المتصوف لا بد ان يقصد وجه ربه في جميع اقواله وافعاله ، غاسلا قلبه بماء الاخلاص لوجه الله لا لمخافة المخلوقات وهيبة الرؤساء . فيصير بذلك لا يتكلم ولا يفعل الا عن تثبت واطمئنان، وتصبح اعماله خالصة لا مخالطة فيها ولا رياء « وحسبنا دليلا على ذلك قوله تعالى لنبيه « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » . وقوله ايضاً « مالاحد عنده من نعمة تجزي الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » .

القاعدة الثالثة

ومعناها الزهد في الدنيا والقناعة في متاعها حرماناً للنفس . فان التمسك بالفقر دليل التقشف الذي هو الآلة القاطعة حبل الوصال بين العبد والشيطان

فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة . والمفاجأة الصادقة وعدم العلوم والفساد والافتقار هو تجرد المرء من زينة الحياة لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع مظهر الافتقار الى الله وانه لا حول له ولا طول الا به . طالباً منه التكرم عليه بالامداد والتجليات. وذلك هو منتهى الاقرار بالعبودية التي هي مركز التصوف ، وعقيدة الايمان .

* * *

وصفوة القول ان الفقر اساس التصوف وقوامه . وان التحقق باحوال التصوف ومقاماته بني على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع.

ولا بد من التمحيص الدقيق الذي يبين الفرق بين التصوف والفقر من ناحية والتصوف والزهد من ناحية اخرى . بحيث نلمس الاشتباه الذي يمكن ان يكون بين كل من هذه الاشياء الثلاثة . ونميز الفرق بينها تميزاً يحدد كلا منها تحديداً من شأنه ان يحول بين اندماج بعضها في بعض . او تشابه بعضها مع بعض .

فانت ان انعمت النظر ودققت الفكر في هذه المسألة تبين لك ان التصوف غير الفقر . وان التصوف غير الزهد . وليس التصوف غير اسم جامع لمعاني الفقر والزهد باضافة صفات ونعوت لا بد منها لكي يكون الرجل صوفياً .

فقد يكون الرجل زاهداً ، وقد يكون فقيراً ، ولكنه ليس صوفياً ، ولكنه لكي يكون صوفياً لا بد له بين ان يكون زاهداً وفقيراً .

وقد قص علينا مؤلف المعارف قصة رويت عن ذى النون المصري فهي تظهرنا على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من تمسك بالفقر . واممان في الزهد. واغراق في الاعراض عن ملذات الدنيا وشهوات النفس .

قال ذى النون : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت : من اين اقبلت ؟

قالت : من عند اقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟

فقلت : واين تريدين ؟

قالت : الى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟

فقلت « صفيهم » فانشدت ؟

قوم همومهم بالله قد علقت ومالهم همم تسمو على احد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما ان تنازعهم دينا ولا شرف من المطاعم واللذات والولد
ولاللبس ثياب فائق انق ولا لروح سرور حل في بلد
الا مسارعة في اثر منزلة قد قارب الخطو فيها باعد الابد
فهم رهائن غدران واودية وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

* * *

فهذا الشعر وان كان ركيكا مهلهلا ضعيفاً الا انه يصور لنا في وضوح نفوس الصوفية وقلوبهم وما احتوت عليه هذه القلوب وهذه النفوس من فناء في الله وذكر له واتحاد معه . بحيث اصبحت نفوسهم لا تفكر الا فيه وقلوبهم لا تنزع الا اليه . وبحيث انهم تجردوا عن كل شهوه ، وخلصوا من كل لذة . وتحرروا من هذه القيود الجسمانية التي تفسد على الانسان حياته الباطنية وتكدر صفاء سريرته النفسية .

وايـة ذلك هو ان الصوفي دائم التصفية والتنقية عن نفسه بما يشوبها من الاكدار . وهو فوق هذا دائم الحركة والاضطراب بدوام التجاهه وافتقاره الى ربه . والتجاهه وافتقاره هما اللذان يهذبان قلبه . وينقيان نفسه . ويضيئان جوانب هذه النفس وهذا القلب بالمعرفة الصحيحة الصادقة التي تكشف له عن حقيقة الله وما هية الاشياء .

القاعدة الرابعة

ومعناها انه يجب على كل صوفي ان يلزم قلبه على محبة المسلمين ورحمتهم وبعطيهم حق الاسلام من التعظيم والتوفير ، فان رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدريب عليها افاض الله عليه انوار الرحمة واذاقه حلاوة الرضا . والبسه ثوب القبول . فينال مما ورثه النبيون من المحبة والرضا حظاً وفيرا ـ قال تعالى في حق الرسول « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » ،

وقال عليه السلام لصديقه ابي بكر الصديق « لا تحقر احدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبيرا » .

القاعدة الخامسة

وهي زبدة الدين وحقيقة اخلاق الصوفيين . ومعناها ان يكون العبد هيناً لينا مع اهل بيته وعشيرته . وجميع المسلمين . قال عليه السلام « اهل الجنة كل هين لين سهل قريب . واهل النار كل شديد قبعثري قالوا وما القبعثري . قال الشديد على الاهل والصاحب والعشير » وقال تعالى « وقولوا للناس حسنا » اذ ان الله تعالى يعامل عبده بوصفه وخلقه الذي يعامل الناس به ، ولذلك يقول تعالى « واعلموا ان الله يعلم ما في نفوسكم فاحذروه » .

وفي الحديث القدسي عنه عز وجل « يقول الله للعبد يوم القيامة جعت فلم تطعمني . واستسقيتك فلم تسقني ومرضت فلم تعدني — فيقول العبد : كيف تجوع وانت رب العالمين : وكيف تسقى وانت رب العالمين . وكيف تمرض وانت رب العالمين: فيقول له سبحانه وتعالى مفسراً لذلك « اما انه مرض عبدي فلان فلو عدته لوجدتني عنده، وجاع عبدي فلان فلو اطعمته لوجدت ذلك عندي . واستسقاك عبدي فلان فلو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

ذلك هو الحديث القدسي الذي جمع محاسن الاخلاق وجميل الصفات بين الناس وهو القانون الالهي الذي سلك منهاجه رجال التصوف في حياتهم الدنيوية العملية — فمن رسخت قدمه منهم في هذا المقام صارت احواله ومعاملاته مع الرب في كل شيء فلا يراقب غير الله في كل سكناته وحركاته قال تعالى « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم »

وقال عليه السلام « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

ادب التصوف ومنهاجه

وادب التصوف ادب الهي سام . وهو مدد الهمه الله للمتصوفين فانتهلوه بكل

ظاهره وباطنه . منهاجهم في ذلك قوله عليه السلام « ادبني ربي فاحسن تأديبي » فالصوفية تولاهم الله برعايته فادبهم وهذب ظاهرهم واصلح باطنهم حتى ظهر كل واحد منهم صوفيا اديبا : تكاملت اخلاقه بتكامل ادبه لان الآداب منبهة للسجايا الصالحة والمنح الالهية ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية لمناجاته وكملها بالسجايا الطاهرة توصلوا بحسن الممارسة والرياضة الى استخراج ما في النفوس من الشوائب وتهيئتها الى معرفة الحضرة القدسية فصاروا مؤديين مهذبين كاملين لله وبالله وفي الله .

قال ابن عطاء « النفس مجبولة على سوء الادب والعبد مأمور بملازمة الادب » وقال عبد الله بن المبارك « ادب الخدمة اعز من الخدمة » .

صفات التصوف

واهم صفات التصوف هي :

١ ـ الاخلاص وطهارة القلب . قال تعالى « مخلصين له الدين حنفاء » .

٢ ـ الخشية من الله . قال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

٣ ـ الخشوع لله . قال تعالى « خاشعين لله » .

٤ ـ التواضع للمخلوقات . قال تعالى « واخفض جناحك للمؤمنين » .

٥ ـ حسن الخلق قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

٦ ـ الزهد في الحياة قال تعالى « وقال الذين اوتو العلم ويلكم ثواب الله خير » .

درجات التصوف

وللتصوف ثلاث درجات كما ان الصوفية على ثلاث طبقات :

الدرجة الاولى

هي درجة المريد الطالب كما انها اول خطوة في التصوف ، وصاحبها صاحب وقت مجد في العبادة لطلب مراده ومقامه المجاهدات وتجرع المرارات . ولذا قيل اول التصوف علم .

الدرجة الثانية

وهي وسط التصوف وتسمى درجة المتوسط السالك . ومنتهاها صاحب حال وتلوين لانتقاله كل آونة من حال الى حال . ومن درجة الى درجة . وهو مطالب بآداب المنازل والزيادة في العبادة ، ومقامه ركوب الاهوال في طلب المراد . ومراعاة الصدق في الاحوال واستعمال الآداب وفناء النفس في العبادات . وتلك اشق درجات التصوف ، فمن رسخ قدمه فيها فقد وصل حقيقة المقامات . وتلك الدرجة هي المعبر عنها بان أوسط التصوف عمل .

الدرجة الثالثة

وهي أعلى درجات التصوف ومنتهى اعمال الصوفية . وتسمى درجة المنتهى الواصل ، وصاحبها ذو نفس وهمة وفضل . فقد جاوز المقامات وصار في محل التمكين لا تؤثر فيه الاهوال ، ومقامه الصحو والاجابة للحق : استوى في حقه الشدة والرخاء ، والمنع والعطاء — باطنه مع الحق ، وظاهره مع الخلق ، فمن بلغ تلك الدرجة فقد بلغ الكمال وصار من اهل القرب والمكاشفات ، وقد قيل : نهاية التصوف موهبة من الله التصوف .

تلك هي درجات التصوف . ومما هو جدير بالذكر ان نلمح باشهر أئمة التصوف وما نالوه من الدرجات

أئمة التصوف

ان أئمة التصوف في عهد الصحابة هم :

ابو بكر . عمر . عثمان . علي . حارثة . حذيفة . سلمان . بلال . صهيب .

وفي عهد التابعين : علي بن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر . وجعفر الصادق . والحسن البصري . وأويس القرني . هؤلاء هم أئمة التصوف في العهد الاول . ومنهم تفرع التصوف وانتشر في اقطار الاسلام . وصار لكل منهم مذهب وطريقة وتلامذة ينهجون على ما رسموه الى وقتنا هذا .

ومما نالوه من الله علوماً عالية واحوالا شريفة — فمن العلوم : علم المعاملات وعلم عيوب النفس واصلاحها. وعلم آفات القلب وتطهيره — ومن المقامات : اليقظة والتوبة والزهد والخشية والمراقبة واليقين والعوارض والاذكار .

* * *

من ذلك كله نعرف ان التصوف مرماه طهارة القلب والتوبة الى الله ومحبة المخلوقات وان رجاله هم حماة الدين وانصار الاسلام واعوان الحق وورثة الانبياء ، وهم الذين قال الله فيهم — « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وقال : « اولئك الذين هداهم الله واولئك هم المفلحون».

الأشياء الكيميائية وتركيبها في الأسماء

قد بين الله لنا بيان قاطع . وبحجة دامغة هـذا الدستور العظيم في قوله تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فقد دافع سبحانه وتعالى في كلامه الكريم عن حقوق الفرد المهضومة واقرها في نصاب الانصاف . وانتشلها من هوة الجور . ومنع التحايز الممقوت بين الناس من جهة الاجناس والالوان . وذكرهم بحكمة تناسلهم من ذكر وانثى . ثم حطم هذه الحواجز التي كانت تفرض سلطانها القاهر على النفوس والعقول والقلوب بصورة قاتمة » .

وهكذا تحرر الانسان من هذه الاغلال الثقيلة التي كبلت حريته حقبة طويلة الامد من الزمن الغابر . وشعر بحقوقة تعاد اليه تحت راية الاسلام الخفاقة وتلك هي الديمقراطية اشادها الاسلام على دعائم من التقوى والتواضع المقبول

وكما طهر الله فوارق الجنسية واللون تحت شمس الاسلام الوهاجة المشرقة ، فانه ازال من نفوس الخلق كافة دوافع العصبية الكريهة ، واستأصل شأفتها من صدورهم ، واختلع بذورها من اعماقهم ، وجعل الميزة الحق والتفاضل الكامل في التقى والصلاح والعبادة الصحيحة . وهذه جميعها متاحة للجميع وفي متناول ايديهم وكذلك اتم عليها نعمة الحرية في مجال العيش بان جعل في اموال الاغنياء وارباب الثراء حسبة خالصة للفقراء والمحتاجين والعجزة توزع عليهم بحسب حاجاتهم

وهكذا على تلك الطريقة والوضع الكريم سار الاسلام بخطوات واسعة في ميدان التعاون العام والمساعدات الدائمة المشتركة والخدمات الاجبارية ان يكفل لاهله الحقوق المكملة لراحتهم ولسعادتهم الدنيوية .

واتبع الاسلام في هذه « الاشتراكية » السامية طريقة الترغيب في ثواب الله فقرع باب الاغنياء بشدة ، وجعل من يحسن من طيب ماله على الفقراء والمحتاجين كأنه يقرض الله بالذات قرضا حسنا . وتلك هي طريقة الاسلام في حض الاثرياء

على التبرع بزائد اموالهم لمصلحة الفقراء وهي قريبة الشبه بوسائل جمع الاعانات في البلاد الاشتراكية .

ومن هذه الاموال الخالصة التي كانت حسب قوانين الشارع الحكيم تجمع من الصدقات والزكاة . وهي حق المال . وتجبى بطريق التبرع من الاغنياء . وتحصل من الضرائب المفروضة على اهل الذمة في الدول المفتوحة بحد السيف كنفقات احتلال . وتجبى بنسب معينة تلائم الاحوال وتتفق مع مقدرة الدافعين لها . أكان سائل وابن السبيل والمحروم والمقطوع والمحتاج ياخذ حقه بالكامل .

وتلك هي القاعدة الثانية التي سار عليها الاسلام في العناية الفائقة باحوال الفقراء . وبها طرد شبح الجوع من الاسر البائسه ، وشفى جراح المحتاجين ، وذاهب الغل من قلوبهم ؛ ومسح على رأس ابناء السبيل بيد الرحمة والحنان وازاح عن صدر الانسانية كابوس الظلم المخيف .

ولقد اراد الفاروق عمر بن الخطاب في اخريات ايامه ان يخط باجتهاده سياسة جديدة في تنظيم اشتراكية الاسلام فقال رضوان الله عليه : والله لان عشت الى قابل لاجمعن فضول اموال الاغنياء فاوزعها على الفقراء .

وهكذا كان الفاروق يريد ان يحاسب الاغنياء فيأخذ فائض اموالهم ويوزعه مع الصدقات والزكاة على المحتاجين ولكنه مات قبل ان يتم هذا العمل الجديد الذي تحدث عنه وكان تطبيقه في عامه المقبل .

وللاسلام في ذلك طريقة قويمة . فهو يجعل حقوق الفقراء ومن يدخل في محيطهم ونطاقهم من المحرومين واليتامى وابناء السبيل في الفائض من اموال الاغنياء وتسمى هذه الحسبة المعينة بالزكاة الاجبارية ، وهي تشبه الى حد النسب التصاعدية في النظم الاشتراكية الحديثة .

ومن هذا نفهم بوضوح وجلاء ان سياسة الاسلام الرشيدة في توزيع فضول الاموال . وتحصيل الزكاة تتبع اهدي الطرق واجلى السبل . ولا مغالاة في ذلك فهي لا تهاجم الاغنياء وانما ترغبهم في ثواب الله . وتخوفهم من عاقبة التبذير فيما لا يفيد الفقراء . وتأخذ الزائد عن حاجاتهم فتوزعه بعدل وانصاف وهذا ما يتبع في

لم التبرعات الاختيارية ، اما الزكاة فهي اجبارية .

والاسلام كما يحتم على الفرد خدمة المجموع في حدود واسعة فانه ايضاً يجبر المجموع على العناية بالفرد في دوائر فسيحة . ويريد الاسلام من وراء ذلك ان يشعر المسلم ان راحة المجموع تنجم عن راحة الفرد . وهو اذا فهم هذا حق الفهم وادركه تمام الادراك اخلص في تواده ، وتعادى في تراحمه ، وتعاون مع اخيه المسلم في مجال واسع يعود بالفائدة على الجميع .

وفي هذا التعاون الرقيق تتجلى اشتراكية الاسلام ظاهرة . ويعرف المسلم الصادق الايمان . المؤمن بالله واليوم الآخر . انه كفرد يتمم مع اخيه في الدين والعقيدة ناحية مهمة في اسرة المجتمع الكبرى التي يتكوّن منها بناء الامة الشاهق .

ويكفي ان يعلم المسلم ان سعادته وراحته وعزه ومجده يتحقق على الفور وبطريقة كاملة اذا اشترك مع اخوانه في تحمل اعباء الحياة ، وجعل في فائض ماله ان كان في الاثرياء حسبة للسائل والمحروم والفقير والبائس يؤديها لبيت المال فتوضع في خزانته وتسجل في دفاتره .

وفي هذه الاموال التي تجمع بواسطة الضرائب والتبرعات تبني الدولة المستشفيات لعلاج المرضى . وتشيد المدارس والمعاهد لتعليم اولاد الفقراء ، وقد بلغ من اهتمام عمر بن الخطاب في استغلال اموال الصدقات والزكاة لصالح المحتاجين انه كان يقيم دور الضيافات . ومخازن التموين على رؤوس الطرق وفي الاماكن النائية . ويفرض لها الاعطيات والارزاق من خزانة الدولة العامة .

وتلك لعمري هي اشتراكية الاسلام الكاملة التي اختار الله لها اقوى الدعائم وارسخ القوائم . وامتن الاسس . وجعلها موافقة لنواميس الحياة الاجتماعية . تتمشى مع تطور الزمن . وتلائم الناس في كل الاجيال .

ولما كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والاخروية ، فقد ارسل الله الى خلقه رسلا مبشرين ومنذرين يهدونهم الى طريق الحق . ويميلون بهم عن مهاوي الضلال ، ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وعبادة الخالق المصور . ويبينون لهم ان الله قد كرم بني آدم

على سائر مخلوقاته . وسخر لهم ما في الكون وجعل لهم ما في الارض جميعاً ، فكانت هذه التعاليم مما رفع الانسان عن مستوى البهيمية فسما بروحه الى العالم العقلي واخذ بقسط كبير من الحضارة والمدنية . وصرفه عن مشاركة الحيوانات في معيشتها . والهوام في مساربها بما اعد للعوادي من قوة تقيه جوائحها . وترفع عنه امر الفزع والوحشة والانفراد .

ويكفي ان يقارن الانسان بين قوم آمنوا بما جاءت به الرسل من عند الله . وبين قوم تقلقلت قلوبهم ، ووقرت آذانهم فلم ينشرح صدرهم لدعوة الحق ليرى الى اي حد ترتفع النفوس المؤمنة الى موضع السماك . وتتسفل العقول الجامدة الى مصاف الحيوانات بفضل هذا الجمود الذي غلب صفة العجم من الحيوان على التفكير من بني الانسان .

* * *

والناظر المنصف الى تاريخ الاسلام يجد ان الدين الذي وافق الفطرة الانسانية وكان عند حاجتها . وكما انه كفل السعادة الابدية في الدار الآخرة فكذلك اخذها بارشادات اذا سارت عليها وجدت هدى فلا يغلبها غالب . ولا يلحق بقافلتها راكب .

جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادما للشرك مناديا بوحدانية مدبر الكون . آخذاً العقول على ذلك بالحجة العقلية « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ووطد دعائم الحرية وقصم ظهر الاستبداد . ورفع راية الشورى مادحا اولئك الذين امتحن الله قلوبهم لها « وامرهم شورى بينهم » وهل تريد دليلا على احيائها اكثر من فعل الرسول . وهو الامام الاعظم ثم من اتى بعده من الخلفاء الراشدين .

يقص علينا التاريخ : ان رسول الله حين خرج في غزوة بدر نزل المسلمون على اول ماء من بدر . فجاء الحباب ابن المنذر اليه وقال : يارسول الله أرايت هذا المنزل ، امنزلا انزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه ، ام هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال له : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : يارسول الله

هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم فتنزله ثم تغور ما وراءه من العليب . ثم تقاتل القوم فتشرب ولا يشربون . فقال له : لقد اشرت بالرأي وفعل كما قال :

ومعلوم ان الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن الكريم وعملوا به فانشأوا حكومة قضت بالتساوي، واحدثوا في المؤمنين عواطف اخوة وروابط اجتماعية ، وحالات معيشية لاتكاد توجد بين اشقاء يعيشون تحت سقف منزل واحد .

اخذ الاسلام انصاره بالتصون النفس والتجافي عن مواضع النقص . والانف من الرضاء بالجهل والغباوة او الضعة او الضراعة . وهذا خلق ينهض ولا شك بصاحبه الى الفضائل . وينفر به عن الشهوات الجامحة ويحثه على تطلب الكمال .

هذه الصفات الفاضله من بعض ما جاءت به الشريعة المحمدية . وكان من اثرها ان امتد ظلالها على رؤوس الامم وانبسط رواقها من جبال الالب الى جدار الصين قبل اكتمال القرن الاول الهجري . ودخل النـــاس في دين الله افواجا طائعين مختارين حتى جاوزوا المائة مليون في مدة لاتزيد على عمر رجل واحد . فعاشت في منعة من السلطان وسياج من العدالة والفضيلة فمكن الله لاصحابها في الارض وصدقهم وعده .

* * *

تتابع الانبياء من لدن ادم الى ما بعد عيسى ، وحمل كل منهم الى قومه رسالة ربه ودعاهم الى التوحيد . والى عبادة الله . ونبذ ما هم عليه من ضلال و كفر فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه . وقد اخذ الله بعض هؤلاء الصادين بعذاب بئيس وبعضهم بريح عاصف . وبعضهم بطوفان مغرق . الى غير ذلك من انواع التنكيل والتعذيب .

وكان كل رسول يبعث برسالة تطابق روح عصره وتلائم اهل زمانه . وكان الجميع يتحدون في اصول العقائد وامهات التوحيد . ويختلفون فيما وراء ذلك .

وكان كل رسول يرسل الى قوم معينين . وجماعة مخصوصين لايتخطاهم ولا يدعو سواهم . واغلب الظن ان رسالات هؤلاء الرسل كانت تتبع تقدم العقل البشري وتأخره في مختلف العصور والازمان . الى ان جاءت رسالة محمد النبي الامي. وكان العقل البشري قد اكتمل ، وكانت الافكار قد تقدمت ، وكانت القلوب قد تنورت واستعدت لان تتلقى شريعة عامة شاملة تكون قانونا للناس جميعا . ولكلهم على السواء في جميع بقاع الارض . وفي مختلف الاقطار والامصار . وعلى تباين العصور والدهور .

* * *

ولما بلغ محمد عليه الصلاة السلام الاربعين من عمره ؛ بعثه الله على رأسها للناس كافه بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله . وامره ان يدعو الناس الى التوحيد والى عبادة الله لايشركون به شيئا ، فقام بالدعوة سراً في بادىء الامر ، ثم امره ان ينذر عشيرته الاقربين . فانذرهم وحذرهم ثم امره ان يجهر بالدعوة وان يعلنها للناس جميعا . وان يدعوهم اليها فصدع بالامر . وارسلها مدوية في الآفاق ، واعلن للناس مبدأه العام الخالد « ان لا اله الا الله . وان محمداً رسول الله » فملاء به سمع الدنيا . واهتزت له جنبات الارض ورواس الجبال .

* * *

ومن هذه اللحظات الاولى من رسالة محمد عليه السلام تجلت الديموقراطية الاسلامية باجلى مظاهرها واوضح الوانها وستظل كذلك ظاهرة باهرة في شريعته الخالدة الى ان تبدل الارض غير الارض والسموات . والى ان تقوم الساعة والى ان يرث الله الارض ومن عليها . فقد دعا عليه السلام الناس جميعاً على السواء غنيهم وفقيرهم . شريفهم وحقيرهم ، وما ترك غنياً لغناه ولا وجيهاً لجاهه ، ولاحابى عظيما لعظمته ولا اميراً لامارته ، بل كان الكل جميعاً امام الدعوة الاسلامية

في مستوى واحد وصف لايختلف فقد ارسل بكتبه الداعية الى الله : الى هرقل والى كسرى . والى المقوقس : والى غيرهم من اساطين العالم يوم ذاك . وزلزلت من عروشهم . وهدت من مما لكهم . وقوضت من تيجانهم .

* * *

ولما استتب الامر لمحمد عليه السلام . وقويت شوكة الدين وهدأ الصحابة المجاهدون العاملون ، اخذ يبين لهم الاحكام ، ويبلغ ما امر الله به . ويوضح من التنزيل ما اشكل امره عليهم وأبهم لديهم . وآذن في الناس جميعاً بقوة وحمية [الناس سواسية كاسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى] فسوى بين الصغير والكبير والعظيم والحقير في حدود الدين. وهدم قواعد الارستوقراطية، ومحا فوارق الطبقات . وبث دعائم المساواة والمؤآخاة بين الناس .

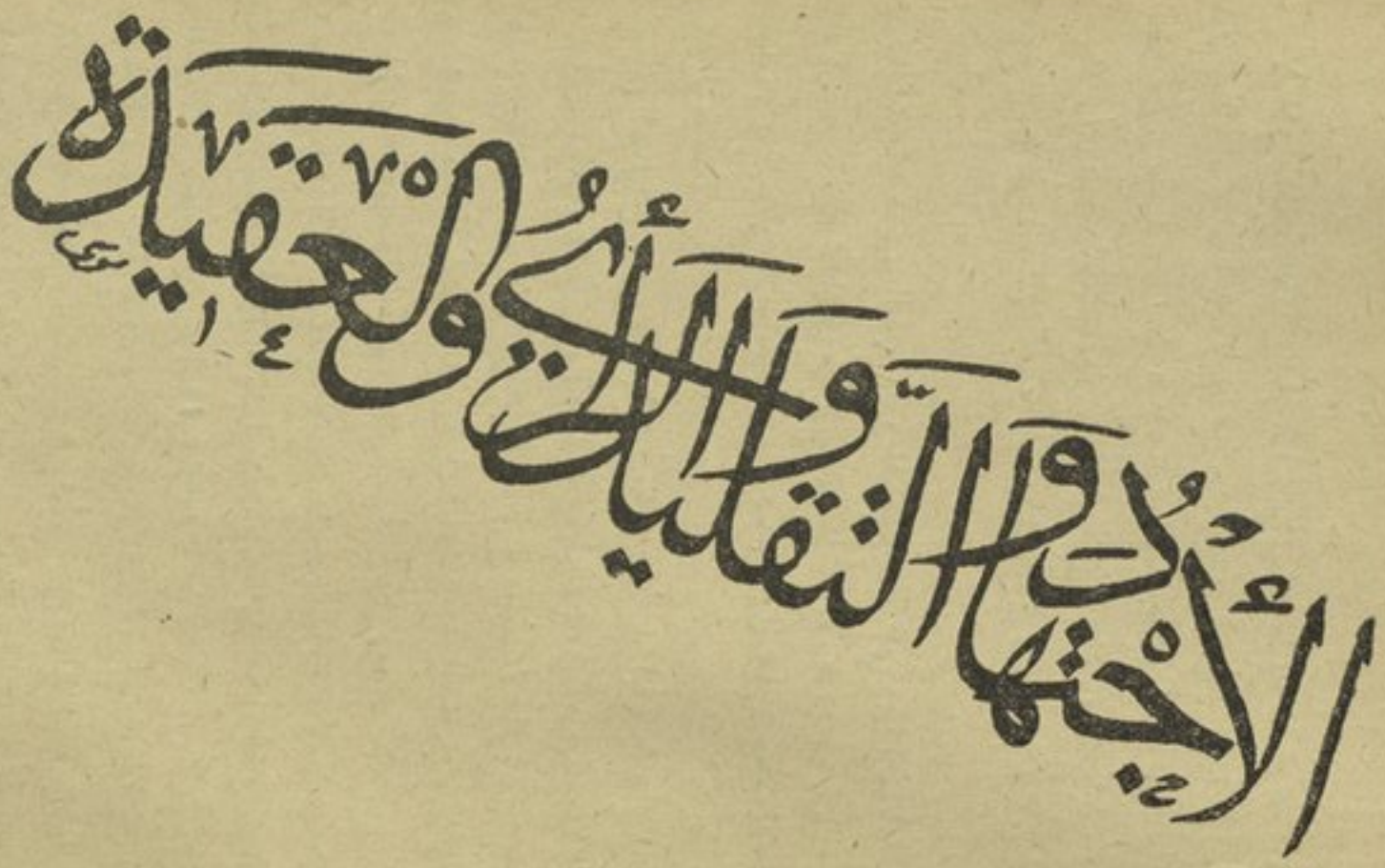

اعلن الاسلام استقلال الفكر والحرية في الراي بشرط الا يخرج كل منهما عن دائرته المشروعة ، اذ كل ما زاد عن حده التحق بضده — وبهذا المبدأ الثاني قد احترم العقل وقرر اعتباره والرضوخ لاحكامه الصحيحة - كما دعا الى استقلال الفهم وحرية الرأي بعد احكام النظر . واعمال الروية واجادة التفكير . ونفاذ البصيرة ، مع البعد عن الطيش والهوى وسلطان الوهم والانقياد الاعمى لحكم الهوى والخيال .

لذلك جاء التوحيد فحرر العقل من ربقة التقليد الاعمى وسلطان الاوهام . واطلق الفكر من عقاله يجول في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ويطارد بنوره الساطع ظلام الجهل . ويبدد باشعته الوهاجة سحب التضليل والخرافات والسخافات .

وقد جنى العالم من غرس هذه المبادىء القويمة ثمار الحكمة والاتزان . واعتدال الرأي . وسلامة الفكر . وعلو الهمة وكمال الايمان . وفتح باب الاجتهاد لمن فيه اهلية الاجتهاد وتصريف المواهب والقوى لما خلقت لاجله .

فانعم بدين الفطرة السليمة والحرية الكاملة والعقل الصحيح . والمدنية الفاضلة ، والمبادىء السامية والاحكام العادلة الصالحة لكل زمان ومكان .

اذا وعيت هذا فقد ادركت عناية الاسلام بشخصية كل فرد . وكيف طالب كل انسان بابرازها وتنميتها والمحافظة عليها . لانها مظهر الكرامة الانسانية وعنوان على مافي الانسان من حيوية ورجولة وقوة ارادة .

وشخصية كل فرد هي مجموع مافيه من استعداد وقوة ومواهب واخلاق . وهي وليدة ما لديه من ثقافة وعلوم وتجارب ، فمن الجناية على الانسانية ان يتنازل اي فرد عن شخصيته . ويفنى في شخصية غيره ، بل من الاجرام ان يمسخها بالتقليد الاعمى لسواه ، وبتعطيل ملكة التفكير فيه ، ويشل ارادته وخاصته التي ميزته عن الحيوان الاعجم ، ومن الاساءة الى الدين ان يكون المرء

«إمعة»(١) ورجلا لا رأي له ولا استقلال عنده فيما يجري بين يديه، وفيما يقع تحت سمعه وبصره وحسه . وفيما يعرض له من شؤون الحياة وحوادث الوجود . ومظاهر الكون بحيث يتابع كل واحد على رأيه : ويلغي وجوده ويرضى ان يكون صدى لغيره .

فرسول الله حين يقول « لا تكونوا امعة » ينهى كل فرد مكلف عن ان يكون تابعا لكل ناعق وذيلا لكل رأس ومتلونا بلون المجتمع ، واذن فقد نهى الرسول عن ذلك وامر كل مكلف ان يثبت وجوده وان يكون مستقلا في ابداء رأيه . وان يحافظ على شخصيته ويظهر ارادته . ويستعمل عقله وان يصبح احد رجلين فقط ولا يكون الثالث فيهلك كما جاء في الاثر « اغد عالما او متعلما ولا تكن » امعة » .

فهل رأيت ابلغ في الزجر ، واروع في النعي على التقليد ومحو الشخصية من هذه الجملة الذهبية .

وهل رأيت دينا يعنى بشخصية كل فرد . ويحترم العقل وحرية الفكر والارادة في الدائرة المعقولة المشروعة كدين الاسلام .

ولا ريب في ان الاجتهاد من الموضوعات الجديرة بالعنايه والتي ينبغي ان يكثر العلماء من بحثها وتقليب النظر فيها للوصول الى نتيجة صحيحة ، وذلك لان فريقاً من العلماء يعتقدون ان الشريعة الاسلامية لم تصب بالعقم ، ولم يلحقها هذا الذي يسميه الناس جموداً ، ولم يشع الاعتقاد بين الخصوم بعدم لياقتها للعصر الحاضر . وعدم كفايتها لحاجات الناس ، ولم يصبها كل هذا الا عندما شاع الاعتقاد بين العلماء باغلاق باب الاجتهاد وعدم تيسير اسبابه لاحد ما مهما حاول في هذه العصور ، فاوجدت هذه العقيدة يأساً من تحصيل هذه الفضيله .

ومن الغريب المدهش ان يكون الرأي الشائع والاعتقاد الراسخ هو استحالة الاجتهاد في فروع الشريعة الاسلامية مع النص في كتب الاعتقاد على وجوب الاجتهاد في العقيدة ، ومع الاختلاف في صحة ايمان المقلد فيها .

---

(١) ـ الامعة ـ بكسر الهمزة وتشديد الميم مفتوحة . وبالعين المهملة هو الذي لا رأي له فهو يتابع كل احد على رأيه . والهاء فيه للمبالغة : ويقال فيه امع ايضاً . ولا يقال للمرأة امعه : وهمزته اصلية : لانه لا يكون افعل وصفاً . وقيل هو الذي يقول لكل انا معك .

وقد نص الامام الغزالي في بعض كتبه على ان الشخص عندما يصل الى سن البلوغ يجب عليه وجوبا شرعيا ان يجدد ايمانه . اذا كان ايمانه الاول ايمان تقليد ، وهو مكلف ان يؤمن ايمان نظر واجتهاد .

ولعمرى كيف يكون الاجتهـاد في الايمان مع ماله من الشأن العظيم . ومع خطر الذلل اليسير فيه لازماً ، وفي الصلاة والصوم وغيرهما من الفروع حراما .

بل كيف يكون في الاول ممكنـا حتى لعـامة الناس ، وفى الثاني غير ممكن ولو لخاصتهم .

وليس من حجة يصح ان يحتج بها على هذا الزعم سوى ان شرائط الاجتهاد ووسائل الوصول اليـه لم تتوافر لاحد من الناس في هذه العصور المتأخره ، ولم ار حجة او هي من هذه الحجة ولا ابعد بينها وبين نتيجتها ، فان عدم توافر هذه الوسائل وتلك الشروط لاحد من الناس عرضا لايفيد عدم امكانها لمن يطلبها من الناس بل استطيع ان ازعم ان شرائط الاجتهاد اقرب منالا . والوصول اليه ايسر سبيلا في هذا العصر ، ومعلومات البشر في الكون قـد تضاعفت ، وقد اصبحت فلسفة الفلاسفة الماضين وحكمة حكمائهم من بدائه العلوم . فمن غير المعقول ان يكون العقل البشري الذي حل كثيراً من الغـاز الكون واجتاز كثيراً من صعاب الحياة ؛ وابتدع ما يعد في عرف الاولين سحراً ؟ من غير المعقول ان يكون هذا العقل غير مستعد لما استعد له عقل الاولين او ان يعجزه الوصول الى ما وصل اليه احد السابقين .

ثم ماهي هذه الشروط التي يعدها انصار التقليد معجزة الزمان .

هي التبحر في علوم اللغة ومعرفة الناسخ والمنسوخ . واسباب النزول والاحاطة بعلوم السـنة . وغير ذلك من العلوم التي تجعل المرء قادراً على الاستنباط . عارفا باخذ الفروع من الاصول .

ولا نكران ان هـذه العلوم مـازالت حية وسبيل تحصيلهـا ممهدة ، حتى لقد يدهشنا ما نسمعه عن بعض المستشرقين من علمهم الجم واطلاعهم الواسع على علوم لغتنا واحاطتهم باسرار شريعتنا ، فاية عقبة بين انسان آتاه الله من حسن الاستعداد وذكاء الفطرة . ونور البصيرة ما يكفل له الوصول بهذه العلوم الى مرتبة الاجتهاد

حقيقة واقعة لابد من الاعتراف بها وهي ندرة وجود المجتهد في زماننا هـذا بل ربما نقول فقدانه بتـاتا ومرد ذلك الى فتور الهمم وضعف العزائم . وشيوع الاعتقاد الذي اشرنا اليه ، والذي لم يحاول احد من العلماء بسببه ان يطرق هـذا البـاب العظيم، باب الرحمة الواسعة . والفضل العميم . مع ما وراء هذا الباب من خير لو اتيح لاحد الوصول اليه لتباهت به الشريعة الاسلامية المطهرة . ولما كانت هنـاك ضرورة الالتجـاء الى الشرائع الاجنبية تطبقهـا الحكومات الاسلامية على شعوبها وتفر من شريعتها يأساً من صلاحيتها في بعض الشؤون .

فانصار التقليد في حقيقة الامر يجنون على الشريعـة ويجعلون الشك في لباقتها يقيناً ، والشريعة لاينقصها سوى المجتهدين الذين يفهمون اسرارها ويزنون احكامها بميزان العقل والتدبير كما كان السلف الصالح بارزاً بها .

وفضلا عن ان التقليد جناية على الشريعـة فهو جنايه على العالم نفسه اذ يميت فيه قوة الاعتماد على النفس وشعور الاستقلال بالرأي . ويوحي اليه العجز عن التفكير وعدم القدرة على الاحتجاج حتى في ابسط الاشياء . فيكون اقوى حججه ان يقول وهذا هو المنصوص ، وهكذا : قالوا :

* * *

ولا ريب في ان الشريعة الاسلامية هي اوفى سيـاج لمجتمعات البشر . وقانون الاسلام اسمى من ان تتناول مثله العقول بدليل استبتمائه لحاجة البشر في سائر امور المعاش والمعاد . واشتماله من احكام الحقوق والسياسة والعقوبة والقصاص على ما يضمن راحة الامم ويحفظ كيان الدول . هذا باعتبار الاصول التي تفرعت عنها تلك الاحكام اذ ليس من شـأن الشارع البسط في كل علم افادنا اياه من العلوم بل ذلك موكول الى افهامنا في ارجاعها عند الحاجة الى مآخذ تلك العلوم من الكتاب والسنة ولما كان من الضروري وجود الاحكام بازاء الحوادث التي لاتتناهى في جانب الترقي والاجتماع . ولما اراد الشارع من تمام الخير والتيسير للمسلمين كما يشير اليه قوله تعالى : «يريد الله بـكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فقد وسع عليهم باستنبـاط الاحكام من

من اصول الشريعة وتطبيقها على الحوادث التي تحدث للبشر بمقتضى سنة الترقي والانتقال وذلك بتجويز القياس والاجتهاد في المسائل التي لايكون بازائها نص صريح على شروط مقررة عند اهل العلم .

وجواز الاجتهاد كما ذكره علماء الاصول مأخوذ من قوله تعالى « فاعتبروا يا اولي الابصار » ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ارسل معاذ الى اليمن .

بماذا تحكم يامعاذ ؟ ؟

قال : بكتاب الله ؟

قال : فان لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله ؟

قال : فان لم تجد ؟

قال : اجتهد برأيي .

فقال : عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذي وفق رسول رسوله بما يرضى به رسوله

ولهذا توسع الائمة في استنباط الاحكام السياسية والقوانين الاجتماعية من اصول الشريعة . فاحاطوا بسائر لوازم الدول في حياتها السياسية فوضعوا كتباً مخصوصة تشتمل على القوانين الشرعية والقيود المرعية للوزارة والقضاء وامارة الحرب والاحتساب وكتابة الجيش والخراج ودواوين العطاء والسفارة والترجمة ونحو ذلك مما تحتاجه الدول الاسلامية في قيامها . ويتكفل بسلامة كيانها . لهذا لما بسط الاسلام جناحيه على الشرق والغرب لم يدع لارباب الاثرة من الرؤساء وسيلة لتنويع السلطة بحكم قوم بما لايحكم به آخرون . فشمل العدل سائر الخاضعين لسلطان المسلمين . فاقبل الناس افواجاً افواجا للدخول في هذا الدين والتناصر على المصالح العامة مع المؤمنين والعدل بين الناس اساس التحابب وقوام الملك والعمران وداعية التناصر بين اصناف الانسان الخاضعين لاية حكومة وسلطان .

ولقد وجد بين علمائنا من دعى الناس الى طرق باب الاجتهاد فانكروا دعوته وعدوها نزوعاً الى غير هدى . وميلا عن الصراط وبعداً عن الحق كما هو الشأن

في الدعوات الصالحة عند اول امرها.

الرأي والعقيدة

وكان طبيعياً ان لايعنى الاسلام بالراي عنايته بالعقيدة ، التي هي اساس الاعمال والناس اذا اعتقدوا فكروا ، وان فكروا بحثوا ، وان بحثوا فهموا ، وان فهموا اقتنعوا ، وان اقتنعوا عزموا ، وان عزموا ارادوا ، وان ارادوا فعلوا ، وان فعلوا قام اساس العمران بالبناء المتين .

والفرق كبير بين ان ترى الرأي وان تعتقده ـ ذلك لانك اذا رأيت الرأي فقد ادخلته في دائرة معلوماتك ، واذا اعتقدته جرى في دمك ، وسرى في جميع عظامك وتغلغل الى اعماق قلبك .

فذو الرأي فيلسوف يقول اني ارى الرأي صوابا وقد يكون في الواقع باطلا وهذا ما قامت الادلة عليه اليوم . وقد تقوم الادلة على عكسه غدا ، وقد اكون مخطئاً فيه . وقد اكون مصيباً.

اما ذو العقيدة فجازم بات لا شك عنده ولاظن ، عقيدته هي الحق اليوم وهي الحق غدا ، خرجت عن ان تكون مجالا لدليل ، وسمت عن معترك الشكوك والظنون

ذو الرأي فاتر وبارد . ان تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة ، وان لم يتحقق ما رأى فلا بأس ، فقد احترز من بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب .

وذو العقيدة حار متحمس لايهدأ الا اذا حقق عقيدته ، هو ، حرج الصدر لهيف القلب ، تتناجى في صدره الهموم ، ارّق جفنه واطال ليله تفكيره في عقيدته كيف يعمل لها ويدعو اليها ، وهو طلق المحيا . مشرق الجبين . اذا ادرك غايته او قارب بغيته .

* * *

ذو الرأي سهل ان يتحول ويتحور ، وهو عبد الدليل ، او عبد المصلحة تظهر في شكل دليل .

* * *

اما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله « لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ؛ على ان ادع هذا الذي جئت به ما تركته » وكما يتجلى في دعاء عمر « اللهم ايمانا كايمان العجائز »

* * *

لقد رووا عن « سقراط » انه قال : ان الفضيلة هي المعرفة ، وناقشوه في رأيه وابانوا خطأه واستدلوا بان العلم قد يكون في ناحية . والعمل في ناحية اخرى وكثيراً ما رأينا اعرف الناس بمضار الخمر شاربه ، وبمضار القمار لاعبه ، ولكن لو قال سقراط : ان الفضيلة هي العقيدة لم اعرف وجهاً للرد عليه ، فالعقيدة تستتبع العمل على وفقها لا محالة .

* * *

قد ترى ان الكرم فضيلة ثم تبخل ؛ والشجاعة خيراً ثم تجبن ، ولكن محال ان تؤمن بالشجاعة والكرم ثم تجبن او تبخل .

* * *

فالعقيدة حق مشاع بين الناس على السواء ، تجدها في السذج ، وفي الاوساط وفي الفلاسفه ، اما الرأي فليس الا للخاصة الذين يعرفون الدليل وانواعه ، والقياس واشكاله ، والناس يسيرون في الحياة بعقيدتهم اكثر مما يسيرون برأيهم والمؤمن بعقيدته يرى ما لا يرى الباحث برأيه ، وقد منح المؤمن من الحواس الباطنة في الذوق ما قصر عن ادراكه القياس والدليل ، والناس انما يخضعون لذى العقيدة ، وليس ذوو الرأي الا ثرثارين لا يعملون ، عنوا بظواهر الحجج اكثر مما عنوا بالواقع ، ولا يزالون يجادلون في رأيهم حتى يأتي ذو العقيدة فيكتسحهم

* * *

قد يجود الرأي وقد ينفع ، وقد يثير الظلام وقد يظهر الصواب ، ولكن لا قيمه لذلك كله ما لم تدعمه العقيدة ، وقل ان تؤتى امة من نقص في الرأى ، ولكن اكثر ما تؤتى من ضعف في العقيدة ، بل قد تؤتى من قبل كثرة الآراء اكثر مما تؤتى من قلتها .

فالراي جثة هامدة لا حياة لها مالم تنفخ فيها العقيدة من روحها .

والراي كهف مظلم لا ينير حتى تلقى عليه العقيدة من اشعتها .

الرأى مستنقع راكد ببيض فوقة البعوض ،والعقيدة بحر زاخر لايسمح للهوام الوضيعة ان تتولد على ظهره.

والرأي سيد يتكون ، والعقيدة نجم يتألق :

* * *

وذوالرأي يخضع للظالم وللقوي لانه يرى انالظالم او القوي رأيا كرأيه،ولكن ذا العقيدة يأبى الضيم ويمقت الظلم لانه يؤمن ان ما يعتقده من عدل واباء هو الحق ولا حق غيره :

ومن العقيدة ينبثق نور باطني يضيء جوانب النفس ويبعث فيها القوة والحياة ويستعذب صاحبها العذاب ؛ ويستظفر العظائم ، ويستخف بالاهوال .

وما المصلحون الصادقون في كل امة الا اصحاب العقائد فيها :

* * *

والرأي يخلق المصاعب ويضع العقبات ويصغي لاماني الجسد . ويثير الشبهات ويبعث على التردد :

والعقيدة تقتحم الاخطار وتزلزل الجبال . وتلفت وجه الدهر . وتغير سير التاريخ وتنسق الشك والتردد . وتبث الحزم واليقين . ولا تسمح الا لمراد الروح :

* * *

غرس الاسلام في قلوب اصحابه ذوي العقائد الراسخة حب الله والتعاون على البر والتقوى . فكانوا يجتمعون في سبيل الله . واذا تفرقوا تفرقوا غضباً لله ، وناهيك بما كان لهذه العقيدة من اثر في خلق رجال الاسلام وتكوين الامبراطورية الاسلامية ، واتساعها فيما بعد حتى اصبح المسلمون مضرب الامثال في القوة ورباطة الجأش والحنك والسياسة ، حتى جاء وقت كانت فيه قرطبة وغرناطة ملجأ اللاجئين من العلماء والباحثين . كما كانت البصرة والكوفة . وكما كانت مكة والمدينة .

الجهاد في الإسلام

خلق الله تعالى الانسان واودع فيه قوتين مختلفتين . احداهما نزاعة الى الشر امارة بالسوء . والاخرى نزاعة الى الخير ميالة للعدل . محبة للقرب من الله تعالى . تواقة للوصول اليه .

وقد اقتضت حكمته عز وجل — رحمة للانسان وارادة لسعادته وكماله — ان يشرفه بالتكليف وهو عبارة عن جهاد ونضال بين هاتين القوتين المتخالفتين في المنازع والاغراض ، جهاد لانهاية له الا بانتهاء الحياة وافتراق البدن والروح .

فالانسان ما وجد في هذه الحياة الدنيا الا لمجاهدة والكفاح في ميادينها الواسعة النطاق . المترامية الاطراف . وعلى قدر جهاده وكفاحه تكون منزلته من الله تعالى ومقامه عنده . ويكون ترقيه في مقامات الرفعة والكمال .

ومن كلمات الصوفية في هذا المقام .

من زين ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بانوار اليقين .

ومن كانت بدايته محرقة . كانت نهايته مشرقة .

يريدون ان كمال المعرفة واشراق القلب بنور اليقين لايكون مع التكاسل والتخاذل . بل لابد من المجاهدة والمكابدة واماتة صفات النفس المذمومة . واستبدال الاخلاق الفاضلة بها .

وليس يعجز الله تعالى ان يمنح الكمال بلا مشقة ، ويكرم عبده بدون جهاد ولاتكليف . ولكن هكذا سبق في علمه القديم وتقديره الحكيم ان لكل شيء سببا ؛ فالفوائد في طي الشدائد ، والعطايا على متن البلايا .

والله تعالى احكم الحاكمين ناط السعادة بالجد والمثوبة بالعمل الصالح اظهاراً لحكمته واشعاراً بجلال ربوبيته « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور » .

والجهاد لايكون الا بين خصمين متنازعين . وعدوين متشاحنين ، وانواعه ثلاثة .

١ — جهـاد النفس والشيطان .
٢ — جهاد المتهاونين في الدين وفي احكامه وتعاليمه .
٣ — جهاد اعداء الدين المخالفـين لنا في العقيدة .

اما الاول جهاد النفس والشيطان فهو الجهاد الاكبر لانه جهاد في عدو باطن يراك ولا تراه . شديد المكر عظيم الحيلة مـلازم لك في الليل والنهار . في النوم واليقظة والحركة والسكون يجري منك مجرى الدم في العروق .

ومرجع هذا الجهاد الى تخلية النفس من اوصافهـا الذميمة كالحقد والحسـد والكبر والعجب . والرياء والبخل. والطمع والحرص . وما الى ذلك من الامراض الباطنية المهلكه وتحليتها بالاخلاق الفاضلة الكريمه .

* * *

والنوع الثاني من انواع الجهاد في اخواننا في الدين المشتركين معنا في الانتماء اليه . ولكن فتنتهم الدنيا بمناظرها الجذابة ومظاهرها الخلابة حتى اصبحوا اساري بايدي الشهوات . سكارى بمحبة اللذات . تساهلوا في تطبيق احكام الدين والعمل باوامره ونواهيه من غير جحود ولا انكار .

وهذا الضرب من الجهـاد هو عبارة عن التصدى للامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد اشتد مسيس الحاجة اليه في الاونة الحاضرة لما انتشر فينا من القبائح والزور ولما فشا بيننا من التفريط والاهمال ، مع انه اساس حياة الامة وبـدونه لاتتوفر لهـا سعادة ولا هنـاء كما صرحت الاحاديث الشريفة كقوله عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » وقال ايضاً « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصـار بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها . وكان الذين في اسفلهـا اذا استقوا من المـاء مروا على من فوقهم فقالوا لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنـا . فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعاً وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعاً : » والقائم في حدود الله معناه المنكر لها القائم في دفعها وازالتها . والمراد بالحدود ما نهى الله عنه : ومعنى استهموا اقترعوا .

والنوع الثالث من الجهاد هو جهاد مخالفينا في العقيدة والدين . فمحصله القيام بالدعاية الدينية المنظمة والمجادلة بالتي هي احسن الخالية من الشدة والعنف . وعندنا ان هذا النوع من الجهـاد متى نظم واحكمت وسـائله فانه يأتي باحسن النتـائج واطيب الثمرات .

* * *

وقد رسم لنا رسول الله خطته بما قام به في اخريات حياته المباركة من ارسال البعوث والرسـائل الى القبـائل والنواحي لنشر الدين وتبليغ احكامه وآدابه . وكذلك فعل خلفائه الراشدون .

* * *

هذا والجهـاد في قوله تعالى « والـذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » معناه شامل لهذه الانواع الثلاثة من الجهاد . اي جاهدوا النفس والهوى والشيطان . وجاهدوا كل خارج على الدين اصوله وفروعه على الطريقة التي سـار عليها رسول الله وخلفـائه الراشدون وهي طريقه واضحة جلية لا لبس فيهـا ولا ابهام ، سداها ولحمتها الاخلاص لله تعالى والتفـاني في محبته والاعتماد عليه مع الثبات على الحق وعدم المساومة فيه او الانخداع عنه بالحيل الموهة .

أثر القرآن في آداب الإسلام

يرى بعض الناس ان القرآن كتاب تاريخ بما اورده من قصص الماضين وبعض انباء القرون الخالية ؟

ويرى بعضهم انه كتاب هندسة وجغرافيا بما تحدث به عن اقطار الارض؛ وبما عرض له من الاشكال السطحية واورده من رتق السموات والارض وفتقهما .

ويرى آخرون انه كتاب فلك بحديثه عن الكواكب والنجوم والشمس والقمر وحساب السنين والايام .

ويري غير هؤلاء جميعاً انه كتاب لحساب الجمل واسرار الحروف متفرقة من ألف . ولام . وراء . وكاف . وعين . وباء . وسين . وصاد . وحاء . وميم . ونون وغيرها .

ولا جرم ان هذا اسراف في القول وخروج عن جادة الفهم المستقيم . وانه مظهر للتقديس الكبير للكتب السماوية ذلك التقديس الذي قد يجعل عمل العقل معطلا . وفضيلة التحقيق مفقودة ، والذي قد يؤدي بصاحبه الى مسايرة عاطفته التي ترى ان ما تقدسه ينبغي ان يوصف بصفة الجمع والشمول والاستيعاب والاستقصاء .

بل لعل هذا فهم خاطيء لقوله تعالى [ما فرطنا في الكتاب من شيء] فقد خال بعض الناس ان معنى عدم التفريط والالمام بكل شيء ان يكون القرآن الكريم جامعاً لجميع انواع العلوم واشتات المعرفة . وان لا يغفل صغيرة ولا كبيرة .

ودعك من ان الكتاب في هذه الآية لا يقصد به القرآن . وانما يقصد به كتاب الاعمال التي يأتيها كل انسان . ولنفرض ان المقصود بالكتاب هنا هو القرآن فالمقام لا يدع اي شك في ان المقصود هو جمع القرآن لجميع ما يتصل بغايته وهي تقرير دين جديد ، ودعوة الى ايمان جديد . ووضع شرع جديد .

فالذين يجعلون القرآن كتاب علوم مختلفة يخطؤون في فهم القرآن ويجهلون مقصده وغايته . ويخلطون بين القداسة والفائدة ، والقرآن جميعه ناطق بأنه ليس

كذلك ، والشواهد متوفرة فيه على صحة قولنا هذا ... وما دمنا في صدد الحديث عن التاريخ فلنجعل قولنا مقصوراً عليه .

عرض القرآن حقاً لبعض الحوادث التاريخية . واورد بعض الانباء الماضية ولكن هذا الايراد وذاك العرض لم يقصدا لذاتهما كما هو الشأن في كتب التاريخ. وانما قصدا لشيء آخر يتصل بمعنى القرآن وهو الموعظة والدعوة الى الله .

وما دام الامر كذلك كان الاولى في القرآن ان يورد قصة البقرة المشهورة على النحو الذي اوردها به اذ قال تعالى « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي .

قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تأمرون.

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها .

قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون

قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الارض ولاتسقي الحرث مسلمة لاشية فيها.

قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون .

واذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون - فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

فما يقصد القرآن من ايراد هذه القصة الى المعنى التاريخي بالذات . وانما يقصد الى الموعظة وبيان عاقبة الابطاء في الاستجابة الي داعي الله والالحاح على اوامره بالتأويل والتخريج . ولهذا اورد القصة هكذا فقدم نهايتها على اولها وبدا الحديث بالامر وختمه بسبب الامر ومنشأ الحوار .

ولهذا فرق القران الحديث عن النبأ الواحد في مواضع مختلفة . وعرض له بطرائق متباينة، واستخلص منه عبراً متعددة .

فالقرآن الكريم كتاب عقيدة وتشريع وليس كتاب تاريخ وقصص . واذا

عرض لشيء من حوادث التاريخ فانما يعرض لها لغرض خارج عن تاريخية هذه الحوادث ومعنى العلم بها .

* * *

ولئن جاز للناس ان يصفوا التوراة بانها كتاب تاريخ فما يجوز لهم قط ان يصفوا القرآن بذلك الوصف ، اذ الفرق بعيد بين الاثنين ونظام الحديث مختلف فالتوراة تعرض الانباء التاريخية في نظام وتسلسل مضطرد . واستيعاب واضح بينا لانجد شيئاً من هذا في القرآن على ان هذا الفهم للتوراة لا يخلو من اوجه مضعفة له فمن الواضح ان التوراة كانت تذكر الحوادث التاريخية قصد تفسير الآراء السائدة لعصرها وتخريجها تخريجاً مقبولا دينياً . وربط المعتقدات بالدين وارجاعها الى معنى الهي ، وهذا كله يبعد الفهم لها كانها كتاب تاريخ .

ومقصدنا من نفي التاريخية في القرآن بيان ان هذا ليس من غاياته ولا من مقاصده الاصلية ، ولا الى التعرض لقيمة ما اورده من الحوادث التاريخية وان لم يكن بد من الفهم لانباء البيئة الجاهلية . اذا اردنا الفهم الصحيح لانباء القرآن فالموعظة لاتبلغ القلب وتؤثر فيه اذا كانت متصلة بنبأ تاريخي مالم يكن هذا معلوما للموعظ مقرراً في ذهنه ، وعندنا انه لابد من فهم مافي القرآن من تاريخ ودرسه درساً صحيحاً اذا اردنا ان نفهم مبلغ تأثير الموعظة به ومدى تمكنها من نفوس العرب .

* * *

وقد يكون من الاسباب التي روجت لتاريخية القرآن بعد ما مضى لتشعيب الحديث عن وجوه اعجاز القرآن وعد الاخبار بالانباء الماضية واللاحقة عن وجوه الاعجاز القرآني . وبخاصة اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم اميا لم يجلس الى استاذ ولم يقرأ في كتاب . ولكن الذي يتأمل القرآن لا يشك في ان حديثه عن الديانات السابقة انما كان حديث من يمثل المعتقدات في جزيرة العرب وما فيها من الاراء . ويظهر هذا اذا تأملنا في تصويره للديانة المسيحية واختلاف المسيحيين في فهمها وفهم الاله فيها هذا الفهم الذي انكره بعض المسيحيين المتأخرين كما انكر

اليهود المتأخرون كذلك بعض ما جاء فيه عنهم . ولكن يهود العرب وانصارهم كانوا يفهمون اليهودية والنصرانية على هذا النحو . وكان لابد للقرآن من ان يفند معتقداتهم . وان يوهن آرائهم .

واذا نظرنا في القرآن وكيف انه تحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات بل بسورة بل بآية ظهر لنا في وضوح ان اعجاز القرآن متصل ببلاغته وطريقته ، واتجاه القرآن جميعه شاهد بان مسائل العلم ليست من اغراضه المبدأية فاذا عرض لها كان العرض رفيقا لايختم بتقرير مبدأ .

وعمل النبي عليه السلام كان منسجما مع القرآن ومسايراً لروحه ودالا على ان ما يتحدث به عن مسائل العلم والمعاش ليس مقصودا تبليغه الى الناس . والامثلة على هذا عديدة متوفرة تمتلىء بها كتب السيرة . وتاريخ صدر الاسلام . فكثيراً ما ترك الرسول لقومه امور الحياة الدنيا يصرفونها كيفما تهديهم الى تصريفها التجارب . ويسيرون فيها حسبما يوحيه اليهم منطق العقل والعمل .

فالرسول عليه السلام بعث هاديا لاملقناً للفنون وعلوم الحياة الدنيا ، وما دام القرآن الكريم قد دعا الى المعرفة وتحصيل العلم ، وما دام الاسلام قد جيب الناس في تحصيل المعارف ودراسة الحياة ، فمن الخير لعلماء المسلمين ان يولوا وجوههم شطر تفهم القرآن واستكناه اسراره . وان يستطلعوا ما جاء فيه من فنون القول واساليب التعبير وخصائص الايراد . وان لايكرهوا القاظه على اخراج ما ليس فيها

* * *

ولقد كثر قول القائلين في الاسلام بأن القرآن غير صالح لهذا الزمن من جهتين:

الاولى انه يخالف العلم ولا يتفق معه .

والثانية : انه ليس فيه من الاصول ما يصلح لاقامة الحكومة وسياسة الدولة ونظام الاجتماع .

وغرض هؤلاء من ذلك عدم ادخال الدين في نظام الحكومة وشؤون الدولة لانه يؤخرها ولا ينطبق على المدنية المقومه لها .

ونحن اذا احسنا الظن بنية هؤلاء فيما يقولون وما يكتبون فهم لم يحسنوا العمل

اذ انهم لم يبحثوا عن الاسلام في كتابه ، ولم يأخذوه من منبعه ، بل حسبوا ان الاسلام هو تلك التقاليد التي تتبعها الشعوب الاسلامية ، ولو شئت لأتيت بكثير من آيات القرآن تعرب عن حقيقة الاسلام ومعرفة كيف ان القرآن كتاب جامع لاصول وقواعد تسع كل مدنية قويمة ، وتؤسس عليها كل حكومة رشيدة صالحة .

والذي يهمنا هو ان يقتنع هؤلاء بصلاح دينهم لحياتهم ومستقبلهم فلا تكون عقيدتهم عقيدة عواطف فقط ، بل تكون عقيدة عقل وعلم حتى اذا رأوا ان عاطفتهم الدينية تلك العاطفة الشريفة يساعدها العقل ويقويها العلم . علموا ان دينهم دين معقول مبني على العلم ، وقاموا بالواجب في العمل به ، واخذوا بيد امتهم للنهوض بها من طريقه ، وحينئذ يكون هؤلاء قد قاموا باحسن خدمة لانفسهم . واسسوا اعظم مقوم لامتهم ودولتهم ، اذ الامة لا تكون امة الا بالمقومات والدين اعظم المقومات لامتنا ، وهو جامع لما نحتاج اليه في الحياة المدنية ، وما يؤتى به من الآيات فيها مادة العلم فيعرفون كيف يهتم القرآن بالعلم . وكيف يدعو اليه ويرغب فيه .

وليس معنى هذا ان القرآن كتاب علم اي انه يفصل الجزئيات ، ويبحث في النظريات . فهذه ليست من شأنه لانها ليست محدودة وهي محل اخذ ورد يتجدد في كل وقت ، ويتغير بتغير الزمان ، ولا ينبغي ان يكون كتاب الله مثاراً لهذه الخلافات .

وكذلك ان المباحث العلمية جعلت محل تسابق للانسان تختبر فيها افكاره ، وتتجلى فيها مواهبه . وهي واسعة الاختصاص ، ومتنوعة الاشكال والفنون . فلا يمكن ان تحدد في كتاب . وهي في كل زمان تبطل امامها كتب كثيرة .

فكتاب الله لايحدد هذه التحديدات . ولا يفصل تلك النظريات . فاذا تكلم عن الطب مثلا فلا يتكلم عن كيفية التشريح ولا عما هو الاحسن في طرق الجراحة او تشخيص المرض ونظام العلاج ، وانما يوجب علينا ان يكون في الامة علماء بالطب من جميع انواعه يسيرون مع الزمن في كل تجديداته ومكتشفاته .

وكذلك اذا تكلم عن النبات والحيوان والانسان والمطر والفلك . وكل علوم الكون والطبيعة فلا يتكلم عن كيفيه تحليل العناصر بالاخرى ، ولاما في اشعة الشمس من انواع وتراكيب ولاغيرذلك مما يطول شرحه. ويتبع نظام الاكتشاف وسنة التجديد .

وانما يوجب علينا ان يكون في الامة علماء لكل علم من العلوم التي تحيا بها الامة وتكون امة عزيزة الجانب . سعيدة الاجتماع . امة صالحة للبقاء . واهلا للسيادة والعظمة .

* * *

فالقرآن كتاب الهداية العظمى ودستور الفضائل الخالد ، انزله الله تعالى على خاتم الانبياء والمرسلين لاصلاح ما فسد من اخلاق البشر وتقويم المعوج من عاداتهم . وتكميل انسانيتهم بالفضائل ، وتزكية نفوسهم من ادران الرذائل ، فأفادت الانسانية منه في ثلاث وعشرين سنة ما لم تفده من فلسفة التربية وآداب السلوك وعلوم الاخلاق ، وعبر الاجتماع في جميع عصور التاريخ ، اذ كانت آداب القرآن ترمي الى تأسيس الخلق الانساني المحض ، الذي لا يتأثر بفكر رجل ، ولا بعادات امة ، ولا يضعف معه الضعيف ، ولا يقوى معه القوي ، والذي يجعل الادب عقيدة تملك زمام القلب والعقل والعاطفة لا علماً يتطرق اليه الجدل . وتختلف فيه الانظار ، وتتضارب فيه المذاهب والاراء ليكون وازع كل امرئ من باطنه ، ومرشده من ضميره ، بينما فلسفة التربية لا تسلك في تهذيب الناس طريق الجدل والمدافعة بالبرهان ، التي ان افادت العقل فانها لا تبلغ مبلغاً من القلب . ولا يأخذها الناس الا على انها علم تذهل النفس عنه عند العمل ، ولا تذكره الا عند المراء والجدل ، وهي بعد وان كانت علماً غير انها بسبيل ما عداها من المعلوم التي تنقص منها التجربة ، ويشوبها الاجتماع ويفسدها الظن والتأويل :

ولقد شهد العالم الانساني الوانا من فلسفة التربية والاخلاق قبل نزول القرآن الكريم . وبعد نزوله في الامم التي تستضئ بنور هدايته . وقام فيه كثير من اعلام الفلاسفة واقطاب الاجتماع بالدعوة الى الفضيلة . فما وجدنا فلسفة ولا زعيما مصلحاً

استطاع ان ينشىء جيلا كل الانسانية مطبوعا على غرار الفضيلة ، ولا امة من جيل، ولا فئة من امة ، كالذي اخرجته آداب القرآن واخلاقه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انطبعت في قلوبهم مبادىء القرآن ، وتحققت فيهم مثله العليا ، فصار كل واحد منهم تفسيراً كاملا لكل ما في القرآن الكريم من آداب وفضائل :

ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على قوة روحانية القرآن التي احيت جيلا من الفضائل في اقل من ربع قرن ، لم يشهد العالم له ضريباً في العصور الغابرة ، وعقم الزمان عن ان يلد له مثيلا في العصور الحاضرة .

ولا عجب في ان يبلغ القران الكريم هذا المبلغ في تهذيب النفوس ، فقد بين الله تعالى انه انزله روحاً من امره يحي به موات الارواح وجعله نوراً يضيء به السرائر الانسانية لتبصر في سناه حسن الخلق فتتبعه ، وقبح الباطل فتجتنبه ، فاستمع اليه تعالى يقول « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الامور » .

وبهذه الروحانية استطاع القرآن ان ينهض بالمسلمين الاخذين به نهضة خلقيه، كانت ولا تزال ـ موضع الدهشة عند الباحثين في شؤون الاجتماع البشري ، بل كانت من اقوى الوسائل في الدعاية الى الاسلام ، وفي عزة المسلمين التي خضعت لها اعناق الجبابرة ؛ ودانت لها معظم الامم .

* * *

وقد بلغ من عناية القرآن بالاخلاق الفاضلة ان جعلها من اسمى اغراض البعثة المحمدية ، وافضل ما يمتدح به الانسان ، فقال جل شانه « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، وقال « وانك لعلى خلق عظيم » ولذلك تراه يكرر الدعوة اليها بشتى الاساليب ويمزجها بآيات العقائد والاحكام .

ويعترض بها وجوه القصص، ويقلبها مع اغراض الكلام، ويبين آثارها في حياة الافراد والجماعات، ويتشدد في طلبها والانكار على من جانبها ليلهب النفوس في تزكية نفوسهم بها، والتوقي من اضرارها.

وقد بين القرآن ان سعادة الامم ورقيها منوطة بصلاح اخلاقها، وان شقاءها وانحلالها مقرون بفسادها، وان من سننه تعالى الا يهلك الامم وفيها دعاة الاصلاح والا يغير ما بأمة من ذلة حتى تغير ما بأنفسها من فساد، وفي ذلك يقول «وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» وقال «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون» وقال «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

* * *

وان الاساس الذي بني عليه القرآن الكريم صرح الفضائل الخلقية هو العقيدة الصحيحة التي تزكي النفس وتصقل الفطرة، وتحرر الانسان من رق الاهواء والشهوات، وتنبعث منها جميع الفضائل كما ينبعث الضوء من اشعة الشمس، فقد دلت التجارب على ان فساد العقيدة يتبعه حتما فساد الخلق، ولذلك فسدت اخلاق الامم الماضية التي حرفت اديانها كما قص الله علينا من انبائهم في كتابه الكريم.

والنفس الانسانية اذا ساورتها الشكوك والاوهام، واذا ذهبت مذاهب الالحاد فلن يكون لها من الحوافظ الادبية والمناعة الخلقية ما يحميها من طغيان الاهواء والشهوات، وآية ذلك ما نراه من انتشار الفسق والفجور والجرائم في الامم المعاصرة لنا، التي نالت حظاً من المدنية الآلية، ولكن تحللت فيها العقائد من قلوب ابنائها فعجزت كل وسائل الاصلاح عن مقاومة تيار الاباحية والفساد فيها، ولذلك كان اشد خطراً على كيان الاخلاق الفاضلة، هم دعاة الالحاد من شياطين الانس.

وقد عنى القرآن بتحديد معاني الخير والفضيلة والشر والرزيلة تحديداً صريحاً، رفع عن بصائر الناس غواشي اللبس والابهام التي خدعت كثيراً منهم فدفعتهم الى اقتراف الآثام. وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً.

وبين القرآن ان جميع الفضائل كلها هو التقوى التي تقي النفس من دنس الشر

والاجرام، والمنازع الخبيثة ، وتحليها بالصفات الفاضلة التي لا يكون المرء انساناً إلا بها .

* * *

ولما كان للانسان وجود شخصي . ووجود اجتماعي ارشده القرآن الى الفضائل التي تزكي نفسه ونهاه عن الرزائل التي تدنسها ، وهدى الناس جميعاً الى الفضائل التي تقوم ، في المجتمع مقام الجذب في عالم الكواكب ، وحذرهم من الشرور الاجتماعية التي تحلل اوصال الامم وتوردها موارد الردى .

* * *

وقد سبح القرآن سبحاً طويلا في بيان الفضائل الاجتماعية والنهي عن اضرارها ، فاوجب على كل فرد ان يبر والديه . وان يعاشر اهله بالمعروف، وان يحسن الى جيرانه . وان يكون عدلا في معاملة الناس ، وان يحسن الى اليتامى والفقراء والمساكين . وان يدفع بالتي هي احسن . وان يوتى كل ذي حق حقه ، الى غير ذلك .

ونهى عن الظلم والبغي والاسراف واكل اموال اليتامى ظلماً ، والقتل والزنا والسرقة والغضب وشرب الخمر ولعب الميسر وقول الزور والركون الى الظالمين والغيبة والنميمة والقذف واللمز والسعاية بين الناس بالافساد والغش في المعاملات ونقض العهود والمواثيق ، واكل الرشوة الى غير ذلك مما يفسد العلاقات بين الناس ، ويكون نذيراً بانحطاط الامة وفنائها ، واليك الايات التي بين الله تعالى سننه في نظام المجتمع الانساني : فقال : جل شأنه « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون» وقال «وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » وقال « واذ اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وضرب الله مثلا قرية كانت امنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

انزل الله القرآن يحمل هداية الناس كافة ، وفيه ايات واضحات فارقات بين

الحق والباطل . والضار والنافع ، انزله على محمد خاتم انبيائه . وامره ان ينذر به العرب ويبلغه الى الناس جميعاً « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك . وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين » .

نزل القرآن والعرب منقسمون على انفسهم شعوبا وقبائل وبطونا وافخاذا . متقاطعون متدابرون ، لاصلة تربطهم ولا قانون يضبطهم ، فرقتهم شيعهم وفرقتهم اصنامهم وآلهتهم ، بأسهم بينهم شديد . وقلوبهم شتى . وهم بعد ذلك نهب سائغ لدولتي الفرس شرقاً والروم شمالا ، كل يسخرهم لقضاء مأربه ولو كان في ذلك اذلالهم وافناءهم .

بزغ نور القرآن على الامة العربية وهي سابحة في ظلمات هذه الجهالات . فما هو الا ان وصل جرس صوته الى اذانهم حتى نفذ الى اعماق قلوبهم فهزها هزاً عنيفاً اسقط ما عاق بها من صدأ . وفتح ما اغلقته ضروب المبتدعات وانواع الاباطيل التي طال عليها العمر . واذ بهذه الامة المشتتة مجتمعة في اقرب وقت على رجل واحد تصدر كلها عن رأي واحد ، العظيم فيها من نهض به علمه ، والكبير فيها من كبر نفعه ، عرفوا منشأ عزهم كتاب الله الذي انزله على رسوله فاخلصوا في تنفيذ احكامه والعمل على تحقيق مراميه ، واستماتوا في الذود عنه . واستعذبوا العذاب في نصرته ، ثقة منهم بانه لاعزة لهم الا اذا اعزوا الاسلام . ولا كرامة لهم بغير التعصب لكتابه والسهر على تنفيذ احكامه مطمئنين الى ان وعد الله لا يختلف وقضائه لا يرد (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون .)

هذا القرآن الذي نزل على هذه الامة فحولها من حال الى حال ، وقلب اوضاعها وغير طبائعها ، فعلموا منه ان التفرق والشقاق لا يبني دولة . ولا يقيم امة . ولا يجلب نفعاً . ولا يدفع ضراً . فالقوا بجميع عوامله وراء ظهورهم . ونبذوا كل اسبابه

تحت اقدامهم واستقبلوا بعزائمهم القوية كل ما فيه من لم الجمع . ورأب الصدع . وتناسوا شخصياتهم في سبيل الخير لمجموع الامة فعزوا واعزوا . واستفادوا وافادوا .

* * *

وصفوة القول ان القرآن هو دستور الفضائل الخالد ، الذي ستعشوا الامم الى ضوءه اذا حزبتها الفتن المدلهمة . فتجد من تعاليمه وادابه ما تجعل علاقة بعضها ببعض مبنية على اساس المحبة والمودة والتكافل على مصلحة الانسانية العامة.

إثبات العلم والدين في الحضارة والتمدن

لاريب في ان العلم الصحيح وسيلة الى كل فضيلة وصلاح . وسلم ارتقاء الامم الى اعلى درجات النجاح والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصفوه بأنه حياة النفوس وضياء البصائر وبان رتبته ارفع الرتب . ووصفوا العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصابيح الهداية وكواكب الارض . كما وصفوا الجهل بانه موت النفوس وعمي الاذهان وظلام العقول، ووصفوا الجاهل بانه بهيمة في صورة انسان.

وقديماً كانت ثورة باطلة بين العلم والدين ـ ولكل شيعته وانصاره ـ اذكى نارها في عصور اوربا الغابرة القسس ورجال الكنيسة حرصاً على مراكزهم ان تضعف وسلطتهم ان تتفوض وامرهم ونهيهم ان يصحبا اثراً بعد عين .

اما اليوم وامثال هذه الترهات الباطلة اصبحت لاتقوى على النهوض بباطلها الواهي امام نور الحقيقة الابلج ـ فلا لوم علينا اذا قلنا ان الدين والعلم توءمان عظيمان وعاملان قويان في رفعة العالم وسعادته . وان الدين ادي للعلم خدمات جليلة ساعدت في انتشاره وانتعاش الحضارة والتمدين بقدر ما ادى له العلم منها .

فلقد كان لدين قدماء المصريين اثر واضح بين في علومهم وفنونهم ومعارفهم وحضارتهم ـ فقد كانوا يعلمون من دينهم ان رجوع الروح للجسم ثانية لامحالة واقع، فجدوا في حفظ الاجسام من البلاء واجتهدوا في صيانتها من العبث والذهاب . فبنوا لها القبور الحصينة والاماكن المنيعة التي تعد آية في الاتقان والرواء ، ومعجزة باقية للاجيال المقبلة تشهد بسمو الفن وعلو التفكير ورقيه .

كذلك بلغ من شدة حرصهم على الاجسام وحفظهم لها ان برعوا في الكيمياء وكانوا انبغ الامم في تحنيط الاجسام تحنيطاً ابقاها الاف السنين . واوقف امامه علماء اليوم صاغرين مبهوتين حائرين .

كذلك كان لدين الاغريق اثر واضح فى تقدم علومهم وفنونهم وحضارتهم العريقة فقد كانوا يرون من دينهم كثرة الالهة وتعددها ، فصورها مصورهم بصور

شتى واوجد لها المعابد الفخمة البديعة وتنافسوا في ذلك تنافساً كانت نهايته ارتقاء في العمارة والتصوير .

وكذلك كان للدين اثر كبير في ارتقاء لغتهم وادابها ، وخلق نوابغ الكتاب والمفكرين العظام .

وكذلك كان الدين الاسلامي الحنيف فان اثره في الحضارة والتمدين لاينكره الا كل جاهل مكابر ، فقد خلق من امة العرب المفككة الاوصال . المقطعة العري المتنابذة المتعادية امة متماسكة قوية فسيطرت على جميع العالم وبسطت نفوذها على سائر الدول العظيمة واخضعتها لسلطانها وامرها ، وبفضل « القرآن الكريم » مصدر دينهم وقاموسه العظيم ، وما ورد فيه من حث على التعليم والعلم ـ اصبحت دولة ذات حضارة بعيدة الاثر ، وامة ناهضة ضربت في كل فروع العلم والرقي بسهم وافر ، وفاض من نور حضارتها وعلمها ورقيها شعاع على اوربا « الجاهلة وقتها والعالم اجمع كان منه حضارتها ورقيها وعمرانها الحالي .

ولعلي لا اخطأ حين اقول ان اجل خدمة اداها العلم للدين انه نقاه من البدع والخرافات التي لبست ثوب التدين ، وظلت عالقة بالنفوس مدى طويلاً يعتقد الجميع اخلاله بها وبصحتها ـ وما هي الا اوهام باطلة ، وخرافات فاسدة دخيلة على الدين ، قضى ببطلانها نور العلم والبحث وسلطت عليها الحقيقة شعاعا محاها شيئاً فشيئاً .

من الناس من يزعم ان اذاعه الافكار العلمية ونشرها وترويجها مجلبة للشك في العقيدة الدينية ، وان من نتائج البحث العلمي انكار كل رسالة ايجابية ، وان الطريقة العلميه القائمة على التجربة والتحقيق لايمكن لها باية حال من الاحوال الا ان تهدم في ذهن صاحبها كل ماله مساس بالايمان وماوراء الطبيعة وتحيله كافراً ملحدا لاسبيل للمعتقد الديني الى فكره المشبع بروح الواقع . المؤمن بالحقائق الظاهرة فقط .

ان هذا الزعم لايخلو في بعض الاحايين من الصحة وقد عرفنا في تاريخ الفكر الانساني نفراً غير قليل من أئمة العلم دافعوا جهدهم عن هذه النظريه

وصادروا بها الايمان ما استطاعوا وجادلوا بكل ما اوتوه من سلطان لثبوغ وقوة الايمان المعكوس ان يجعلوا دين الحضارة الجديد هو العلم وان يحلو النزعة العلمية في البحث المادي كما في الاخلاق والاداب الاجتماعيه ايضاً محل تعاليم الدين وفروضه

ولست اريد في قولي هذا ان انتقص من قدر العلم او ارفع من شأنه على حساب الدين بل كل ما اريد اثباته هو انه لا علاقة البتة بين الفكر العلمي والمعتقد الديني وان الميدانين يختلفان . وانه من الميسور جداً ان نجمع بين العلم والدين في شخص العالم وان حرية الفكر وما يصحبها من نقد لتعاليم الدين وثقة باصول العلم ليس معناها انكار الدين . وليس من شروطها الكفر والالحاد كما يتوهم بعض رجال الدين وجماعة الرجعيين .

* * *

ان من يقول من مفكري اوربا باستحالة اتفاق العلم والدين انما يقصدون بالعلم مجموعة العلوم الطبيعيه الحديثة ، ولكن هذه العلوم التي يرون ن في وسعها تناول كل مبهم وتفسير كل غامض قاصرة كل القصور فيما يتعلق باصول الاشياء وكيفية وجودها ، اوليست الدعوة العلمية كلها قائمة على ان العلم ليس بحاجة للبحث في طبيعة الاشياء واصولها ، وان ما يسميه فلاسفة ماوراء الطبيعة البحث عن العلل ليس في مقدور العلم ان يعرض له ، اذ عمل العلم هو البحث في علاقة ظواهر الطبيعة بعضها بالبعض الاخر ودرس نظامها والقانون الذي تسلكه في حياتها المتضامنة وفي تعاقبها الابدي ، وقد قيل ان فكرة العلل الاولى يجب ان تحل محلها في الدراسة العلمية فكرة العلاقة بين الظواهر وشروط هذه العلاقة ، ومعنى ذلك ان الظواهر التي نجهل قانونها تتعاقب في سيرها خاضعه لنظام يتلائم ، والنظام الذي تتعاقب به الظواهر فقط . ويراها محدودة تحديداً رياضياً ولكنه لا يرى صميم الاشياء ولا يستطيع الا ان يبحث في الرابطة التي تجمع بين الظواهر وهو لا يلمس من العالم غير سطحه ، واما المادة فمحال عليه ان ينفذ الى جوهرها ، واذا كان ليس في وسع العلم ان يعلل سر الفضاء . والزمن . والحركة . والقوة وما تنتمي اليه هذه الظواهر فكيف يمكنه ان يحدثنا عن منشأ الطبيعة واصل الحياة ؟ وكيف

يمكنه ان يقول لنا من اين اتت الحياة والى اين تذهب ؟ ؟

اننا اذا استطعنا ان نتحقق من صحه نظرية السلالة البشرية الاولى وانها وجدت مصادفة او فجأة او اعتباطاً فكيف نعلل خروج الحياة من المادة الجامدة . وكيف نفسر انبثاق الدماغ الانساني من الخلية الجامدة و كيف نجسر ان ننسب كل ذلك الى المادة ونحن نجهل اصلها او الى الحركة ونحن لانعلم عنها شيئاً . بل كيف يتسنى لنا ان نفهم لماذا بدأت عملية التطور وفي سبيل اية غاية تسير .

وكما ان العلم اداة للمعرفة فالايمان اداة للمعرفة ايضاً او هو اسلوب اخر يصلح لبحث واستكشاف حقائق اخرى لا يسع العلم الا الاقرار بعجزه حيالها . وربما ان العلم لايرى الواقع الا مغلولا بالحواس الانسانية محدوداً بها . فليس له ان يفرض الكمال المطلق في طرائقه الخاصة . وليس له ان ينفي او يقرر حقائق اخرى تصدر عن طريق اخر ، ثم ان العلم فوق هذا كله شيء موقت وعارض يتبع نزوات العقل المدقق الفاحص ، ويسري عليه قانون التبدل والتحول والمراجعة الذي يمتاز به الفكر البشري . فكم من حقائق علميه ظنها الجميع ثابتة مطلقة انكرها العلم نفسه بين عشية وضحاها ؛ وكم هناك من نظريات جد مختلفة ومتعارضة في حقيقة واحدة ما تزال تتعارض وتختلف ما شاء للتطور العلمي ان يتقدم ويطرد . . .

بل ان هناك من القواعد العلمية التي يعدها العلم مبادىء ثابتة ما يقبل النقض والتبديل . وقد استطاع العلماء ان يؤسسوا هندسات مترابطة ومتماسكة غير اقليدية ، وما يصح قوله في الهندسة يصح في سائر العلوم فمن يضمن لنا ان نفس المقدمات تنتهي دائماً الى نفس النتائج ، ومن يضمن لنا ان هناك ظاهرتين طبيعيتين تتشابهان تمام الشبه ، بل كيف نستطيع ان نجزم بصحة ظاهرة ما وتكرارها بينا نحن لسنا على يقين من ان الظروف التي ولدتها تتكرر بلا انقطاع على الدوام . وكيف يمكن ان نثق بصحة هذه الظاهرة وهي مقيدة بالاف من الظواهر الاخرى التي لاندري عنها شيئاً .

والحقيقة ان كل شيء في العلم قابل للمراجعة والهدم ، وان الحقائق العلمية افتراضات نسبية مقيدة وموقة ، وما عمل العلم غير مخاطبة الطبيعة جهده دون ابداء

اية حقيقة مطلقة عنها ، وما دام هذا شانه فليس له ما يخوله حق انكار او اثبات النبوآت والمعجزات وسائر ما هنالك من ضروب الخوارق النفسانية التي تنسب لتصرفات الله .

وان من يتصفح حياة رجالات العلم وافذاذ العلماء وكبار المخترعين ونابغي الفنانين في العالم الحديث يرى انهم كانوا متمسكين بدينهم واوامره شديدي المحافظة على اتباعه والعمل به ، بل منهم من كان زعيما دينياً قبل ان يكون عالماً او مخترعا او فنانا ؛ وكفى المرأ دليلا اقوالهم المتضافرة على ان لاخلاف بين العلم والدين ، وان الانسان كلما تعمق في العلم والبحث ازداد تعلقا وتمسكا بدينه وازداد بعداً عن الكفر والالحاد .

ومن اثر العلم والدين في الحضارة والمدنية انه لما بزغ فجر الاسلام وانتشر في انحاء الجزيرة العربية خرج العرب من جزيرتهم وفتحوا الفتوحات العظيمة وقوضوا اركان دولتين من اقوي دول الدنيا وهم الفرس والروم . واختلطوا مع هذه الشعوب المتمدنة . وتعلموا اصول الزراعة والري والصنائع والتجارة والبناء ، فتغير بذلك طرز معيشتهم وداوموا على السير في هذا الطريق حتى انقراض الدولة الاموية . وهذا الدور ـ هو الدور الابتدائي ـ في تقليد الحضارة الرومانية والفارسية . ثم اعقب ذلك تأسيس الدولة العباسيه التي كانت هي العامل الاكبر في تأسيس مدنية حديثة .

* * *

ففي زمن المنصور سطعت في سماء العراق نجوم النهضة العلمية والمدنية المقتبسة من علوم ومدنية اليونان والرومان . وهذا دور التقليد الحقيقي. فقد تلقى المنصور النسطوريين من الرومان الذين طردهم ملك القسطنطينية ـ بكل حفاوة واكرام وطلب اليهم ان يترجموا له اثار فلاسفة اليونان فترجموا له آثار افلاطون وارسطو وبطليموس واقليدس وغيرهم . واسس المدارس العالية وجعلهم اساتذتها في بادىء الامر حتى نبغ من العرب من قام بخدمتها .

* * *

ثم شرعت العرب تسير بعدها في نهج الحضارة حتى بلغت الدرجة القصوى في زمن الرشيد والمأمون في بغداد ، وفي زمن عبد الرحمن الناصر في الاندلس ، ونبغ منهم فلاسفة وعلماء واساتذة قديرون في العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة والطب والتاريخ والجغرافية وكانت لهم الايادي البيضاء على مدنية الغرب الحديثة وحضارته .

* * *

ومن التعسف ان نحدد للحضارة العالمية زماناً اومكاناً فهي ليست وليدة عصر من العصور ، اوقرن من القرون ، فالعصور المتباينة . والقرون المتلاحقة ، تكاتفت في اقامة بنيان الحضارة ، وان امة من الامم لاتجسر على ادعاء نسبة الحضارة العالمية اليها وحدها ، فلقد ساهمت الامم جميعاً في اعلاء صرح الحضارة كل بنصيب معلوم لايمكن تجاهله او انكاره .

* * *

خذ اي مظهر من مظاهر الحضارة العالمية وحاول تحليله الى عناصره تجد ان اثر التطور التاريخي في الازمنة المختلفة والامكنة المتباينة واضح كل الوضوح مما يدفعك الى الجزم بأن الحضارة رمز معنوي تلتقى عنده الدهور التاريخية : بزمانها ومكانها .

والحضارة العالمية على هذا القياس تجعلك تقف متردداً ازاء تقسيم الحضارة الى شرقية وغربية . هذا التقسيم الذي يعترف به عديدون من اهل الشرق والغرب فتراهم يمعنون في الحديث عن الشرقيين وحضارتهم والغربيين وحضارتهم ، ويتشدق الغربي بمدنيته مزهواً مغروراً . ويتعصب في لهجته التهكمية نحو الشرق واهله ، ويثور الشرق لكرامته ملوحاً بماضيه الخالد . مدافعاً عن شرقيته في اباء واعتداد . وكدنا ـ امام هذا الدفاع وذاك الهجوم ـ ان نعتقد ان هناك حقيقة عالمين متقابلين ان لم نقل متناقضين يشطران الحضارة شطرين ويتصارعان عليها . كل يريد الاستئثار بها والتحكم فيها . وكان لهذا الاعتقاد الخاطىء ـ بل الوهم الخادع ـ اثره الخطير في علاقة الشرق بالغرب .

انتهى الامر بالغرب الى اهمال الشرق والاعراض عما يكمن فيه من النواحي الجديرة بالعناية والتقدير . واصبحت نظرة الغربي اليه نظرة مجردة من معاني العدل والانصاف .

اما الشرق فانقسم على نفسه قسمين متطرفين . فاما دعوة الى منافسة الغرب واهله وزهد في مدنيته وانتقاص من حضارته وتشنيع على شره وخيره . واما دعوة الى التراجي في احضان الغرب ونبذ كل مظهر من مظاهر الشرق والاخذ بكل اساليب الغرب في جميع نواحي الحياة دون مراعاة للحاضر او مبالاة بالماضي .

واذا كان التطرف باديا في الدعوتين . فالاولى خطرة في نتائجها . والثانية جريئة في منهجها .

واذ كان موقف الغرب من ناحية لايرضى الشرق . وموقف الشرق من ناحية اخرى لايرضي الغرب . فاننا لانفكر ان كل ذلك مظاهر طبيعية . ونهايات محتومة ونتائج لابد منها مردها كلها ما اسلفنا من الاعتقاد الباطل الذي يتحكم في الاذهان فيشطر العالم الى شرق وغرب والحضارة صنفين شرقي وغربي .

* * *

واننا لنتسائل في رفق : ما هو الشرق وما هو الغرب ؟ وما هي الحدود التي تفصل الشرق عن الغرب ؟ وقبل ان نبدي دهشة ازاء هذه الاسئلة نترك الاجابة عليها بل وطريقة صوغها ، بحجة انها تسأل عن بديهات يحسن بنا ان نتذكر ان اكثر الاوهام . ما هي الا اباطيل تسربت الى الاذهان تحت ستار البديهات .

هل الدين . ام اللغة . ام التقاليد . ام مستوى المدنية . يمكن ان يقوم اساساً للتميز بين الشرق والغرب ؟ ان واحداً من هذه الاعتبارات يفشل اذا حاولنا اتخاذه حدا فاصلا بين الشرق والغرب . فاذا عمدنا الى المصطلحات الجغرافيه لم نجد بينها ما يميز الشرق عن الغرب اللهم الا بعض تعبيرات كالشرق الاقصى والاوسط والادنى اطلقت على « اقاليم جغرافية » لاشأن لها بعلاقة الشرق والغرب فليس للشرق حدود معلومة يبدأ منها وينتهي عندها . وليس للغرب معالم موضوعة يعرف بها ويقف عندها ، لم يبق اذن من الشرق والغرب الا لفظان لامدلول لهما .

والا اسمان على غير مسمين وبذلك يصبح : الشرق والغرب : رمزين لشيئين لا وجود لهما الا في عالم الفرض والخيال دون ان يكون لهما نصيب من الواقع . وقد يعز على بعضهم الرضوخ لهذه النتيجة التي قد تبدو غريبة . وهل غرابة امعن من رفض الاعتراف بوجود الشرق والغرب وحدتين متميزتين مستقلتين ؟ وقد يتقدم البعض مدعيا ان الحد بين الشرق والغرب اقرب ما يكون معنويا . فلا يصح ان نشك في الواقع الملموس . فالغرب هو موطن الماديات بالوانها ومظاهرها وعنفها .

والشرق هو موطن الروحانيات بسحرها وتجردها . فمسحة الشرق جد متنافرة مع مسحة الغرب . ولكل وجهة هو موليها . وكفى بذلك فاصلا منيعاً بين الشرق والغرب . ولكن حتى هذا الفاصل المنيع ينهار . اذا علمنا انه يتكون من خلاصة التهم المتبادلة بين الشرق لم يكن سحره وغموضه ولا ماديته الاموضع الطعن والغمز من متعصبي الغربيين اذ وصموا الشرق بالجمود وسموه عالم الاحلام والخيال وحكموا عليه حكما قاسيا مجرداً من الحق والصواب .

فالشرق الذي هو منبع الحضارة العالمية ومهبط الانسانية الاولى لايستحق هذه الافتراآت جزاء لحيويته الفذة في حمل الحضارة قروناعديدة ونشاطه المتجسم في ما اسداه من فضل الى الحضارة العالمية .

والغرب بدوره كانت ماديته هدفاً لحملات شرقية عنيفة وصلت الى حد التطرف والمغالات اذ ان مادية الغرب لم تكن كل شيء في كيانه ومدنيته . فقد قام بجانب هذه المادية النشيطة مظاهر معنوية تتمثل في النواحي الفنية والعلمية والادبية والفكرية والاجتماعية التي حمل لواءها الغرب .

فالمادية والروحانية تهمتان باطلتان اكثر منها طابعان يفصلان الشرق عن الغرب فلنؤمن باننا كنا ضحية وهم خدعنا دهوراً عديدة . وان لنا ان نتحرر منه ليتصافح الشرق والغرب وينصرفا الى تأدية الرسالة المقدسة نحو الحضارة العالمية هذه الحضارة التي لاتعرف شرقا ولا غربا .

ان المدنيه القائمة ليست ملكا لاوربا وحدها . وانما هي ملك مشاع للعالم . لان جميع الشعوب قد ساهمت فيها عن طريق مباشرا وغير مباشر . عن طريق الماضي

والحاضر . ومجازفة ان ننسبها لاوربا او للغرب؛ فالحق انها حضارة العالم بدون منازع

واذا اتضح ذلك لم يكن هناك مبرر لشطر الحضارة الى شرقية وغربية . وخلق مقارنات وموازنات تعسفية استنفدت من تفكيرنا ومجهودنا ما نحن احوج لبذله فيما يعود على الانسانية بالنفع .

واننا نخرج من بحثنا المقتضب كل الاقتضاب بالحقائق الاتية .

١ ـ ان تقسيم العالم الى شرق وغرب تقسيم باطل انساب الينا من العصور الماضية . واخذناه قضية مسلمة . وان لنا ان نرفضه رفضاً باتاً لانه اثار فتنة عمياء يجب القضاء عليها .

٢ ـ ان الحضارة تراث عالمي لايجوز شطره جزئين منفصلين ، فلا وجود لحضارة شرقية ولا لحضارة غربية وانما هناك حضارة عالميه يجب الايمان بها والاخلاص لها .

٣ ـ ان الغرب المادي العنيف والشرق الساحر الضعيف . لاوجود لهما . فالمادية والروحانية اعتقادان فاسدان يجب تبرئة الشرق والغرب منهما .

* * *

فهل الافكار في الشرق والغرب مهيئه لقبول هذه الحقائق ؟

هذا مانرجوه اعتقادا منا ان الذهن المرن المستنير الذي ينفر من الجمود على الباطل لايرى ضيرا في هدم اوهام سيطرت علينا وخدعتنا قرونا عديدة . واساءت الينا والى حضارتنا اساءة بالغة شطرت العالم شطرين متباغضين هما احوج الى التعاون والتفاهم بل ان تفاهمها ضروري لتوطيد السلم وتعاونها واجب لتقدم الحضارة .

اتحاد الكلمة في الإسلام

دعا الاسلام امته الى اتحاد الكلمة والاعتداد بسمو الاخلاق . والنزاهة في القصد والاخلاص في العمل ، ذلك لان الامة لا تكون آخذة مكانتها بين الامم الا اذا اتحدت كلمتها وسما خلقها وكان رائدها الاخلاص في عملها لا تبتغي منه سوى محافظتها على قوميتها وعزتها دون ميل الى المنافع الشخصية من الوصول الى الجاه والمنعة ، والتمتع ببسط اليد ونفوذ الكلمة والحصول على وفرة الدرهم وسعة السلطان ، وفي هذا يقول الله جل شأنه « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط . » امرهم سبحانه وتعالى بالثبات عند لقاء العدو ، وهذا من اكمل ما يتحلى به الانسان اذ به تجتنب رذيلة الجبن وتصان الكرامة وتحيا العزة وتموت الذلة والمسكنة ، ثم امر بذكره سبحانه وتعالى في حال القتال ؛ اشارة الى ان النصر والظفر بمعونة الله لا بحول المقاتل وقوته . لان المراد بذكره سبحانه طلب النصر والظفر على العدو ثم قال « لعلكم تفلحون » لان جهاد المؤمن اعلاء كلمة الله تعالى ، منزل منزلة الروح فى طلب مرضاته فان ظفر بخصمه فاز بالشهادة والدرجات العالية وذلك هو الفوز المبين .

ثم امر بطاعته تعالى في سائر ما يأمر به توكيداً للامر بالجهاد بقوله « واطيعوا الله ورسوله » اي في جميع ما امر به اشارة الى ان الجهاد لا ينفع ولا يترتب عليه ثوابه الا مع التمسك بسائر الطاعات .

ثم نهي عن التنازع وتفرق الكلمة لان التنازع سبيل الفشل وعدم النجاح في المقصد ، كما هو سبيل وهن الامة وضعفها وذهاب الهيبة من قلوب المنافسين لها من الامم ، فيطمع فيها كل طامع ، وتضرب عليها خيام الذلة ، ولا تستطيع ان

تباشر اصلاح شؤونها التي عليها مدار حفظ كيانها وبقاء عزها وتعيش مغلوبة على امرها . والنهي عن التنازع انما هو امر بالتوافق والتعاون والاتحاد .

ثم وعدهم سبحانه بالنصر والكلاءة بقوله جل شأنه « ان الله مع الصابرين » اذ المراد بالمعية معية نصر وظفر وكلاءة ورعاية لا اجتماع للاجسام في مكان ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ونهاهم سبحانه وتعالى عن بطر النعمة والمفاخرة بها على الاقران، والمكاثرة بها على اهل الزمان ، وعدم القيام بشكرها والغفلة عن انها منه سبحانه وتعالى بقوله « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله » وذلك لان البطر من اقبح المنهيات يؤدي الى اجتياح النعم والوقوع في ساحات الندم حيث لات ساعة مندم، ولهذا قال جل شأنه في حق من كاثر اخاه بماله « واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها . ويقول ياليتني لم اشرك بربي احدا » وعقب ذلك بالنهي عن المراءآت بالعمل طلباً لثناء الناس عليه بالخير بحسب الظاهر وباطنه بخلاف ذلك لانها تذهب بثمرة العمل وتضيع ثوابه ، وتجعل العمل هباء منثورا . اذ شرط الاثابة الاخلاص لله تعالى في العمل دون التشوق الى عرض زائل ومتاع قليل ورغبة في امتداح الناس اياه .

ثم عقبها بالنهي عن صد الناس عن سبيله ودينه ومنعهم من اداء ما امر الله به ومن الانتهاء عما نهى عنه لان ذلك افحش الظلم وابشع انواع التعدي لخلوه عن فائدة تعود على ذلك الصاد .

وتوعد من خالف اوامره واتى نواهيه بقوله تعالى « والله بما يعملون محيط » اي فيجازيهم على جميع ما عملوا لايعزب عن علمه سبحانه من شيء ما .

فعلى الامة ان تعمل على جمع شتاتها وان تتخلق بمحاسن الاخلاق . وتتجنب رذائلها . ولاتنظر الى منفعة عاجلة تذهب بها كرامتها ويقلل من هيبتها ، وان تخلص في عملها وتتعهد جميع مرافقها التي عليها قوام سعادتها ، وان تذود الناس بالثقافات العامة . وتبتعد بهم عن الملاهي والانغماس في الشهوات وتأخذ على ايدي

المفسدين حتى تكون امة صالحة لبلوغ مكانتها بين الامم .

* * *

ولو ان امة من الامم رزئت في ناحية خاصة من نواحي خلقها العام . لهان عليها الامر وخف لديها الخطب ، ولأمكن لها ان يتوافر الدعاة والمصلحون فيها على تقوية هذه الناحيه الضعيفة ، وتعهدها بمختلف العلاج النافع وتغذيتها بما يضاد هذا المرض ويستأصل اثاره ، ويدفع عنها شروره واخطاره .

اما اذا امنيت الامة في مجموع خلقها العام وسرى الفساد الى كل جزء من اجزائه فان الداهية تكون في هذه الحالة اعظم ، والطامة اكبر ، ويكون المرض قد اشتد وتعاصى ، وبات الامل في العلاج ضعيفاً والتعلق باسباب الشفاء قليل الجدوى وذلك لما قد ينشأ حتما عن مثل هذه الحالة من تزاحم الامراض الخلقية على جسم تلك الامة وتواثبها على هدم كيانها المعنوي ووأد وجودها الروحي ، ومن اشتعاب الطرق امام المصلحين ، وتكاثر العقبات في سبيلهم . وتعذر العلاج عليهم : وتوزع جهودهم بين مقاومة هذا المرض وفعالية ذاك . وعدم مواتاة الوسائل الفعالة . وسنوح الفرص المسعفة لانقاذ الامة وتخليصها مما اصابها . فتجتمع عليها بواسطة عوامل الفناء من كل جانب . وتنتابها معاول التخريب من كل حدب وصوب . وينتهي امرها بان تقع فريسة للامراض الخلقية الفتاكة من جهة . ثم تخر صريعة امام العجز عن المقاومة والمغالبة من جهة اخرى .

* * *

ويخيل الينا مما نشهده في احوالنا العامة . ومما يظهر في كثير من معاملاتنا . ومما تتكشف عنه سيرتنا فيما يناط بنا من امور . وتدل عليه تجربتنا فيما يوكل الينا من اعمال . ان الفساد الخلقي قد امتد الى كل ناحية من نواحي حياتنا . وتغلغل في الصميم من وجودنا . وان كثيراً من النقائص الخلقية قد صار لها السلطان الاعلى على كل ما تتكيف به صلاتنا الفرديه . وان الاهواء النفسية قد اصبحت لها الهيمنة المطلقة على كل ما تقوم عليه علاقة الفرد بالجماعة .

ففي اي بيئة حللت وجدت النضال قائماً بين الفضيلة والرزيلة . والصراع

عنيفا بين الخير والشر. ثم لاتلبث ان تجد الفضيلة ضعيفة مقهورة ، والخير مطارداً مخذولا ، وان ترى اصحاب الرزيلة سادة في بيئاتهم. واهل الشر كبراء في جماعاتهم ومقدمين في الصفوف على غيرهم . ومستأثرين بالامر دونهم .

وباي شخص التقيت سمعت منه الشكوى المرة عن خبث الناس وسوء عشرتهم وفساد اخلاقهم . وشيوع الرذيلة فيهم، وسمعت كثيراً عن قطيعة الاخ لاخيه . وعقوق الولد لابيه، وخيانة الضيف لمضيفه ، وايذاء الجار لجاره ، ومكر الرئيس برؤسه ، وتطاول هذا على ذاك ، واعانة الظالم وخذلان المظلوم ،ومنافقة الاقوياء والاستخفاف بالضعفاء ، وموت الضمائر . وفساد الامم . ولؤم الطباع ، وفقدان النزاهة ، ونقض العهود . وخلف الوعود ؛ ومقابلة الاحسان بالنكران والجميل بالكفران ، وهكذا يستطيع هذا المتحدث اليك ان يحدثك عن كل صفة من الصفات حديثاً عجباً ، وان يسرد عليك من عيوب الاخلاق الفردية ومساوئها ما تؤمن معه بسريان الفساد الى كل خلة ، ووصوله الى جميع الشيم .

ثم لو وليت وجهك بعد هذا شطر الاخلاق والجماعات وفتشت عما عليه الطوائف لوجدت الحال اسوأ ، والشر اشمل ، والضرر ابلغ ، ولوجدت ان كثيراً من شؤوننا البيتية والخارجية تقوم على التقليد الاعمى . ومغالطة النفس . وتسمية الاشياء بغير اسمائها . ووضع الامور بغير مواضعها .

* * *

ففي الوقت الذي ترى فيه بلاد الغرب تشكو من تغلغل الروح المادي وسيطرته على الافئدة والقلوب ، وتحاول الرجوع بجماعاتها وطوائفها الى حظيرة الروحية السامية وفضائلها ، ترى المادية في بلادنا هي مناط كل عمل ، ومعقد كل رجاء ، وهي الامنية المحبوبة التي يتسافك الناس من اجلها الدماء ، ويتقاطع في سبيل الحصول عليها الاصحاب والاخلاء ، ويرتكب في سبيل نيلها احط الجرائم ، ويسلك لادراكها اوضع السبل . واقبح الوسائل .

* * *

وفي الوقت الذي كنا نعول فيه على بعض اوساطنا ونستبقيها لمكافحة الاهواء

النفسية . وتدخر مناعة تثقيفها لمقاومة ما عساه يطرأ على خلق الامة من تبدل وانحلال اذا بنارى هذه الاوساط وقد تغيرت فجأة . وانقلبت شر منقلب وخرجت على المفروض فيها وسارت الى ظروف سيئة جعلتها اجدر بالكفاح والمناضلة ، واحوج الى الاصلاح والتهذيب .

* * *

وفي الوقت الذي كنا نعلق فيه الامال الكبار على دعاة المثل العليا . ونشاط دعاياتهم وبذل جهودهم في سبيل الصالح العام . وعلى تأثيرها في تربية الخلق الفاضل ومحو آثار الرذيلة واخذهم الناس بالمثل الحية والقدوة الحسنة نرى فيه هؤلاء الدعاة وهم ابعد الناس عما يقولون ، وا كثرهم مجانبة لما به ينادون . ونراهم يقيمون الادلة كل يوم على انهم لم يدعوا الى الفضيلة للفضيلة ولم يأمروا بالمعروف للمعروف ، ولم يحضوا على التمسك بالاخلاق للاخلاق . وانما دفعتهم الى كل ذلك ضرورات الاحتراف ، وتأثيرات الغايات وتسخير الحق للباطل واستغلال الخير في الشر ، حتى فقدوا الثقة بهم ، وفات عليهم تأثيرهم ، ومكنوا للناس من اساءة الظن بهم والاتهام لهم ، وجعلوا لهم العذر في ان يعتبروا اكثر الناس تحدثا عن الفضيلة اقلهم عملا بالفضيلة ، واشدهم تحمساً للاخلاق ، اكبرهم جناية على الاخلاق ، واحرصهم على مظاهر الورع والتقوى اكثرهم فتورا في تقدير معاني الورع والتقوى وما الى ذلك من كل ماله اتصال بوجود الامم الخلقي ، وكيانها المعنوي ، وقوتها الروحية ، ومن كل ماله اثره ايجابا وسلباً في تقدم الشعوب وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها .

* * *

لاريب ان هذه الحالة المؤسفة التعيسة ، كان يجب ان تكون محركة للهمم ، وباعثة على التفكير فيما ينبغي نحوها من علاج ومداواة . ولكننا بدل ان نعنى بهذه الحالة . ونتخذ لها العدة الواقية من شرها واخطارها انصرفنا عن تأدية هذا الواجب وتركنا الامور تجري في غير سبيلها . وانقسمنا ازاء هذا الخطر الاجتماعي

الى عدة طبقات مختلفة المشارب . متباينة المنازع . متباعدة المقلية والتفكير .

* * *

فطبقة قد زاولت الاصلاح واشتغلت به ولكنها اصطدمت بعقباته . وناءت بتكاليفه ومشقاته . وضعفت عن تحمل متاعبه وتضحياته . ففشلت فيه . ويئست منه . ووهنت واستنامت وفضلت ان تقف موقف الحائر المتبرم احياناً . وموقف الساخر المتفرج احياناً اخرى على ان تقف موقف الجد والكفاح والنضال والمجادلة .

* * *

وطبقة استمرأت الرذائل واستكانت الى النقائص ، ووجدت فيها اسهل طريق الى تحقيق اغراضها ، واكفل وسيلة للاستفادة منها ، فعمدت الى الولوغ في اقذارها والاغراق في مخالطاتها ، والعيش في ظلالها . وتهيئة اسبابها للجاهلين بها والراغبين عنها .

* * *

وطبقة لا يعنيها ان تفرق بين النافع والضار . ولا ان تميز بين الطيب والخبيث . ولا ان تهتم الا بما يجعلها تعيش كما تعيش البهائم ، وتحيا كما يحيا الحيوان . وهؤلاء لا امل فيهم . ولا معول عليهم . ولا خير يرجى منهم . وان هم « الا كالانعام بل هم اضل سبيلا .

وطبقة احترفت الاصلاح الاجتماعي وامتهنت الاشتغال به . والتمست الشهرة من وراثه . وابتغت المجد على حسابه . وهذه تكون طبيعياً انها غير مخلصة في عملها ، وغير نزيهة في سعيها ، والاصلاح النافع المنتج هو الذي يعتمد من غير شك في جوهره وطرقه على الاخلاص والنزاهة .

* * *

واذن فهل وصل بنا الامر حقاً الى حد اننا قد صرنا في حالة يأس من الاصلاح . وقنوط من ازالة ضعفنا الخلقي ؟ ؟ .

* * *

الواقع ان هناك كثيراً من الناس يرون هذا الرأي ؟ ويرون الى جانبه ان

الاشتغال بالاصلاح في مثل هذه البيئات المختلفة مضيعة للوقت. ومجلبة للاذى. وسعي في غير طائل . وجهاد في غير جدوى .

* * *

ولكن الواقع ايضاً ان هذا الرأي شديد الخطر . عظيم الضرر . لان اليأس والقنوط من امارات الموت وعلامات الفناء . واظن اننا لم نصل بعد الى مثل هذه الحالة المفزعة ولان الرزائل الاجتماعية المفروغ من ضررها . والمقطوع بسوء مغبتها . لم تختلف فيها الانظار بعد الى درجة انها تدخلها في مستو الامور الاعتبارية التي يجوز تفرق الرأي عليها . واشتداد الجدل والحوار بشأنها . وتعدد المذاهب فيها فالحسن بين . والقبيح بين . والخير واضح . والشر واضح . وما علينا الا ان نأخذ انفسنا بالاقلاع عن الرزائل والنقائص . والتخلي عن العيوب الخلقية والامراض النفسية . وان نأخذ ابناءنا الصغار بتنشئتهم على الفضيلة ومكارم الاخلاق . فان هذا قد يكون اخر ما يمكن من علاج لحالتنا الحاضرة . وايسر ما نلجأ اليه لملاشاة الضعف الموجود في خلقنا العام .

وطن الأحرار

ماشرعت الديانات الا لحفظ ناموس الاجتماع ونظام الجامعة الانسانية ، فما كان الله ليذر الناس على ما هم عليه من وحشية منفرة ومن اباحية مكفرة تنزل بهم الى درك البهائم .

وما ارسل الرسل مبشرين ومنذرين مقننين قوانين الشرائع الا رحمة للعلمين. فالانسان بما فيه من ضعف محتاج الى مرشد يريه آيات الله في السموات والارض . ويريه حكمه خلقه في عالم الحياة الدنيا .

ولما كانت الوحدة الدينية والقومية والوطنية لايقام لها وزن يوم ان كانت الديانات في عالم الغيب اذ كان البشر فوضى لايعرف نظام الحيات الاجتماعية فضلا عن الحياه العائلية ، وكانت الاحوال والابضاع والانفس تستباح من غير قانون كلي يدل الكل في حظيرته . وينضم تحت لوائه . قاسى المجتمع الانساني في غضون هذه الفترة انكالا وجحيما وطعاماً ذا غصة وعذابا اليما .

ولكن لما وجدت الديانات جمعت المتنافرين وهذبت نفوس المتوحشين وحددت لهم الحقوق . وحفظت سياج الجامعة الادبية بقانون التعاليم الرشيدة ، الروحية والزمنية . اذ ان السياسة لا تضاد الدين الاسلامي فهو دين عبادات ومعاملات. دين علم وعمل . واخرجت لها كتاب التوحيد يدعوها الى الانتظام في سلك لواء الوحدة . فلا عصبية . ولا قومية في نظر الاسلام ؛ فعرفت ان الايمان مصدر اليقين . او العمود الفقري في نظام العاملين .

وعرفت ايضاً ان حب الوطن جزء من الدين ، وان احدهما مرتبط بالآخر ارتباط الدم بالشرايين .

ولسائل يقول : ما بال المسلمين اليوم في حضيض من التأخر على ما في دينهم من وصايا واحكام كافية بالنهوض بامة . بل هي نفسها قد نهضت بهم حيناً من الدهر. وعلى ذلك نجيب ان المسلمين يوم ان كانوا يحافظون على الاسلام بمعناه ومبناه

وبحقيقته لا بعجازه ؛ كانوا خير امة اخرجت للناس . ولكن لما انحرفوا عنه لاقوا عذاب الهون بما كانوا يعملون .

فمن هنا يعلم ان الذنب ذنب المسلمين لا ذنب الاسلام . وقد قال المؤرخون : ان بداية انحطاط المسلمين الصدمتان الشديدتان اللتان لاقوهما : الحروب الصليبية في مصر والشام . والحرب الجنكيزية فيما وراء النهر وبغداد . وقد تقدمتها صدمات عنيفة احدثتها الفرق المدسوسة لتقويض الاسلام .

ولقد اثبت المؤرخون هذا باعتبار انهم مؤرخون : ولو تبينوا السبب الحقيقي من جهة الاخلاق لعلموا ان بداية الانحطاط هو سقوط الشعب الاسلامي من الوجهة الاخلاقية . وان تفكك عظمة المسلمين مسبب عن تفرقهم في دينهم شيعاً واحزابا وفسوقهم عن امر ربهم اعقابا فاعقابا .

ان للديانات اثر جميل في تاريخ المدنية ، ولكم حدثنا التاريخ بان الامم التي نكصت على عقبيها برفض دينها كان خذلانها نتيجة لذلك الرفض .

واذا قلت انه لا وطن الا بدين فمعناه ان الدين هو الذي يبعث الانسان بغيرته وعقيدته الى الدفاع عنه ، لان هيكل الوطن موجود ، وجد الدين فيه ام لا . لكن لا يستوي وطن اهله مدفوعون بدين لصون عرضه من الصيال الاستعماري عليه . وبين وطن لا دين له . فهو لا يفضل حكما على حكم . ولا ينهض لمجد بدل انحاط .

* * *

وقد كانت الامة الفارسية هي الامة العظيمة التاريخية في عصور المنافسة الدولية فلما ظهر : متروك : الاباحي وانتشرت تعاليمه في الشعب دب في النفوس ميكروب الجبن فبعث فيها خور العزيمة ؛ اذن فالتعاليم الاباحية لها اثر سيء يودي بالامة الى مواطن هلكتها ، وهذا تمثال اقامة التاريخ في ميدان العدل . والعظمة والذكرى يكفينا مؤنة البحث عن دليل عقلي ما دام المشاهد ثابتاً .

ان الدين رسول السلام بين الافراد التي تكون الامة ، ومتى ساد السلام بينها وجدت الوطنية التي تكون الوطن . واذا فقد الدين انفرط عقد نظام التشريع .

وحل محله هوى النفوس فيأخذ الناس بالقهر والعنفوان . والقلوب على ما هي عليه تتربص الدوائر لمن يأخذها بغير دينها . ويحكمها بغير ما انزل الله في كتابه لها . « ان الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الاذلين . كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز الانتقام » .

اني لاعجب من المارقين الذين جاؤا ببضاعة مزجاة يحسبونها وهم واهمون من النفائس ، ودعوا الناس اليها ليشتروها بانفسهم واموالهم . ويتخذوا من مزيفها قلائد يجملون بها قلوبهم وعقولهم ، اما علم اولئك الذين يجأرون بالالحاد في وسط اسلامي ان العقيدة الدينية اذا تمكنت من النفوس لاتنتزع انتزاعا ، وان روحانيتها تجذب الافئدة فتتكون فيها العاطفة الدينية . فلا يمكن ان تزعزعها اعاصير الافكار الالحادية « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لايشركون بي شيئاً . من كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » .

فالوطن لذي اوذي به الدين وعومل اهله بقسوة وازدراء . ونزل معتنقوه منزلا ضيقا حرجاً يسقط صريعاً تحت اقدام المطامع . وكان اهله غرض الفاتحين فلا يستبينون الرشد الا وهم محكومون بغيرهم ،غرباء في بلادهم .

والدين اذا امس بلده مقهورا عطلت شرائعه . وحاربه اعداءه وكان اهله عونا عليه لمن يهدم صرحه ، وكيف يقام الدين في بلد يرى الدخيل ان الدين عائقة عن تنفيذ مايريد . واغتنام ماجاء من اجله،فاذا اقيمت شعيرة الدين لايستقيم للاجنبي امر في بلادنا اذ من احكامه الاباء والزود عن الحياض ، وهذه تعاليمه بين ايدينا تنادينا بقوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وانفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة » ومعنى التهلكة المذلة كما قال «البيضاوي» وهو تفسير يلائم روح الآية . بدليل قوله تعالى . وقاتلوهم : فيما سبق هذه الاية قريباً لان تعطيل شريعة الجهاد واهمالها فتح على المسلمين باب مطامع الفاتحين .

ولقد تنبهت الدول الاوروبية الى ان الجهاد من مقام السؤدد والسلطان فاقامت قواتها البرية والبحرية والجوية لترينا بأسها وترهبنا بها وليس في كتابها ما يدعو الى ذلك ، اما نحن فقد جعلنا اموالنا وقفاً على شهواتنا فكان وطننا ودينا في طريق الفاتحين والطاغين ، فاستمع اليه عزشأنه يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».

* * *

بقي علينا ان نعرف وجهة نظر الذين يدعون الى نبذ العقائد الدينية. والتخلص من قوانينها . وقد قص عليهم التاريخ احوال الامم الاباحية وما فعلته خرافات الطبيعيين من تدهورها وسقوط اخلاقها. وكيف انها لما ثابت الى رشدها واتخذت دينها اماما تهتدي به رتقت ما فتقته قواعد الاباحية وطفرت طفرة واحدة حتى بلغت في سماء التقدم والسعادة صرحاً متيناً على اساس العقيدة لان العقيدة تحرك الجبال.

فتأخر الامة الاسلامية في هذا الشرق ليس لانها تدين بالاسلام وانما تحكم الاجانب واستبدادهم هو الذي انزلها في فقر سياسي واقتصادي واخلاقي وعلمي وصناعي واجتماعي ، فاذا قارنا بين الامس واليوم رأينا الفرق جلياً بين للذين على ابصارهم غشاوة الحق وان كانوا كارهين .

وهل تحكم الاجنبي فينا الا بضعف عقيدتنا الدينية والوطنية والدخول في احضانه واتخاذه بطانة نأوي اليه ونتظاهر على البلاد لديه ثم لانفتأ نذكر اننا خدام الوطن المحتكرون للوطنية . واصحاب المبادىء العلمية ونحسب ان هذه الامور اعمال مرضية تنتج للبلاد استقلالها التام الذي لاشبهة فيه .

لقد كان الدين الاسلامي في العرب فما قال احد انهم تأخروا به عن ايام جاهليتهم بل اخذهم بيد التوحيد وصعد بهم الى منزلة ما كانوا يحلمون بها . فملكوا ايام جاهليتهم العباد واستعمروا البلاد وكانوا ـ على قلة عددهم يقابلون الاعداء بصدر لايهاب الموت .

ولقد قال مؤرخوا الفرنجة . ان عظمة المسلمين لم تنتصر على الفرس والروم

الا أيام ضعف هـاتين الدولتين . فلدينا البرهان على انهما كانتا على جانب عظيم من الاستعداد الحربي ، ولئن سلمنا جدلا بانهما كانتا ضعيفتين فانا نقول : ان العرب لا تسمح لهم حالتهم في ابان ظهور الاسلام بمصادقة دولتين عندهما بقايا من القوة ، الا قوة الوجدان الديني ، مع ان التاريخ احصى كل شيء عددا . فبين ان عـدد العرب . كذا في غزوة كذا . وعدد اعدائهم كذا . فلو لم يكن للدين تأثير لما استبسلوا في الدفاع . ولا استماتوا في اعلاء كلمة الله ورفعة وطنهم . والتوسع في رقعة ملكهم . وبناء عظمتهم ، ولقد جربنـا مدنية اوروبا وقوانينها في بلادنا فماذا كانت النتيجة .

كانت امتنـا لم تخـط خطوة الى الامام . بـل تقف قـدمنا عنـد ما وصلت ولكنها تأخرت ؟

فاذا كانت الاديان لاتصلح لعصرنا الحاضر فما حجة من يعشق المدنية الغربية ويدين بالقوانين الوضعية وامرها مشاهد محسوس في بلادنا « ان الذين بدلوا نعمة الله كفروا واحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار » .

* * *

وصفوة القول ان اول اساس يجب أن نبني عليه محبة الوطن هو الدين :

وقد تضاربت الاراء في تعريف الوطن . غير ان الـذي يفهمه السواد الاعظم من الناس انه قطعة من الارض ذات تخوم معلومة . وجماعة من الآدميين يعيشون فيها عيش الاجتماع تجمع بينهم وحدة الجنسية والمساواة في الحكم والمنافع والمضار الى غير ذلك من الجوامع المعروفة عند كل امة من الامم .

والجماعة الوطنية تسمى الامة . وهي الناس . يتخذون لانفسهم جنسية واحدة متضامنة متواثقة . لهم اسم واحد ينتسبون اليه من مثل سوري وعراقي ويماني ونجدي ومصري وتونسي وما اشبه ذلك .

والوطن والامة متقارنان متضايفان لانه اذا خلا من كل سكانه او من اكثرهم لم يعد وطنـا ، فان شـغل فراغه منهم غيرهم فهو وطن لهؤلاء الغير . والا لم تصح تسميته وطنا لباقي الامة وهم الاقلية لخلو شروط الامة والوطن ، ولا للجالين عنه

وهم الاكثرية لاستيطانهم غيره من الاوطان .

والانسان اجتماعي من طبعه . والناس كلهم جماعة واحدة منتشرة على سطح المعمور اوجب تقسيمها الى جماعات شتى .

نظام سام اقتضتة الحكمة والضرورة لاحكام السياسة وتكثير اسباب الرزق وتمكين اساسات العدل . وصيانة الحقوق .

وهذه الجماعة العديدة المختلفة الاسماء تؤلف كلا واحداً نسميه المجتمع الانساني لما بينها من وحدة الطبيعة والمبدأ والغاية ، ومن التشابه ميولا ورغائب وشهوات وحاجات مما يبعث بهن على التعاون في ما يستطعن من الشؤون على مألوف الامم في كثير من الاحوال بدرجات متفاوتة . مقاييسها التقارب الطبيعي والادبي والتشابه الاخلاقي واتصال بعضها بالبعض الاخر ، بما توجده الحضارة من التعارف والتحافظ والتفاهم وتقريب المسافات ولا عبرة بما يقع بينهن احيانا من التنافر والتخاذل والتجارب مما ينشأ عن الاسراف بمحبة الذات . او عن خشونة الاخلاق ، اوشم المعاطس ، اوتأثير الوسط ، والهواء . الى غير ذلك من الاسباب ، فان هذا لا ينافي ما يطبع الانسان من النزوع الى حياة الاجتماع .

* * *

ولا يغيب عن ذهننا ان نواميس الاجتماع لاتتجه الى الغاء ما يسميه الفلاسفة تنازع البقاء ، ومقتضاه حفاظ الحي على بقائه من عاديات الوهن والتلف . بما علمكه من زرائع الحفظ فيحق له ان يدفع عن ماله وعرضه وراحته كل ظلم واعتداء اذا نشبت بحقوقه براثن الجور واتسعت لابتلاعه مبالع الطمع . واضطر للاقامة على الضيم والتجلد على الذل والهوان .

فليست المخاصمة للحق ، ولا الحرب العادلة حين لا يكون بد منها لصيانة حق الفرد او الامة بشيء من الخروج على سنن الاجتماع .

واذا كان الانسان لايقدر ان ينفع جميع امثاله ، ولا ان ينتفع من جميعهم من وجه الخصوص لزمه ان يقصر النفع والانتفاع على فئة منهم وهم الاقربون اليه

سالكا في ذلك مسلك الترتيب الطبيعي من نفسه الى اقاربه الطبيعيين ، الى اهل بلدته فمن جاورهم . الى سواهم من ابناء امته .

فمن يتقيد بهذا النظام ناهضاً بخدمة وطنه وامته غير مقصر في ما يجب عليه بحسب السنن والعادات الوطنية . فقد نهض بما يستحق عليه من الخدمة للنوع الانساني باسره انزالا لنفعه البعض منزلة النفع للكل لاشتراك جميع الادميين في الانسانية .

ونسبه الوطن الى الوطني كنسبة الام الى الولد ، فكما يجب على الولد ان يحب امه ، كذلك يجب عليه ان يحب وطنه .

ولا غرو فانه موضع ولادته ، ومدب طفولته ، وملعب صبوته ، ومسرح شبابه ، ومجال افكاره واعماله ، ومقراهله وخلانه ، ومثوى رفات آبائه واجداده في تربته نبت ؛ وفي نعمته ربي ، والى اسمه انتسب ؛ وفي ظل حمايته يرتع ، وهو باعتبار حيانه الدنيا منه واليه ، وفي قلب ارضه يحب ان يثوي جسده الى يوم المعاد .

واذا كانت المحبة ثمن الفضل والاحسان فمن احق بمحبتنا من الوطن .

او كانت ثواب محبته سبقت الينا فمن اسبق محبة لنا بعد الله من الوطن ؟

* * *

غريزة حب الوطن

وقد جاء في اثر العرب في الحضارة الاوربية ان حب الوطن غريزة معروفة في الانسان من اقدم عصوره الاجتماعية ، «عرفت في البدو الرحل كما عرفت في سكان المدن واصحاب الارض الزراعية ؛ وبقيت لنا من دلائلها في اللغة العربية هذه القصائد التي يتغنى بها الى اليوم من يذكرون الديار ويحنون الى المرابع والاطلال ، ولو طال بهم عهد فراقها ، وانقطعت عليهم سبيل الرجعة اليها » .

* * *

والحقيقة ان الوطنية بمعناها الحديث شيء غير هذه الغريزة لانها مجموعة من الحقوق والصلات الروحية والثقافية . وقد انفرد بها الانسان في عصره الحديث

بعد القرن السابع عشر على وجه التقريب ، واختلف فهم الناس اياها عن ذلك الشعور الغريزي الذي يتفق فيه الانسان ، وكثير من الاحياء الانيسة ، بل يتفق فيه الانسان وبعض الضواري التي تأوى الى عرائنها وأوجاها وآجامها ولا تستبدل بها غيرها ما استطاعت المقام فيها .

ولم يكن من الميسور ان تنشأ الوطنية بمعناها الحديث قبل القرن الثامن عشر او قبل الاطوار الاجتماعية التي تقدمتها وكانت ممهدة لظهورها وانتقالها من حيز الغرائز المشتركة الى حيز الصلات الروحية والثقافية التي ينفرد فيها الانسان في مجتمعاته . لان هذه الاطوار كانت تناقض الوطنية في بعض الاحوال . وكانت تخفيها في احوال اخرى ، وكانت على الجملة خطوات سابقة لا بد منها قبل التطرق الى الخطوات التي تليها .

فكان لا بد من تطور عهد الاقطاع قبل شعور الانسان بوطنه في نطاقه الواسع ومصالحه المتشابكة. لان انتماء الناس الى « اقطاعات » متعدده في قطر واحد يربطهم بضروب شتى من الولاء للسادة المتعددين الذين يسيطرون عليها . ويعودهم ضروبا من المخالفات والمخاصمات تتغلب فيها الزمرة والطائفة على الامة او الدولة نفسها في بعض الامور .

وكان لا بد من تطور الجامعات الدينية قبل الشعور بمعنى هذه الوطنية . لان الانسان يرضى في الجامعات الدينية ان يحكمه من ليس من ابناء وطنه لاتفاق الحاكم والمحكوم في العقيدة والمراسم الروحية . ويكره ان يحكمه من لا يدين بدينه ولو كان من بلده وجواره ، ولا يزال كذلك حتى يتعذر حكم الاوطان المختلفة بحكومة واحدة قائمة في مراكزها البعيدة عنها لاختلاف المرافق واختلاف النظر الى الحقوق والتبعات ونشوء الطبقات الاجتماعية التي تتنافى في الاوطان المتعدد ، وان جمعتها علاقة وثيقة واحدة .

ولما تطور عصر الاقطاع وعصر الجامعات الدينية معاً او على التعاقب بين جيل وجيل قام من بعدهما سلطان العرش وما يرتبط به من الدعاوى والحقوق فكانت قوتهم كفيلة لهم ببسط كلمتهم على رعاياهم وحصر فرائض الولاء في اشخاصهم او

في اسرتهم ، وكانت « المملكة » سابقة للامة او سابقة بطبيعة الحال للحقوق التي تنشأ من الاعتراف للامة بالسيادة على بلادها .

ولايفهم الوطن على انه بلاد « الامة » ومناط سيادتها قبل ان تصبح الامة مصدراً للسلطان كله ويصبح الملك خادما للوطن ينوب عن الامة في تدبير مصالحها وقبل ان تنبغ الطبقة الوسطى التي تضطلع بالحكم مع تقييد الملوك وزوال السادة الاقطاعيين : وهذه هي العقيدة التي تمخضت عنها اطوار كثيرة من عصر النهضة الى عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن قد توطدها الاساس الذي تعلو عليه قبل تمام تلك الاطوار .

معالم الوطنية

ولقد كانت الامة العربية اولى الامم ان تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها في اعقاب الثورة الفرنسية . وانها كانت تدين بان الارض لله وان الملك خادم الشعب يحكمه باختياره قبل ان تقرر هذه الاراء في امم الحضارة الغربية ولكن التاريخ لا يسبق اوانه ولابد للجامعة الدينية من دور تجري فيه وتبلغ مداه وقد كانت في اوجها . وكانت معالم الوطنية في غيبها تنتظر اسبابها ومواقيتها . فلما حان الميقات المقدور كان من عجائب اطوار التاريخ . ان يأخذها الشرقيون عن الغربيين . وان يأخذوها تارة كارهين وتارة مختارين .

نعم اخذوها تارة كارهين وتارة مختارين لانهم اخذوها بالتعليم والمحاكاة . واخذوها بكفاح الثورة على الاستعمار . فكانت المناداة بحقوق الانسان . هي فاتحة الاعتراف بحقوق الاوطان على المطالبة بتلك الحقوق ، واشعل فيهم نار الغيرة الوطنية ان الاستعمار يمسهم في كرامتهم وعقائدهم ومصالحهم . ولا يرضيهم بحالة واحدة من الحالات التي تسوغ للمرء باختياره ان يحتمل الخضوع لمن يخالفه في الموطن واللغة والدين . وينازعه الرزق . وينكر عليه الحقوق التي ينادي بها في في بلاده ويسميها بحقوق الانسان .

نعم ان المغلوبين كانوا يثورون على الغالبين في جميع العصور قبل المناداة بحقوق

الانسان . ولكنهم كانوا يثورون للانفة من الغلبة ، والالم من الغضب ، والمشاركة في الارزاق ، وهي ثورة لاترجع الى الايمان بالحقوق الوطنية . ولا الى انكار حق الغالبين في تسخير المغلوبين . بل ترجع الى كراهة الضيم ومقابلة العدوان بالعدوان ويختلف الصراع على الغلبة جد الاختلاف من هذا الصراع بين غاصب الحق والمطالب به وهما متفقان معاً على حق صاحب الوطن في وطنه . فان الثائر القديم انما كان يثور لان حالة السيد المطاع خير من حالة العبد المطيع . ولان المرء لاينزل عن رزقه وكرامته وهو قادر على ان يحتفظ بها لنفسه ، اما الثائر الحديث فهو في موقف « المقاضي » الذي يطالب بتراثه وماله ، ويرد الاقوياء الى شريعة غير شريعة الغلبة المرفوضة في ضمائر الناس .

العاطفة الوطنية

وظلت العاطفة الوطنية ممزوجة بالعاطفة الدينية في شؤون السياسة العامة ردحاً من الزمن بعد الاعتراف بسيادة الامة وقيام « فكرة الوطن » على هذه السيادة و كان شأن اوربة في ذلك كشأن الامم الشرقية بغير اختلاف كبير . فثارت ايطاليا واليونان في طلب الاستقلال وكلتاهما امة ذات تاريخ عريق في الثقافة والفن واصول الحضارة الاوربية ، ولكن حماسة اوربة لنصرة القضية الايطالية لم تبلغ قط مبلغ الحماسة الشعبية لنصرة القضية اليونانية لان اليونان كانت تثور على الترك اذ كان الايطاليون يثورون على النمسا او على الكنيسة البابوية . وفي الوقت الذي كانت فيه امم كأمم البلقان تظفر من العطف الاوربي باوفى نصيب في قضايا المطالبة بالاستقلال كانت اوربة تنظر بعين الموافقة او قلة الاكتراث الى تقسيم الوطن البولوني بين روسيا والنمسا والمانيا ، وعلى بعضها حكومات تغلغلت فيها جراثيم الفساد والاستبداد وانكرت حقوق الانسان ومبادىء الاعتراف بالاوطان .

* * *

وظهرت نزعة الاستقلال في دعوى الخلافة الدينية بين الشرقيين المسلمين في

اوائل القرن الثامن عشر مقترنة بظهور هـذه النزعة في القارة الاوربية فكان السلطان العثماني الذي يلقب بلقب الخلافـة يولي على مصر والياً من قبله ويختـار المصريون المسلمون والياً غيره كما حـدث على عهد محمد علي الكبير . ونادى طلاب الاستقلال « بان مصر للمصريين » في اواسط القرن التاسع عشر . وجعلوا هـذا المبدأ شعاراً لهم في حركة التحرير مع قيام السيادة العثمانيـة التي زالت بعد ذلك بخمسين سنة . . . ثم ظلت هذه السيادة تتردد في بيئات الاحزاب السياسيـة اما بفعل الشعور الديني او بدافع من الرغبة في مقـاومة الاحتلال البريطـاني بحجة شرعية لا ينكرها — وكذلك الحـال كان في سوريا طيلة عهد الانتداب الافرنسي فيها — فلم يكن هذا الامتزاج بين عواطف الوطن وعواطف الدين غريباً في عالم الواقع او عالم التفكير ، لان العواطف الجديدة في تطور الامم لاتولد دفعةواحدة خالصة من آثار سوابقها وملابساتها ، وكان على العالم كله — بين شرقيه وغربيه — ان يقضي زمناً ما قبل ان يفهم ابناء الوطن ان حرمانهم نعمة الحريـة والاستقلال هو اعتـداء عليهم وعلى كرامتهم . ولو جاء هذا الاعتداء ممن يمـاثلهم في النحلة او اللغة او العقيدة الدينية .

معنى الوطنية

وربما كان الاصح — او الاصلح في تفسير الحقائق — ان يقال ان معنى الوطنية الحديث وليد الحضارة العصرية لا وليد الذهن الاوربي او الطبائع الغربية . لان قارة اوربة وجدت منذ القدم ولم توجد فيها الوطنية بمعناهـا الحديث . فلما انتهت اطوار الاجتماع الى حضارة العصر الحاضر كانت اوربه هي مسرح التـاريخ الذي تمثلت فيه هذه الاطوار ، وكان فضل الامم الشرقيـة في فهم هـذا المعنى الحديث انها نقلته بشيء من الاختيار والتميز ، ولم تنتظر به تسلسل الوقائع التي مرت تباعاً بالاوربيين قبل ان تفرضه عليهم الضرورات ».

واخيراً : كل امريء يدعي من نفسه المحبة لوطنه . وقد يكون صادقـاً لانه قلما يخلو من عاطفـة الحب للوطن قلب وطني ، غير ان المحبة الصادقة لا تقف عند

العاطفة ، بل تجوزها الى العقل والى الاثمار اي الى المنفعة ، فيكون ان الوطني يريد لوطنه كل سعادة وخير، ويبذل ما بوسعه لحفظ كيانه وزيادة عمرانه. ورقيه. وعزه . وثروته وامتداده ، ولا يشح عليه اذا دعت الحاجة بشيء من رأيه وعلمه وحنكته وسياسته وماله وولده ، حتى وجوده هو لوطنه اكثر ما هو لنفسه .

ومكان هذه المحبة المثمرة من الرسوخ بقلبه ان تصير عنده الى تأهب دستمر، او حال ثابتة تؤيدها الافعال بارزة على حسب الاحوال . وذلك يتقاضاه جهاداً عظيما وتضحيات شاقة لما ركب في طبعه من محبة الذات التي لم يظفر عليها بالقتال الطويل العنيف . كانت اشد حائل دون النهوض بالواجب الوطني الثقيل .

* * *

فالصعوبات القائمة في سبيل المحبة الوطنية المثمرة كثيرة شديدة . وليس تذليلها بالهين اليسير .

فلا بد من التذرع بالزرائع القوية الضامنة لمعتمدها النجاح . فمن اخص تلك الزرائع واعجلها ابلاغاً الى الغرض هو الدين.

الصبر والشجاعة والغضب والرضا

غرس الاسلام مما غرس الصبر في قلوب ابنائه . وكان الناس في الجاهلية اذا مات لهم عزيز شقوا الجيوب ولطموا الخدود . ودعوا بدعاء الجاهلية ، فجاء الاسلام محرماً لكل هذا وبشر الصابرين بالاجر العظيم فقال (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) . وسمع الناس قوله تعالى في حق الصابرين (اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون .)

وقد حث الله عباده على التثبت عند نزول النوائب والشدة والمصائب وبين لهم بطريق الاشارة ان كل بلاء اصاب الانسان وان عظم ففوقه ما هو اعظم منه فمن سلم امره لله ورضي بقضاءه وقدره وترك الجزع وقال ما يرضي الله فلم يخمش وجها ولم يشق جيباً نال اجر الصابرين . وفاز مع الفائزين : « الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » .

والصبر من خواص الانسان ولا يتصور حصوله من البهائم لانها ناقصة ، ولا يتصور ايضاً من الملائكة لانهم ليسوا مشغولين بشهوة تصرفهم عن خدمة من خلقهم وتمنعهم عن الاستغراق في ملكوت حضرته .

واما الانسان فانه في صباه بمنزلة البهيمة ليس له الا شهوة الغذاء . ثم شهوة النكاح . لكنه اذا بلغ الحلم حصل له مع الشهوة الباعثة على اللذات العاجلة عقل يدعوه الى الاعراض عنها والاقبال على تحصيل السعادات الباقية فيصير واقفاً بين داعية العقل وداعية الشهوة وبينهما ضدية ونفور هو الذي يسمى صبراً .

وقد خلق الله للملائكة عقولا بلا شهوات . وخلق البهائم بشهوات بلا عقول ، وخلق الانسان وجعل له عقلا وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة . ومن غلب شهوته عقله فهو كالبهائم ، فان قيل اي الصبرين احب الى الله . صبر من يصبر على اوامره ام صبر من يصبر على محارمه . قيل هذا موضع تنازع فيه الناس فقالت طائفة الصبر عن المخالفات لانه اشق واصعب . فان اعمال البر يفعلها البر والفاجر

ولايصبر على المخالفات الا الصديقون . والصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو اشق شيء وافضله . فالمروءة والفتوة كلها في الصبر ، والفتوة ترك ما تهوى لما يخشى ـ فمروءة العبد وقدرته بحسب هذا الصبر ، اما الصبر مع الله تعالى فهو ثبات القلب بالاستقامة معه وهو الا يروغ عنه روغان الثعلب ها هنا وها هنا : فحقيقة هذا هو الاستقامة اليه وعكوف القلب عليه . قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وقال « وجاهدوا في الله » والعبد اذا كان لله هان عليه كل شيء ويتحمل الاثقال ولم يجد لها ثقلا. فانه اذا كان بالله لابالخلق ولابنفسه كان لقلبه وروحه وجود آخر . وشأن آخر غير شأنه اذا كان بنفسه وبالخلق . وبهذا الحال لايجد عناء الصبر ولا مرارته ، وتنقلب مشاق التكليف له نعيما وقرة عين .

ومن حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل ، وبه نزل الكتاب ، وجاءت به السنة ، قال تعالى (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) وفي الحديث « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعته حظ من بر ولانصيب من صلاح ، ومن لم ير لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيداً عن الرشاد حقيقياً بالضلال . وفي ذلك يقول ابو العتاهية .

اراك امرءاً ترجو من الله عفوه ... وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر ... فيا من يداوي الناس وهو سقيم

فضيلة الشجاعة

وكما علم الاسلام ابناءه الصبر علمهم الشجاعة وحب الوطنية ، والشجاعة ملكة في النفوس يورثها الاقدام على الامور الكبيرة والمخاوف الخطيرة للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة ، تحت اشراف الحكمة للدفاع عنه من نفس اودين او وطن او غير ذلك ؟ وهي فضيلة من اسمى الفضائل وان شئت فقل انها حارسة الفضائل كلها ، وأس السعادة في الدنيا والاخرة ، وليس يخفى عليك ما لها من

الاثر في رقي الامم . وتقدم الممالك في هذه الحياة .

فكل امة ضربت فيها بسهم واخذت باوفر نصيب اصبحت شامخة المجد . عالية القدر فسيحه الملك ، لايعوزها نشر العمران ، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها ، وما من امة اخلدت الى الجبن واهملت واجبها ، وفرطت في جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية الا صارت الى الذل والهوان وباءت بالخيبة والخسران ، لاتستطيع دفع الطامع عنها ، ولا تقوى على حفظ كيانها والزود عن حياضها ، ولا تلبث الا ريثما يتم اتفاق الدول القوية على التهامها ومحوصورتها من بين الامم المستقلة .

* * *

كانت الشجاعة من المناقب التي امتاز بها العرب وفاقوا غيرهم فى الاخذ بناصرها والتمدح بآثارها ، والافتخار بمزاياها ، والازدهاء بمحاسنها ، حتى بلغ من ذلك ان حض عليها الامراء . وتباهى بها الكبراء والوضعاء في محاوراتهم واشعارهم .

فقد قال ابو بكر الصديق لخالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب لك الحياة » وقال الشاعر :

محرمة اكفال خيلي على القنا ودامية لباتها ونحورها
حرام على ارحامنا قتل مدبر وتندق منها في الصدور صدورها

وقال آخر :

تأخرت استبقى الحياة فلم اجد لنفسي حياة مثل ان اتقدما

ولهم غير ذلك من الاخبار والشواهد مما يدل على انها كانت الزم لهم من ظلهم واثبت عندهم من شخصهم .

ولا غرو فهي الفضيلة التي ليس بعدها فضيلة . والمزية التي ليس ورائها غاية لذلك كانوا في جاهليتهم ذوى شمم وحمية ؛ وعزة وانفة ، يأبون الضيم ، وينفرون من الذل ، فلما سطع نور الاسلام في بلادهم وخفقت اعلامه على ديارهم ، وافاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله ان يفيض ، قاموا والشجاعة رائدهم والاسلام

قائدهم ينشرون دين الله ويعزون دعوة نبيه فقد دانت لهم البلاد . وخضعت لهم اعناق الاكاسرة ، فلم يمض قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة في مملكتي الرومان والفرس ووطئت اقدامهم غالب آسيا وافريقية ونحو نصف اوروبا ، وهناك نشروا علومهم التي جاء بها الاسلام ومعارفهم التي أتى بها القرآن . واصبحوا رؤساء العالم وقادة الامم وارقاهم مدنية وحضارة ، وهاك تاريخهم المجيد ، لايزال يلبي عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بفضل علمهم وشجاعتهم .

* * *

والامة الى الشجاعة احوج منها الى كثرة العدد ووفرة المال ، ذلك لان الامم في اعتداء مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد كالاشخاص . فاذا لم يكن للامة قسط وافر من الشجاعة ، وعامل قوي من الحمية والانفة عرضت نفسها لالتهام الطامعين فسقطت في هوة سحيقة من الذل والاستعباد .

فالشجاعة فضيلة تورث صاحبها الاقدام على جلائل الامور وعظائم الاعمال ، مبعثها نفس صافية ، والحافز عليها غاية نبيلة . ولا يخفى ما لها من الاثر في رقي الامم وتقدمها فان كل امة تقمصت ثوب الشجاعة ، وأتزرت بمئزره لابد ان تدرك امانيها ويعز جانبها ، ويكون لها من السؤدد والسلطان ما يجعلها مهيبة في اعين غيرها ؛ بينما ترى الامة التي تخلد الى الجبن والراحة والدعة ، وتترك نفسها في مهب الرياح تصير الى الذل والهوان ، بحيث لا تستطيع ان ترد عوادي الدهر . ولاتقدر على دفع صروف الايام ونوائبها ، ولاتقوى على حفظ كيانها والزود عن حياضها بل تصبح طعمة سائغة لمن يريد التهامها ، فتمحى صورتها من الوجود .

وانك لو نظرت الى الاسلام في ابان عزه وازدهاره لوجدت ان اعلامه لم تخفق على آسيا وافريقية . ونصف اوربا في نحو نصف قرن من الزمان الا لان العرب الذين حملوا رايته كانت الشجاعة الزم لهم من ظلهم ، كما يتجلى ذلك من مواقفهم ومن كلام امرائهم وعظمائهم .

وكما ان الامة تحتاج الى الشجاعة في رد الغارات ودفع الغوائل ، فانها تحتاج اليها كذلك في ادارة شؤونها واستقامة امورها ، واعتدال نظامها ، وتنفيذ مصالحها

فالحاكم ان كان مقداما على تنفيذ ما يصدره من الاحكام ، واقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الامة لاوامره ، واطمأنت الى احكامه ، وسارت معه في طريق الوفاق والوئام ، وان انست منه جبناً او ظنت منه توانياً في اقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين ساء رأيها فيه وملئت سخطاً عليه ، ففسدت الاحوال وعم الوبال .

وليس يخفى ان العالم لا ينتفع بعلمه ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه باقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، الا بالشجاعة والاقدام .

وكذلك الطبيب لا يجرؤ على قطع الاعضاء الفاسدة وجبر العظام الكسيرة ، وتضميد الجروح الخطيرة . الا اذا ساعده باعث الشجاعة .

وعلى ذلك تكون الشجاعة اقوى الدعائم في سعادة الامم ورفعتها وحضارتها ونعيمها كما قلنا ، وهو ميدان فسيح لا يأتي عليه البيان ولكنه لا يغيب عن الاذهان .

* * *

والشجاعة التي هي افضل مزايا الافراد والشعوب مزيج من عناصر تشمل فيما تشمله قوة الاحتمال .

ونحن نحتاج الى هذه الفضيلة في حياتنا العادية كما نحتاج اليها في اوقات المحن والكروب . فانك لا تستطيع ان تستبدل اسلوبا في المعيشة باسلوب . ولا ان تقلع عن عادة مستحكمة اذا تقاضتك صحتك شيئاً من هذا الا بفضل ما فيك من قوة مقاومة لسلطان العادة .

وكم رأينا في الحياة افراداً عرضوا اجسامهم للتدمير ، وسمعتهم للتمزيق ، وكانوا يبصرون باعينهم سوء مصيرهم ، ويسمعون بآذانهم صوت النذير ، ولكنهم لسوء حظهم فقدوا الوسيلة الوحيدة لانقاذهم مما هم فيه وهي الارادة القوية التي لا يملكها هوى ، ولا تستبد بها عادة .

وقد اظهرت الحروب ضروبا عدة من الصفات المجيدة في بني الانسان . ولا ريب ان اجدها واشرفها جميعاً قوة الاحتمال التي بها وقف انصار الحرية موقفهم الذي

تحملوا فيه اقص الضربات واعنف الصدمات التي سلطت على شعب فكان لموقفهم الفضل في انقاذ الانسانية من قوى البربرية النزاعة الى التدمير والخراب وستظل هذه الصورة الرائعة من الصبر وقوة الاحتمال حديث العالم لاجال طويلة وامادبعيدة

فهذه الفضيلة التي استطاعت ان تقف اعظم قوة جارفة والتي لاذت بها الانسانية في احرج ساعاتها هي ما قصداليه الاسلام في تعاليمه وجعلها وسيلة لها وصورة من صورها .

وقد حفل تاريخه الاول برجال بلغت هذه الفضيلة فيهم ارقى اطوارها واسمى اشكالها . فكانوا نماذج كاملة في الصبر وقوة الاحتمال . وصلابة العود عند الشدائد وليست بنا حاجة ان نعد اسماء هؤلاء الابطال فقد امتلأت بهم بطون الكتب وسبيلنا هنا ان نذكر امثلة بارزة من اولئك الذين تحققت فيهم هذه الفضيلة الكاملة فقاموا باعمال باهرة كرمت نفس الانسان وجعلته جديراً بالدفاع عن المثل العليا في الحياة .

فمن هؤلاء جعفر ابن ابي طالب الملقب بالطيار وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم واخو علي ابن ابي طالب ، ففي غزوة مؤتة عهد رسول الله بالقيادة الى زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة على ان يتولاها اول الامر زيد فاذا قتل فعبد الله ، فلما التحم الجيشان قاتل زيد قتالا شديداً حتى وقع قتيلا فتقدم جعفر فاقتحم على فرس له شقراء فعقرت ثم تناول الراية وقاتل حتى قطعت يده اليمنى فامسكها بيده اليسرى . وقاتل حتى قطعت يسراه فلم يلقها حتى خر صريعاً وقد مزقت السيوف والرماح جسده واحصوا ما اصاب جسمه من جراحات فبلغت بضعا وسبعين جراحا ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح وكلها فيما اقبل من بدنه .

وكان بلال بن رباح احد هذه النماذج وهو من مولدي مكة ومن السابقين في الاسلام ، ولما اسلم كان المسلمون قلة فكان عددهم القليل يغرى بايذائهم ، وكانت قريش تغلي حقدا على كل من اسلم وترك دينهم فهى تمعن في تعذيبهم ولا سيما المستضعفين منهم كلما وجدت فرصة . فجعل ابو جهل يبطح بلالا على وجهه في الشمس ، ويضع الرحى عليه حتى يصهر ويقول له ، اكفر برب محمد

فيقول بلال . احد احد وظل هذا دأبه ودأب ابي جهل معه حتى اشتراه ابو بكر رضي الله عنه باشارة من رسول الله ، ويقول الرواة ان شراءه تم وهو مدفون بالحجارة يعذب تحتها .

لقد تحملوا كل ضروب الالام البدنية من تمزيق الاجسام في ساحات القتال ؛ الى التعذيب الوحشي الغليظ كما صبروا على الجوع .

فهذا ابو هريرة يقول « ان كنت لالصق بطني بالحصباء من الجوع » .

ويقول سعد بن ابي وقاص « ان كنا لنغزوا مع رسول الله ما لنا من طعام الا ورق الحلبة وهذا السمر .

وحدثنا سعد بن ابي وقاص ايضاً عن نفسه فقال : « كنت رجلا برا بأمي فلما اسلمت قالت ياسعد « ما هذا الدين الذي احدثت لتدعن دينك هذا اولا اكل ولا اشرب حتى اموت فتعير بي » فقال : « لا تفعلي ياامي فاني لا ادع ديني : قال « فمكثت يوما لا تأكل فاصبحت وقد جهدت فقلت والله لو كانت لك الف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء » فلما رأت ذلك اكلت وشربت ، وفي هذه الحادثة انزل الله اية : « وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » .

على هذه الصورة كانت مقاومتهم لالام الجسد وبنفس هذه القوة كانت مقاومتهم للعواطف والشهوات .

* * *

ولما فتح رسول الله خيبرا اتفق هو واليهود على ان يكون ارضها مناصفة بينها وارسل عبد الله ابن رواحه للقسم وتسلم نصيب المسلمين ، فلما مضى في القسم منصفا عادلا حاول اليهود اغرائه بالمال ليتساهل في القسم فيعطيهم اكبر من نصيبهم فجمعوا حليا كثيراً وقدموه له وطلبوا اليه ان يتساهل معهم فردهم قائلا « يامعشر يهود اما والله انكم لمن ابغض خلق الله الي ، وما ذلك بحاملي ان احيف عليكم . اما ما قدمتموه من الرشوة فانه سحت ونحن لا نأكله » فقال : اليهود « بهذا قامت السموات والارض » .

لقد كان اليهود يدركون ما للمال من قوة تضعف امامها القوى ، ولكنهم رأوا نفسا اقوى من المال لانها غذيت بمبادىء الاسلام فاصبحت صلبة لاتلينها المغريات ولاتخضعها الشهوات .

وكثير من اضرابهم الذين اقاموا دعائم الاسلام ونشروا رايته فوق الافاق كانوا اقل من اعدائهم عدة وعددا ولكنهم بقوة مقاومتهم وصبرهم على الشدائد انهارت امامهم الجيوش كما تنهار الكثبان امام السيول الجارفة ، ولما صار لهم دولة يجبى لها ثمرات كل شيء ، وتسلطوا على امم كثيرة ورأوا ما بها من صنوف البذخ والوان الترف لم يبهر عيونهم زخرفها ولا لاءمها فظلوا على بساطتهم الاولى يسيطرون على كل النوازع والشهوات ، قانعين بانهم يؤيدون رسالة الاسلام التي تدعو بنى الانسان الى ان يحاربوا الضعف والخور في نفوسهم . وان يهيمنوا على شهواتهم ويسيطروا على الاحداث مهما كانت قوية عاتية ، وشديدة جامحة .

* * *

وهنا يجد الانسان نفسه مضطراً ان يكبر هذه النفوس القوية وذلك الجلد الخارق الذي اشاعه الاسلام في اهله . فليس في الدنيا من يحارب الغريزة التي فطر الله الانسان عليها الا ذلك السلطان القوي القاهر الذي يبدل النفوس ويحيلها خلقا اخر يلوذ بالصبر ويعتصم بالحزم ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين .

* * *

وكان نساء العرب يشاركن ازواجهن في هذه الشجاعة وقوة العزيمة والصبر الكريم .

فقد حدثونا عن امرأة لها اربع ابناء هم اشطار كبدها . ونياط قلبها خرجوا الى القادسية فقالت لهم « يا بني انكم اسلمتم طائعين . وهاجرتم مختارين ، والله انكم لبنوا رجل واحد وامرأة واحدة ما عجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم واعلموا ان الدار الاخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فجدوا تظفروا بالغنم .

* * *

والكرامة في دار الخلد ـ فلما كشرت عن نابها تدافعوا اليها وتواقعوا عليها وكانوا عند ظن امهم بهم جاهدوا حتى قتلوا واحدا بعد واحد . ولما حمل اليها نعيهم قالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ذهبوا فداء ربهم ووطنهم .

والتاريخ مفعم بهذه الحوادث الغنية والمواقف المشهودة وهو اكبر شاهد على ان الدين الاسلامي دين الرجولة والقوه والشهامة . ومن الخطأ والخطأ المبين ان تقول الناس انه دين الانكسار والتصوف والعبادة ... وكفى نسارع فنقول ليس هذا هو الدين كما نفهمه . اذ العمل للدنيا والحث على السعي وارد بنص القرآن « وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » وقد امر الرسول بهذا في مواضع كثيرة وسلك مسلكه الخلفاء الراشدون . وفي مأثور كلام عمر رضي الله عنه : لايقعدن احدكم عن طلب الرزق فان السماء لاتمطر ذهبا ولافضة .

ويكفي ان اقول ان عمارة بن عقيل قال لعبد الله ابن ابي السمط عندما قال للمأمون .

اضحى امام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

قال له ياعبد الله هل زدت على ان جملته عجوزا في محرابها . ثم قال له فاذاً من الذي يقوم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها ؟ وهو المطوق بها . اذاً فما أنت قائل، قال ما قاله جدي جرير في عبد العزيز ابن الوليد .

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

* * *

شناعة الغضب

حذر الاسلام من الغضب لشره وشناعته .

والغضب هو اهتياج الطبع ، واحتدام الغيظ ، لسبب يستفز صاحبه ، فيكون منه ما يكون .

والغضب مع شرف بواعثه احيانا قد تكون مغبته من اسوأ المغاب ، واشوه

النتائج ، ويقع ذلك للاشخاص الذين تضعف نفوسهم عن احتمال المكاره ، ولا يستطيعون مجاهدتها عند الصدمات ، ولا يملكون مغالبة نوازع القلوب ، ودواعي الهوى ، فلا يعركون من اديمها ولا يملكون من شكيمها .

والغضب اذا اشتد يكون شعبة من الجنون ، لانه يحسن القبيح ، ويحل مسكة المتماسك ، ولهذا رأينا رسول الله يحذر الرجل الذي جاء اليه يستوصيه ويكرر له التحذير كلما سأله الوصية بقوله : « لاتغضب » تنبيها على عظامة نفعها وجلالة قدرها

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل : « الا ان الغضب جمرة توقد في جنب ابن آدم ، الم تروا الى حمرة عينيه ، وانتفاخ اوداجه ، الا ان خير الرجال من كان سريع الغضب ، بطيء الرضا » فكأنه عليه السلام جعل اهتياج الطبع ، واحتدام الغيظ بمنزلة الجمرة التي تتوقد في جوف الانسان ، فيظهر اثر اتقادها في احمرار عينيه ، واختناق وريديه ، فلا تزال كذلك حتى يطفأها برد الرضا ، وعواطف الحلم .

وكان ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي من احسن الناس خلقا ، واكرمهم احتمالا لما يكون من عبث الصبيان ، فاذا لبث ثيابه تغير لونه . واربد وجهه ، واحمرت عيناه فيخرج الى الناس فيكون منه ما يكون وكان يقول لابنه وولي عهده المهدي وكان عنده اثيراً حفيظا : « اذا رأيتني البس ثيابي واخرج للناس فاياك ان تدنو مني » .

ولست اعجب لشيء عجبي لابي جعفر فماذا كان يغضبه حين يخرج الى بيت الحكم للنظر في مسائل الناس ، والفصل في اقضيتهم ، وقد كان يملك من امرهم ما يملك ؟ وماذا كان يصيب اهل الظلامات وذوي الحقوق منه . وهم احق بالمهلة ، واجدر بالنظر في شؤونهم بنفس هادئة مطمئنة .

ويخيل الينا ان هذه حالة عصبية تكاد تكون غالبة لبعض الحكام والولاة ومن يتولون المناصب الكبيرة كالقواد والقضاة .

ولنا اصدقاء من ذوي المناصب السامية في الدولة السورية نستروح منهم في سمرهم وفي مجالسهم الخاصة ظرفاً وخفة روح ، ورقة دعابة ؛ فاذا كانوا في كراسي

الحكم تبدلت سحنتهم ، وتغيرت لهجتهم ، ونرى لهم عنجهية وشذوذاً .

ونعود فنقول : ان الرجل جميع الفؤاد ، ذا الخلق المتين ، والارادة القوية . لا تتغلب عليه مسكة العقل ومشاعر النفس ، وفي المأثور : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

وقد ضرب لنا رسول الله المثل العليا في المقدرة على ضبط النفس عند الغضب ، واحتمال ما يضيق به صدر الحليم . قال له رجل مرة : اعدل فان هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ؛ فلم يزد على ان قال له : «ويحك فمن يعدل اذا لم اعدل ؟ خبت وخسرت ان لم اعدل ، ونهى من اراد من اصحابه قتله .

وعن انس قال : كنت مع رسول الله وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه اعرابي جبذة شديدة حتى اثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال : يا محمد ، احمل لي بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فانك لا تحمل لي من مالك ، ولا من مال ابيك ، فسكت النبي ، ثم قال : المال مال الله وانا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا اعرابي ما فعلت بي ، قال : لا . قال : لم ؟ قال : لانك لا تكافي بالسيئة السيئة . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم . ثم امر ان يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

وجاء زيد ابن سعنة قبل اسلامه يتقاضاه ديناً عليه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، واخذ بمجامع ثيابه ، واغلظ له . ثم قال : انكم يا بني عبد المطلب مطل . فانتهره عمر وشاد له في القول والنبي يتبسم ، فقال رسول الله : انا وهو كنا الى غير هذا احوج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي : ثم قال : لقد بقي من اجله ثلاث ، وامر عمر ان يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعاً لما روعه ، فكان سبب اسلامه .

وما انتقم عليه الصلاة والسلام لنفسه الا ان تنتهك حرمة الله تعالى ، فينتقم لله بها .

والحديث عن حلمه وعفوه عند المقدرة اكثر من ان نأتي عليه ، وحسبك انه لم يؤاخذ عبد الله بن ابي واشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولا وفعلا ،

بل قال لمن أشار بقتل بعضهم — كما سبق — : لا ، لئلا يتحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه .

* * *

ولا تؤثم الرجل الغضبة في الحق . فان التلوم منه والتمكث جبانة في النفس، وضعف في الايمان والعقيدة ، وخور في الصدق والعزيمة . ان الغضب في الحق مروءة سامية . وشرف عال وشمم محمود.

ان الذين يجودون بالحقوق الواجبة ، ويساومون في العزة والكرامة والشرف اولئك هم خسالة خلق الله . لانلتقى بذمهم الشفتان ، استصغاراً لشأنهم ، واحتقاراً لذكرهم .

واننا اذا حمدنا للغاضبين في الحق غضبتهم ، فاننا نعيب السرف فيه ، والغلو في القصد له بالثرثرة والتفيهق ، وان كثيراً من المتزمتين يحجرون واسعا ويضيقون فسيحاً وينالون من انفسهم ومن دينهم ومن مروءتهم اكثر مما ينالون للحق بالدفاع عنه والغضب له .

فضيلة الرضا

وحث الاسلام على الرضا لانه مطلب كل انسان وغايته في الحياة ، واوله رضاء المرء عن نفسه وحاله واستثماره الزهد والتعفف عما في يد الناس ، فلا يمديده الى ما متع الله به غيره . لايندم على مافات . ولايفرح بما هو آت .

هذا النوع من الرضا هو القناعة ؟ وقد انعقد الاجماع على ان الرضا بهذا المعنى هو طريق السعادة الذي لايفضله طريق في هذه الحياة .

ولكن الناس رغم هذا الاجماع لايبتغون هذا النوع من الرضا ، ولا يطلبونه ولا يقفون دون بابه لحظة واحدة ، بل يتجاوزون هذا الباب الى ابواب اخرى ؟؟ والظاهر ان هذه الابواب لاحصر لها ! ! فليس للطريق اخر ! ! وليس له غاية !! ولكنهم فيه منطلقون .

يتجاوز الناس في الرضا حد الزهد والقناعة بما قسم الله لهم الى مجاراة انفسهم

في تكالبها ، وتهافتها على بدرات الحياة ومنحها ، يلتمسونها في رضاء الغير نفعاً ومجالا واسعا للمتاع واللذة ! ! ! .

فرغ الناس من الرضا عن انفسهم واحوالهم بعد ان علموا انه امر غير ممكن فقد شاهدوا ان انفسهم لاتقنع بالقناعه ، لانها رضاء وهمي لايعدو دائرة الخيال ! ! ووهم يسكن النفوس وهي فارغة ، ويملأ البطون وهي جائعة ؟ ؟ ويغمض العيون وهي متطلعة ؟ ؟ كأن للانسان كل شيء في الحياة ، وهو لايملك شيئاً .

تسرب الشك في النفوس الى القناعة هل هي كنز لايفنى ؟ ؟ وهي ليست كذلك في الواقع ونفس الامر . ما دام الناس قد هجروا عالم الروح ، الى عالم الحس والمادة ! : وعالم الحس والمادة عالم منظور ، لايملاء العين منه الا التراب ! ! فهي تعالج فيه غاية الطريق ، والظاهر ان ليس للطريق غاية ! ! ولكنه مع ذلك يعدو ، لانه يجد الناس يعدون ! ! ويهطع لانهم يهطعون : فخرج الانسان بذلك من خيال القناعة ، الى وهم الطلب وسرابه ! ! نوع جديد من الوهم والخيال ؛ ما دام الانسان لايجد للجري غاية ! ! ولايحس للطريق نهاية ! ! .

خفة ونزق ! كالذي يبدو في الغلام ان رأى غلمة يتكأكأون ! وان قيل له عرس في بيت فلان ، والناس غلمان . درجوا على الطلب . واعتادوا التسول ، وقد وجدوا انهم ان ظلوا متنافسين متنافرين متزاحمين على باب واحد فلن يجنوا صيداً لان جهودهم تتهاتر فأقبل بعضهم على بعض كل يتملق اخاه ويداهنه ويسترضيه ليستخلص منه لنفسه ثمن هذا الرضا .

فالعاشق يطلب رضاء معشوقه ليقبض منه الثمن !!

والعبد يطلب رضاء مولاه لينال عطفه !!

والمرؤوس يطلب رضاء رئيسه ليحيطه بعنايته !!

والضعيف يطلب رضاء القوي ليشد ازره !!

والصديق يطلب رضاء صديقه لانه يقبض منه المثل بالمثل .

* * *

تاجر الناس بالرضي فاتخذوه وسيلة لبلوغ المآرب والغايات !! تجارة رابحة ! !

وسوق قائم !! ينفذ الناس فيه الى القلوب يسترضونها بحق وبغير حق لتمطر عليهم الرحمة ولتنزل عليهم من الخيرات ما يبتغون .

والغضب !! الغضب الثائر !! الغضب الطائش !! فجروه واتخذوا من لبابه الرضا واستعصى عليهم نيله !! فقد استخدموا الغضب . وسخروا قوته العمياء كوسيلة فعالة لبلوغ ما يفوتهم من الرضا ، يستغضبون الناس بعضهم من بعض بالدسائس والفتن ليحوزوا رضاء الجميع ، ويصرفون بعض الوجوه عن بعض ليستخلصوا كل الوجوه .

ربح مضاعف وربا فاحش يبتزونها بالخسة والدناءة، وقد تكون عاقبتها الدمار ولكن للربح نشوة تجر احيانا الا الادمان : ! يساعدها على ذلك ضعف الناس ، والانسان ضعيف واهن ، واكثر ما يوهنه الرضاء والغضب وهما اظهر مواطن الضعف فيه ، واذا رضي اوغضب فسد عليه بصره فرأى في السيئات محاسن ، ورأى في المحاسن سيئات ، وانبسطت يده او انقبضت ، فجاد بعد امساك وامسك بعد جود ، واختل ميزان العدل فيه . فاصبح لايميز الحق من الباطل ولا الباطل من الحق ولا يفرق الرشد من الغي ،ولا يعرف الهدى من الضلال ! ! .

درجات من الرضا والغضب تكحل عيون الناس ، زجاجات ذات الوان تغطي ابصارهم ؟ ! تصبغ الدنيا باصباغ مختلفة ؟ ؟ فالدنيا على كل لون ! ! وهي ! ! هي الدنيا لم يتغير لونها ؛ ! وانما تغيرت النفوس وتقلبت القلوب .

واذا كان الانسان لا يعدو في حياته ان يكون غاضباً او راضياً فهو محكوم عليه في كل حال ان يعيش من غضبه ومن رضاه في خدعة ؛ وان يعيش في ضلال.

والناس طبقات بعضها فوق بعض ؛ تخضع طبقة لاختها وتعلم انها رهينة برضاها وغضبها ، ولذلك قد تحايل الناس على استخلاص وجه الرضا ، وهو وجه سميع ، ونفروا من وجه الغضب وهو كريه قبيح .

تصور وجه الرضا في ابتسامة الصباح وطلعة البدر الوضاح وفي صفوة السماء، ومرآة الماء ؛ وفي هناءة العيش وهدأة البال ، وفي راحة الفكر واستراحة الضمير.

وتصور وجه الغضب في اكفهرار السماء ، وفي الزوابع والانواء ، وفي سفى

الرمال وهزات الزلزال ، وفي السفن المحطمة والمساكن المهدمة ؛ وفي السب والشتم والضرب واللكم.

ونحن اذا تصورنا ما يصيبنا من غضب الناس ورضاهم ، فانما نتصور نتفة يسيرة من غضب الظروف ورضاها ، فان للظروف غضباً ما اظلمه وما اقساه ، ولها رضى ما أهنأه وما احلاه ، وما حسن الحظ وما سوء الطالع الا المظهر الحسي لغضب الظروف ورضاها ، فان غضبت فالعالم كله عابس غاضب ؛ وان رضيت فالدنيا باجمعها رضا وابتهاج ، ونور يأخذ بالابصار .

* * *

والغضب كالرضا كل شيء في الوجود خاضع لقانون التطور والتحويل . وقد حصل . فقد تقدم العالم وتقدم معه الغضب والرضا . فاصبحنا اليوم نرى العالم برمته يموج ويتحرك بتيارات من الرضا والغضب ، ولكل امة فيه نصيبها ! ! تيارات من السكون والحركة ، والثورة والنظام ، يلعب بالعالم اجمع ، وتقرر مصيره بعيداً عن مطامع الساسة وأهواء الحكام . واصبح الحكام اليوم تلقاء الحياة العامة كالافراد في حياتهم الخاصة ، كل يطلب وجه الرضا ويفر ويفزع من الغضب ، واصبح — يحس ويشعر بانه مقيد . وان حياته رهينة بالرضا يستمده من زملائه ومواطنيه . واصبح مصير الامم والشعوب خاضعاً كمصير الافراد للغضب وللرضا ، فغضبة واحدة اصبحت اليوم تقلب الحكومات ، وتحطم النظم ، وتضع الحكام على ابواب كارثة ، وهذا ما اصبح الساسة المفكرون يحسبون حسابه . ويرصدون جوّه ، يستمدون منه عزهم ويلاقون فيه ذلهم .

ظاهرة حديثة العهد . ما كان لها اثر في الزمان الغابر حينما كان الناس مشتتين قطعاناً يأكلون ويشربون .

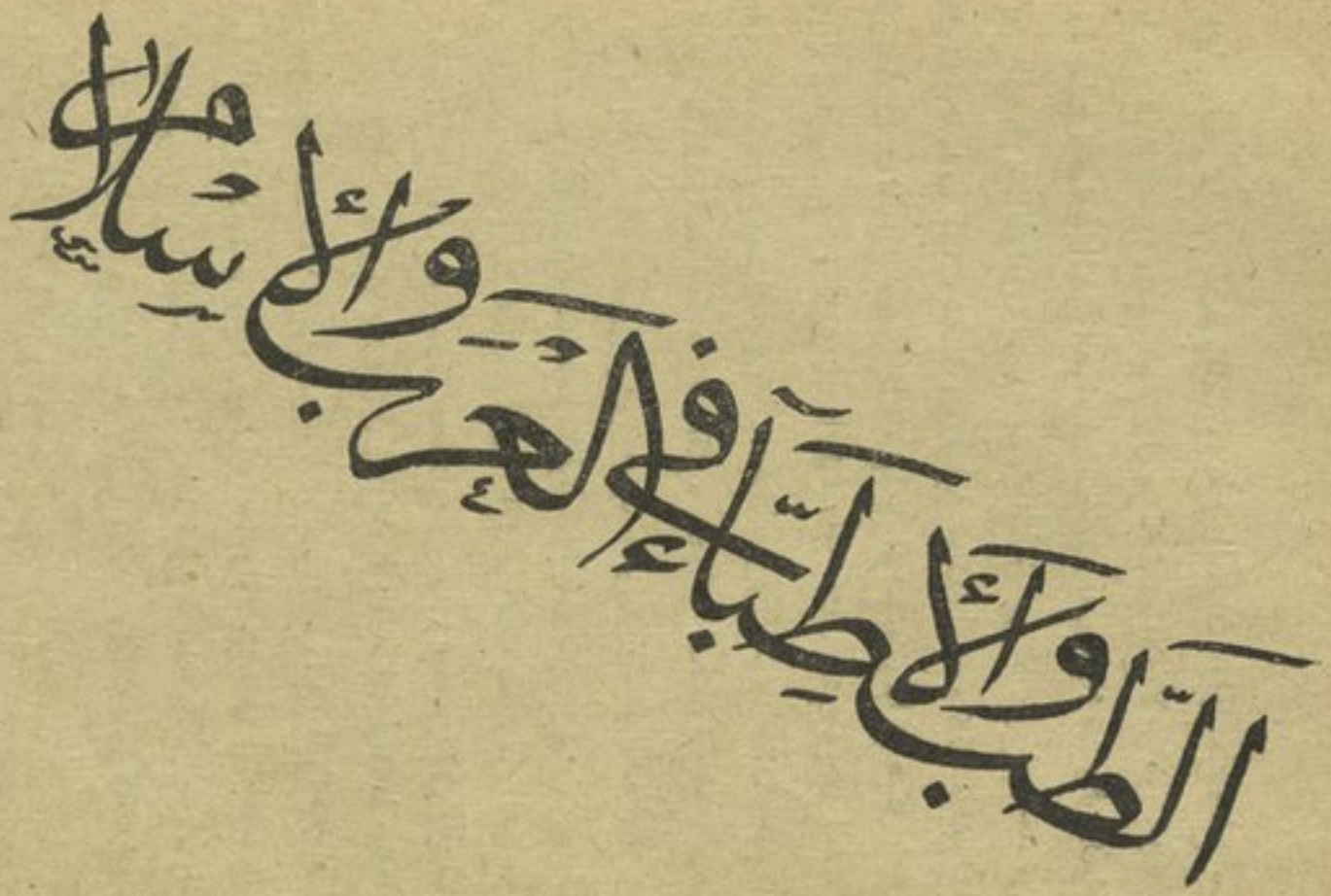
الطب والأطباء في العرب وأعمالهم

الطب . هو علم من العلوم الضرورية في العمران ، واول من وضع اساسه البابيليون في اول عهد تمدنهم ، وهم اول من بحث فى علاج الامراض . وكانت لهم طريقة عملية ناجمة في التماس الدواء لما استعصى عليهم دواؤه . وهي ان يخرجوا المريض الى طريق القوافل والاذقة ومعابر الطرق حتى اذا مر بهم احد ممن اصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفاءه وكيفية توصله اليه ، وكانوا يكتبون اسماء المقاقير او الوسائل التي يحصل الشفاء بها على الواح يعلقونها في هيكل شيدوه على اسم اله الطب عندهم . فكانت تلك الالواح اول كتاب كتب في علم الطب ؛ وعن البابليين اخذ سائر الامم المعاصرة لهم ، اما المصريون فربما اخذوا عنهم ايضاً الا ان الطب كان قديماً جداً عندهم وقد اتقنوه والفوا به الكتب . وهو اول علم الفوا به على ما يظن . وكان لكل مرض طبيب خاص لا يتعاطى معالجة غيره . وهم الذين استعملوا الفصد واستخدموا المقيئات والضمادات واقدم من الف فى الطب عندهم الملك « تتا » اخلو الملك « فنّا » اول من ملك مصر من الفراعنة ، فقد الف كتابا في التشريح جددت كتابته في عهد رعمسيس الثاني بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد ويقال بالاجمال ان ليس في العالم القديم امة لم تتعاط صناعة الطب كثيراً اوقليلا . ذلك لانها من ضروريات العمران . ولكن اليونانيين هم الذين حازوا الشهرة فيه لانهم بوبوه ورتبوا ابوابه . واول من فعل ذلك منهم «ابقراط» ابو الطب ظهر في القرن الخامس ق م اما قبل ابقراط فكان اليونان يتناقلون هذه الصناعة تلقينا يتوارثها الابن عن الاب . ولذلك فانها كانت محصورة في بعض عائلاتهم دون سواها .

وظهر بعد ابقراط اطباء عديدون اشهرهم جالينوس وفيليمون وروفس واندرو ماخوس وديسفوريدس وغيرهم . وعنهم اخذ العرب صناعة الطب وخصوصا عن ابقراط وجالينوس .

وجملة القول ان صناعة الطب زهت في عهد اليونان ثم الرومان . وعنهم

اخذها من قام بعدهم من الدول الحديثة على ان كثيراً من الامم كالهنود والسريان والفرس اتصلت اليهم تلك الصناعة من قدماء البابليين رأساً . وكيف كانت الحال فان العرب قبل الاسلام كانوا يعرفون شيئاً عن العلاج والوقاية . اما عملا بالاستقراء واما اقتباساً ممن كانوا يخالطونهم من السريان والفرس والهنود .

الطب في العصر الجاهلي

وللعرب في جاهليتهم علاجات وعقاقير قد اشتهر امرها ؛ ولا يزال بعضها او كلها جارياً في بلاد العرب وغيرها الى اليوم ، وذلك مثل الكي والحجامة وما جرى مجراها وقد امتاز بعضهم في معاطاة هذه المهنة من قديم ازمانهم فعرفوا بالاطباء وما برحوا يتحدثون بهم ويتمثلون باقوالهم . واقدم من اشتهر في الجاهلية من الاطباء لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم وفي اصله وزمن وجوده اختلاف ، وقد ذكر القرآن لقمان الحكيم : فقال « ولقد اتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله » ومنها التطبيب اوهي الطب قبل سائر ضروب الحكمة فجعل الاسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من اسبغها الله عليه . واتخذها وظيفة معترفاً بها ولو لم تكن من اعمال المتدينين .

ويلي لقمان رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون به المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك . اطب من حذيم . وهو اشهر اطباء العرب عندهم . وفيه يقول اوس بن حجر .

فهل لكم فيها الي فانني بصير بما اعى النطاسي حذيماً

ومن احدث اطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي في السنة الثالثة عشر للهجرة وهو من بني ثقيف من الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جنديسابور وغيرها . وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده واقام في الطائف ونال شهرة عظمى ، وقد ادرك الاسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من كان به علة ان يأتيه فيستوصفه . وكان الحرث يقول « من سره البقاء ولا بقاء فليبا كر الغذاء وليخف الرداء وليقل من غشيان النساء » ويدبخفة

الرداء ان لايكون عليه دين ، وقيل ان الحرث مات في اول الاسلام ولم يصح اسلامه

ومنهم ابن ابي رومية التميمي وكان معاصراً للحرث . ونضر بن الحرث بن علقمة وقد شهد يوم بدر واخذ فيه اسيراً .

ومن اقوالهم في العلاج « كل داء حسم بالكي اخر الامر وآخر الطب الكي» وهو قول لقمان .

الاحاديث النبوية في الطب

ومن الاحاديث النبوية الواردة في الطب ومتعلقاته قوله عليه الصلاة والسلام « ما انزل الله داء الا انزل له شفاء » وقوله « الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وانهى امتي عن الكي » .

وقوله ان هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء الا من السام (١) .

وقوله : « ان التلبينة ـ ٢ ـ تحجم فوأد المريض وتذهب ببعض الحزن .

وقوله : « احتجم واعط الحجام اجرة واستعط » .

وقوله : « عليكم بهذا العود الهندي . فان فيه سبعة اشفية يستعط به من العذرة ويلد به من ذات الجنب .

وقوله : « ان مثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري .

وقوله: « لاتعذبوا صبيانكم . بالغمز من العذرة وعليكم بالقسط » .

وقوله :« لاعدوى ولاطيرة ولا هامة ولاصفر. وفر من المجذوم كما تفر من الاسد»

وقوله : « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » .

وقوله : « الحمى من فيح جهنم فاطفؤها بالماء » :

وقوله : « اذا سمعتم بالطاعون في ارض فلا تدخلوها واذا وقع بارض واتم بها فلا تخرجوا منها .

وقوله : « خير ما تداويتم به السعوط والدواء والحجامة والمشي ، وفي بعض الروايات والعلق » .

---

(١) ـ السام الموت ـ ٢ ـ التلبينة مزيج من النخالة واللبن والعسل .

وقوله : « اذا بلغ الرجل من امتي خمسين سنة فليكل الحجامه .

وقوله : « خير كحلكم الاثمد يجلو البصر وينبت الشعر .

وقوله : « العجوة من الجنة وفيها شفاء . وقال ايضاً من تصبح بسبع تمرات لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر .

وقوله : « عليكم بزيت الزيتون فانه من شجرة مباركة وانه ينفع من الباسور

وغير ذلك من الاحاديث النبوية المملوءة بالنصائح الطبية كقوله : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء » .

منزلة الطب في الاسلام

نشأ الاسلام والناس يرفعون من منزلة الطب ويتحدثون بما ورد منه على لسان النبي وما هو مأثور من اقوال الجاهلية ومن النصائح الطبية فعنوا بالبحث فيه والعمل به منذ اول تمصرهم . فلما كانت دولة بني امية امر الوليد بن عبد الملك بناء المارستان ودور المرضى . فكان ذلك اول ما بني في الاسلام . وجعل المارستان الاطباء ، واجرى عليهم النفقات وامر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق .

وكان الاطباء في ذلك العهد يطببون بالطب الخشن يعني طب الجاهلية وكان الطب محصورا اذ ذاك في النصاري واليهود . ولم يكن الاسلام قد رغبوا فيه او غيره من العلوم لاشتغالهم عنه بالفتوحات والحروب . فلما بنى الوليد المارستان ودور المرضى واحتاج الى الاطباء تمسك بالحديث القائل « استعينوا على كل صنعة بصالح اهلها » فأخذ يبحث عن أمهر الاطباء في زمانه فقيل له ان جميعهم من النصاري واليهود فتردد في امر استخدامهم لئلا يكون الشرع قد نهى عنه . فقيل له ان الحرث بن كلده كان نصرانيا وقد سكن المدينة فأرسل اليه سعد بن ابي وقاص وهو احد الصحابة يستوصفه في مرض نزل به فدل ذلك عندهم على ان استخدام غير المسلمين في مصالحهم جائز . فاستقدم الوليد ومن جاء بعده من الخلفاء كثيراً من الاطباء النصارى واليهود . وكانوا يتولون في الغالب رئاسة الطب وبعضهم

تعلموا اللغة العربية ليشتغلوا بالترجمه في دور الخلفاء تقربا من دولة العرب .

مدارس الطب

وانشأ العرب في صدر الاسلام مدارس شهيرة للطب والصيدلة في بغداد والاندلس وفضلهم بالطب على اوروبا لاينكر . فان مدرسة ساترنو الشهيرة في اوربا لم تقم لولاهم ، وهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين . وقد وصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر . واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون . ووصفوا الماء البارد لقطع نزف الدم . وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي . ووصفوا ابرة الماء الازرق في العين ، واشاروا الى تفتيت الحصاة وطريقة الشق تحت الجلد . واستعملوا البنج وهو تخدير المريض لاجراء العمليات الجراحية فيه . وكانوا يستعملون لذلك « الشيلم » (١)

وقالوا ان مركز التصور في مقدم الدماغ . والذكر في مؤخره والفكر في البطين الايسر .

اما التشريح فقلما كان له نصيب منهم لان الدين الاسلامي يحظر تشريح جثث البشر .

اما الجراحة فبرعوا بها كثيراً حتى ان نساء الاندلس كن يعملن العمليات الجراحية في غيرهن من الاناث . على انهم لم يقفوا عند هذه الحد من التوسع فتوغلوا في البحث عن حجر الفلاسفة وهو الكيمياء الكاذبة وما جرى مجرى ذلك مما لا طائل تحته كما فعل اليونان قبلهم .

شغف العرب بالطب

ومن دلائل شغف العرب بالطب انهم نظموا فيه القصائد والاراجيز فضلا عن الكتب والرسائل ، ومن اشعارهم المتداولة في بعض العلاجات قول بعضهم :

(١) الشيلم هو الزيوان الذي يخالط الحنطة احيانا .

الفائحات بشبرج ملتوت فيه شفاء للرياح مميت
يغلي اراك حلبة في ماءها يسيقه مصطبحاً وحين يبيت

وقول الآخر :

وسمتربر نافع كل بلغم وذو المرة الصفراء بالراز بانق
وذو المرة السوداء ذاك علاجه تعاهد فصد العرق من كف حاذق
وذو الدم فليكثر لذاك حجامه فما غيرها شيء له بموافق

وقول الآخر :

لا تكن عند اكل سخن وبهر ودخول الحمام تشرب ماء
فاذا ما اجتنبت ذلك منه لم تخف ما حييت في الجوف داء

وقول الآخر :

لاتشرب الماء بعد النوم من ظمأ ولا تبت ابداً في غير منقبض
فجوف من بات من ماء ومن ثقل ومن رياح دعا كل الى مرض

وقول الآخر :

ما كان في الرأس اخرجه بغرغرة فالقيء يخرج ما في الصدر من عفن
وكل ما كان في صلب فذلك لا يسيل الا بأخلاط من الحقن

وقول الآخر :

على الريق في البرد احس ماء مسخناً وفي الصيف ماء بارداً حين تصبح
وذلك فيم قيل فيه مصحة وذاك على ادمانه الجسم يصلح

وقول الآخر .

ان رأس الطب ان تدلك بالزيبق دلكاً
باطن الرجلين عند النوم ينفي السقم عنكا

وقول الآخر :

ان السواك ليستحب لسنة ولانه مما يطيب به الفم
لم تخش من حفر اذا ادمنته وبه يسيل من اللهاة البلغم

اطباء الاسلام

وهاك اسماء اشهر اطباء الاسلام مرتبة حسب سني وفاتهم :

« ١ » يزيد بن معاوية الاموي ويكنى ابا خالد توفى سنة ٨٥ هـ وكان اعلم قريش وهو اقدم من ظهر من العرب بعلم الطب والكيمياء . اخذ الصنعة عن موريانوس الراهب والف ثلاث رسائل تتضمن احداها حكايته مع موريانوس. وقد نظم في ذلك اشعاراً كثيرة .

« ٢ » احمد بن ابراهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك الاموي توفي اوائل القرن الثاني للهجرة وله في الطب كتاب استخلصه من كتب ابقراط وسماه اصول الطب وله رسالة في النبات المستعمل في الطب .

« ٣ » الشيخ ابو بكر بن محمد زكريا الرازي توفى سنة ٣٢٠ هـ وكان ماهراً في الطب والمنطق والهندسة والموسيقى. وكان يضرب بالعود في صغره. ثم توغل في العلوم الطبيعية وصار رئيس الاطباء في بيت الشفاء ببغداد بعد ان دير مارستان الري . اخذ الطب عن الحكيم ابي الحسن بن زين الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة .

« ٤ » ابن سينا وهو الشيخ الرئيس الذي يغني اسمه عن تعريفه ؛ وقد توفى سنة ٤٢٧ هـ .

« ٥ » ابو القاسم الزهراوي طبيب الاندلس ولد في الزهراء قرب قرطبة في القرن الخامس للهجرة والف في الطب تآليف مفيدة .

« ٦ » ابو علي يحيى بن جزلة الطبيب صاحب كتاب المنهاج الذي رتبه على الحروف وجمع فيه اسماء الحشائش والعقاقير والادوية . وغير ذلك من الكتب. وقد توفى سنة ٤٩٣ هـ .

« ٧ » ابن رشيد الفيلسوف الطبيب الاندلسي الشهير وقد توفى سنة ٥٩٥ هـ.

« ٨ » الامام فخر الدين الرازي التميمي البكري الطبرستاني الذي فاق اهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الاوائل وله التصانيف المعتبرة في فنون عديدة

منها في الطب شرح الكليات للقانون وشرح الاشارات لابن سينا والملخص وشرح عيون الحكمة وغيرها توفى سنة ٦٠٦ هـ .

طب الكهانة والخرافة

ويبدو لنا ان اشتغال العرب الطويل برعي الماشية قد باعد بينهم وبين طب الكهانة والخرافة . وقارب بينهم وبين طب التجارب العملية لانهم راقبوا الحمل والولادة والنمو وما يتصل به من الاطوار الحيوية وشرحوا الاجسام فعرفوا مواقع الاعضاء فيها . وعرفوا عمل هذه الاعضاء في بنية الحيوان نحواً من المعرفة السليمة فاقتربوا من الاصابة السليمة في تعليل المرض والشفاء .

وجاء الاسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعي على مصراعيه لانه ابطل المداواة بالسحر والشعوذة ولم يحدث في مكان الكهان طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين ، بل سمح النبي عليه السلام باستشارة الاطباء ولو من غير المسلمين كما تقدم .

ولهذا كثر اشتغال المسيحيين بالطب في ظل الدولة الاسلامية ونبغ الاطباء بين نصارى المشرق في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب لان المرض عقاب من الله لاينبغي للانسان ان يصرفه عمن استحقه وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة الى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد الايمان عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد . هو ابان الحضارة الاندلسية .

التداوي في الاسلام

ولما كان الاسلام دين اجتماعي . كفلت تعاليمه للمجتمع السعادة والهناءة . وكما عني بتهذيب الانسان وتقويم خلقه ومعاملته . عني بسلامته وحفظ صحته ليستطيع ان يؤدي رسالته في هذه الحياة كعضو في هذا المجتمع يحمل عبئاً من اعبائه . ويضع لبنة في بنائه . ولا يمكن الانسان ان ينهض بهذا العبء الا اذا كان صحيح الجسم سليما من العلل والاسقام .

من اجل ذلك نهى القرآن الكريم عن اي عمل يؤدي الى التهلكة . فقال « ولا تلقوا بايديكم الى التهلكه واحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وحث الرسول الكريم على التداوي اخذاً باسباب الشفاء فان الله لم ينزل داء الا انزل له شفاء .

هذا مبدأ من مبادئ الاسلام جهله او تجاهله بعض الناس فزعموا ان التوكل على الله يقتضي الانسان ان يرضى بجميع ما نزل به من البلاء والامراض. وهو زعم باطل . فان هذا تواكل لا توكل بل هو اهمال يؤدي الى التهلكة .

فالتداوي واجب امر به الدين حرصاً على سلامة الجسد بل حرصاً على الحياة . ولقد حكي ان موسى عليه السلام مرض مرة فبدا له الا يتداوى . فاوحى الله اليه . وعزتي لا ابرأنك حتى تتداوى . من اودع العقاقير الشفاء غيري .

ولقد صرح الحديث بان الله خلق لكل داء دواء فهو لم يخصص مرضاً دون مرض ولا علة دون علة فالبرء من الداء مكفول باذن الله اذا سلك الانسان السبيل الصحيح للعلاج ، وفي هذا تقوية لامال المرض على اختلاف امراضهم وعللهم واغراء لهم بسلوك طريق التداوي رجاء الشفاء وهو علاج روحي يعين على استرداد العافية واستكمال الصحة . وجدير بالمرض ان يملؤا قلوبهم بهذا الامل . وان يستيقنوا هذا الرجاء .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مرض تداوي بما كان معروفا عند العرب يومئذ من عقاقير العلاج .

* * *

وكما اهتم الاسلام بالتداوي من الامراض اهتم ايضاً باسباب الوقايه منها فان الوقاية خير من العلاج .

ولو تدبرنا ما شرعه الاسلام من وضوء وغسل وما حث عليه من نظافة الملبس والاكل من الطيبات وما رغب فيه من غسل اليدين قبل الطعام وغسلها مع الفم بعده ادركنا ما للنظافة في نظر الدين من مقام . ولا شك انها وسيلة من وسائل الوقاية من الامراض والاسقام .

هـذه بعض تعـاليم الاسلام التي تتصل بسلامة الانسان من الادواء . وهي تتفق مع التعاليم الصحية التي يحث الاطباء على الاخذ بها للوقاية من الامراض .

سر الطب وواجب الاطباء

اما سر الطب فمعناه ان يكتم الطبيب كتمانا تاما كل ما يعرفه عن مريض يقوم على العناية به ، وهذا مبدأ قديم مفروض على كل طبيب ويرجع الى عهد (ابقراط) وعلى هذا رأى المشرعون في كل زمن ان الطب قائم على الرحمة والكرم والامانة .

وقـد اقترحت احـدى الدوائر البلدية ان يلغى سر الطبيب حيال كل مريض يعـالج على نفقة صندوق اعـانة او شركة تأمين اجتماعية ويبـدو مع الاسف انهم يحاولون من نواحي مختلفة توسيع الثغرات التى احدثتها النظم التشريعيه في هـذا المبدأ القديم ـ الطب ـ ويـذهب بعضهم دون خشية الى وجوب الغـائه تماما وهم يرمون بذلك الى ان السلطات العمومية ترغب في توفير السير للوقاية من الامراض اذا كانت معدية ويذهب البعض الاخر الى وجوب تطبيق قوانين اجتماعية .

ويبقى علينا ان نعرف الان الغاية الاساسية من الطب وهي مصلحة المريض .

ان التكتم التام عما يعرفه الطبيب في مريضه ليس امتيازاً لمهنته بل هو ضرورة يقضي بهـا الفن ، على ان سر المهنة لا يبيح لطبيب ان يخفي الخطـأ الذي يقع فيه اذ مفروض عليه ان يعنى جد العناية بمريضه ويحرص على حياته فسر الطب لا يهم كثيراً في حالة مرض بسيط ولكنه يـكون ضـارا في حالات اخرى ومع هـذا فواجب عليـه التكتم ما دامت هنـاك مصلحة شخصية وما دام من وراء الاباحة ضرر للمريض .

* * *

ففي حالة مرض بالسـل او الزهري او في حالة اجهاض ، اذا لم يكن المريض مطمئناً الى سر طبيبه واذا كان يخشى ما يصيبه وسط اسرته او بين الجمهور مثل فقد وظيفة او ضرر اخر ادبيا كان اوماديا فان هذا المريض او من هو على شاكلته يعترفون اعترافا ناقصا بحالتهم المرضية ويكتمون بعض التفاصيل التي تساعده على

تشخيص الداء بل قد يكون ما هو انكى من ذلك وهو انهم يعمدون الى علاج انفسهم بانفسهم فيزيدون علتهم بل قد ينصرفون الى جماعة الدجالين او يأخذون باراء اصدقاء لهم يزعمون انهم ملمون باساليب العلاج وبهذه الطريقة يكون الضرر المحقق الذى يلحق بالصحة العمومية وتكون العدوى من المريض ذات خطر وقتاً طويلا .

فاذا لم يكن سر للمهنة فان بعض المرضى لايشفون من امراضهم . او تكون العناية بهم سيئة او تجيء متأخرة اذ بدون سر لن تكون ثقة وبدون ثقة لن يكون طب .

ويجمل بنا ان نقول ان سر الطب ان هو الا تشجيع للمريض وميسر للطبيب سبيل التشخيص ، فهو والحالة هذه واجب مفروض على الاول وحق واجب على الثاني لايجوز ان يكتمه .

واذن فمن حق الطبيب ان يخفي على المريض حقيقة مرضه وان يكتم عنه تشخيص علته صونا للحالة الادبية لمريضه الذي يمكن ان يعد الاباحة له بحقيقة مرضه بمثابة حكم صادر عليه بالاعدام، والمريض نفسه لايستطيع ان يستخلص من طبيب سر مهنته .

فمن ذا الذي لايرى في هذه الحال . ان حق المريض في ان يقف من طبيبه على سر مهنته يعدل الى العمل على الغاء هذا السر ما دامت السلطات الاداريه والقضائية هي في حاجة الى الاباحة من الطبيب تكره المريض على ان يجعل طبيبه في حل من لزوم الصمت .

ان الطبيب ليس كاتب حسابات ولا جنديا . اذن فيجب احترام سر مهنته كما يحترم سر مهنته المحامي او الكاهن الذي يعترف له ؛ والطبيب لايعد في نظره احدا من الابرياء اوالمتهمين وانما اتصاله بمريضه انما هو سر بينهما لايجب ان يكدره عامل ثالث .

وليس سر الطب هو عند ظن الناس به وما يزعمون انهم عليمون به بل ليس

له من غايـة الا ان يخول المريض الحق الصريح بان يبـدي بجلاء حقيقة دائه كما يري والى من شاء من الناس لتدبير العلاج اللازم لحفظ الصحة .

* * *

فسر الطب معناه جعل الطبيب المعالج بعيداً عن المناقشات . واذا كانت المصلحة تقضي بالاباحة عن داء مريض فلا يجوز ان يكون ذلك من طريق الطبيب المعالج .

* * *

اما من وجهة الصحة العمومية فان مسؤولية التصريح بالمرض يجب ان تقع على المريض نفسه اكثر من وقوعها على الطبيب وهلا يشعر الانسان انه في اليوم الذي يدخل فيه المصابون بالسل المصحات لا يكون احد في حاجة الى الاستفسار عنهم من الاطباء لان هؤلاء المرضى سيعودون اليهم بانفسهم اصحاء .

* * *

واما من جهة وقاية القوانين الاجتماعية فليس من العسير ايجاد اطباء مراقبين يعهد اليهم بالبحث والفحص مع ترك الاطـباء الذين يتولون العلاج متمتعين بضماناتهم التقليدية وهي الحرص على حفظ سر المهنة .

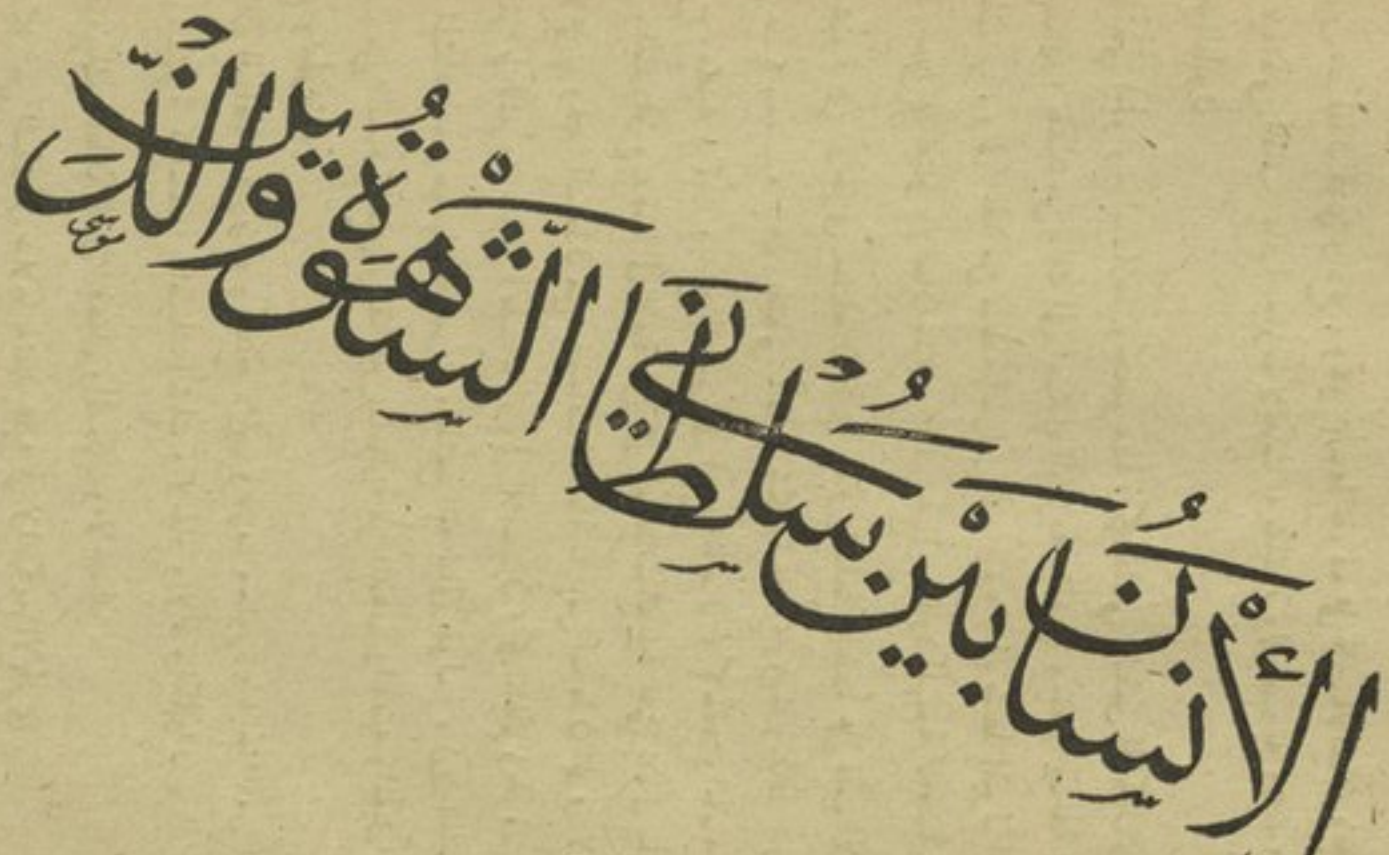
الإنسان بين سلطة الشهوة والنار

للدين سلطان قوي رادع ؛ وهو يبسط نفوذه على قلب الانسان وجوارحه ومعالمه فيقتضي القلب ايمانا جازما لايعبث به شك . ولايلعب به وهم ، ويقيناً لا تتخطفه الظنون .

ويقتضي الجوارح اسلاما وخضوعاً ، كما يقتضي النفس الكمال والفضل والاحسان ، يقصد من ذلك الى اعداد البشرية وتقويمها وجعلها صالحة للخلافة التي نيطت بها ، والى الحد من سلطة الغرائز الشريرة ، والى ضبط الميول الجامحة وعقلها ، حتى لا نجتاز بالانسان مناطق البشرية الى حدود البهيمة المعجمة .

وللشهوة هي الاخرى سلطان قوي جائر يتسلط ايضاً على قلب الانسان وجوارحه ومعالمه . فهو يقتضي القلب شكا والحادا ، وزيغا ونفاقا ، ويقتضي الجوارح معصية واثماً ، ويدفع بالنفس الى قبيح الخصال ، كالحقد والحسد والرياء والكبر والعدوان ويدفعها الى الانتقاض على السلطات الدينية حتى يحول بينها وبين مثلها الاعلى ، ولهذا السلطان من مقومات السلطة ما ليس لسلطان الدين لان قوته تنظم الغرائز الشريرة ، وهي الطباع الاولى للانسان ؛ كما تنتظم زخرف الحياة ومتاعها المشاهد . ونعيمها الحاضر ، فاستمع اليه تعالى يقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث » .

هاتان السلطتان في نزاع وكفاح دائب وحرب مستعرة ميدانها نفس الانسان . فسلطان الشهوة كما اسلفنا يقتضيك الشك والالحاد والاثم والعدوان .

ويقتضيك سلطان الدين الفضل والكمال والاحسان .

ولكل من السلطتين سلاح يعتمد عليه في نزاعها مع الاخرى .

وسلاح الشهوة كما اسلفنا سلاح طبيعي ذاتي ولد مع الانسان ونمت ملكات السوء والشر بنموه .

واما سلطان الدين فهو يعتمد سلامة الفطرة . ووسائل الترغيب والترهيب ، ويعتصم بالقوى العاقلة .

وانت ترى من هذا ان سلاح الشهوة سلاح قوى جبار لانه فوق كونه ذاتياً فان بهجة الحياة ونضارتها تشحذه دائماً .

ولما كانت سعادة الانسان او شقاوته رهناً لهذا المراك النفسي العنيف بين هذه القوى المضادة ، وكان سلاح الشهوة من القوة بالحد الذي رأيت . فانه لكي يكون سعيداً موفقا . عليه ان يشحذ سلاح القوة الدينية بتهذيب النفس ، تهذيبا دينياً ، وصقل شعورها وادراكها . وتنمية القوى العاقلة بفيض السلطات الخلقية حيث هي بفعل السلطات الدينية ، وترويض النفس وتعويدها الشعور بالمسؤلية وتركيز العقيدة بالبعث والحساب والجنة والنار ، وتبصيرها بالعاقبه . وان نعيمها في الاخرة رهن بما يسلفه من صالح الاعمال وبايجاد نوع من عقاقير الحكم المضادة للأمراض النفسية فيرد الحسد بقوله عليه الصلاة والسلام « اياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» والرياء لقوله تعالى في الحديث القدسي « من عمل عملا اشرك فيه غيري فهو له كله وانا بريء منه . وانا اغنى الاغنياء عن الشرك » .

ويرد الكبر بقول النبي عليه السلام « يحشر المتكبرون يوم القيمة على مثل صور الذر يطؤهم الناس باقدامهم لهوانهم على الله عز وجل » .

بهذا وبهذا وحده تضع هذه الحرب اوزارها ، وتنجلى عن سعادة الانسان وبدونها تنجلى عن شقوته .

وهذا النوع من الجهاد هو الذي يسميه رسول الله بالجهاد الاكبر ، فقد قال عليه الصلاة والسلام حين رجع من احدى غزواته « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، قيل وما الجهاد الاكبر يارسول الله ؟ قال جهاد النفس » .

وقد صدق الرسول الاعظم ، لان جهاد الناس بعضهم بعضا يتراءى لهم العدو ظاهراً فيصوبون اليه سهامهم ؛ ولكن النفس عدو باطني مقره الاحشاء والضلوع .

* * *

ولعل هذا الجهاد هو الذي جعل الانسان المؤمن في خواصه وعوامه ، افضل من الملائكة في خواصها وعوامها ، فان الملائكة ان استجابت لربها بالتحميد والتقديس والتهليل والتكبير والطاعة . فان ذلك من مستلزمات طبعها ، ومقتضيات تكوينها . فليس لهم شهوة تنازع بواعث الخير من نفوسهم كما تكون في الانسان وها هي الملائكة تقول لربها حين اراد ان يستخلف ادم في الارض «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ، وها هو الله تعالى يقول رداً عليهم «اني اعلم ما لا تعلمون» لانه يعلم انه سيزوده بالعلم الذي يكون له اداة يروضها طغيان الشهوة . فعلم آدم الاسماء كلها التي عجزوا عنها ليفهمهم انه فضلهم بالعلم الذي سيحارب به شهوته ويستطيع ان يحقق به النيابة عن ربه في عمارة الارض واستثمار كنوزها ، وقد اسجد الله الملائكة لادم ليكون تقريراً بهذا الفضل .

* * *

وهذه القوى الدينية تعقب بالثورة اذا ما انكشفت الثورة بين الدين والشهوة عن غلبة الدين وقهره ، فتدفع الى الندم والاسف لتستجمع قواها لصد الشهوة في المستقبل بعزمها عزما اكيداً على ان لا تعود الى الاثم مرة اخرى .

وهذه ثورة عظيمة مباركة شرعها الله لاولئك الذين تنفلت شهواتهم من زمام سلطتهم الدينية فقد قال الرسول الاعظم لمعاذ «اتق الله ما استطعت واعمل بقوتك لله عز وجل ما اطقت ، واذكر الله عند كل شجر وحجر وان احدثت ذنبا فاحدث عنده توبة ان سراً فسراً وان علانية فعلانية» .

وقوله عليه السلام «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن» .

* * *

وليس الامر بتعقيب السيئة بالحسنة الا امراً بالثورة على الشهوة ان هي غلبت ومن لم يثر عن شهوته فقد اصبح عبداً لها خاضعاً ذليلا .

وضمان العاقبة هي بالتقوى وذلك بان تجعل بينك وبين ما تخافه وتحذره وقاية تقيك منه

* * *

ولكي تكون سعيداً ابداً فاتق الله الذي هو نجيك في سريرتك .
ورقيبك في علانيتك .
واجعله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك :
وخفه بقدر قربه منك وقوته عليك .
واعلم انك بعينه ليس تخرج من سلطانه الى سلطان غيره .
ولا من ملكه الى ملك غيره .
وليعظم منه حذرك .
وليكثر منه وجلك .

* * *

ان تكن كذلك فانت السعيد ابدا .

النظم في الشرائع والأديان

حرم الله الظلم لانه من لؤم الطبع وضعف النفس وقد زعم بعض الناس ان الظلم طبيعة في الانسان . تظهره القوة ويخفيه الضعف . وقد سار بيت المتنبي في ذلك مسير المثل .

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذاعفة فلعلة لا يظلم

فانت تراه يحكم بان الظلم خصلة وطبيعة في النفس. وان العفيف عن الظلم لا يفعل ذلك بباعث الفطرة وأثر الغريزة . بل لعلة وسبب يحول بينه وبين تلبية نداء الطبيعة الكامنة في نفسه .

وهذه فلسفة خيالية . فان هناك من الطباع طباعاً تأبى لسلامتها الظلم وتمقته من نفسها وتقاومه عند غيرها . ولو انصف الناس لقالوا ان الظلم من لؤم الطبع وخبث النفس . وضعف الوازع الديني والخلقي . ودليل على تجرد من اتصف به من خلال الكرم والمروءة وصفات النبل والفضيلة وبرهان على ذهاب نور الايمان من القلوب . ومحاربة لمن حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما . فاستمع اليه تعالى « يقول « ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون » وقال « وما ربك بظلام للعبيد » .

ولو فكر الظالم مليا ، وراجع نفسه ورجع الى ضميره لعلم انه فعل امراً تنكره الشرائع ، وتمجه النفوس الكريمة . وقد جاء في الأثر « الظلم ظلمات يوم القيامة

وليس الظلم مقصورا على اكل اموال الناس بالباطل وبسلب مايقع في حوزة الغير . بل هذا نوع من الظلم فان الظلم كما قال الرسول ظلمات وانواع شتى .

واظلم الناس لنفسه ولغيره ذلك الذي لاعمل له ولا شغل الا الانتقال من مجلس الى آخر يأكل اعراض الناس ويسعى بينهم بالفساد . واظلم منه من ينظر الى حليلة جاره . ويلغ في عرض اخيه فان هذا قد ظلم نفسه بارتكاب الفاحشة . وظلم هذه المرأة وكل من يمت اليها بصلة قرابة او نسب بتلويث عرضها وسقوطها

واشاعة المنكر في المجتمع الذي يعيش فيه . ومثل ذلك من ينهش كرامة الناس ويتتبع عوراتهم .

واشد من هؤلاء ظلما . واشنع جرما . من يتهم الابرياء ويلفق الجرائم على اناس لاصلة لهم بها . ويأكل اموال اليتامى ويغتال حقوق الفقراء .

ومن العجب ان نرى بعض هذه الصفات اوجلها فيمن يتسم بالصلاح وينتمي الى الدين وهو بعمله هذا قد خسر الدين والاخرة وافلس من حيث يريد الربح . وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه فقال : اتدرون من المفلس قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع . فقال : ان المفلس من امتي من يأتي بصلاة وزكاة وصيام . ويأتي وقد شتم هذا وسفك دم هذا وضرب هذا . وقذف هذا واكل مال هذا فيعطى هذا من حسناته . وهذا من حسناته فان فنيت قبل ان يقضي ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم زج في النار .

ولقد ضرب الله للناس الامثال بما قال بالظالمين من الامم العاتية الباغية كقوم لوط . وهود وصالح وبين سبحانه في كثير من آيات الذكر الحكيم انه اخذهم اخذ عزيز مقتدر . وهي سير قصها الله علينا في كتابه الكريم للتذكر والاعتبار . وما يتذكر الا اولو الابصار .

ولا يغبن عن الاذهان ان دعوة المظلوم يستجيب الله لها . وقد ورد في الاثر « ثلاثة لاترد دعوتهم الصائم حتى يفطر . والامام العادل . ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام . ويفتح لها ابواب السماء ويقول الرب وعزتي لا نصرنك ولو بعد حين .

ولما كان الظلم محرما في كل الشرائع والاديان فقد حق على الظالم ان يلتمس العفو ممن ظلمه بعد ان يتحلل من كل التبعات والحقوق التي له عليه ، وفي الاثر « من كانت له مظلمة لاخيه من عرضه او شيء قليتحلل منه اليوم قبل الا يكون دينار ولادرهم ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته . وان لم يكن له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه .

وهناك ظلم يختل منه النظام وهو ظلم الولاه للرعية . فاذا نشأ هذا الظلم في

امة كان دليلا على فنائها وزوالها ومحوها من سجل الامم ونزل باهلها من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون .

والسلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم من عباده . فان عدل كان له الاجر وكان على الرعية الطاعة والشكر ـ وان جار وظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر ، وفي الأثر «مامن عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت غاش رعيته الاحرم الله تعالى عليه الجنة » وقال « من ولى امة من امتي قلت او كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله على وجهه في النار » وقال « ان الله مع القاضي ما لم يجر . فاذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان » .

وصدق الله العظيم في قوله « ما للظالمين من حميم ولاشفيع يطاع » .

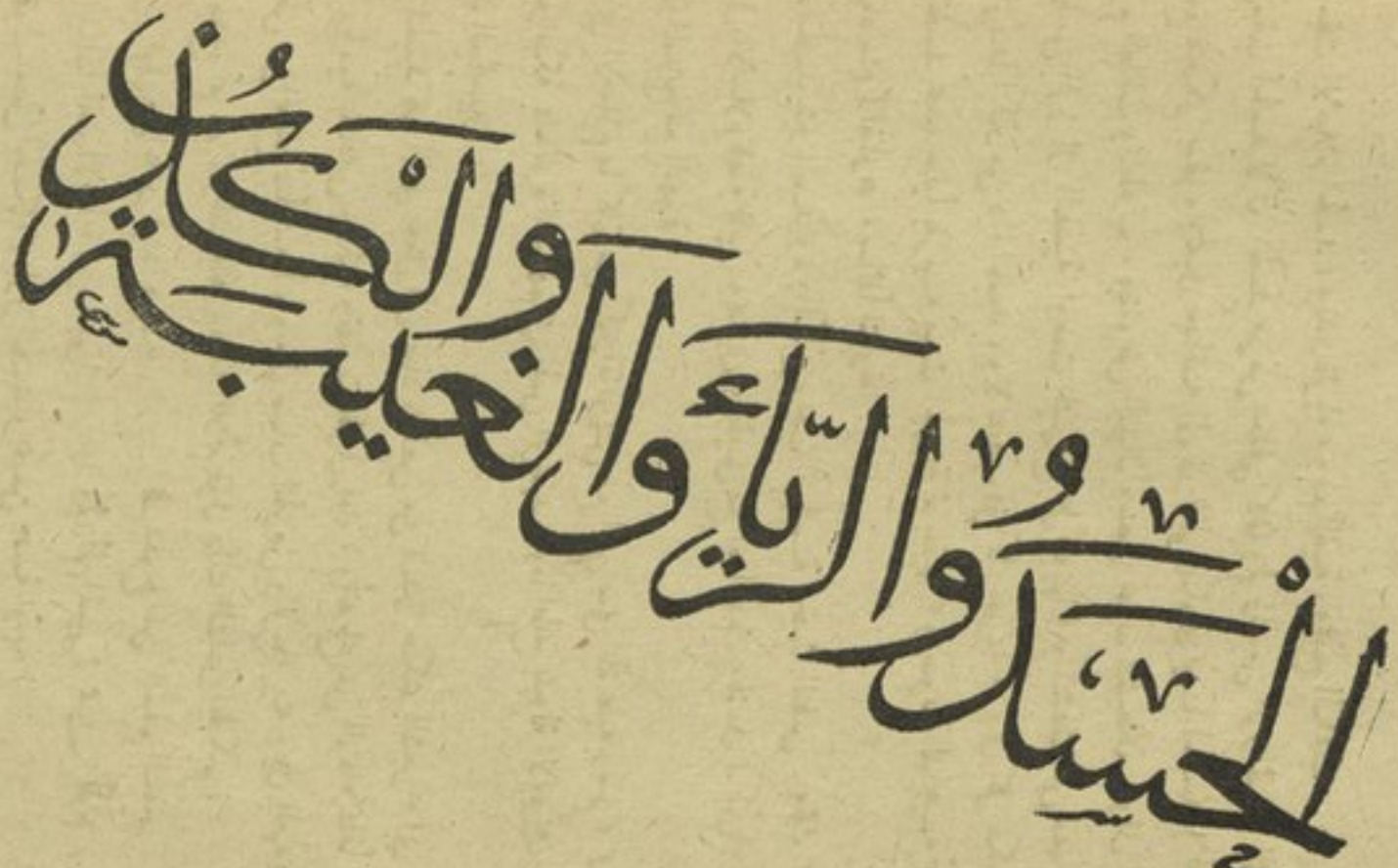

مقت الاسلام الحسد ، ونددَ بالرياء ، وذم الغيبة ، وقبح الكذب .

مقت الحسد لأن الحسد مرض خلقي كان ولم يزل من الرزائل التي تحيق بالمجتمع فتعكر صفوه وتحيل جناته الى نار لظى يكوى فيها الحاسد والمحسود ، ويحرم الطالب والمطلوب ، فيتقوض البنيان وينصر حزب الشيطان . وقل ان ترى رزيلة من الرزائل النفسية اوصت الشرائع على تجنبها ، وكشفت عن مصادرها ومواردها اكثر من داء الحسد ، ولا عجب ففي كل جريمة ، وفي كل نكبة فتش عن الحسد تجده جانياً بقرنيه يبعث الجريمة ثم يلقيها ؛ ويصوب الداهية ثم يقف بالمرصاد مثيراً لغبارها ، سائقاً لتيارها .

والحسد يثير العداوة والكبر وحب الرياسة وخبث النفس . ولك ان تقرأ فيما قبل الاسلام قصة قابيل وهابيل وابليس مع ابينا آدم . وقتل دكريا ويحيى . وشأن المسيح مع اليهود .

وفي الاسلام ما كان من كبراء قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وما وقع مع البرامكة بما اثاره اعدائهم في نفس الرشيد ، وما اطاح بدولة الامويين وزلزل قواعد العباسيين .

والحسد هو الذي جعل ابن عباد ينتقص من قدر حكيم الشعراء ابي الطيب المتنبي ويرميه بتناقض حكمه وتفاوت طرفي فعله ، وأنه باع من الوفاء علقاً خطيراً واعتاض من الطمع ثمناً يسيراً ، وحال ضباب الحرص والرجاء بينه وبين العهد والوفاء حيث مدح ثم ذم . وقد تجاهل هذا اللائم قول ذلك الشاعر الحكيم :

فهل من عاذر في ذا وهذا ... فمدفوع من السقم السقيم

اذا اتت الاساءة من مسيء ... ولم ألم المسيء ممن ألوم

يقول بعض الحكماء : بارز الحسد ربه من خمسة اوجه :

الاول — قد ابغض كل نعمة قد ظهرت على غيره .

الثاني — سخط لقسمته .

الثالث — ضن بفضله ؛ يعني ان ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

والرابع — خذل ولى الله تعالى ، لانه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه .

الخامس — اعان عدوه يعني ابليس .

وقال بعض المفسرين ان الاستعاذة من شر هذه الاشياء : الفاسق . والنفاثات والحاسد . اشعار بان شر هذا اشد . وختم بالحسد ليعلم انه شرها ، وهو اول ذنب عصي الله به في السماء من ابليس . وفي الارض من قابيل :

ولا سبب لهذا العداء الا حب الدنيا ومحاولة الاستئثار بخيراتها فلو ان الحاسد استطاع ان يستأثر بنعم الله المترادفة فليمسك المطر الا عن زرعه ، ولتتوار الكواكب الا عن جرمه ، وليقف تيار الهواء الا حين يتنفس ، ولتأفل الشمس الا وقت يميس بطلعته ، او يسمح فيها بمشاركته اذاً لفعل .

* * *

وندد الاسلام بالرياء لان الرياء نقيصة في الدين ، وعورة في الخلق ، ووصمة للرجولة ، وهو اذا تفشى بين الجماعة كان هزيمة للفضيلة ، وسبة للقومية ، ومحنة للانسانية .

ولا احسبك اذ تعرض للحديث عن هذه الخصلة واجداً من الناس الا نكيراً لها واشمئزازاً من التخلق بها ، حتى ممن غلبت على نفوسهم ، والنائث بها اخلاقهم يتنصلون منها سراعاً . ويفرون منها خفافاً ، مما يدلك على مباينتها للفطرة . ونبوها عن الشعور بالكرامة ، والاحساس بالغيرة .

والرياء لا يكون في القول وحده . ولا في العبادة فحسب ، وانما يكون في القول والعمل . وفي العبادة وغيرها مما يجري بين الناس في شؤونهم .

وهو على تنوعه غش يطلى بلون الاخلاص ، ونقص في النزاهة يسمى كذبا باسم الكمال ، ويساق باطلا في لفائف الحب والمروءة ، وليس ذلك كله الا النفاق وان تعددت الاشكال واختلفت المناحي ، او هو الكذب والخداع ، وربك لا يحب الكذب من عباده ، ولا يرضى لهم الخداع في قول ولا عمل . وانما يدعوهم الى النصح ،

والنصح هو الاخلاص في اجلى صوره ، وينهاهم عن الرياء ، والرياء هو الغش في ابشع اشكاله .

وقد تنوعت اساليب القران في التشنيع على المرائى والحط من قيمته ، ليربأ الناس بانفسهم عن هذه المخزاة الشائنة ، وتكون لهم العظة الزاجرة فيما يقصه علينا .

ارأيت الى قولة تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين .

فهذا اصدق تصوير للمرائى يتذبذب في عمله ويتابع اغراضه . لايصدر عن عقيدة ، ولا يورد عن يقين ، فان ظن مبتغاه في الطاعة فهو مطيع ، وان خاله في الغواية فهو غوي .

وانظر الى قوله تعالى يعيب على المنافقين تهاونهم في الصلاة ، ثم يجمع اوصافهم الذميمة في وصف واحد هو الرياء « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يرأون ويمنعون الماعون » .

واليك تمثيل القرآن للمرائى بحجر صلب ، عليه شيء من التراب قليل ، فاذا اصابه المطر زال عنه التراب . وبقي الحجر على جموده لاينبت فيه زرع ، ولاينبع منه ماء ؛ وهيهات ان يكون فيه نفع بعد ذلك الا ان يتخذ موطئاً للاقدام او دريئة من القذر . يقول سبحانه وتعالى في ذلك ، « يا ايها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى - كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر فمثله كصفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلداً ، لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين » اي لا ينتفع المرأوان بعملهم وان جاز صنيعهم على الناس وراجت فيهم المدائح .

على ان القرآن في عشرات من مواضعه يندد بالنفاق واهله ، والنفاق والرياء من قبيل واحد ، ويؤكد لك هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « آيات المنافق ثلاث : اذا حدث كذب : واذا وعد اخلف : واذا أوتمن خان .

فالكذب نفاق ، والرياء كذب مموه وتضليل مفضوح ، وليس من المبالغة قوله

عليه السلام في النهي عن الغش في القول او العمل « من غشنا فليس منا » فهذه برأة من الغاش ، واخراج له من عداد المسلمين .

وليس كذلك من المبالغة قوله « الدين النصيحة » وما النصحية التي عناها الرسول الاعظم الا الاخلاص في العمل والرأي .

وما كان الرياء — او النفاق ان شئت — بغيضا الى النفوس الكريمة الى هذا الحد ، الا لانه يبرز الناس في غير صورهم الحقيقية . ويشكك بعضهم في بعض ، فتضيع الثقة التي هي رباط اجتماعي تتوفر به القوى على انهاض الشؤون ، والحصول على السعادة في الحياة ، واذا عصف الرياء بالثقة وذهب بالتضامن فتلك الفتنة في الدين ، والمذلة في الحياة ، والانحدار عن الرقي الذي ينشده الاسلام في تعاليمه الى مساقط الفوضى التي انقذنا الله منها بشرائعه ورسله .

والناقصون في الكرامة يتناسون هذا كله حين يبتغون الكمال من غير طريقة ويرغبون في العزة اغتصابا ، فهم يصطنعون الرياء ، ويتشحون بالملق في اقوالهم ليستدرجوا الناس الى مدحهم وينتزوا منهم الثناء عليهم او يحصلوا على الثناء بسبب مشكور . وذلك شهرة النفوس الوضيعة ، ومدى الهمة الفاترة ، وظاهرة الخلق الهزيل . وبعض هذا ينأى بصاحبه عن جلال الانسانيه وشرف المروءة ، واولئك هم القذى في العين والشجن في الحلق ، وهم المرض الفتاك بجسم الامة يقعدونها عن الرقي ، ويصدونها عن السير .

وليت لنا من يقض على هذه النزعة بين الآخذين بها ؛ ويكشف عن قبحها لمن يفرحون بها ويشجعون عليها فتهدأ نفوس آلمها ما ترى من وهن الاخلاق ، وتستريح قلوب يحزنها فشو الرياء واصطناع المتملقين ، وامتهان الاعزاء الكرام النفوس .

* * *

وفم الاسلام الغيبة ، لأن الغيبة ذم الافعال مقصداً ، وأسوأ الاخلاق مذهباً . تدل على الحسد والبغي وتدخل مدخل النميمة والسعي ، وتنبئ عن غائلة وحقد ،

وتكشف عن خبث طوية وعقد . قال الله تعالى : [ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذب عن لحم اخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله ان يحرم لحمه على النار » .

ودخلت امرأه على النبي تستفتيه ، فلما قضت حاجتها وخرجت . قالت عائشة : ما اقصرها . فقال النبي لها : مهلا ياعائشة ، اياك والغيبة . فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها . قال : اجل ، لو لا ذلك لكان بهتاناً .

وسئل عليه السلام عن الغيبة فقال : « هي ان تقول في اخيك ما يكره ، فان كنت صادقاً فقد اغتبته ، وان كنت كاذباً فقد بهته » .

وقال عمر بن الخطاب : اذا فسد الزمان فتحفظوا من الناس بسوء الظن ، فمن الحق على كل مسلم ان لا يقيم عذر مغتاب ولو كان حقاً ، ولا يساعده وان قصد بغيبته صدقاً . فان ذلك من سوء الادب ، وقلة الحفيظة ، واجتناب المروءة ، لان المغتاب الصادق قد اظهر فبيحاً كان مجهولا ، وهتك ستراً كان مسدولا ، وفضح سراً كان مكتماً ، وأحل امراً محرما . فما رعى ذمة ، ولا حفظ حرمة . ولله در القائل :

ما أقبح الشيم المخلة بالفتى وأشد منها شيمة الكذاب
وأشد من هذي وتلك قباحة لهج اللسان بغيبة الغياب

وقبح الاسلام الكذب لما فيه من المضرات الخاصة ، والعامة الى الكذب هو محبة النفع الدنيوي . وحب الذات وهو عار لازم ، وذل دائم ، وحق الانسان ان يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص في ادنى كذب ، فمن استحلاه عسر عنه فطامه ، وكل ذنب يرجى تركه بتوبة او انابة ما خلا الكذب . فان صاحبه يزداد على الكبر فقد رأينا شارب خمر اقلع . ولصاً نزع ، ولم نر كذاباً رجع .

والكذب يقبح لعينه كما يحسن الصدق لما يعلن به من المناقع الخاصة ، وفي ذلك يقول الشاعر العربي :

عليك بالصدق في كل الامور ولا تكذب فاقبح ما يزرى به الكذب

وقال آخر :

ما احسن الصدق في الدنيا لقائلة واقبح الكذب عند الله والناس

* * *

وقد اكثر القرآن من الوصية بالصدق وقرنه بتقوى الله والتخويف من الكذب . وتوعد مقترفه باشد العقاب . ذلك لان الانسان كثير المطالب . مدني بالطبع . فهو في حاجة ماسة الاستعانة بسواه من بني جنسه، والاستهداء انما يكون بالاستخبار من مصدر صدق يطابق الواقع ، والكاذب يرى البعيد قريباً ، والنافع ضاراً ، والموجود محالا ، فهو توأم الشيطان ، يسترهب العقول ، ويغير الاوضاع ، ويعبث بالهداية والفائدة .

* * *

وما الصدق الا ركن ركين للعلاقات بين الافراد والجماعات . لا تتحقق فائدة بدونه بخلاف الكذب الذي هو رأس الذنوب وعدو العمران . ومبدد الوئام .

الاتفاق والخلاف في العمل

حذر الاسلام من النفاق لأنه افة المجتمعات الماحقة ، فاذا ما سرى بين الجماعات فسد امرهم وانتكث حبلهم .

وكيف انت بالرجل او الرجال تخلطهم بنفسك ، وتتخذهم بطانة لك ، وتأمنهم على دخائلك فاذا هم لا يألون خبالا ، واذا هم يتتبعون هفواتك في مأمنك ، ويظاهرون عليك عدوك ؟ ؟ يفعلون ذلك وهم اقدر من يكون على فعل ما يفعلون .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والصلام يعرف اعداءه من المشركين السافرين فيتقيهم ، ويدفعهم وينكل بهم ، ثم كان ايضاً يعرف بين اصحابة المنافقين فلا يحييهم ولا يصف لهم دخائل نفوسهم حتى لقد بلغ من قسوة تلك الحالة بمحمد واصحابه ان صاروا فريسة لمكائد النفاق ، وهدفاً لسهام المنافقين ؛ يدلون المشركين على عوراتهم ، ويوضحون خلالهم يبغونهم الفتنة ثم يحلفون بالله « انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون » .

ولم يتحرج بعض المنافقين في اشد الازمات الحربية عن ان يرجفوا بموت محمد عليه السلام ، والمسلمون يعانون الهزيمة ويفرون من وجوه الاعداء ذلك لان لهم قلوبا مطوية على الأحن تتربص بمحمد وبدعوته الدوائر .

تلك حال نغصت على المسلمين عيشهم ، وهددت اركان مجتمعهم ، ولم يطيقوا عليها صبراً ؛ فجاء رجل من مصاص المسلمين على اثر دسيسة نفاقية وقال يارسول الله ألا تقتل فلاناً هذا المنافق او تأمرني فأقتله ؟ فسكن محمد غضبه الثائر : وطيب نفسه الجامحة . وقال : « لا ، يتحدث الناس عن محمد بانه يقتل اصحابه » .

صبر بعد ذلك المسلمون لامر الله . وبقي هذا السوس ينخر في جسم المجتمع . ولولا صدق اليقين ، ومناعة الجسم لأودى النفاق بالدعوة وبالاسلام ، فلما اذن الله لهذا النفاق ان يفتضح وقضى على المنافقين بان يشهروا ، ثم يعزلوا — كمرضى موبوئين — عن بقية المجتمع السليم ، اختار عز وجل لتلك الفضيحة وقتاً علاشأن المسلمين فيه ، وتمت له الكلمة ، وأثخن المسلمون في اعدائهم سراً وتقتيلا فليس لهم

ان يخافوا بتر اعضائهم السقيمة المملوكة . وقد كان ... فقضى ربك بان ينزل على نبيه [السورة الفاضحة] تفضح النفاق ، وتكشف عن المنافقين وتصفهم بسيماهم ، وتطلع المجتمع على دخائل نفوسهم ، وعلى مطويات سرائرهم ؛ وكثيراً ما كان يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . ولكن وقع ما كانوا يحذرون .

فلما كانت غزوة [تبوك] آخر الغزوات في حياة رسول الله . وبدأت بان بلغ رسول الله ان الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده . وكان الوقت وقت عسرة وشدة فالبلاد جدباء ، والحر لافح ، والثمار تكاد تطيب ، ويوشك جناها ، وأحب شيء الى المسلمين ان يبقوا في ظلالهم حتى يصلح الحال ويطيب الزمان ، ولكن رسول الله لا يصدر عن الهوى ، ولا يرجع عما قصد . وقد كانت عادته اذا خرج الى غزوة يورى بغيرها حتى لا تذيع الاخبار فيحتاط الاعداء ؟ ولكنه عليه السلام صارح اصحابه في امر تلك الغزوة وعرفهم اين يسيرون ، وذلك لبعد الشقة ومناعة العدو ، وخطورة النتائج ؛ فيأخذ كل حذره ويعد عدته ، ثم بعث عليه السلام الى مكة والى قبائل الاعراب يستنفرهم لذلك ويحث الموسرين على تجهيز المعسرين .

وقد انتهت تلك الغزوة على خير حال . فلم يجد المسلمون جيوشاً للروم فأقاموا اياماً ثم عقد عليه السلام العهد [ليوحنا] صاحب [ايله] على ان يعطي هو وقومه الجزية للمسلمين .

واذا كانت تلك الغزوة آخر غزوة في حياة سيدنا رسول الله فقد كانت مؤذنة بفضيحة المنافقين في سورة من سور القرآن تليت على الناس يوم الحج الاكبر ، ففصلت ألوان النفاق ، ودلت على المنافقين ، فقد بدأ النفاق عند الدعوة الى تلك الغزوة يطل برأسه ، ويبعث التخاذل بين المسلمين ، فقال جماعة منهم ، وعلى رأسهم عبد الله ابن ابي : أيغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال ، وشدة الهجير ، والبلد النائي ؟ » .

ايحسب محمد ان قتال بني الاصفر لعب ولهو ؟ والله لكأني انظر اصحابه مقرنين في الاصفاد .

ولذلك شرعوا يعتذرون عن الخروج باعذار تافهة ، ورسول الله يقبلها

حتى عاتبه القرآن بعد ذلك فيها وعفا الله عنه فقال « عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

نزلت السورة الفاضحة اوسورة برأة ، وفيها يخاطب الله تعالى رسوله والمسلمين بعد ان فصل اوصاف النفاق وعين المنافقين « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم، فاعرضوا عنهم انهم رجس مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون »

لقد اخبر الله عن المنافق بانه رجس ، ثم طهر منه المجتمع الاسلامي الاول فاتم بذلك على المسلمين نعمته ، فكيف يري المسلمون اليوم انفسهم ، وكيف يرون مجتمعهم .

ليقرأ كل من ظن انه مسلم السورة الفاضحة في القرآن ، وليقف في اناة وتدبر عن كل آية تتحدث عن المنافقين، وتقول فيهم ـ انهم ؟؟ وانهم : وبعد ذلك سيرى كل وجهه في المرآة فاما هو رجس ، واما هو طهر .

* * *

ونهى الاسلام عن الخلف في العهد لانه عرض من اعراض النفوس الضعيفة المريضة بالجبن والنفاق والخوف من المخلوق دون الخالق .

وان الغادر في عهده رجل لايستطيع ان يواجه الناس بنيانه ، وهو يهادم على ما يريدون في الوقت الذي يصر فيه بينه وبين نفسه على الخيانة والخلف ، ولو كان فيه شيء من شجاعة المؤمنين الذين لايخشون الا الله لجاهر بما تنطوي عليه نفسه ولما التزم بعهد يجب على كل رجل صادق الوفاء به .

فالغدر في العهد اذاً ظاهرة من ظواهر الجبن . وضعف العقيدة وعدم الثقة بالله. وذلك لايجتمع مع الايمان بالله والثقة به في قلب واحد، لان المؤمن الواثق بربه المعتز به الذي لايخشى سواه ولا يؤمل الا فيه ، يستحيل ان يكون جبانا مضطرب العقيدة يفرق من غير خالقه ويتهرب مما التزم في مسؤلية اخذ نفسه بها . ولست اريد الاطالة في ذلك بذكر النصوص من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ولكني ساقتصر على القصة الاتية .

كان يوجد في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم رجل من فقراء المسلمين يدعى « ثعلبة بن الحاطب » وكان من عادة هذا الرجل ملازمة الرسول في الجماعات في

جميع الصلوات ، ويظهر انه اراد ان يستغل ملازمته للرسول في الحصول على ما يريد من عرض الدنيا والتمس من النبي ان يدعو الله ان يرزقه مالا . فقال عليه الصلاة والسلام « ويحك يا ثعلبة ، اما تحب ان تكون مثلي فلو شئت ان يسير الله تعالى هذه الجبال ذهبا لسارت : فالح ثعلبة في طلبته الحاحا شديداً وقال : والذي بعثك بالحق ان اتاني الله مالا لاعطين كل ذي حق حقه : فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه : فصمم ثعلبة فدعاله الرسول بالرزق وكثرة المال فاجاب الله دعاءه وتملك غنما ضاقت بها المدينة فتنحى بها ضاربا في الصحراء ثم تدرج في الانقطاع عن جماعة المؤمنين حتى انتهى الى انه ما كان يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله وتفقده النبي ذات يوم فقيل له ان ماله قد شغله فقال عليه السلام « ويح ثعلبة بن حاطب » وقد امر بعض جباة الصدقة ان يمروا عليه لاخذ الزكاة المفروضة في ماله بعد ما فرضت عليه الزكاة . فقال اروني كتابكم فلما نظر فيه قال : ما هذه الاجزية . فتركوه عائدين الى الرسول وما كاد نظر النبي يقع عليهم حتى قال لهم قبل ان يكاشفوه بحقيقة ما وقع من ثعلبة « ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة ابن حاطب » وفي ذلك نزل قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن اتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما اتاهم الله من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون : فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب » .

علم ثعلبة ان قرآناً نزل فيه ، وان نفاقه سيكشف فجاء يحمل ما عليه من صدقات الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له ان الله منعني ان اقبل منك ، فجعل يبكي ويحثو التراب على وجهه . ولما كانت خلافة ابي بكر جاءه ملتمساً قبول صدقته فقال رضي الله عنه لم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم . واقبلها ؟؟ فلم يقبلها ابو بكر وكذلك فعل معه عمر وعثمان . وقد هلك اثناء خلافته .

هذا ثعلبة ابن حاطب الفقير الملتزم لصلاة الجماعة وصاحب الغنم التي اربت حتى ضاقت بها المدينة . والتي اشتغل بها عن العبادات ومجامعها ! وصاحب العهد الذي

اخذه على نفسه وهو ينوي النكث فيه . ليس الحكم الذي قرره الله تعالى في شأنه خاصاً بشخصه . بل كل من يعاهد الناس وهو ينوي الغدر فيما يعاهد طمعاً في مال يزول ، وحطام مرذول ، فاذا حصل على ما يريد في عرض الحياة نبذ عهده وانكشف عما يبيت في سوء فهو شريكه فيما حكم به الله عليه من النبذ والازدراء ، وانك لتجد كثيراً من هؤلاء « الثعالب » ترتع رؤسهم بين المؤمنين باسم الايمان وباسم الدين والفضيلة . وهؤلاء بما يرى الناس من مظاهرهم . وما يعرفون من بواطنهم مصداقاً لقوله تعالى « وفي الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام ؛ واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

* * *

وان تأديب هؤلاء الثعالب بعد انكشاف امرهم وافتضاح سرهم ، قد رسم طريقته النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الثلاثة من بعده فيما فعلوه من « ثعلبتهم » صاحب الغنم حيث نبذوه وابوا ان يقبلوا منه صدقاته وان يسموه بسمات المؤمنين وقد قرر الله هذا النوع من التأديب لامثاله الذين يظهرون خلاف ما يبطنون حيث قال : « قل انفقوا طوعاً او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله . ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون . فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون . ويحلفون بالله انهم منكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون » .

الفضيلة والرذيلة والخير والشر

اذا كانت الشمس حياة الخلائق فالفضيلة حياة النفوس ، فهذه ترسل اشعتها الذهبية على الغبراء فتنيرها ، وعلى البذور الملقاة في الحقول والرياض فتجعلها تنبثق زرعا متهدل الاثمار ، وعلى الكائنات الحية فتنموا وتمتلىء حركة ونشاطاً وتروح وتغدو وهي تتدفق بالحياة .

والنفوس بدورها تسير في ضوء تلك القوة الخفية الساطعة في اعماقها، فتتنكب بذلك طريق الشرور والاثام وتجنح عن المهاوي المبتذلة التي ترقص في اعماقها الداكنة شياطين الرزيلة حيث تنفث هنالك سماً زعافاً ذريعاً .

وليس هناك شك في ان عظمة الامم مستمدة من عظمة الافراد الذين تتكون منهم تلك الامم ، فاذا كان هناك امة غنية باخلاق بنيها فهي امة عظيمة دون شك، وهي امة نشيطة لأن الفضيلة تشدد عزائم الناس . وتوقظ فيهم غرائز التوثب والنهوض .

ولو اننا سألنا التاريخ لرفع لنا الستار عن الحقيقة العارية فهو يقول لنا ان « بطرس الاكبر » عندما صح منه العزم على ان ينهض ببلاده من اعماق هاوية الاضمحلال والتأخر بحث ملياً في حالة بلاده ومركزها العلمي والادبي والاخلاقي بالنسبة الى الامم التي تركض في حلبة السباق والتزاحم العالمي فاتضح له بعد طول البحث والتفكير ان الفضيلة هي الاجنحة التي طارت بها الامم فحلقت في سماء العظمة حتى استوت على أعلى ذرى المجد ، وعند ذلك خلع رداء الخمول وطرح به بعيداً ثم اعتزم ان ينهض بامته بكل نشاط واضعاً نصب عينيه ان الفضيلة انما هي القوة التي ترجع الامم من الشيخوخة الى الشباب وتبعث في حياتها اعماراً جديدة.

وعلى النقيض من ذلك تعمل الرزيلة فى تقويض دعائم الافراد والجماعات والامم التي تريد ان تضطلع باعباء الحياة الحقيقية يجب ان تكون على شيء كثير من الاخلاق الفاضلة . اما التي تريد ان تهوى الي قرار الهاوية كما هوت امة « الرومان » عندما قوضت الرزيلة دعائمها و، وابلت من جدة عظمتها ومزقت اوصال سلطانها فهي الامة

التي لا يعانيها الشرف الذي هو المثل الاعلى للفضيلة ومعقلها الاشم الذي يقيها غوائل الاقدار ، به تعتز الانسانية ، ويتحلى به جيد الهيئة الاجتماعية فتنتظم حياة الاسر وتصان الاعراض .

ولا تنال الامة هذا الشرف ما لم تنهج سبيل الحكمة والرشاد . كما لا تقدر قيمة الانسانية الا بالاعمال الحسنة ونبذ الرزيلة مع تجنب الكبرياء والدعوى والوقوف سداً منيعاً في وجه الافراط والتفريط .

* * *

وتمتاز الامة التي يصاحبها الشرف الحقيقي بتجردها عن الاهواء واعتمادها على الشعور الحي المنزه عن شوائب الاغراض فتسير اعمالها في دائرة واسعة مركزها القلب من الجسم ، فينشيء لها فروعاً عامة مثلها مثل الشرايين في تنقل الكريات الدموية الى اعضاء الجسم البشري فتحييه وتنميه فيكون عملها الشريف غير ممثل في نقطة واحدة ، او مقصور على هيئة خاصة ، بل هو كالشمس التي تبعث باشعتها الذهبية الى القصور الشامخة كما انها تتوج الاكواخ الحقيرة بضيائها الباهر .

ويتوقف العمل الشريف على المبدأ الانساني القويم المجرد عن المجد الباطل والخيلاء . وهو يتمثل لنا في ثلاث صور تختلف باختلاف معانيها .

الاول — هو الشرف الديني الذي يحكم على الانسان ان يعمل بالاوامر الالهية والفروض الدينية . وان لا ينزع الى التلبس بها والتدليس وارتداء اثواب الرياء ، ولا يخفى ان الدين هو المثال الاسمى الذي تتجلى من شمس سمائه اشعة الصورتين الاخريين وهما : الشرف الادبي ، والشرف الدنيوي .

الثاني — الشرف الادبي ، وهو شعار الكمال الخلقي بل هو مجال العقول وذخيرة من الذخائر الخالدة ، به تهذب النفوس وينبض الشعور ، فتسود شوكة الفضيله وتذل عروض الضلال والرزيلة .

الثالث — الشرف الدنيوي وعليه يتوقف انقاذ الكون من النوائب والنوازل المحدقة به .

والقرآن ينزل المعترك الابدي بين الخير والشر في الارض منزلة الاعتبار والاعتراف به ويدعو معتنقي مبادئه الا يهملوا النظر الى هذا المعراك وما وراءه من نتائج وان يحملوا انفسهم على الأخذ باسباب الاهبة للانخراط في سلك المحاربين في صفوف الخير حربا لاهوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة عن ان الشر اذا وجد سبيلا الى السيطرة على الخير فلن يرحمه ولن يتركه للحياة .

انهما ضدان ابديان ، احدهما مبصر ذو رحمة ، والثاني اعمى ذو بطش شديد .

هما قانونان طبيعيان لهما ما لقوانين الطبيعة المادية من صرامة وآثار ، ولكن مجالهما النفس ذات العالم المائع الذي لاحدود بين امواجه الا ما يقيمه الفكر من حدود اليقظة والادراك ، والا ما تقيمه الدولة الرشيدة من وسائل التربية والتنبيه .

وكما ان الناس يخشون ان يمدوا ايديهم الى منبع كهربي خوف الصعق والاحتراق ... كذلك يجب ان يخشو أن يمدوا نفوسهم واخلاقهم الى منابع الشر خوف الصعق والاحتراق والضياع بين قوى الكون العمياء ، التي ليس فيها الا بصيرة واحدة هي منطقة « الضمير » الذي هو قبس من روح خالق الوجود .

* * *

ليس في القرآن صوفية بلهاء تمحي عندها الحدود بين الخير والشر ويختلط عالماهما ، وإنما فيه رحابة هي عفو القادرين وسماحة المربين الذين يعطون الطفولة البشرية حقها من فرص الايعاظ الذاتي... وفيه سماحة الرعاة الذين يتركون القطيع يرتع في باحة الحدود المرسومة ؛ ويغفرون له اللمم الاجتماعي الذي لا يضير الاسس الاصيلة للحياة ... ولكنهم مع ذلك يقظون غاية اليقظة للحدود ، لايدعون فيها ثغرة ينحدر منها اعداء الاجتماع : من قوى الشر والاثم والجريمة والجهالة التي تتخطف النفوس البريئة كما تتخطف الذئاب والثعالب الحملان الوديعة والاطفال الرضيعة في غفلة من الحراس .

* * *

القرآن يعتبر الشر كخصم غاشم يهجم دائما ولا يرتد ، فهو يهاجمه في اغلب آياته ممثلا في اشخاص الفجار والجناة على الحياة ، الذين هم ثمرات معطوبة من ثمرات

الانساني تنقل العطب والفساد والمحق الى سائر نبات الحقل الانساني ، فيجب تطبيبها اولا وإعطاؤها فرص العلاج والشفاء ، فان صحت كان في صحتها نماء وبركات وزيادة في المحصول الانساني الصالح ؛ وان لم تصح كان من الواجب اهدارها وبترها . وحسم دائها أن يتسرب الى الثمرات الصحاح التي فيها رجاء الحياة وتقدم خطواتها في طريق النمو والارتقاء .

* * *

هؤلاء الذين يريدون ان يجعلوا الدين صورة من التسامح والتسامي المطلق على دواعي هذا المعترك ، انهم لم يفقهوا الحياة فلم يفقهوا الدين .

لم يفقهوا الحياة لأنها ما زالت ولن تزال تكذبهم وتأخذ الناس الى غير ما يتوهم هؤلاء لان المعترك يزيد على الايام حدة وشدة وتعقداً وايغالا في ساحات الصراع والصدام والمنافسة والمغالبة ... وهؤلاء يثنون انين نساء ضعاف او حملان وديعة تثغو بين الذئاب ، فتمزق انياب الذئاب حناجرها !

ومعركة الحياة هذه لها عذرها الواضح في انطلاقها الآن بدون قيود الاديان ، لأن أغلب الاديان السائدة تدعوها الى غير ما في طبيعتها ... وقد صارت حياة قوية السلطان ، بالغة الحجج والآثار ، واصلة الى اعماق النفوس تنتزع حججها من دماء الناس التي تغلي في العروق ، وشهواتهم التي تحتدم في الابدان ، ومن روابط الشبكة القوية التي تربطهم بالأرض ربطاً وثيقاً .

فكيف تضحي الانسانية بكل هذه الدواعي القاهرة وتعصاها ، وتنحاز الى تلك الاصوات الخافتة التي وقف اصحابها على شاطئ اللجة يقولون للغرقى والسابحين: ما لكم هكذا تغرقون ... ! سيروا على الماء بالاقدام ... واعبروا المحيط بدون ابتلال ...

لا ! لابد من نزولكم ايها الدعاة الى اللجة تصارعون امواجها ، وتحثون ثقل اعبائها وتقاسون عذاب الخبط فيها بالايدي والارجل ويصيبكم البهر والاعياء من شهيق وزفير متلاحقين ؛ لتنجوا هؤلاء الغرقى بايديكم وبسفن الانقاذ واطواق النجاة العملية ، بدل ان تحاولوا نجاتهم بالكلام ومد الايدي اليهم من الشاطئ البعيد

وقد كان اكثر الذين حملوا الاسلام الاول تجاراً وسياسيين وفرساناً تمرسوا بأسباب الحياة وعركوها اختباراً وابتلاء ، ولم يكونوا بعزلة عن العقل العام للعرب والامم المجاورة لها ، ولم يكونوا عجزة او معتوهين او أذلاء وذوى عاهات ضاقت بهم سبل العيش فجاءوا يحترفون الدين للارتزاق بحكاية قضاياه ومسائله ، بل حملوه الى الدنيا حمل جهاد به في كل سبيل من سبل الحياة العملية المادية ، ونزلوا بكلماته الى الاسواق والحقول والمصانع والجيوش ، كما درسوها في المعاهد والمساجد .

* * *

يجب ان يشعر الذين يؤمنون بالمثل العليا أنهم مضطرون الى مواجهة الحياة الحالية بالوضع الآتي :

ان يكافحوا عوامل الشر والفساد بوجوه كالحة كوجوه اهل الشر والفساد ويجاهدوها بمنطق الخديعة والقسوة وادراك الموقف ، ولا يبيتون البلاهه والغفلة عن مقتضيات الحال .

وأن يحتضنوا بيدهم الاخرى المثل العليا . وينموها في مناطق نموها المأمونة ويخلوا اليها يحدثونها ويكرمون اهلها ويصطنعون معهم منطق السمو والكمال والرحمة والاغتفار ومراعاة مقتضيات الحال كذلك .

اي انهم يكونون كمن يضم ابنه بيد رفيقة لينة ، ويكافح عدوا يهاجمه ويهاجم ابنه بيد اخرى قاسية باطشة ، فلا بد له ان يكون يقظ الفؤاد لما يقوم به من عمل مزدوج متناقض ، وهذا الازدواج في الشخصية ، الذي تحتاجه البيئة في عصور الانتقال والاضطراب ، يكلف اصحابه ثمناً غالياً من التمزيق والتبضيع ومشقة السير بخطوتين في طريقين في آن واحد ! الا انه موقف لابد منه لكل نفس آمنت بالحق في زمن الكفر به . وانتدبت قواها للدفاع عنه . وتريد في الوقت ذاته ألا تضيع في معركة الحياة المعاشية في امم لاتدرك احبابها وخدامها الحقيقيين ، ولا ترحمهم ولا تبالي بهم في اي واد هلكوا وهلكت ذريتهم من الجوع والحرمان ! .

اقد جابهت نفس رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، العالم الوثني والكتابي بروح سامية رحبة حسنة الظن في أوائل عهدها بالدعوة ، وحسبت ان الحق الواضح عندها لابد ان يكون واضحاً لديهم فيسرعوا اليه ولا يكلفوها عناء في قبوله ، فكانت تفيض بالثناء والكرم مع اعدائه واعداء الحق .

ولكنه بعد ثلاثة عشر عاما تبين ان الشر عنصر عريق خالد له جنود وسدنة وكهان يعيشون به ويدافعون عنه ، كما يعيش هو للخير والحق ويفنى لهما ويدافع عنهما .

وقد مكث تلك الثلاث عشرة سنة يدعو بالحسنى ، ويقلب الحجج على كل وجه ويتحمل من الاذى ما كان يجب ان يفتح العيون وينبه الاذهان الى ان رجلا يتحمل مثله ما تحمل جدير ان يكون موضع الاعتبار والتفكير والاقتناع بصدق دعوته والقفو على آثاره .

ولكن دولة الباطل وسدنتها وكهانها دولة فطنة تنظر . وقد علمت من اول يوم ان ما يدعو اليه محمد هو الحق عدو مصالحها الدنيوية فان هي اطاعته فقدت عزها وعرشها وكل مالها من جاه وسلطان فأعلنت العصيان من اول ساعة ، وقال قائلها ابو لهب : « تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ » ، « خذوا على يديه قبل ان تجتمع عليه العرب » .

ومكثت امواج دعوة الحق تتكسر على صخرة الباطل الصماء ، ولا تنال منها الا حصى صغاراً .

عندئذ استيقظ الحق الاعزل لنفسه وعوامل ضعفه ، ورأى الله لرسوله ان العمر يذهب سدى مع مخاطبة هذه الصخرة الصماء ، فليلتمس سبيلاً غير الكلام لتحطيمها ودفعها من طريق دعوته ، ولدفع اذى الباطل عن الحق واهله .

فاستيقظي اذاً ياعوامل التدبير للقوة والغضب بعد ان طال نومك ! .

وليكن الحق المسلح والسياسة المهاجمة والسباق الدنيوي بيننا وبين قريش .

وليكن حرب لا للغزو ولا لتحطيم حرمات الحياة ، وانما الصيانة حرمات الحياة وحفظ عوامل نموها نقية قوية .

وليكن التدبير والدهاء بجوار البراءة والطهارة والصراحة . ليكون لدولة

الايمان حارس على كل باب يمكن ان يدخل منه الاعداء المتربصون ، الذين ان يظهروا عليه لا يرقبوا فيه حرمة ولا ذمة .

وكان ما كان من استجابة الحياة كلها لدعوة الحق المسلح ، والعدل المجنح ، بعد ان رآها الناس في منظر عجيب تجتمع عليه انظار عباد الجمال وعبيد العصا .

* * *

فهل للمسلمين ان يفقهوا ان المثل الاعلى الاسلامي نزل في ارض حرة بين قوم احرار اقوياء ، يتصلون بالطبيعة اتصالا مباشراً ، ليكون كاملا وراء قواعد العقل الكامل وآمال القلب الكامل الذي يحس الحياة في الطبيعة احساساً سليما عميقاً رحباً ، فكان مجال الكمال الاجتماعي والفكري والتعبدي فيه اوسع مجال تنقطع فيه أنفاس الحكماء والاصفياء والمشرعين والمصلحين الاجتماعيين ؟ ! .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفائي من فروض الاسلام اذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين ، واذا تركه الجميع آثم كل من يتمكن منه بلا عذر ولا خوف ، ويتعين اذا كان في موضع لا يعلم به الا هو ، او لا يتمكن من ازالته الا هو ، كمن يرى زوجه او غلامه او ولده على منكر او تقصير في المعروف ، فانه يتعين عليه تغيير ما هم عليه من منكر وحملهم على ما قصروا فيه من المعروف . وهذا مما تهاون الناس فيه تهاوناً فاضحاً في هذا العصر مع انه ميسور لكل ذي ولاية على من ولاه الله امرهم ، واسترعاه عليهم كالاب بالنسبة لاولاده ، والزوج مع زوجه . ولو ان كل ذي ولاية من المسلمين قام بهذا الواجب في دائرته ومحيطه ؟ وفيمن ولاه الله امرهم لما رأينا هذه المنكرات التي استشرى خطرها في ارجاء البلاد فهدد الكيان الخلقي بنكبة عظيمة .

ولا يسقط الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المكلف لمجرد توهمه او ظنه انه لا يفيد . بل يجب عليه فعله فان الذكرى تنفع المؤمنين ، وليكون معذرة له بين يدي ربه ينجو بها من تبعة التقصير . قال تعالى : « واذ قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون »

وقد امر النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو الناس جميعاً الى الاسلام ، وان ينذرهم بعقاب الله مع ان منهم فريقاً اخبره الله تعالى انهم لا يؤمنون ، وان الله تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ، ومع ذلك لم يترك دعوتهم وانذارهم ؛ فأولى ان نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر حتى من توهمنا او ظننا انه لا يستمع لعله يتذكر على مر الايام بتكرار الدعوة بل ان ذلك التكرار كثيراً ما يقهر سورة الكبرياء والعناد في نفوس المتكبرين والمعاندين ، ويفتح امام بصائرهم مسالك الهداية ، ولذلك نرى جميع دعوات الانبياء تعتمد التكرار في الدعوة من اعظم وسائل الاقناع والهداية . وقلدهم في ذلك جميع الدعاة الى المذاهب الاجتماعية

على بعد ما بين دعواتهم ودعوة الانبياء عليهم الصلاة والسلام في نبل المقاصد، وسمو الغايات .

ولا يختص الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باصحاب الولايات ، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين ، والدليل على ذلك اجماع المسلمين، فان غير الولاة في الصدر الاول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مع تقرير المسلمين اياهم ، وترك توبيخهم على التشاغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية .

ويجب ألا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الا من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء ، فان كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة او الصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وان كان من دقائق الافعال والاقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ، وليس لهم انكاره ؛ بل ذلك موكول للعلماء وواجب العلماء ان لا ينكروا ما انعقد عليه الاجماع الا ما وقع فيه الخلاف بين ائمة المسلمين .

وعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان يكون قويا في امره ونهيه ، فلا يصده عن القيام بهذا الواجب الديني العظيم الذي هو لباب الدين ، وسر دعوة الانبياء والمرسلين ، واعظم باب من ابواب النصح للمسلمين ، لا يصده عنه جبروت الجبابرة . ولا ايذاء اعداء الله فقد وعد الله بنصر من نصره ، واعزاز من اعزه ، فقال تعالى شأنه : « ولينصرن الله من ينصره » وقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المؤمنين » .

وقد اضاع المسلمون هذا الواجب حتى كثر الخبث وعم الفسق والفجور ، واصبحوا جميعاً بسبيل عقاب الله « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم » ومن هذا يظهر معنى الحديث الشريف المروى عن ابي سعيد « من رأي منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

وقد دل هذا الحديث على ان درجات الانكار ثلاث الاولى تغير المنكر باليد فان لم يستطع بان غلب على ظنه ان تغييره بيده يسبب منكراً اشد منه من قتله او قتل غيره بسببه كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف ، فان خاف ان يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة من امره .

* * *

وعلى الآمر والناهي ان يرفق في امره ونهيه . لأن ذلك ادعى الى تأثيره ، قال تعالى . « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وقال جل شأنه : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ومن الحكم المأثورة قولهم :

ابى الوعظ ان يكون جدالا وابى النصح ان يكون جهارا

المساواة في الإسلام

لقد ساوى الاسلام بين الناس دون ان يتعرض للاشياء الشخصية كما فعلت الاشتراكية وغيرها من النهضات الحديثة في هذا الصدد .

ساوى الاسلام بين معتنقيه في اربعة امور : هي :

١ ـ بالصلاة ليسجد الغني والفقير . والشريف والوضيع ، والحر والعبد ، والمالك والمملوك بين يديه تعالى .

٢ ـ بالزكاة في الثروة . والمال لكي يتحصل الفقير على بعض ما يملكه الغني .

٣ ـ بالصوم ليعرف الغني قدر الجوع والفاقة كما يعرف ذلك الفقير .

٤ ـ بالحج ليوجد الائتلاف بين الناس في مكان واحد ، وسعيهم في حالة واحدة ، ولبسهم ثوبا واحداً ؛ وهو ثوب الاحرام حتى يقف سائر طبقات العالم حفاة عراة فوق جبل عرفات . وان في ذلك لحكمة بالغة .

* * *

واذا اجتهدنا بملاحظة الاشياء باعتناء وجدنا انه لايزال هنالك عدم مساواة بين الافراد وبين الامم . بيد انه لايوجد رجل يتساوي مع آخرين في اقتداره ومعرفته للاشياء الضرورية للحياة الانسانية وتقدمها وينتج طبيعياً عن عدم المساواة في المعرفة والعلوم سوء تعادل او تفاوت في توزيع الثروات . وذلك يكون الشيء المعروف عندنا بالطبقة او الرتبة ، وتلك هي التي تجعل بعض اناس فائقين على آخرين . بينما بعض احوال اقليمية واكتنافات طبيعية تسعى لتفريق شعوب وجعل شعوب اقوى بطشاً وتقدما من غيرهم .

* * *

والناس عروض مثلية لايتفاوت احدهم عن اخيه . فكل من طينة واحدة صبت في قالب واحد ؛ فيجب اذن ان يوضعوا جميعاً في كفة واحدة . وان يعاملوا على قدم المساواة ، وان يعطى لكل منهم قسط من خيرات الدنيا بالعدل والانصاف

ويجب ان يتوازن الناس في حظوظهم ، في مساكنهم ، في ملابسهم . في مآكلهم وفي مشاربهم ، وفي كل مرفق من مرافق الحياة .

ولكن . . .

ولكن اين المساواة .

المساواة كلمة نبحث عن مدلولها فلا تجد له من اثر ، وفي كل نظرة يرسلها الانسان حوله في الحياة لا يقع بصره الا على مفارقات وتباين لا يتسع له الحصر .

هذا رجل عظيم ، وذاك رجل وضيع

هذا قوي سليم ، وذاك ضعيف بليد

هذا سليم الجسم لاعيب فيه ، وذاك اصم او اعش او اعمى او اعرج .

هذا له معدة تفل الحجر الاصم . وذاك مريض يشكوا المها في كل حين .

ومن الناس من يصعد في الحياة حتى يصل سن المشيب ، وهو يتمتع بابويه . ويقرعيناً باولاده . يكبرون ويترعرعون في صحة جيدة دون ان يصل اليهم مرض ومنهم من ينشأ في الهموم غريق دمع مدرار يفقد كل يوم عزيز عليه .

اذن فعدم المساواة بين الناس امر واقع . وحقيقة لامفر منها ، والناس يفترقون بعضهم عن بعض. اما لعيوب في انفسهم ، واما لظروف خارجة عن ارادتهم لاقبل لاحدهم بها .

هذا شخص غيور بطبعه ، نشيط كثير العناية والحذر واليقظة يؤدي واجبه وينظر في مصالحه على اتم وجه واقوم سبيل .

وهذا اخر مهمل كسل همجي لاضابط لنفسه وتزعاتها .

هذا شخص ولد اكمه فهو لا يستطيع ان يجاري الحياة الراهنة ، وذاك ولد بصيراً يرى طريقه فيها .

كيف اذن تسول لنا النفس ان نطلب المساواة بين الناس في الحظ وفي الخير والشر مع وجود هذه الفوارق الذاتية والعرضية معاً .

* * *

فالمساواة ضرب من المستحيل . اللهم الا في شيء واحد — كما قلنا —

كالصلاة والزكاة والصوم والحج – لا في غيرها .

فواجب ان يتساوي الناس في حقوقهم العامة ايضاً فلا يسمح لاحد اياً كان في الوجود ان يحتقر غيره او ان يضطهده او يضايقه باي شكل كان ليفسح الطريق لمصالحه الشخصية .

ومن العار على الناس جميعاً ان يفوت عليهم هذا سواء كان ذلك باختراع الحيلة او باستعمال السلطة ، او بانتحال ثوب الحل عن طريق التشريع وسن القوانين .

يجب ان نحفظ للناس كراماتهم وان يكون اساس الكرامة الجد والاجتهاد والعمل الصالح لمنفعة البشر .

واذا نشأ شخص في أسرة شريفة فبذ غيره قوة ومالا ، واصبح اوفر منه حظاً ، او نشأ في أسرة ضعيفة ولكن مواهبه الشخصية وظروفه الخاصة قد هيأت له اسباب السبق والتفوق فلا يجوز لاحد ان يحسده او يحقد عليه او يعامله معاملة الخارجين على نظام البشرية ، بل يجب ان يقدم له الشكر على الاقل لانه قام بواجبه في الحياة فوضع حجراً جديداً في بناء ثروة البشر .

ان ثروة الامة تتكون من ثروة ابنائها كما تتكون كنوز العلم من ثمرات جهود العلماء واكتشافاتهم ، وكما تتوفر وتتزز وتتكاثر عروض التجارة وادوات العيش ومؤهلات البقاء في الدنيا من ثمرات مجهود الزراع والعمال الذين مهروا في اعمالهم .

والعالم انما يتقدم في كل ناحية بالخطى الثابتة الهادئة التي يخطوها الناس مادياً وأدبياً .

فلو اننا عاملنا الناس على قدم المساواة المطلقة ولم نضع جزاءاً حسناً لبعد النظر ولحسن العمل . ولتدبير المال وانفاقه في خير الوجوه ، لما حمل احد نفسه مشقة رفع قدمه ليسبق بها زميلا له في مضمار الجهاد الحيوي ، ولمات الناس قعوداً وكسلا .

ان المساواة امر واجب في العبادة وفي الحقوق العامة فحسب ، وفيما عدا

ذلك فهي عزل وعبث ، وعدم المساواة واجب لا مفر منه فهو سند الرقي العام . وهو مفتاح الجهود .

* * *

على اننا لانلبث ان الامم كلما ارتفعت وازداد تقدمها ، وراجت شؤونها زالت الفوارق التي تفصل بين الناس ؛ وجنح عدم المساواة في نهاية الامر لان يكون مساواة حقيقية ، لأن في التقدم والرقي رواجاً للخير العام ، والخير العام ملك للجميع .

المرأة في الدين والدنيا

دعا الاسلام وحث الرسول على تعليم المرأة واعدادها للحياة اعداداً حسناً ، فليس العلم والتعليم واثارة العقول من باب التشبه بالرجال المحظور وانما هو مدعو اليه ومطالب به .

ولكن لا يزال في نفوس بعض الناس ثورة على المرأة ؛ ولا يزال ثمة فريق يرى تعليمها اثماً وجرماً . ويكره ويأبى تلقيها شيئاً من العلم بنير امامها سبيل الحياة المتشعب ومفاوزها المظلمة . ويظهر لها مابها من صلاح وفساد ، وطيب وخبيث ، ويعيب الذين يرسلون بناتهم للمدارس ودور العلم . ويرميهم بالخروج على الدين ومخالفة قواعده واحكامه ، ولعمر الحق قد ضل اولئك ضلالا مبيناً واساؤا الى انفسهم ودينهم من حيث لايعلمون .

فالدين الاسلامي ليس بالدين الذي يمنع تعليم المرأة ويجهل ما فيه من فوائد ومزايا ، وليس هو الذي يوجب عليها ان تعيش جاهلة حقيرة ، بل هو الدين الذي سار مع العلم جنباً لجنب . واعطى المرأة من الحقوق وجعل عليها من الواجبات ما اعطى وجعل للرجل ، فهي لديه مثله سواء بسواء . ولم يكن الدين عدواً لها مانعاً تعليمها . وان نصوصه لصريحة واضحة في الحث على تعليمها وتثقيفها بالمعارف والاداب وفي الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة : »

وقد شغفت المرأة في عصره بالعلوم والفنون في كثير منها ، وتفوقت تفوقاً باهراً يشهد لها بالسبق وعلو المدارك .

فنبغ في الوعظ والارشاد فاطمة الزهراء .

وفي اصول الدين والتاريخ والادب عائشة بنت الخليفة الاول ابي بكر الصديق

وفي الشعر والادب السيدة سكينة بنت الحسين التي قال عنها ابن خلكان : انها تفوقت على فطاحل الرجال وكان يجتمع اليها الامراء والشعراء للمنافسة والمحاضرات ونقد الشعر :

وقد شعر العالم اليوم بضرورة تعليم البنت التي هي مرآة الحياة المستقبلة وذخيره

الامة وكنزها الثمين الذي تتوطد عليه دعائم مستقبل الاطفال الذين تتألف منهم العظماء والحكماء والفلاسفة والمخترعون ، وانه انجع دواء لامراضنا الاجتماعية . وانفع علاج لقمع بذور الرزيلة ونشر الفضيلة فاخذوا يحثون عليه توصلا الى التقاط هذه الضالة المنشودة لتصبح اماً صحيحة اهلا لما يلقى اليها في هذه الحياة من الاعباء الثقيلة التي اهمها ادارة شؤون منزلها ونظارة بيتها الذي هو المدرسة الاولى من مدارس التعليم والذي اذا صلحت التربية فيه خرج النشء منه محباً للفضيلة مستعداً لكل خير ، مبتعداً عن كل شر ، مثمراً الثمر اليانع لاهله وامته . مجداً في طلب العلم مكباً على عمل ما شأنه ان يعليه ويعلي شأن امته ، وبهذا يعم الاصلاح ويبيد الفساد وتقل الجرائم ويتلاشى العدوان ، وتصبح افراد الامة اخوانا على سرر متقابلين لافرق في ذلك بين ذكر وانثى .

* * *

ان الدين الاسلامي يدعو الى هذا ويحض عليه ، وكثير من آيات الكتاب العزيز ناطقة به واحاديث النبي العربي صلى الله عليه وسلم ملاى بالحض على تعليم العلم والدعوة الى مكارم الاخلاق والى النفع الانساني ومنع ما من شأنه الاذى ، ولا يوجد امرؤ ذو مسكة من عقل يعارض في هذا او ينازع فيه . وان من يعارض في هذا فانما يعارض ناسياً احكام دينه . تاركا عقله ووجدانه ذلك لان الدين الاسلامي الحنيف والحنفية السمحاء تدعو اليه غير مفرقة بين ذكر وانثى .

* * *

اوجب الله جلت قدرته على النوع الانساني الايمان به . وجعل عدم الايمان به وبمعرفته الخلود في النار . فهل يعقل ان يكلف شخص بالايمان والمعرفة به ولا يمكن من وسائلها .

وهل يتصور ان تكلف السيدة بالايمان بالله والمعرفة به ويحظر عليها العلم وهو من وسائله .

الزم الله النوع الانساني الايمان به كما قلنا لافرق بين ذكر وانثى وامر النوع بالنظر . وقال المتكلمون ان اول واجب هو النظر . فهل يعقل بعد هذا ان يحظر

على النساء تعلم العلوم الكونية . وهل يدور بخلد امرىء ان يمنع سيدة من النظر في الكون . في السماء والارض . في الاجرام والافلاك . في الشمس والقمر . والليل والنهار واختلافها باختلاف الفصول الناشئة عنها او عن غيرها ، وهل لايكون القول بهذا يناهض القرآن والسنة والله سبحانه وتعالى يقول « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب » وقوله « وفي انفسكم افلا تبصرون » وآية « قل انظروا ماذا في السموات والارض » اليس من البديهي في حكم العقل ان هذه الايات الشريفة تدل على طلب النظر للاعتبار ، وهل النظر والتفكير في خلق السموات يكون بغير البحث عن كواكبها ودورانها وما هو الثابت منها والدائر وما فائدة هذا الدوران .

وهل البحث في خلق الارض الا بحثاً عن انها كيف خلقت وكيف نصبت فيها الجبال . والا انها كيف سطحت وكيف جرى فيها الماء ، وما ينابيعه ومن هم سكانها وانواعهم وهل هي مرتكزة على الهواء بقدرة المبدع ، وكيف ينفذ اليها النور من الافلاك المحيطة بها او الدائرة عليها او الدائرة هي عليها ، وهل هذا جميعه يمكن الا بتعليم علم الفلك والجغرافيا بانواعها .

وصفوة القول الست ترى الايات الشريفة موجبة العلم بما يحيط الانسان من من الاكوان حتى يكون ايمانه ايماناً صحيحاً ، وحتى يذعن بان لهذه الاكوان البديعة النظام والصنع مسيطراً عليها قادراً .

اولست ترى هذه الآيات حاضة على تعليم كثير من الفنون وهذا الطلب عاماً شاملا لكل بني النوع لافرق في ذلك بين ذكر وانثى ؛ فهل يمكن والحالة هذه القول بعدم اباحة فن من الفنون العلمية الصحيحة المفيدة على السيدة .

* * *

كلف الله المرأة بمعرفة مايجب له وما يستحيل ، وما يجوز في حقه . كما خاطبها بوجوب التصديق برسله خصوصاً خاتم الرسل عليه السلام . ومعرفة ما يجب الله من كل كمال ويستحيل عليه من نقص ، ومعرفة ما يجب للرسل عليهم السلام وما يجوز في حقهم . وأوجب عليها الايمان باليوم الآخر ، فهل مع هذا يسوغ قائل

لنفسه بانه يحظر عليها العلم بالاشياء التي تؤهلها لمعرفته وهو واجب عليها والاشياء التي لانجاة لها في الآخرة الا بمعرفتها .

وهل يعقل ان يحظر عليها تعلم تاريخ الامم لتعرف من هم الرسل . وكيف ارسلوا ، وماهو هديهم ، وماهي معجزاتهم وما هي آثار هدايتهم الى العالم الانساني وما هي الارهاصات التي لبثت بين يدي كل رسول منهم ، وكيف كان مهيئاً لقبول الدعوة او غير مهيأ حتى تؤمن عن اذعان وتصدق عن يقين ، وحتى تستطيع التفرقة بين الرسل المؤيدين بالوحي السماوي وبين رجال الاصلاح لتميز ما هو مؤيد بالوحي وبين غيره حتى لا يختلط عليها الحابل بالنابل فتقع فيما يقع فيه كثير ممن لا دين لهم من القول بعد التفرقة بين رجال الاصلاح وبين هداة الامم بالدعوة الي الله وهم الرسل عليهم السلام .

* * *

خاطب الله المرأة باحكام الدين كما خاطب الرجال فأوجب عليها خمس صلوات في اليوم والليلة وجعل من شرائطها التوجه نحو الكعبة ، فهل يعقل ان يوجب عليها هذا ولا يوجب عليها معه العلم باحكام الوضوء والطهارة بنوعيها ومعرفة انواع المياه والتيمم ومتى يجوز . وهل تستطيع اداء الواجب على عدم معرفتها ماهية الصلاة وشرائطها ومفسداتها ومبطلاتها وهل يتصور ان يكون من شرائط الصلاة التوجه نحو الكعبة ويحظر عليها ان تعرف كيف تتوجه سواء كانت مقيمة او مسافرة . مع ان كل ذلك شرط في صحة العبادة ، فهل اذا ارادت سيدة ان تعرف الجهات الاصلية والفرعية والنجمة القطبية وغيرها من النجوم مما جعله الله علامة على الجهات ، ومميزاً للطريق التي امرها الله بالتوجه اليها في كل وقت من اوقات صلاتها يقول قائل بالمنع . وهل يسمع لقوله اذا قال ام يقال والحالة هذه ان السيدة قامت بما يجب عليها نحو دينها وعلمت ما تستطيع به ان تكون على هدي في اداء فروضها اليومية . وعلى بينة من صحة عبادتها .

* * *

اوجب الله على المرأة الصوم وجعل له وقتاً معيناً وظرفاً خاصاً . وجعل من

قسم الواجب فيه انواعاً منها صوم رمضان وصوم يوم النذر ، واباحة في اوقات . وحظره في اخرى . حظره على المرأه وقت الطمس . فهل من المعقول ان تخاطب بذلك دون ان يطلب العلم باحكامه وما يفسده ودون تعرف مبدأ وقته ونهايته؛ ومتى يتعين صوم النفل ومتى لا يتعين . وما حكم ما اذا انذرت صوماً .

* * *

فرض الله الزكاة في المال على من يملك نصابا معيناً او نصباً لا فرق في ذلك بين ذكر وانثى . بشروط واحكام خاصة ، فهل اذا ارادت سيدة تعلم الحساب لتعلم مقدار ما يجب عليها اخراجه من مالها تمنع .

وهل اذا ارادت سيدة ان تتعلم ماهو واجب عليها لتؤدي الزكاة فتعلم ما يجب فيه الزكاة والمقدار الذي لا يجب فيه ، وتعلم حكم زكاة الثمار وزكاة الابل والغنم . وتعلم حكم ما عليها من حلى ومصاغ من حيث وجوب الزكاة فيه وعدمه حتى لاتقع فيما يخالف الواجب للاثم الذي لا ينجيها منه الجهل اذ لا عذر بالجهل في دار الاسلام . ايستطيع مسلم ان يقول بالمنع — كلا —

* * *

وفرض الله الحج على من استطاع اليه سبيلا لافرق بين ذكر وانثى ، فهل بعد الفرض من سبيل الى القول بعدم جواز تعلم المرأة احكام الاحرام وما حظره الله تعالى في وقته وما اباحه . واحكام المناسك والفرق بين الحج والعمرة والقران والتمتع وحكم ماذا الم بها مانع من الصلاة اثناء الطواف او قبل الوقوف بعرفة او حين الوقوف فيها او بعده ، وكذا كل مايلزم الحاج من الاحكام .

* * *

نهى الله المرأة عن الفواحش والمنكرات من الاعمال وواجب عليها الصالح في العبادات والمعاملات ، فهل نهاها عمالا تتصوره ولا تعلمه لتجتنبه ، وهل امرها بما تجهله ، وكيف يمكن ان يثيبها والحالة هذه ويجزيها الجزاء الا وفي على العمل الصالح والكف عن المنكر دون ان تكون على بينه من المنكر فتجتنبه وعلى علم من العمل الصالح فتعمله :

وبعد : نريد ان نقول لتلك الفئة — ولعل امثالها في الامة قليل — بعد ان اظهرنا لهم ما في دينهم من عطف على المرأة ونظر لمصلحتها وخيرها وحثه على تعليمها حتى جعله فرضاً . ان في جهل المرأة وتركها على فطرتها دون تعليم، التعاسة والشقاء والتأخر والانحطاط فهي تعيش لا تعرف للحياة وزناً ولا للعيش قيمة ، لا تدري الطيب من الخبيث ولا الضار من النافع ، سياستها في بيتها معتلة سقيمة ، واطفالها ضعاف ذهبت صحتهم وقوتهم وضعفت عقولهم ومداركهم يصبحون ولو لم تودبهم الامراض رجالا خفاف الاحلام ، ضعاف العقول ، عطلا من التميز والتفكير عملهم وهم وقولهم هراء وخرافة . وان امة تلك حال ابنائها . ورجال مستقبلها لمحال ان ترقى ، وبعيد ان تسعد . مقضى عليها بالانحطاط والتأخر والفساد بالنهاية .

* * *

اما المرأة المتعلمة فهي مثال الرقي والتقدم تخرج للامة رجالا اصحاء الاجسام كاملي العقول والالباب ذوي نفوس عليه نبيلة . وآراء سديدة ثاقبة ، قادرين على محو ما ببلادهم من ضلال وفساد، وان يخلقوا منها اوطاناً ناهضة عاملة تسير بواسطتهم في طريق الحضارة الصحيحة والسعادة الحقة والتقدم المستمر ، وتكون في منزلها الحاكمة العادلة تصرف الامور على السبيل القويم والنهج الصالح ، وتسيرها على الوجه الاوفق . فتراها تقتصد وتكد . وتساعد زوجها في جميع مرافق الحياة ، وتربي طفلها تربية كاملة . وتهذبه وتثقفه فيشب رجلا كاملا متحلياً بالفضيلة نائياً عن الرزيلة مطبوعاً على جميل الافعال . وكريم الخصال . به وبأمثاله تبلغ الامة مناها . وتنال من الحضارة منتهاها .

فاذا أردنا عزاً ومجداً . وأردنا ان نصبح امة لها بين الامم مكانة سامية ومنزلة شماء ، علينا بتعليم البنت تعليما صحيحاً اساسه الفضيلة والآداب الاسلامية الحميدة لنخرج للامة افراداً عاملين يصعدون ببلادهم اوج العلاء والفخار .

المرأة في رأي المفكرين والحكماء

ولو رجعنا الى اساطير الاولين منذ بدء القرن الرابع قبل الميلاد الى عصرنا وراقبنا حركة الفكر البشري من حيث وجهة النظر في وجوه تحسين المعارف الانسانية لوجدنا ان مفكري كل عصر لم يقتصروا في الوصول الى ذلك على ترقيه الرجل دون المرأة ؛ بل امتدت ابحاثهم بجانب ذلك على المرأة ، فمنهم من اعطاها حقوقاً غير تلك التي وهبتها الطبيعة ، ومنهم من حرمها تلك الحقوق ، ومنهم من اغفل شأنها ، ومنهم من اختط لنفسه طريقاً وسطاً بين تلك الطرقات ، والكل في ذلك يؤيد نظرياته وآرائه بما ظنه مقنعاً .

وهاهي المسألة لازالت حتى ايامنا شعلة تتأجج . فالنساء في اوربا في كل شعب من شعوبها . وفي امريكا في كل قطعة من ارضها . وفي بلاد المشرق ، في اليابان ومصر وغيرها ينادين وانصارهن من الرجال بما لهن من حقوق تعادل حقوق الرجل ، وبما لهن من مكان لايقل عن مكان الرجل في المجتمع .

على انه يجمل بي قبل الخوض في الموضوع ان آتي ببعض اراء المفكرين والحكماء في هذا الشأن الخطير لندرس وجهات النظر في شتى العصور . ولنبسط امامنا نضال الطوائف الكثيرة المختلفة المنازع في المسألة الجنسية ، ولنلقي نظرة سريعة نستضيء بها فيما بعد على اوزار هذه الحرب العقليه الدائمة الاستعار في كل حين وفي كل شعب ، وحبذا لو استفسر الباحثون الاصلاحات العدة التي ادركتها عقول مفكرى الامم الغابرة وشرحوها لنا باسهاب لنحيط وليحيط كل باحث في هذا الصدد احاطة يستطيع بعدها ان يصور صورة دقيقة كمشروع لمستقبل اقل اغلاطا من الماضي واوفر سعادة لنا وللمرأة المعاصرة لنا .

* * *

لقد كان افلاطون نفسه يحس تلك الصعوبة التي يشعر بها الباحثون في هذا الموضوع في كل عصر ، ولم يكن هو اول مثير لهذه التي سماها « المسألة الجنسية » والتي افرد لها قسما خاصاً من جمهوريته الخالدة ، غير انه اول من بحث وكتب فيها

بحثاً وكتابة فلسفية منظمة بيد انه لم يهتد الى حل نهائي تستطيع الاجيال المعاصرة او التابعة له السير عليه ، فلقد اوصله الحوار والاستنباط العقلي الى ان النساء وان تباين في عقولهن واختلفن في ميولهن من حيث الصناعة والتجارة وشؤون الحكم فانهن في ذلك كله يتبعن القانون الطبيعي العام الذي ينطبق على الرجال معهن سواء بسواء .

وزاد افلاطون على هذا قوله : « ياصديقي » ـ مخاطباً تلميذه غلوكون وأديمنتس ليس في اعمال الدولة ما يختص او يتعلق بشخصية الرجل كرجل ، ولا بشخصية المرأة كامرأة ، فان مواهب العقل موزعة على افراد الجنسين على التعادل والتساوي فالمرأة اذاً صالحة لكل عمل كالرجل وان كانت اضعف منه بوجه عام في ادائها الاعمال .. وعلى هذا يجب ان تسلما معي بمبدأ مساواة النساء بالرجال من حيث التهذيب وفي تربية الاطفال ، وفي سياسة الدولة : وخروجهن الى الحروب ، ومشاطرتهن للرجال في واجبات الحكم » ،

* * *

نترك الان رأي افلاطون جانباً وننتقل قليلا الى تلميذه ارسطو . وفي اعتقادي ان هذا لم يكن ليترك للخيال اثراً في افكاره وفلسفته . بل كان اقرب الى الواقع يريد بكل شيء ان يكون عملياً مبنيا على الخبرة والتجربة .

* * *

خالف ارسطو استاذه افلاطون فيما ذهب اليه من مساواة المرأة بالرجل . فقد كان يرى في المرأة جزأ متمما للرجل . ولقد كان يراها اقل من تعطى حقوقا اكثر مما وهبتها الطبيعة ، واستمع اليه يقول عن المرأة « خلقت لتكون مديرة لشؤون منزل زوجها ، تساعده في حياته المنزلية ، وتخفف عنه اعباء الحياة الداخلية الخاصة ، لهذا يجب ان تهتم بتربيتها كأم وكمربية لاطفالها صغاراً ، اما اذا تساوى الرجل فيما عدا ذلك فهذا مالا يمكن ان يكون .

* * *

ولننتقل خطوة الى الامام لننظر معاً ما كان للمرأة من تقدير في عصرها

الروماني ، ولنأخذ بما اعده لها « موسونيوس » الفيلسوف الحكيم لتهذيبها ، ويتلخص قوله في : « ان الفضائل يجب ان يتحلى بها الرجل والمرأة على السواء وسبيل الفضيلة هو العلم والتربية ، لهذا كانت التربية ميدانا لطرفين هما الرجل والمرأة . وهما فيه ندان » .

وزاد موسونيوس على ذلك قوله « اذا سألني سائل اي العلوم له اسمى المنازل في تربية المرأة وتهذيبها . قلت له في الجواب : اذا كان الرجل لاتكمل تربيته بغير دراسة الفلسفه فكذلك المرأة » .

المرأة في العصر الجاهلي

اما عصر الجاهلية في العرب . فقد كانت المرأة العربية فيه مهانة غير محترمة لا ينظر اليها الا كما ينظر الى كل شيء حقير لافائدة منه ولامنفعة معه . بل كانت تعتبر من سقط المتاع وان من يقلب النظر في هذه الحياة الجاهلية ليجد فيها من العادات السيئة الممقوتة ما يجعله يبكي على الانسانية حسرة وآسى ، اذ كان الرجل يخلف والده على زوجته . يدل على ذلك قول عمرو بن معد يكرب .

فلولا اخوتي وبني منهـا ملأت بها بذي شطب يمبني

ويرون ان بعض القبائل اذا الفى الرجل منهم شابا وسيما شجاعاً باسلا فما اولاه بان يقدم له زوجته حتى تنجب مثله ولعل قوله تعالى « ولا تكرهوا فتياتكم ان اردن تحصناً » ينطبق على هذه العادة القبيحة التي يأباها العقل ويستقبحها الشرع على انه ان لم يكن لديهم من العادات المذمومة سوى وأد البنات الذي حدث القرآن الكريم عنها حيث يقول : « واذا الموءودة سئلت باي ذنب قتلت » . ويقول ايضاً : « واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتواري من القوم من سوء ما بشر به ايمسه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون » . لكفى

* * *

وانا نسوق هذا الحديث الذي وقع من هذا الصحابي الجليل قيس بن عاصم

المنقري بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم قال : لقد حملت زوجتي وكنت في سفر ووضعت قبل ابابي فلما وضعتها قالت ربي اني وضعتها انثى واني اسألك أن تكفلها شر والدها فاعطتها لاحدى جاراتها على ان تقوم بتربيتها نظير جعل لها . فلما حضرت سألتها عن الحمل فاعلمتني انه نزل سقطاً فكان مني ان قبلت على مضض . فلما كبرت البنت وترعرعت وكان لها شيء من الجمال اتت لزيارة امها . فرأيتها فاعجبني جمالها وما هي عليه من الرشاقة وبديع التقاطيع . فسألت امها بنت من هذه فأجابتني هل لو حدثتك حديثها اتعفو عنها ؟ قلت لم لايكون . قالت : انها ابنتك التي وضعتها وانت في السفر. عند ذلك يارسول الله تبدل حبي لها كرها . وفارقتها وما على وجه الارض ابغض الي منها . وتغافلت امها يوما واخذتها الى الجبل فاحتفرت حفرة وكانت تساعدني على امري في رفع التراب ودمعي يسيل من عيني شفقة عليها ورحمة بها ، ولكن من لي برفع وصمة العار التي تلحقني اذا بقيت عندي وعند ما انتهيت وضعتها واخذت اهيل عليها التراب فصارت تبكي وتقول ؛ اتاركي وحدي هنا يا ابتي فبكى النبي عليها بكاء شجياً :

وان مثل هذه الحادثة لتجعل القلب يذوب حنانا وشفقة على مثل هذه الفتاة التي لاذنب لها الا تلك التقاليد الفاسدة التي اعمت بصائر قومها لما وقر في نفوسهم خشية العار او الفقر ، وهي حياة تعسة تئن لها الانسانية جمعاء . وما احراها بان تكون حياة للحيوان الاعجم .

الوأد قبيل الاسلام

ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب وانما كان خاصاً ببعض قبائل بني تميم بن مر ظهر فيهم قبيل الاسلام لسبب طرأ عليهم — فقد ذكروا انهم كانوا يؤدون الجزية الى النعمان ملك الحيرة ولكنهم منعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان جيشاً ساق انعامهم وسبى ذراريهم فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم واموالهم فابى فقالوا اعطنا النساء فقال اننا نخيرهن في الذهاب او البقاء فكلهن اخترن ابائهن إلا ابنة قيس بن عاصم كانت قد احبت عمرو بن الحشرج فاختارت

البقاء عنده فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها ، ثم اقتدى به اهله واهل قبيلته ، ولكن لم يطل زمن الوأد عند العرب لانه مخالف لاحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . وما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية واخذ على نفسه فداء البنات الموءودات .

على اننا لو عددنا مساوئ الجاهلية وما كانت تقاسيه المرأة منها لضاقت بنا الاسفار ، فقد مكثت المرأة ترزح تحت نير الاستعباد تلك المدة الطويلة حتى بزغ فجر الحرية بظهور الاسلام فوضع حدوداً عامة لحمايتها من كل ما يشين سمعتها ويضع من منزلتها . ومزق تلك الجرائم الحمقاء وازال ذلك الكابوس الثقيل الذي كاد يودي بحياتها حتى خطب بعض امراء العرب في قومه يدعوهم الى الاسلام واظنه اكثم بن صيفي : فقال ان الذي يدعو اليه محمد لو لم يكن ديناً كان في اخلاق الناس حسناً . اطيعوني واتبعوا امري ... الخ .

وهذا ما جعل المرأة تشعر بمكانتها في المجتمع وبان عليها مدار التقدم والفلاح في جميع مرافق الحياة العربية . فسكنت لتعاليم الاسلام الحقة ، ورضيت بمبادئه الحكيمة . وعملت على ذلك الدستور السماوي . فما احراها بان تلقى من وراء ذلك تقدما مضطرداً ورقياً سريعاً فتنوعت مناحي حياتها النبيلة ، وتشعبت اغراضها الشريفة فضربت بسهم وافر في العلم والادب والشجاعة والنبوغ سيما في اوائل ظهور الاسلام .

فمن اللاتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وكبر النفس سلمى بنت عمرو احدى نساء بني عدي بن النجار فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجل الا وامرها بيدها فاذا رأت من الرجل شيئاً لا يرضيها تركته .

واشتهرت التيميات من نساء قريش في حظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهن .

واشتهرت منهن بالبسالة عمرة بنت علقمة الحارثية فانه في اثناء معركة احد وقع لواء قريش صريعاً حتى اخذته عمرة ورفعته لهم فلاذوا بها .

وكذلك فعلت هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان في تلك المعركة ما لم يفعله الرجال

فانهـا جمعت النساء واخـذن يضربن على الدفوف خلف الرجال وينشدن الاناشيد الحماسية التي تحرضهم على الثبات ، ولما انتهت الوقعـة وكان الفوز لقريش خرجت مع النسوة تمتاز جثث القتلى فوجدت بينها جثـة حمزة عم النبي صلى الله عليـه وسلم فشقت بطنه واخرجت كبـده فلاكتهـا من غيظهـا فلم تستطع ان تذدريها فالقتها وعلت على صخرة واخذت تنشد اشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين .

وكان نساء الجاهلية يصحبن الرجال في الحرب فيداوين الجرحى ويحملن الماء .

ومن اشتهرن بالادب والشعر الخنساء بنت كعب الانصـاريه وام حكيم بنت الحارث .

ومن شهيرات النساء السيدة خديجة بنت خويلد رضي عنها . وكانت عاقلة حازمة شريفة ذات مال وكانت تختـار من اشتهر بالامانة من الرجال ليتاجر لها في مالهـا ولمـا سمعت بشهرة النبي صلى الله عليـه وسلم قبل الدعوة بالامانـة وكرم الاخلاق عرضت عليه ان يتاجر في مالها وتعطيـه من الاجر اكثر مما كانت تعطي غيره فرضي وخرج الى الشام فلما افلح في تجارته عرضت عليه ان يتزوج بها فأجابها وكانت هي اول من اسلم من النساء وقد ساعدته بمالها وخففت عنه الآلام التي كان يعانيها من عناد قريش .

المرأة في صدر الاسلام

ولما بدأ الاسلام ينشر لواءه وتم ظهوره نصت مبادىء الشريعة الغراء المأخوذة من صريح القرآن الكريم على وجوب احترام المرأة ومقاسمتها الرجل شطر الحياة. وقد اخذت المرأة ترتقي منذ ذلك اليوم حتى كانت السيـدة عائشة رضي الله عنهـا تخوض غمار الحروب بنفسها وتقود جيشاً جراراً من عظماء العرب وسادتهم. وكان يجلس في مجلسهـا اكابر القوم يتلقون عنها حكم الدين واسراره مما صيرهم ائمـة مرشدين ، ودعائم قوية شيد الدين على اساسها .

وقد جعل الاسلام للمرأة شأناً عظيما اصبحت بفضله ذات مكانـة مشهودة بين الرجال ، فاستمرت في هذا الارتقاء ، فلما كان عهد بني العباس وهو ذلك العهـد

الذي انتشرت فيه الفنون الجميلة اخذت المرأة بقسط وافر فكنت ترى من بينهن المتفوقات في الادب ينظمن من الشعر والنثر ما يأخذ بمجامع القلوب، والبارعات من الفتيات والجواري في فن الغناء والعزف على الآلات مثل القيثارة والعود وذلك مما امتلأت به بطون كتب التاريخ في رقي المرأة .

ولا انس ما قامت به شجرة الدر من الاعمال الخالدة في مصر التي خرجت عن طوقها وأوجدت لها قدماً ثابتة بين عظماء الرجال .

* * *

ولما جاء الاسلام باحكامه وسننه الشريفة تميزت المرأة فيه بانفتها وعفتها وجلالها على اننا نستطيع ان نقول ان المرأة في هذا العصر كانت تساوى الرجل حقوقا وكانت ذات نفوذ . ولقد ظهر اثر ذلك بيناً فى الحروب والحكم . ولئن اردنا برهانا فهاهي ذي موقعة الجمل تشهد لعائشة . وها هو ذا العصر العباسي ينطق للنساء بما كان لهن من نفوذ ، فقد انتزعت الخيزران ام الهادي والرشيد الملك من اولادها . وكذلك فعلت ام المستعين بالله . ونحت نحوها ام المقتدر .

* * *

ذلك كان شأن المرأة في العصور السالفة ؛ وكانت هذه النهضة في مهدها اوائل القرن الثالث عشر . غير انها اينعت واتت اكلها اخريات القرن الخامس عشر ، وما ان بزغ فجر القرن السادس عشر حتى اشرق على العالم اجمع ضياء هذه النهضة . وحتى كان للحرية فيه معنى اسمى من المعنى الذي عرفته الاجيال السالفة وتبدلت اوجه كثيرة تعنى الانسان منها واهمها احوال الاجتماع .

* * *

ولم يفت امر المرأة أئمة الحكام والمربين في عصور هذه النهضة . ومن بين هؤلاء « ارزمس » الالمانى الذي يقول « لابد من بذل في نشر العلوم والمعارف بين الناس نشراً فسيح المدى ؛ وان ينال منها النساء حظاً وافراً اسوة بالرجال » .

ومما قاله هذا المربي الكبير عن المرأة ما يأتي « الام هي المربية الطبيعية للطفل

في سنواته الاولى وكل امرأة لاتشغل نفسها بتربية اطفالها ، ولاتعنى بتنشئتهم فهي نصف امرأة » .

وتبعه « مرتن لوثر » بقوله « لا فرق عندي في التعليم بين غني وفقير وذكر وانثى » .

كان ذلك في القرن السادس عشر كما اشرنا . وجاء القرن السابع عشر بعد ذلك فاهمل اصلاح المرأة في اوائله . ويرى ذلك واضحا في قول اكبر شعراء الانكليز بعد شكسبير وهو « جون ملتون » التربية التامة الصحيحه هي التي تعد الرجل لاداء الاعمال خاصها وعامها با حكام ومهارة ودقة اثناء الحرب والسلم » على ان نجم المرأة بدأ مرة اخرى يظهر في منتصف هذا القرن اذ ترى الملكة اليصابات تحكم انكلترا .

* * *

ولم يهمل حكماء وفلاسفة النصف الاخير من هذا القرن امر تربية المرأة ؛ وام من فكر في هذا الموضوع اثنان وهما « بيكون » الفيلسوف الطبيعي والمربي الكبير « وجون ايموس » وكان لمدارس الامهات اثناء الثاني من الاثر في تعليم البنات ما جعل التربية شائعة مشتركة لافرق فيمن ينهلها سواء في ذلك الذكور والاناث .

وعلى هذا نستطيع القول بأن المرأة نالت ما للرجل من حقوق في التربية والتعليم ؛ على انهم ما فاتهم ان يزودوا بناتهم بعلوم تدبير المنزل والمسائل الزوجية وتربية الطفل في سنيه الاولى .

* * *

على نحو ما قدمنا كان القرن السابع عشر ؛ وجاء القرن الثامن عشر فأغفل شأن المرأة وحقر امرها . ونشأ فيه مذهب « روسو » او مذهب عدم المساواة القائل : « ليست المرأة الا مخلوقا مكملا طبيعياً للرجل . وليست هي مخلوقا مستقلا بذاته »

ومن قوله يجب ان تكون تربية المرأة دائرة حول علاقاتها بالرجل وصلتها به .

فعليها ان تتعلم كيف تسره وتنفعه وكيف تكسب محبته وتربي عياله وعليها ان تعرف كيف تخدم الطاعنين في السن وتقوم بتسليتهم وتعليمهم » .

ولم يفس « جان جاك روسو » جمال المرأة التي يجب ان تتحلى به ولكي تزيد جمالها جمالا عليها ان تقوي جسمها ليكسبها رونقا وبهاء ولتخرج نسلا قويا صالحاً.

* * *

الى هنا ينتهي القرن الثامن عشر وتبدو لنا بوادر القرن التاسع عشر مخالفة تمام المخالفة لما تقدمه من آراء مربي القرن السالف ، ويتمخض لنا هذا القرن عن مرب كبير وحكيم عظيم هو « بستالوتزي » الذي يقول « ان البيت اس الامم اخلاقا واعلاء لشأنها ، فمن اراد اسعاد امته فعليه ان يعمل على اصلاح المنزل باعداد الامهات اعداداً يقدرهن على القيام بشؤون التربية الاولى .

ووافقه على رأيه صديقه « هربارت » في ابداء رأيه ، وكثير غيره من مربي هذا القرن .

وقد اوجب « فرويل » اسناد التربيه في روضات الاطفال الى النساء لانهن « اصبر على تعليل الاطفال من الرجال واملك لقلوبهم ، وهن ارق جانباً واعطف قلبا وارحب صدرا وما اقرب طباعهن من طباع الاطفال واسهل امتزاج ارواحهن بارواح الاحداث الصغار » .

وقال : « ان ازمة الممالك معقودة بنواصي الامهات ، ومستقبل الشعوب رهن بايدي النساء . فهن ابلغ تأثيراً في انهاض الامم من الغزاة الفاتحين ، ولهذا كان واجبا علينا ان نعطي المرأة حظاً وافراً من التهذيب والتعليم لتستطيع بذلك ان تخرج لامتها رجالا مهذبين يقومون بواجبهم في نصرة الوطن واعزازه » .

انوثة المرأة ورجولة الرجل

وللمرأة والرجل قوتان متباينتان تستمدان من فطرتين متباينتين وهذه المباينة بين فطرتي الرجل والمرأة هي سر ما بينهما من الفة وامتزاج . فهما مثل من القوى السالبة والموجبة اللتين يكون اختلافهما في النوع سبباً في اندفاع بعضها الى بعض ،

فرجولة الرجل وانوثة المرأة هما هاتان القوتان اللتان تنعطفان من حيث تختلفان، فاذا انحرفت انوثة المرأة واتجهت الى الرجولة ، واذا انحرفت رجولة الرجل واتجهت نحو الانوثة كان في ذلك البوار للجنسين معاً .

وكلما اتجهت فطرة الرجل او المرأة الى كمالها الذي هيأه الله لها اتجه العالم على قدر ذلك الى السعادة المنشودة والخير العظيم .

فاذا اكتملت رجولة الرجل اكتمل كرمه وحلمه وجلادته وشجاعته وتسامحه عن الريب . وتفانيه في سبيل سعادة الانسان .

واذا اكتملت انوثة المرأة اكتملت معها الامومة السامية والزوجية السعيدة وتناهت معها معاني الرحمة والحب والوفاء والعناء في راحة الولد والزوج والاسرة والوطن .

ومن اوضح مظاهر انوثة المرأة قوة الحس وارهاف العاطفة ودقة الوجدان وانبعاث الضمير ، وهذا ما يجعل للدين عليها سلطاناً اعظم من سلطانه على الرجل فهي بما لها من انفساح مدى التصور وقوة سلطان العاطفة تتمثل عظمة الله اكثر مما يتمثل الرجل ، وتستشعر حبه والخوف منه باشد مما يستشعر ، وهي اذا طبعت على الدين ونشأت عليه لا تعتصم بالتأويل ولا تفزع الى الحيلة شأن الرجل اذا اثقله الواجب واعياه الاحتمال . بل تسير به خالصة مخلصة حتى تبلغ ابعد غايتها من الكمال .

وان من شأن ما طبعت عليه المرأة من دقة الحس وارهاف العاطفة وتوثب الخيال ألا تقف عند الحد الوسط من خلالها وسجاياها . فهي لا ترى إلا ممعنة في الرحمة او القسوة . وفي الحب او الكره . وفي الخفر او الابتذال . وفي البذل او البخل . وفي الفناء في الرجل او الطغيان عليه ، هذه طبيعتها لا ترى في غالب امرها الا مندفعة فيها بالغة اقصى غايتها ، وهذا سر ما يعنيه القائل :

فهي شيطان اذا افسدتها واذا اصلحتها فهي ملك

وذلك ايضاً سر ما نراه في الفرق الشديد البعيد بين حال المرأة السورية في عشر سنوات بل في سنة واحدة .

لكل ذلك كانت المرأة احوج ما تكون الى اليقظة الساهرة لتوجيه سجيتها وغريزتها الى الخير كله او الى الوقوف بها جهد الامكان عند الحد الوسط اوقريباً منه . ولكل ذلك كانت احوج ما تكون الى قوامة الرجل ؟ وكانت احوج ما تكون الى من يقف بها وقفة صريحة حاسمة بين الحقوق والواجبات، هذه العوامل كلها وجدت فيها كاملة وثيقة عندما اسفر صبح الاسلام واستهل نوره على جزيرة العرب .

لقد كان للمرأة العربية في العهد الجاهلي نصيبها الموفور من قوة النفس وصفو الخلق ولكنها كانت برغم ذلك تعاني كثيراً من الالم المرهق . والحسرة المضنية . والشقاء الاليم الى حد أيأسها احيانا من الحياة فقضت عليها راضية مطمئنة .

لم يكن هنالك في ذلك العهد دين ذو عقيده الا ما كان في بعض البقاع النائية من اطراف جزيرة العرب . فلم تشعر المرأة بذلك الايمان الذي يعزيها من المصائب الفادحة والخطوب الجسيمة . واذا كان الايمان من الزم الاشياء للرجل لانه يقوي عزيمته ويرد شكيمته ، وينير بصيرته . فانه الزم للمرأة لانه يطفي آلام نفسها ويأسو جراح قلبها ، ويضيء ظلمة حياتها ، فاذا فقدت الايمان فقد فقدت اقوى وسائل السعادة، وحرمت اعظم نعم الله على هذا الوجود .

وكانت المرأة الجاهلية غرضاً لاحداث من الدهر توقر العظم وتقصم الظهر ، واشد هذه الاحداث السباء والوأد . كما تقدم .

فاما السباء فقد كان عاما في العرب جميعاً ، لقد كان العرب يلحقون جيوشهم بصفوف من النساء ليثرن منهم الهمم ويقوين العزائم . فاذا دارت الدائرة على فريق كان اكبرهم الغالب ان يستحوذ على نساء المغلوب ليقطع آخر عرق ينبض من كرامته . فانظر بعد ذلك كيف تكون حال تلك المرأة التي كانت في صباحها زوجة سيد كريم ، او ابنة قائد عظيم ، وقد تكون اماً لهذين معاً ثم تمسي فاذا هي جارية مهينة تسومها امرأة اخرى سوء المذلة وتسقيها كأس العذاب .

وقد حدثنا تاريخ العرب عن نسوة من عقائل العرب قتلن انفسهن فراراً من تلك الحياة الشنعاء وهنالك غير السباء الوأد وهو قتل الطفلة حين تتنفس بها

الحياة وذلك ما كان يفعله الناس في تميم وجيرانهم من عشائر العرب . وكانوا يفعلون ذلك اشفاقا عليها من ان يلم بها الفقر فيقودها الى غير السداد .

واذا كان الوأد كما تقدم بحثه خاصاً ببعض قبائل العرب فان العرب جميعاً كانوا يستقبلون الطفلة الوليدة بغضض ويبقونها على الم واشفاق لا كرهاً لها ولكن خوفاً عليها من العار ، وهم لذلك يقولون : « نعم الصهر القبر » ويقول قائلهم :

لولا امية لم اجزع من العدم ... ولم اجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
تهوى بقائي واهوى موتها شفقاً ... والموت اكرم نزال على الحرم
احاذر الفقر يوماً ان يلم بها ... فيكشف الستر عن لحم على وضم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدم

وكانت المرأة لا ترث الرجل بعد موته بل كان بعض القبائل يجعلها في ميراثه فيبسط وارثه يده عليها . وقد يكون اخاً او ابن عمه فلا تخرج عن ربقته الا بان يتزوجها اذا اراد او يزوجها ممن اراد ويحتجز مهرها له او تفتدي نفسها منه ان لم يكن له ارب في الزواج منها او تزويجها ممن احب .

وربما كانت المرأة في العصر الجاهلي واحدة من عشر نساء يتزوجهن رجل واحد .. ذلك بعض ما كان يصيب المرأة في ذلك العهد من عنت وارهاق ، فلما انبثق فجر الاسلام انتقل بها من حال الى حال . فقد عمد الى قلبها فملأه ايمانا .

وعمد الى نفسها فملأها قوة وأتزانا .

وعمد الى حقها فانهجه .

وعمد الى واجبها فابانه .

وعالج فطرتها فبلغ بها اسمى منازل الكمال .

* * *

واذا كان الاسلام قد فرق بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وفاقا لفطرتيهما المختلفتين ، فقد وحد بينهما فيما سوى ذلك من تكاليف الدين واحكامه

واعماله ، وفي الوعد والوعيد ، وفي الثواب والعقاب في دار الجزاء فقرن دائماً بين المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والصادقين والصادقات والمتصدقين والمتصدقات ، ثم امتن عليها فجعل الامومة افضل من الابوة واوجب للامهات من الحرمة والاحترام فوق ما اوجب الابآء .

ومما حدثونا ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ان لي اماً انا مطيعها ، اقعدها على ظهري ، ولا احرف عنها وجهي ، وارد اليها كسبي ، فهل جزيتها : قال : لا ، ولا بزفرة واحدة .

وشعرت المرأة بهذا الاعزاز العظيم من الله تعالى فادت واجبها اكثر مما احتفظت بحقها .

لقد ادت المرأة ثمن هذه الكرامة غاليا موفورا ونجتزئه اليوم باثر واحد من آثار تلك الحرمة في نفس المرأة :

فقد نزلت آية الزكاة فكانت حقا على الرجل دون المرأة ، فلما انزل تبارك وتعالى قوله الكريم : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيما » .

لما نزلت هذه الآية واشركت المرأة مع الرجل في اداء الصدقة ارسل الرسول عليه السلام من يطوف المنازل فيدعوا النساء الى اداء واجبهن من الزكاة فخرج النساء عن كل ما يملكن من مال او حلي فما رؤى هكذا يوم جمعت فيه الزكاة .

ولقد شعرت النساء من خلال ذلك بكرامتهن على الله ورسوله فطلبن الى رسول الله ان يخصهن بيوم من كل اسبوع يتحدث فيه اليهن ويعمهن بالهداية والارشاد فكان لهن ما طلبن وكان ذلك يوم الاربعاء .

ولأمر اراده الله وكان لارادته الاثر العظيم في كرامة النساء ، انه لم يبق من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ابنة وان هذه البنت هي التي اختار منها سلالة رسوله وهي التي جعل لها المكان الاعز من قلب رسوله فكان عليه السلام

يقول فيها : فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها ويرضيني ما يرضيها .

وبينما كان الرسول يستنشق نسمات حبه الابوي من ابنته البتول المطهرة كان يعتز بامومة امهاته الطاهرات فيقول : انا ابن الفواطم من قريش والعواتك من سليم. وفي ظل هذه الكرامة شقت المرأة المسلمة طريقها الى السمو الذي تؤهلها له فطرتها الكاملة. فكانت الزوجة الصالحة ، وكانت الام العظيمة . واذا اعظمت الام فقد عظمت الامة ، وليست الامة الا ثمرة للامهات . والارض الكريمة لا تنتج الا الغرس الكريم . وما دعم بناء الاسلام بدعامة اقوى من المرأة الصالحة .

* * *

ان الذين يكتبون عن وثبة الاسلام واستطارته ، وعن فجره وضحاه ، وعن امتلاكه ناصية الارض في اقل من خمسين عاماً وعن نزوع ابنائه الى المثل الاعلى في سمو الخلق ومضاء العزيمة ـ ان الذين يذكرون ذلك كله ، ولا يذكرون المرأة انما يغفلون اعظم وسائل تلك الوثبة الفاهرة الظافره .

فان قالوا ان الايمان الذي استفاض في قلوب المسلمين هو الذي دفعهم الى اقتحام ما اقتحموا واعتزام ما اعتزموا . قلت : ومن ذا الذي يستطيع ان يمزج الايمان بالدم واللحم مثل ما تستطيع المرأة ؟

المرأة هي التي ترضع وليدها أفاويق الايمان وهو لا يزال نقي الصحيفة رطيب العود . ذلك شأن المرأة في ذلك العهد المشرق الزاهر الكريم . وما اقول ذلك ايثاراً لحق نساء ذلك العهد فقد كان الرجال حينذاك يشعرون بالعزة ان نسبوا الى امهاتهم ، لان لهن الاثر العظيم فيما بلغوه من مجد وما نالوه من اقبال .

كذلك كان الحسن والحسين ينتشيان روح الفخر حينما كان يقال لكليهما : يا ابن فاطمة .

وكذلك كان الزبير ابن العوام حينما يقال له : يا ابن صفية .

وكذلك كان عبد الله ابنه حينما يقال له : يا ابن اسماء .

وكان معاوية ابن ابي سفيان اذا افتخر قال : انا ابن هند .

وكان عبد الملك ابن مروان يعتز حين يقال له انت : ابن عائشة . ومن قول ابي قيس الرقيات فيه :

انت ابن عائشة التي فضلت اروم نسائها
لم تلتفت للدانها ومشت على غلوائها
ولدت اغر مباركاً كالشمس وسط سمائها

وهكذا كانت الام منبتاً عظيما للأمة الاسلامية العظيمة فلما ضعفت الام وانحرفت عن طريقها الذي نهجه الله لها ضعفت الامة ومال نجمها وحقت كلمة الله عليها : وما ظلمهم الله وانما انفسهم يظلمون .

هذه صورة صغيرة عن المرأة في ذلك العهد فهل هنالك من شبه بينها وبين المرأة في هذا العصر الذى نحن فيه ؟

ان المرأة الحاضرة في انقلاب وانتقال ، ففيم هذا الانقلاب والام هذا الانتقال ؟ ! اهما كالانقلاب والانتقال الذين اصابتهما المرأه حينما اسفر صبح الاسلام

اني لاقول والاسف يملأ قلبي : ان هذا الدور الحاضر من ادوار المرأة لا يشبه ذلك ولا يقرب منه ولا يمت اليه ، بل يكاد يسير في اتجاه مناقض له .

ان انتقال المرأه الحاضرة يحمل في اطوائه كثيراً من التمرد على انوثه المرأة والانتقاض على فطرة الاسلام .

انها تريد ان تعظم وترتقي ولكنها لاتحاول العظمة في طريقها الذي نهجه الله لها وهيأتها الطبيعية له ، بل هي تريد ان تقف في سبيل الرجل لتسير معه جنباً الى جنب ، وضعف الرجل عن ان ينهج لها سبيلها الخاص فتركها تسير على غلوائها كما يسير فكانت النتيجة وبالا عليها ووبالا عليه .

هذه الفتاة تتعلم كما يتعلم الفتى في جميع مراتب التعليم ، وتمعن في شعاب العلم كما يمعن هو في شعاب العلم ثم تؤدي الامتحانات كما يؤديها ثم تنس العلم كما اخيراً ينساه لانه علم اخذ كرها وادى كرها وها هي اليوم تساير الرجل وتسامره فماذا كانت نتيجتها ونتيجته !! .

سل كل زوج من الازواج وليكن من اي طبقة على الطبقات : أأنت سعيد

في اسرتك ؟ يجيبك على البديهة : لا ، بملء فيه .

وسل كل رجل من الرجال وكل فتى من الفتيان وليكن عظيما او حقيراً : أأنت صنيعة ابيك وغراس امك واثر من آثار امتك ؟ تجده يتجهم لك ويجفل منك ويعد مثل هذا السؤال زراية به وانتقاصا له وسخرية منه .

ليس للمراة اثر جميل في زوجيتها ولا في امومتها وهما اعظم تكاليفها لسعادة المجتمع ، وذلك لان الرجل كما قلنا ضعف عن ان يخط لها السبيل الى غايتها التي اعدها الله لها فلم ينشئها على الدين ولم ياخذها بنصيبها الخاص من العلم . ولم يرسم لها النموزج الحسن من كمال الحياة ، وكذلك ضعف الرجل اولا ثم جبن اخيراً عن ان يقول لها انك جاوزت القصد وانحرفت عن السبيل ،وهو يعلم ان المرأة لاترضي ان تقف في اول الطريق بل لابد ان تندفع فيه الى غايته .

فقد اصيبت المرأةفي هذا الزمان بفريق من شباب الكتاب الذين ذهبوا الى اوربا فارادوها ان تكوناوربية حساً ومعنا وغفلوا اولا عما يشوب كمال المرأة الاوربية من النقص الواضح ، ثم غفلوا ثانياً عن الفرق البعيد بين مزاجي المرأتين وطبيعتها ومقدار استعدادهما ومدى احتمالها وقوة مقاومتها ونظام البيئة التى تعيش فيها كل منهما ، فكانت النتيجة ان اخذت المرأه السورية ما لا نفع لها ولا خير فيه .

ليس غشيان المرأة للاندية والمجتمعات . ولا سماعها للخطب والمحاضرات ، ولا احسانها لغة او اكثر من لغات اوربا ، ليس ذلك من النهضة النسوية في قليل او كثير ، ولكن النهضة الحقة هي ان يشعر كل من يحيط بها من زوجها او بنيها او ذويها بنور السعادة المشرق منها .

نريد ان يكون البيت مألفاً للرجل يألفه ويأنس به فيرتاح اليه ويجد الخير فيه، ونريد ان يكون البيت روضة للاطفال يرتضعون فيها افاويق المجد ، ويرتقون منها الى منازل العظمة، ويعرفون فيها كيف يكون العلم محبوبا.

ان الرجل مؤتمن من قبل الله على حاضر ابنته ومستقبلها لانها هي التي يقيم الله بها دعامة الوجود فاذا لم يهيء لها سبيل الكمال وشغلته مآرب نفسه عن رعايتها عده الله من الخائنين .

ان القائمين بالتعليم ايا كانوا امناء على من استرعاهم الله من البنات ؛ فاذا لم يؤثروهن بنوع من العلم والتربية يناسب فطرتهن التي فطرهن الله عليها وتركوهن يسرن في مساق الفتن كانوا من العابثين بامانة الله .

ان بناء السعادة الاجتماعية وكيان الحياة العائلية اخذ ينهار ولا سبيل الى اقامته الا باصلاح المرأة ، والموقف حرج والخطر محدق والزمن وثاب والانتقاض سريع الخطى . فلنفكر ولنعمل قبل ان لا ينفع التفكير والعمل .

بين محمد « ص » والمرأة

تحدث القراء عن الاصل الذي تكاثر منه الانسان وجعل المرأة شريكة الرجل في تكون ذلك الاصل وجعله نعمة توجب على الانسان التقوى والمراقبة ، فاستمع اليه تعالى يقول في سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً » .

وجعل للمرأة حقا في المبايعة على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة واحكامها ، كما جاء في سورة الممتحنة « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولايسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » .

ومن لطيف ما يروى في شأن مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم النساء ذلك الحديث الذي جرى بينه « ص » وبين هند بنت عتبة زوج ابي سفيان وقت المبايعة فقد قال محمد عليه الصلاة والسلام « ابايعكن على ان لا تشركن بالله شيئاً » .

قالت هند : وكيف نطمع ان يقبل منا ما لم يقبله الرجال ؟

قال : ولا تسرقن .

قالت : ان ابا سفيان رجل شحيح واني اصبت من ماله هنأة فما ادري اتحل لي ام لا ؟ فقال ابو سفيان (وكان حاضراً) ما اصبت في شيء فيما مضى فهو لك حلال

فضحك رسول الله «ص» وعرفها فقال لها : « وانك لهند بنت عتبه ».

قالت : انعم فاعف عما سلف يانبي الله عفا الله عنك .

فقال : عليه الصلاة والسلام : ولا تزنين .

قالت : او تزني الحرة ؟

قال : ولا تقتلن اولادكن .

قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فانت وهم اعلم (١) .

فضحك عمر حتى استلقى على ظهره ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ولا تأتين ببهتان ؟

فقالت ـ ان البهتان لامر قبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق .

قال ـ ولا تعصينني في معروف » .

فقالت ـ والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي انفسنا ان نعصيك في شيء .

وقد تلمح في هذا الحديث دلائل « الزعامة النسائية » مرسومة على وجه هند بنت عتبة ، واذا علمت ان التي روت هذا الحديث هي اميمة بنت رقية لا يبعد ان تلمح على وجهها هي الاخرى دلائل « سكرتيرية الحركة النسائية » .

وانظر الى هذه الظاهرة العظيمة ، ظاهرية حرية المرأة في نقاشها وحوارها للنبي حرية لا يحلم بها الرجل عند اعظم ملوك الارض ديموقراطية .

احترام الاسلام لرأي المرأة

وفي القرآن الكريم اثر من آثار الفكر النسائي ، وصفحة إلاهية خالدة تلمح فيها على ممر الدهور صور احترام الاسلام لرأي المرأة . وان الاسلام لا يراها مخلوقة تقاد بفكر الرجل ورأيه . وانما لها رأيها وللرأي قيمته ووزنه .

على هذا المبدأ وهو احترام رأي المرأة وان لها حقاً في التفكير وابداء الرأي قبل امير المؤمنين عمر بن الخطاب نقدها اياه وهو يخطب الناس ويحذرهم التغالي

(١) تشير الى مقتل ابنها حنظلة وكان قد قتل يوم بدر .

في المهور . ولم يلبث ان رجع الى رأيها وعاد على نفسه باللائمة . انظر ما رواه المفسرون عند قوله تعالى في سورة النساء : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثماً عظيما ».

ولهذه المنزلة التي جعلها القرآن للمرأة تراه يعقد بينها وبين الرجل مولاة وتفاخر فيما يجمعهما من حياة رشيدة ، فانظر قوله تعالى في سورة التوبة :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم: الآية » .

وانظر قوله تعالى بعد ذلك : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروت وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار . الآية » .

حديث القرآن عن المرأة

وقد حفظ القرآن من تاريخ المرأة في الحياة ومواقفها من مشاكلها ودقائقها ما انبأنا عن تهيئها لهذا المنح واستعدادها لهذا العطاء وانها لم تكن في مواهبها الطبيعية بأقل من اخيها الرجل . وتحدث عنها بكثير من هذا .

تحدث عنها بما يسجل لها قوة الفراسة وحسن الحيلة وبعد النظر في استجلاء الحقائق الغامضة وتدبير الملك على اساس الشوري .

اما حديثه عنها بما يسجل لها قوة الفراسة فتراه في قوله تعالى عن احدى ابنتي شعيب في سورة القصص « قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين ». فان الامانة من الصفات الباطنة التي لا بد من ادراكها من عشرة طويلة وتجارب متعددة . ولا يكفي في ادراكها اجتماع واحد ولا نظرة واحدة ، وبنت شعيب لم تر موسى فقط الا حينما ورد ماء مدين ووجد عليه شرذمة من الناس يستقون ووجدها مع اختها تذودان فقال لهما ماخطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى

يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل . وهذا القدر من الرؤية ليس من شأنه ان يمكن الانسان من معرفة اسرار النفوس ودخائلها الا اذا كان قد اوتي من قوة الفراسة ما اوتيته بنت شعيب .

واما حديثه عنها في حسن الحيلة وكيف انقذت بها طفلا عقدت المقادير الالهية ببقائه رسالة من رسالات السماء الى الارض لتطهير البشرية من ادران الشرك والوثنية ، ونشر دلائل الهدى والسلم على ربوعها - فتراه في قوله تعالى عن اخت موسى عليه السلام في سورة القصص ايضاً « هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ، وكان ذلك حينما القته امه في اليم خوفاً عليه فالتقطه آل فرعون . وقالت امرأة فرعون « لاتقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا » ، واصبح بذلك فؤاد امه فارغاً مضطربا يكاد يتميز فرقاً عليه وامتنع موسى عن التناول من المراضع وكانت اخته هذه تقصيه فاشارت عليهم باهل بيت يكفلونه . وقالت لهم ما قالت فرد الى امه وانقذ من فرعون وجبروته .

* * *

واما حديثه عنها في بعد النظر واستجلاء الحقائق الغامضة فتراه في قوله تعالى عن ملكة سبأ في سورة النحل « واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون » وقد روي انها قالت ان كان نبياً حقاً لم تصادف هديتنا مكانا من قلبه ولم تحل بينه وبين تبليغ امر ربه وان لم يكن فسوف يفرح بها ويعرض عن قتالنا بزخرفها .

وقد كان ما قدرت فلما جاء سليمان قال اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها . ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » .

* * *

واما حديثه عنها في تدبير الملك وحسن السياسة على اساس الشورى وعدم الاستبداد بالرأي فتراه ايضاً في قوله عز وجل عن ملكة سبأ هذه . وقد وصلها كتاب سليمان عليه السلام « يا أيها الملا افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون . قالوا نحن اولوا قوة والو بأس شديد والامر اليك فانظري ما ذا تأمرين

قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » ،

* * *

ومن هنا تجد ما للمرأة من حصافة في الرأي وسبر لغور النفوس .

وتجد في الوقت نفسه عدم الاعتزاز بما يبديه الاتباع والاشياع من اظهار لاعتداد بنفوسهم وقوتهم وعدم الاكتراث بغيرهم في وقت الكلام ، وادرا كها ن هذا موقف عرف عن المروجين للمتبوعين سيراً وراء ما يدركون من رغباتهم غير مقدرين للحائق ، ولا ممحصين النصح والارشاد .

حقوق المرأة وسلطانها المطلق

ولم يقف القرآن بالمرأة عند حد تسويتها بالرجل في حق التعليم وحق حرية الرأي واحترامه ، بل سوى بينها في حق التملك ومباشرة عقود التصرفات بجميع انواعها ؛ فجعل لها ملكا خاصاً وجعلها صاحبة السلطان المطلق في ادارته والتصرف فيه ، وحظر على الرجل ان يمد يده الى شيء منه الا باذنها ورضاها .

وجعل لها حق التخلص بمالها في سوء معاشرة الرجل اذا رأت ذلك سبيلا متعبداً لراحتها وهنائها . انظر قوله تعالى في سورة البقرة : « فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت » وقد كان شأنها في ذلك شأن الرجال يتخلصون باموالهم من كل ما ينزل بهم متى رأوا ان بذل المال سبيل للخلاص منه وهذا آية الملكية التامة والحرية الكاملة في التصرفات .

* * *

وجعل لها القرآن حقا في الميراث باعتبارات مختلفة، واهدر قاعدة الجاهلية التي كانت تقضي بحرمانها في الميراث : فقال في سورة النساء « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون . وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثر نصيباً مفروضاً » .

وقرر نصيبها في الميراث باعتبارها زوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن

لكم ولد فان كان ولد فلهن الثمن » .

وباعتبارها بنتاً .

« يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » .

وباعتبارها اما .

« ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث » .

وباعتبارها اختا .

« وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس . فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث » وقوله « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصيب مما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك » .

* * *

وجعل لها الحق في مباشرة عقود المدينات لله من بيع وشراء . واباح لها ان توكل غيرها في كل ما تملكه بنفسها وان تتوكل عن غيرها في ما يملكه ، واباح لها ان تضمن غيرها وان يضمنها غيرها على نحو ما ابيح للرجال في كل هذه التصرفات ، ولا نعلم احداً من فقهاء الاسلام رأي ان النصوص الواردة في التصرفات المالية خاصة بالرجل دون المرأة .

نعم : تكلم الفقهاء في مباشرتها عقد الزواج فمنهم من منع ، ومنهم من اباح ، ونحن اذا رجعنا الى القرآن في هذه المسألة وجدناه يضيف هذا التصرف الى المرأة نفسها . انظر قوله تعالى في سورة الاحزاب : [وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان اراد النبي ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين] .

ويقول في سورة البقره : [فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً آخر] .

ويقول : [واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن] .

ويقول « فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف » .

وهذه آيات ظاهرة في ان زواج المرأة ورجوعها الى زوجها مضاف اليها صادر عنها وفي ان اثاره تترتب عليه من غير ان يتوقف على مباشرة وليها لهذه التصرفات او اذنه به .

وقد جائت السنة تؤيد ظاهر هذه الايات فقد روى الجماعة الا البخاري عن ابن عباس انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الثيب احق بنفسها من وليها . والبكر تستأذن في نفسها واذنها صماتها » .

جعل الحديث الحق الى المرأة في نفسها ونفى ان يكون لغيرها امر فيما يتعلق بزواجها وقد جاء في رواية « ليس للولى مع الثيب امر » ونظراً لان البنت لم تألف الرجال وقد جرت عادتها بالحياء الذي يمنعها من مباشرة عقد زواجها اكتفى الشارع منها برخصة لها بما يدل على رضاءها وهذا لايقتضي ان يسلب منها حق هو في الاصل لها . وليس من المعقول ولا من المشهود شرعا ان يعتبر رضا انسان في صحة تصرف ثم يحكم ببطلانه اذا ما باشره بنفسه ، ولاشك ان صحة التصرفات لا تستدعى اكثر من العقل والبلوغ ، وما دامت الثيب عاقلة بالغة فاننا لا نكاد نفهم انها تجبر على عقد الزواج بمن لا تحب اوانها اذا باشرت عقد الزواج يكون باطلا ، ولا شك ايضاً في ان مقاصد عقد الزواج يرجع معظمها الى المرأة ، ومن الاصول المقررة ان مثل هذا العقد يتولاه من يختص بمقاصده الاصلية . ويكفى في مراعاة ما للغير من حق ثانوي ان يمنح حق الاعتراض على العقد اذا لم يكن مظنة للفوائد التي يترقبها منه . ولهذا قال علماء الحنفية « ان المرأة تتصرف في خالص حقها وهي من اهل التصرف لكونها عاقلة مميزة . ولهذا كان لها حق التصرف في المال ولها حق اختيار الازواج .

قد جاء في الصحيحين ان خنساء بنت جذام زوجها ابوها وهي كارهة وكانت ثيباً فأتت رسول الله فرد نكاحها .

وجاء في السنن من حديث ابن عباس . ان جارية بكراً اتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ان اباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي « ص » وهذه غير خنساء ـ .

فهاتان قضيتان قضى في احدهما برد الثيب وقضى في الاخرى بتخيير البكر .

وجاءت فتاة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ان ابي زوجني من ابن اخيه ليرفع بي خسيسته ؟ قال الراوي فجعل امرها اليها . فقالت قد اجزت ما صنع ابي ولكن اردت ان اعلم النساء ان ليس الى الاباء من الامر شيء .

هذا هو حق المرأة في الحقوق والتصرفات كما يدل عليه القران ، وكما تدل عليه سنة الرسول وقضاءه ، وكما تقضى به اصول الشريعة الاسلامية وهذا ما يرد كثيراً من الناس عن زعمهم ان الاسلام جعل المرأة في يد ابيها او وليها كمحجور عليه لا يلي شيئاً من التصرفات ولا يباشر شيئاً من العقود ولا يؤخذ رأيه فيما يراد به او بماله .

حاجة الامة الى المرأة

ونظراً الى اشتراك الرجل والمرأة في عوامل النظر والقلب وفي القيام باعباء الحياة عامة او خاصة ، والى ان حاجة الامة الى المرأة ليست باقل من حاجتها الى الرجل جاء القرآن الكريم يقبح من اهل الجاهلية نظرهم الى المرأة نظر تحقير وازدراء . ويؤنبهم على هذه التفرقة التي كانوا يسلكونها بين الرجل والمرأة ، وحكى عنهم متهكما بعقولهم وتقديرهم بقوله تعالى : « في سورة النحل كما تقدم» ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ؟ الا ساء ما يحكمون » .

ثم قرر ان كلا من الذكر والانثى نعمة من الله يمتن بها على عباده وتستوجب شكره . فقال في السورة نفسها « والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة » (١)

(١) الحفيد هو ولد الابن ذكراً كان او انثى :

ولقد يكون من اهم مظاهر التسوية بين الذكر والانثى في الحقوق البشرية المشتركة بينها ان قررت الشريعة الاسلاميه التسوية بينها في الدماء . وان الرجل يقتل بالمرأة ، وقد جرى العمل من زمن النبي الى يومنا هذا على القصاص بينهما .

وقد كان اساس هذه التسوية قول الله حكايه لما في التوراة وقد اقره « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس : الاية » .

وقول الله في بيان حكمة القصاص « ولكم في القصاص حياة : الاية » فان الحياة المترتبة على القصاص لاتتحقق الا اذا قتل الرجل بالمرأة وقتلت المرأة بالرجل

* * *

ومن لوازم اشتراك المرأة فيما اسلفنا من حق التعليم واحترام الرأي والجهاد والدماء والتصرفات مدنية كانت ام شخصية ان تشترك فيما ينشأ في المجتمعات من حق الخصومة والتقاضي فتكون مدعية ومدعى عليها ، وشاهدة ومشهود عليها ، منفردة ومجتمعة ، وتكون وصية وناظرة وقف ، ووكيلة وكفيلة ، وراهنة ومرتهنة ، وشريكة ، وتكون متصدقة وواهبة ، ومتصدقا عليها وموهو بالها ، وتكون قيمة ومحجورة كما يكون الرجل ذلك كله .

نبوغ المرأة واثرها في الحياة

لم اجد بعد ان بينت عناية الاسلام بالمرأة والدرجة التي بلغتها من الرقي والحضارة الصحيحة المؤسسة على حب الفضائل الاسلامية ما يحول دون البحث عما وصلت اليه من النبوغ وما لها من الاثر في الحياة الاجتماعية .

والنبوغ لون من الوان الشذوذ. ولكنه شذوذ موفق منتج؛ ونحن نعتبر النبوغ المثل الاعلى الذي تقاس به الاعمال الاخرى .

مثال ذلك؛ اننا نعتبر موسيقي « بتهوفن » مثلا اعلى الموسيقي الشعرية الطبيعية فنحن نتذوق مايزجيه غيره من الموسيقيين على هذا الاساس ، فاذا احسسنا بأن موسيقي واحد مانفوق موسيقي « بتهوفن » في تصوير وابراز تلك المعاني الشعرية

حكمنا بان ذلك النبوغ اقوى واعلى من نبوغ « بتهوفن مثلا » .

وعلى ذلك فالنبوغ الانساني صورة نسبية من صور الكمال الذي ننشده في حياتنا .

والنبوغ لا يقتصر على فن من الفنون بل هو يتخذ وضعه في اي فن واي علم .

ونود ان نبسط هنا النبوغ عند النساء واول ما يجب ان نشير اليه ان النبوغ النسوي يختلف ويفترق عن النبوغ عند الرجال ، ومعنى هذا ان النبوغ يتخذ وضعاً خاصاً عند النساء لا يماثله عند الرجال ، وليس معناه انه يقل او يضعف عندهن عن الرجال ، اذ يرى بعض العلماء ان النبوغ النسوي متمم او مكمل لنبوغ الرجال . ولكنه لا يتخذ النحو او السبيل الذي يتخذه نبوغ الرجال .

يسهل على الكثيرين اذا ما استمعوا الى قطعة شعرية او موسيقية ان يقولوا انها لسيدة او لرجل ، يسهل هذا بل قد يظهر جلياً ، والسبب في ذلك يرجع الى ان الروح التي تذوب في تلك القطعة الشعرية او الموسيقية تبدو عذبة ناعمة هادئة تميل الى الخير والسعادة اذا ما كانت صاحبتها سيدة ، وقد نجد هذه الصفات في قطعة شعرية لرجل ، ولكننا نجد فيها شيئاً من الصخب والاضطراب العنيف الذي لا تقوى المرأة على تمثيله ، وهذا الاضطراب هو جزء من كفاحه وصراعه في الحياة في سبيل العيش ، والمرأة لا تمثل هذه الناحية في شعرها او موسيقيها لانها لا تشتشعرها كما يحسها الرجل ، ولانها لا تتذوق معانيها القاسية كما يلمسها ويتذوقها الرجل ايضاً .

ويرى البعض ان هذه الصورة العنيفة التي تبدو لنا في اشعار الرجال وفنونهم ايضاً ستظهر عند المرأة في المستقبل القريب ، اذ ان المرأة اليوم لا تماثل المرأة في الماضي ، فالمرأة العصرية ولجت ابواب الحياة واحست بمتاعبها . وكافحت في سبيل العيش كما يكافح الرجل . فهذه الصورة العنيفة الطارئة على حياة المرأة لابد ان تظهر في فنونها ، والفنون ترديد وتصوير للحياة .

ان المرأة لم تبلغ في نبوغها الى اليوم ما بلغه الرجل والدليل على ذلك ان الجوائز العلمية الكبرى وهي اقيسة النبوغ البشري ـ تكاد تكون مقصورة على الرجال ، ولكن هذا ليس معناه انها اقل شأنا في خيالها او ذهنها من الرجل ، فقد

اثبتت تجارب عدة خطأ هذا الرأي . ولكن السبب في ذلك يرجع الى ان الفسحة التي كانت المرأة تجدها في الماضي لابراز نبوغها كانت محدودة . اي ان قيود الحياة الزوجية مثلا . كانت تعوقها او تخمد فيها الرغبة في ابراز عبقريتها كما تود ، ومع ذلك فاننا نذكر من النساء كثيرات ممن نبغن في الاسلام في فنون الكتابة والقراءة وفي علوم الدين وآداب اللغة العربية والفقه الاسلامي وحفظ الاحاديث والاحكام وفي الفنون الشعرية والطب والفلك والفلسفة والبلاغة .

فقد كانت « الشفاء العدوية » من سبط عمر بن الخطاب كاتبه في الجاهلية ومنها تعلمت الكتابه السيدة « حفصة » زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقد طلب النبي الى الشفاء ان تعلمها تحسين الخط وتزينه كما علمتها اصول الكتابة ، وان « ام كلثوم بنت عقبة كانت ممن نبغوا في فن الكتابة والقراءة ؛ وقد انبأنا التاريخ ان « خالد بن عبد الله القسرى » اشترى ثلاثين جارية ودسهم في نخاس الى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً ، فلما انس بهن استنطقهن فرأي فيهن غاية الكمال والادب والفصاحة ، ثم استقرأهن القرآن فقرأن ، ثم استنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات ، وقد كن قاصدات لذلك لاقليلات الذوق ، ولا غافلات عن تاريخ الكميت مع الامويين وانما للامر سر . وعرضت على الرشيد ليشتريها بالف دينار فرض على ان تنجح في امتحان يضعه لها ، فجمع الاعلام من علماء الشريعة والطب والفلك واساتذة الفلسفة والبلاغة . وقد احضروا الجارية ليختبروها ويعرفوا ما لديها من نبوغ فكانت تجيب عما تسأل عنه اجابة سديدة صائبة ثم تقول :

ان على سائلنا ان نسأله والعبء لانعرفه او نحمله

فتسأله سوءالا يعيه فلا يستطيع جوابا .

وهذا ما اتاح لنساء العرب فرصاً لمساعدة الرجال في نشر فنون العلم وتلقين المعارف فكن معلمات فضليات تخرج عليهن اساتذة العلوم وفحول الفصاحة والبيان فقد كان للسيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن ابن علي بمصر مجلس علم

حضره الامام الشافعي ، وسمع عليها فيه الحديث ، وعد ابو حيان بين اساتذته ثلاثاً من النساء هن :

١ — مونسة الايوبية « بنت الملك العادل اخي صلاح الدين الايوبي » .

٢ — شامية التميمية .

٣ — زينب بنت عبد اللطيف البغدادي ، وكان لابن المطرف جارية اخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته في ذلك وبرعت في العروض ومن ذلك سميت بالعروضية ، وكانت تحفظ الكامل « للمبرد والنوادر « للقالي » وتشرحها وعليها درس العلماء هذين الكتابين . وعنها اخذوا العروض ، وهذه فخر النساء « شهدة » الكاتبة « الدينورية » الاصل البغدادية المولد ، والعدفاة بنت احمد ابن الفرج ابن عمر الابري كانت من العلماء وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير . وكان لها السماع العالي الحقت فيه الاصاغر بالاكابر .

وقد كان بمصر الى عهد قريب من كن مثقفات في دين الاسلام وآداب اللغة العربية « كفاطمة الازهرية » و « ستيته الطبلاوية » وعنها لقنت « عائشة » « التيمورية » الشاعرة المعروفة . دروس الفقه وآداب اللغة العربية : ومن تضلعت في فقه الاسلام و حفظ الاحاديث والاحكام « كعائشة ام المؤمنين » التي قال عنها النبي خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وكرابعة العدوية « ببغداد « وعائشة البوعنية بدمشق ، ومن كانت تتفقد الشعراء والادباء وتساجلهم الادب والشعر بيابها « كسكينة » بنت الحسين ، وكم من مرة جاءها « الفرذق » وكثير عزة وجميل بثينه فساجلتهم وظهرت عليهم وقد قال عنها المستشرق الفرنسي « بيرون » انها سيدة سيدات عصرها وارقاهن واسماهن صفات واخلاقا .

* * *

قد يبدوا للبعض ان نبوغ النساء يكثر في الفنون لان المرأة تميل الى الخيال اكثر من الرجل . وفي الفنون اشباع للخيال ، وقد يصلح هذا الرأي عن نبوغ النساء في الشعر ، فالشعر هو الناحية التي تجيد النساء تصويرها ، ولكننا لانجد للنساء الا حظاً بسيطاً في الموسيقى مع انها اقوى الفنون تصويراً للمشاعر والعواطف السامية ،

ويجب ان نذكر ايضاً ان ذوق التصوير عند المرأة ادق واروع منه عند الرجل .

قد تكون المرأة سبباً في انبعاث نبوغ الشاعر « فيرون » كان يستلهم في حبه «لس جوتشلي » اروع اشعاره وادقها ، كما كان « شيلي يستلهم من حبه العذري الافلاطوني بدائعه الشعرية التي خلدها ، بل انتالا نكاد نذكر شاعراً واحدا لم يكن للمرأة تأثير في اشعاله نبغوه وبعثه وفيضه ، فالمرأة في هذه الناحية كانت عاملا اساسياً في بعث النبوغ ، وكانت سبباً في شهرة وخلود الشاعر ومع ذلك فقد تكون تلك المرأةغير نابغة ، او ان نبوغها لايتمثل فيها بل هو يبدوا في شعر او موسيقى ذلك الرجل الذي لمسه واحبه وابرزه في فنه .

وليس هناك من شك في ان المرأة تنحو الدقة في عملها اكثر من الرجل. وقد ايد هذا الزعم شواهد كثيرة ولهذا السبب نرى ان بعض الاعمال الدقيقة — لا العنيفة — يفشل الرجل فيها حيث تنتصر المرأه . وذلك لان هذه الدقة مشتقة منها بالغريز التي جعلتها تفهم مسؤلية الحياة من هذا الجانب .

فالمرأة التي تعمل في عمل حسابي مثلا تكون اكثر دقة في عملها من الرجل . وهذا هو السر الذي يفضل به المرأة عن الرجل في هذا العمل ، والسبب في ذلك يرجع الى ان وضع الحياة الخاص بها — اي انها ستكون اماً — يجعلها اكثر دقة في عملها لان الاهمال لا يتفق مع الامومة او الحياة المنزلية الصحيحة .

والامومة وظيفة مميزة للمرأة اختصها بها العقل المدبر للوجود ، فهي التي تحمل الجنين في احشائها وتقاسي من الحمل وآلامه اشكالا وألوانا ثم تدفع الى العالم بطفل مرتبطة حياته بحياتها كل الارتباط ، فهي مكلفة بتربيته وتهذيبه وتكوين قواه الجسدية والعقلية والروحية تكويناً صالحاً يصلح معه ان يكون عضواً نافعاً لنفسه ووطنه .

* * *

وعلى ذلك فان المرأة حين تنبغ في فن او علم يبدو نبوغها قويا . ويبدو مكتملا فينحو في مذاهبه نواح لا يمكن للرجل ان يدركها او يصل اليها ، وذلك لأن

الدقة التي اتسمت المرأة بها — بالوراثة — تبدو قوية في تصويرها الشعري ، او بحثها العلمي .

ويجمل بنا ان نقول ان نبوغ النساء ابعد اثراً في حياتنا الاجتماعية من نبوغ الرجال ، فالمرأة النابغة يمكنها ان تصل وان تظفر باعجاب الجماهير لها وايمانهم بصدق نظرياتها اكثر مما يصل الرجل ، وذلك لان تأثير المرأة الانثوي الذي قد ينبعث خفياً من شعاع عينيها . او رقة الفاظها يجعل لتلك الآراء التي تبديها في شعرها او خطابتها اثراً جليلا قد يعجز الرجل عن ايجاده .

ونحن نطمئن الى القول بان نبوغ المرأة في المستقبل اقوى وابعد اثراً منه في الماضي ، وذلك لان المرأة قد خاضت الحياة العملية التي كان الرجل ينكرها عليها في الماضي ، وسينشأ عن ذلك ان تتنافس المرأة والرجل على المنزلة الاولى في الحياة .

عبقرية المرأة ورسالتها للفن

ويعتقد فريق من الكتاب انه ليست للمرأة اية عبقرية وانها لا تحب فناً من الفنون . ولكنا نؤمن ان المرأة تؤدي رسالتها للفن احسن الاداء ، ذلك انها كانت دائماً مثاراً لوحيه ، ومبعثاً لفنونه ، فهي ان لم تكن تعمل ايجابياً لتربية الفنون وتهذيبها فان عملها سلبي ولكنه حتى على هذه الصورة مكمل للدور الذي يلعبه الرجل في تحقيق رسالة الفن .

وفي رأينا انه يوجد ضربان من الفنون : الفن التقليدي ، والفن الابتكاري . وهذا التقسيم لا يشمل صورية الفن ولكن يشمل شيعه بحيث نستطيع ان نقول دائماً ان كل فن من الفنون لا بد ان يكون — في بعض نواحيه — داخلا تحت احد هذين القسمين او ان كل فن لا بد ان يتناوله هذان اللونان من الصياغة ، الابتكار يخلقه ويوجده ، والتقليد ينميه ويعدد افراده . فاذا انتهينا عند هذه النتيجة فلا بد ان نذكر بعد ذلك مكان المرأة ومكان الرجل بين هذا التقسيم .

ان ذهنية الرجل وقواه العقلية أعلى في مجموعها عند المرأة ، وهذا السمو الفكري يهيء الرجل على الابتكار والتجديد . وأما المرأة فان من انخفاض

مستوى ذكائها عن مستوى ذكاء الرجل ما يقف بها عند التقليد والمحاكاة دون الخلق والابتكار . فهي اذن تلعب دوراً في الفنون ولكنه دور محدود لا سعة له ولا طول ، بل ان الفنون قائمة على الابتكار شأنها شأن كل فروع الحياة . واما التقليد فهو خطوة ثانوية ليس لها ما للخلق من القوة والاعتبار .

على انه اذا لم يكن للمرأة دور في الفن الابتكاري فانها في اغلب الاحوال الوحي الذي يستلهمه الفنانون جميعاً على اختلاف الوانهم ونحلهم ؛ فهي اذن تلعب دورين ، ولكنها بعد ذلك دوران ثانويان كما قلنا لان الاصل في الفن هو الابتكار وما عدا هذا الاصل فهو في حكم التقليدي الذي لا يكون شيئاً من اساس الفنون ، وهذه حقيقة لا تقتصر على فن دون فن ، ولكنها تتداخل في جميع الفنون وسنرى كيف تؤدي المرأة الرسالة التي نقول عنها .

والادب فرع من الفن ، وهو يشمل الشعر والكتابة الطليقة دون التقيد بالقياس والوزن ، وهذان الضربان يحويان فروع الكتابة بعد ذلك من قصة طويلة ؛ تمثيلية وغير تمثيلية ، واقصوصة ومقالة ، الى غير هذه ، وهذه الفروع كلها تنقسم بعد ذلك الى طائفتين : كتابات وجدانية تستند الى وحي العاطفة وابحاث تعتمد على جولان العقل في الميادين الفكرية ، سواء كان هذا تعليقاً ام تعقيباً ام بحثاً مستقلا .

فالقسم الاول من هذين الذي توحيه العاطفة يكون مصدره في العادة إلهاماً من المرأة ، ونقول في العادة دون ان نطلق الكلام على علاته تحفظاً .

فالشاعر الذي يحكي شعوره لقرائه انما يكون في اغلب الاحيان مستمداً لهذا الذي ينظمه من وحي امرأة ، ولسنا في حاجة الى تبيان هذا والتدليل عليه لانه اصبح رائع الوضوح ، ولانه ما من شاعر عرف في التاريخ الا وثبت انه يستلهم المرأة ما يكتب من شعر ، ولسنا يعنينا بعد ذلك ان نتثبت من شخصية من كانت مصدراً لشعوره ، ان ما يهمنا في بحثنا هو ان هناك امرأة في حياة الشاعر كائنة ما كانت هذه المرأة .

ولذلك معظم الكتاب الوجدانيين الذين يهتمون بتخليد شواعرهم في القصص او في السور التي تشير الى ما تختلج به افئدتهم ، معظم هؤلاء يكتبون بوحي من

المرأه ، بل ان القراء — او بعضهم — في صورة تبعدنا عن السرف في التعبير لا يقبلون على نتاج الادباء الا لانهم يجدون فيه شيئاً عن حياة المرأة، وما منهم الامن فتنته واحدة منهن او استباه الجمال . فهم يبحثون عن تعبير عما يماثل الاعجاب التي تجيش في صدورهم ، ويعثرون على هاته الاشباه من العواطف فيما يقرأون ، او فيما يشهدون اذا كان الفنان مثالا او نا-تاً او راسماً او فيما يسمونه اذا كان ترجمان احاسيسهم الموسيقى .

فكل منا يغرم بفن من الفنون او بفرع من فن العاملين : الاول انه يجد فيه العزاء عن متاعب الحياة وصعابها — وكثيرة ما هي ، والثاني لانه يشعر بان هذا هو الذي يقرأ او يرى او يسمع يماثل ما يدور في ارجاء نفسه من عواطف ، لذلك نحن نحب الفنون ونقبل عليها ، ومن اجل هذا نسعى للتمتع بذلك العالم الخيالي الذي يهيئه لنا الفنانون ادبا اوعمارة او موسيقى الى غير هاته من مبتكرات الخيال السامى البهيج .

والمثال والمصور الذي يرسم لنا الجسوم انما نعجب بما يقدم لنا من فن لانه مثال طيب للجمال ، والنفس بطبعها ميالة لى الجمال ترتضاه وتسعى اليه ، وان كانت معايير الجمال تختلف عند اي الناس عنها عند الآخرين ، وعلى ان النفس تحب ايضاً المرونة بعد الشدة ، اي انها تنزع الاصفاد اذا ما تمتعت برهة بالاطراف . والحياة في رأينا ملأى بشتى المزعجات والوان الشقاوة والبأساء سواء كان هذا صادراً عن طبيعة النفس الملتوية ام عن الحياة ذاتها فهذا لايهمنا الآن .

الحياة مترعة بالجفاف والنضوب ، والنفس ميالة الى التغير والابدال ، فهي اذن تجنح الى الليونة بعد الصلابة ، والرطبة بعد النضوب ، والاعتذار عن ذلك الجفاف القاسي نجده في الجمال على اي الصور التي تختلف باختلاف الناس.

وابرع مثل في معتقدنا للجمال هو المرأة وخاصة لان الرجل يجد من دوافع النظرية الجنسية ما يجملها في عينيه ويقربها من قلبه . فانه من الثابت في العلوم الطبية ان المرأة مزودة بشتى المغريات فنعومة بشرتها تثير في نفوسنا احر الاعجاب بل ان رائحة عرقها قد تستهوي بعض الناس فهي جماح العواطف الانسانية ،

ومصدر البهر والفنون في الحيـاة ؟ واكثر انماط الجمال تمثيلا له وجاذبية للرجل ، لذلك فنحن نستطيب الفن الذي يحدثنا عن الجمال لاننا نعشقه ، او نستطيب اكثر من ذلك الفن الذي يحكي لنا عن المرأة ما نهوي التمتع به ! !

فالمثال في حاجة الى ايجاد موضوع لفنه ، فهو في حاجة الى المرأة تلهمه وتزكي منه الشعور فيخرج على العالمين بأثار ما يحس وما يتخيل .

والموسيقى الذي يرسم تصاوير العواطف بالانغام ، ويتحدث الينا عن طريق فنه عن العواطف انما يستوحي عادة هذا الكائن الملهم ، وحيناً يطن في اذنيه باجمل الانغام فتجري لنا اناامله موسيقى تعصف بالروح وتضرم العاطفة .

فالفنانون جميعاً لايعبرون الا عن جمال ، وهم بهذا السبيل يتعلمون عن المرأة كيف يشعرون وكيف يعبرون عن هاتيك الشواعر الجميلة التي تجول في نفوسهم.

ذلـك هو التصوير الصادق لدور المرأة غير المباشر الذي تؤديه للفنون ، غير انها لاتقف عند هذا الامر، بل هي تعدوه في احيان الى الاهتمام بالفن التقليدي لان مستوى ذهنها المنخفض يقف بهـا دون الابتكار . وهذا كلام يؤيده الواقع . فان اختراع الازياء الجديدة مقصور حتى الان على الرجال .

ننتهي من هذا الى قصور المرأة عن الابتكار الفني ، وان كانت لاتعدم ان تقلد او ان تكون وحيا لما يصوغ الفنانون .

وقـد نبيح لانفسنا ان نتعرض لنظريـة دقيقة عرفت على العهود ، تـلك هي النظريـة التي تقول ان الرجل يفوق المرأه جمالا ، وقـد كان الاغريق القـدماء يقولون بها ، وما زال بعض المفكرين يضعونها موضع الصواب . .

نحن نطلب عند المرأه جمالا معيناً ، ونطلب عند الرجل جمالا من نوع آخر ، فنرى في الرجل جمـال القوة الجسـدية وجمـال الذهن المتوثب ، ونرى في المرأة طراوة وليونة ، لانحسها في الرجل الجميل ، وشتان بين جمال القوة وجمال الضعف وما ابعد ما بين فنون الليونة الناعمة وبأس الرجل الاشد : .

لقـد كانت المرأة منذ اقدم الازمان الصدر الحاني الذي يلجأ اليه الرجل كلما

عصفت به اعاصير الحياة مدفوعاً بقوة الطبيعة والطبيعة دائماً غلابة ، والمرأة هي المرأة ، ابرع مثال للجمال الحي رغماً عن كل قول ، قدم على العهد ام جد . .

المرأة في نظر رجال الادب والفن

ويعتقد معظم رجال الادب والفن ان لابد لهم من المرأة ترافقهم في جهادهم اليومي وتمنحهم عطفها وحبها . وتخلق لهم ذلك الوجه الهادي الذي يجب ان يسود حياة الفنان كي يؤدي رسالته وينتج العمل الخصب القوي :

ومن الفنانين والادباء من يستوحي الطبيعة « كجان جاك روسو »

ومن يجد الالهام الشعري في الدين والتصوف « كطاغور » .

ومن يفجر ينابيع الشعر والفلسفة من ذات نفسه « كنيتشه » .

ولكن هؤلاء وغيرهم مهما تباين وحيهم للفن ومهما اختلفت عقولهم وامزجتهم ونظراتهم الى الحياة . نرى الغالبة فيهم ماتزال تنزع الى المرأة وتتطلبها . وتجد فيها مستهبط الوحي الاكمل . او الصورة الابدية الجامعة شتى خصائص الحياة .

والواقع ان المرأة بجمالها الذي يبدو في مخيلة الفنان منوعاً طريفاً دائم الفتنة والتجدد ترمز الى الطبيعة الكبرى . وما فيها من متعددي الاشكال والالوان .

والمرأة بعاطفتها المضطربة المشوشة المحتدمة ذات الغموض والتعقد . ترمز الى النفس البشرية وما فيها من غرائب واسرار . لهذا احبها الفنانون واولعوا بها . وتفانوا في اطرائها . وجعلوا منها الوحي الاصيل المتألق بمختلف اضواء الحقيقة والجمال .

والمرأة من جهة مخلوق رقيق المظهر . عذب الحديث ، حلو المعشر ، يغري بالصفاء الروحي ، والهدوء العقلي . والنظام البيتي . وكل هذه عوامل يحتاج اليها الفنان عندما يستجمع قواه الفكرية ويعتزم الانطواء على نفسه . واعتزال العالم والانصراف الى الانتاج والخلق .

وانت لاتكاد تلمس حياة اديب او فنان حتى تلمح اثر المرأة — سواء كانت

زوجة او خليلة او اختاً او والدة — لافي تكوين شخصيته فحسب . بل في تكوين عملة وفكره ايضاً .

وقد يتفق الاديب ان يسعد بامرأة ترعاه بعين عنايتها . وتقدر عقله ومواهبه وتخلص في حبه وخدمته . وتحفزه لاحتمال التضحيات من اجل تحقيق رسالته .

وقد يتفق الاخر ان يشقى بالمرأة التي هام بها وراصد عليها هواه . وآمن بكل جارحة فيه انها مستقر الهامه . وسر عبقريته ، ولكن الذي لاشك فيه ان الحب الخائب بالنسبه للاديب والفنان انفع للادب والفن من الحب المتبادل المنتصر .

ونحن لانعرف في تاريخ الادب والفن ان حباً متبادلا كاملا عظيما تمكن من تغذية عبقري بعناصر انسانية جديدة . وهيأه لفهم جوانب من الحياة كان يجهلها .

وما الحب الكامل الاصفاء وحلم وسكون اقرب الى التشابه والجمود والاكتفاء بالواقع منه الى النشاط والتجدد والاتصال المضطرد بقوى الطبيعة . والبحث الدائم عن المجهول .

وقد يساعد الحب الكامل او الحب الموفق الاديب او الفنان على الانتاج بما ينشره حوله من جو هادىء . ولكنه ان يجد فيه نفعاً في زمن التحصيل والادخار وجمع الحوادث والآراء والمعاملات والملاحظات التي سوف يبني عليها سلسلة اعماله الفنية المقبلة .

وانا ازعم ان الفنان او الاديب لو اعترضه في مستهل حياته حب موفق ارغمه على الاكتفاء بامرأة واحدة . فلا بد ان يفضي ذلك الى قبول التضحية بجزء كبير من فضوله الفكري في سبيل مرضاة حبه . والمرأة التي يحب .

اما ذلك الذي يحب فيخيب فيتجه بابصاره وعواطفه نحو مخلوق آخر . فرجل احس وتألم واختبر واثرى .

واذن فلا بد لرجال الادب والفن من المرأه ، لابد لهم منها على اعتبارها صورة تمثل النوع والطبيعة . وتتشكل باشكالها . لاباعتبارها امرأة يجب ان تحب دون غيرها من النساء .

ومعنى ذلك ان الاديب الصحيح يهوى المرأة فكرة ورمزاً . لاهيكلا وحقيقة

وهو ان اولع بهـذا الهيكل فلا منـدوحة له عن هجرة الى سواه والا اصابه منه الخور والجمود والصفاء الشبيه بالعدم .

وكيف نطلب الى الاديب او الفنان ان يفعل ما يفعله الناس فيجتمع العالم في انسان واحد : ويرى الجمال في وجه واحد . وينشد الحقيقة في نفس واحدة .

انه ابداً متقلب كالمرأة نفسها .

اليست المرأة مخلوقـا محمولا على تيـار النزوات الطـارئة ، والميول العارضة . والاهواء المتعاقبة .

ثم اليست هـذه النزوات والميول والاهواء هي التي تجعلهـا اوثق من الرجل ارتباطاً بعناصر الحيـاة الاولى . واقدر على فهمها . واشد احساساً بها . واسرع في الاجابة لها .

وكذلك الاديب او الفنـان لا مجد له وحيـاة ان هو لم يستسلم لمختلف تلك التيارات ، ولـكن الفرق بينه وبين المرأة ، ان المرأة تحس اكثر مما تدرك ، وتحس لتستمتع بهذا الاحساس والادراك .تنتفع بها في حياتها العملية . اي ان احساسها وادراكها يتبددان ويفنيان في المتعة والفائدة التي تشعر بها في نفسها ولنفسهـا . اما الاديب او الفنان فيحس ويـدرك لنفسه ولنا ، يريد ان يهلل ويمجـد ، وان يستمتع ويسود في وقت واحد فيسيطر على الطبيعة برسمها وتحليلها ؛ لا ان يخضـع لاحكامها ويتخذ منها اداة نفع وشهوة ، وفي ذلك يقول الـكاتب « نوفاليس » اني لاشعر بدافع غريزي يدفعني الى حب كل شجرة وزهرة ، والتغني بكل نهر وجدول والاعجاب بكل لون وضوء ؛ وعبادة كل امرأة وفتاة . ولو اني انصرفت عن هذه الروائع الى بعضها او الى واحدة منها ، لشعرت على الفور ان اعضـاء رئيسية تبتر من بدني ، واني صائر الى الموت لا محالة . في حين اني ما جئت الى حيز هذه الدنيا الا لتقترن حياتي بحيـاة الرجال والنساء ، والطيور والينابيـع والانهار وكائنـات الارض جميعاً .

* * *

هذا هو الفنان لا يقنع بشيء ، ولا يمكن ان يرضيه شيء تستخفه اليوم عـين

ساهرة لتأسره في غد ، وجنة ناضرة ؛ يعصف به اليوم حب جامح يظنه باقياً في نفسه ابداً . فلا يكاد يمتص عصارته ويرسمه في لوحة او قصيدة اواغنية حتى يتبرم به ويزدريه وينزع الى سواه .

انه يأخذ ليلقي ويلقي ليجمع . ويجمع ليعطى عن سخاء لايبارى . وهو في جميع هذه الحالات يتألم وينظر بألمه . ويرى فيه سر السعادة والخلاص .

ولو انعمنا النظر في شخصية اي نابغ او عبقري من رجال الفن والآداب لتبين لنا انه في قرارة نفسه يطلب الحب الصحيح ، الحب العاصف الغلاب القوي : لان هذا الحب في الحقيقة اعصار يكتسح في طريقه العقل والنفس ، ويلقي على البصيرة والبصر غشاوة يستعذبها المحب بقدر كثافتها وظلامها ، وبقدر ما تقصيه هو وحبيبه عن العالم .

وقد يحس هذا النابغ او العبقري هذا الحب ، وقديتها لك عليه . ويتفانى في طلابه ، ولكن سرعان ما يسأمه ويزهد فيه . ويتملص منه اذ العبقري او النابغة يريد ان يرى ويفهم . وهذا هو السبب في انه من المستحيل عليه ان ينس نفسه او يتناساها في اية امرأة ، وان يحب هذه المرأة الحب الكامل المنشود .

ولو ان هذا الانسان الغريب احب وتدلة في حبه فلا بد ان تبقى مع ذلك في قلبه زاوية خفية مفتحة على الدوام لاستقبال كل وافد جديد .

والسر في شقاء رجال الادب والفن . انهم ينشدون الكمال المطلق ، والمرأة قد توحي لهم هذا الكمال . ولكنها تعجز عن تحقيقه في ذاتها ، بل هي لا تفكر فيه . ولاتنزع اليه بحكم طبيعتها العمليه . واتصالها الوثيق بحقائق الحياة المادية وفرط احساسها برغبة الرجل الشهوية فيها . وبغريزة حفظ النوع الشائعة في كيانها الحسي والمعنوي ، وهم يشعرون بذلك منها . ويشرفون على الهوة السحيقة التي تفصل بينهم وبينها . ويلمسون الفارق العظيم بين طبيعتها الراكدة ونفوسهم الملتهبة . فما ان يكاد يهيم بها واحد منهم ويستثمر حيالها بما قدمنا حتى ينفر منها ويعرض عنها الى غيرها . ويظل يتقلب من امرأة الى اخرى باحثاً عن التي في وسعها ان تحقق مثله الاعلى . ولكن على غير جدوى .

والارجح ان ليست هي حقيقة المرأة التي يستوحيها الادباء ادبهم . والفنانون فنهم ، وانما هو وهمهم عنها ، وخيالهم منها ، وما يضيفة هذا الخيال عليها من روائع الصور .

والواقع انه من الصعب ان يجمع رجال الفن بين حبه لفنه . وحبه لامرأة . اذ الفن او الادب متى اولع به صاحبه . وانقطع له . وشاء التفوق فيه . استولى عليه كاجمل واكمل امرأة . وحل في قلبه وعقله محلها . وصرفه عن سائر الاشياء والتهم حياتها كلها .

* * *

واخيراً فالفنانون جميعاً لايعبرون الا عن جمال ، وهم بهذا السبيل يتعلمون عن المرأة كيف يشعرون وكيف يعبرون عن هاتيك الشواعر الجميلة التي تجول فى نفوسهم .

فالشاعر الذي يحكي شعوره لقراءه انما يكون مستعداً لهذا الذي ينظمه من وحي امرأة .

والمثال في حاجة الى موضوع لفنه ، فهو في حاجة الى المرأة تلهمه وتذكي منه الشعور فيخرج على العالمين باثار ما يحس وما يتخيل .

والموسيقي الذي يرسم تصاوير العواطف بالانغام . ويتحدث الينا عن طريق فنه عن العواطف انما يستوحي عادة هذا الكائن الملهم ، وحيناً يطن في اذنيه باجمل الانغام فتجربها لنا انامله موسيقي تعصف بالروح وتضرم العاطفه .

* * *

واخيراً فالفنون طريق من طرق فهم الحقائق الخفية ، فان لوحة مصور لمنظر من مناظر الطبيعة قد توجه نظرك الى شيء تراه كل يوم ولا كذلك . تمعن النظر فيه ولا تدرك خفاياه فلا تفهمه فهما صحيحاً ، فالمصور يجعلك بسياج من الالوان المؤتلفة ، ويملك عليك شعورك بانواع من التناسق يحملك بذلك على التأمل والاعجاب . فترى في لوحة بريشته مالا ترى في صحيفة الكون بنفسك وادراكك ، وتسمع قطعة موسيقية قصد بها مؤلفها الى بث عاطفة من عواطف

والشقاء ، او انة من انين الغرام ، او ابتسامة من ابتسامات الايام ؛ اورنة من رنين الامال ، فيهز لذلك من اوتار قلبك فتجدك مغمورا في نوع من السعادة او الشقاء، ويهزك احيانا فتشعر بانك تئن بأنين الاوتار او تسعد وتضحك برنينها .

وكل هذه الاساليب ترمي الى شيء واحد هو فهم اسرار الكون والرغبة في ادراك ذلك .

تلك وظيفة الفنان الذى يمزج الحقائق بالجمال فيدفعك الى الرغبة في تذوق من معاني الاشياء وحقائق الموجودات .

سلطة المرأة

ان للمرأة سلطة ادبية واجتماعية لاتختلف فيها اثنان ، انظر اليها تجد كل حياتها ادواراً كما للرجل اطواراً .

تجدها فتاة ، ثم تجدها زوجة فأماً فجدة .

خمسة ادوار تنقلب فيها المرأة من حداثتها الى هرمها ، مابين نزاهة الصبا وجمال الشباب والسيادة في العائلة وتربية الاولاد ووقار الشيخوخة .

قد نرى سلطتها ظاهرة في كل دور من هذه الادوار متملكة قلب الرجل وحاكمة عليه .

تلك سلطة ادبية قوية تستطيع ان تحول كل شيء الى ارادتها .

وليس من ينكر قوة المرأة وارادتها وسلطانها، وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي الشهير « جان جاك روسو » يكون الرجال كما يريد النساء فان اردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء فعلموا المرأة ماهي العظمة والفضيلة » .

وقال « انا تول فرانس » المرأة هي مكونة المجتمع . فلها عليه تمام السلطة لايعمل فيه شيء الا بها ولاجلها .

والمرأة هي اكبر مربية للرجل فهي تعلمه الفضائل واداب السلوك ورقة الشعور . ثم هي تعلم بعضاً من الرجال كيف يصبحون لطاف المعشر ، وتعلمهم جميعاً كيف لايكونون غلاظاً .

وبواسطة المرأة يدرك الرجل ان الهيئة الاجتماعية ذات تركيب دقيق كثير التفرع . متعدد العناصر . وهذا ما لا يخطر عادة لمعاشر الرجال وهم يتنافسون في انديتهم السياسية .

واخيراً فبقربها يتضح لنا ان احلام العواطف ؟ واظلال الايمان شديدة الاثر لا يمكن قهرها ، وان البشر غير مسيرين باحكام عقولهم » .

* * *

وبعد : فاني لا ارى افضل من التعليم الوطني والتربية الوطنية المبنيان على روح الفضائل الاسلامية كما يوحى بها الى نسائنا الموهوبات بالفطرة حسن الذوق الشرقي . وحسن التدبير المتزلى مع الصون ودماثة الاخلاق . والحياء المستحب القريب من قلوبنا اللاصق بها من دون خوف ولا تهيب مذلة .

وارجح ان صورة المرأة الفاضلة كما صورها لنا « لموئيل » ملك حسّا (١) هي افضل صورة (٢) نضعها امام نسائنا وبناتنا .

فلنحرص على هذه الصورة ولتحفظها نساؤنا ورجالنا غيباً ، وليكتبنها رقاعاً من اجود الرقاع ، ويعلقنها في مجالسهن وفي صدور غرف مقاعدهن ، وليذكرن ان هذه الصورة هي رسم ام لموئيل الملكة الشرقية غرستها في ذهن ابنها وتعهدتها بالسقيا وحسن التربية حتى نمت وتأصلت واثمرت يوما خير الثمرات التي عرفها التمدن السامي القديم .

---

(١) — هي مكة المكرمة على الاصح .

(٢) — راجع الفصل الحادي والثلاثين من سفر الامثال .

الكبائر والعلم وقت التوضع

مقت الاسلام الكبرياء والعظمة لانها صفتان من صفات الله لا ينبغي ان ينازعها فيه احد من خلقه لان الناس مهما سمت منزلتهم في الحياة فهم عبيد لله ومربوبون له . وهو سيدهم ومولاهم فله الكبرياء في السموات والارض . وله العزة القاهرة والعظمة التي تعنوا لها الوجوه . وتخشع لها القلوب .

وحث على التواضع لما فيه من شرف ورفعة ، وحسبك قول الله لنبيه الكريم « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

والكبر آفه من آفات النفس لها اسوأ الاثار في اعمال الانسان واخلاقه . وحقيقته استرواح الانسان وركونه الى رؤية نفسه فوق المتكبر عليه؛ومتى ركن الانسان الى ذلك اعتقد انه اسمى من غيره ؛ وان كل من عداه دونه؛ فيزرى غيره وينظر اليه نظرات السخرية والاستخفاف والاستهزاء،ويترفع عن مجالسته والسلام عليه ، ويرى ان غيره مفروض عليه تعظيمه وتبجيله ، وتعرف اشاراته وايمائه والاسراع بقضاء حوائجه ، ومتى رسخ خلق الكبر في نفس الانسان ترفع عن قبول النصح من غيره ، وانف عن قبول الحق اذا ظهر على لسان اي انسان غيره بل ربما جحده وانكره . واذا رأى فضيلة في غيره يخشى ان يسمو بها عليه حقد عليه ، وهكذا يغمط فضائل الناس ، ويدفعه كبره الى كل رزيلة . ويحول بينه وبين الفضيلة ، وكثيراً ما يغلب الكبر صاحبه على امره فيجعله يتكبر عن اتباع الحق حتى يتحلل في كثير من آيات القرآن الكريم ليحذر الناس من غوائل ذلك الخلق الذميم . فقال « ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ».

وقال : « فالذين لايؤمنون بالاخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

وقال : « لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا» .

وقال : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

وقال : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » .

وقال : « لقد استكبروا في انفسهم وعتو عتواً كبيرا » .

وقال : « ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

والكبر يتنوع الى انواع ثلاثة بحسب المتكبر عليه ، فمن الناس من يتكبر على الله تعالى . وذلك افحش انواع الكبر كفرعون الطاغية الذي بغى وتجبر واستكبر وقال : « انا ربكم الاعلى » فاستكبر عن عبادة الله « فأخذه الله نكال الاخرة والاولى » وقد استن سنته العرب فكانوا يستكبرون عن السجود لله كما قال تعالى « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ انسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً » .

ومنهم من يتكبر على الرسل ويستنكفون عن اتباعهم لانهم بشر مثلهم كما حكى الله عن اقوالهم « انؤمن لبشرين مثلنا » « ان انتم الا بشر مثلنا » وقوله « ولئن اطعتم بشر مثلكم انكم اذا لخاسرون » وقوله : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيرا » فحال استكبارهم بينهم وبين الحق فبقوا في غمرات الجهل حتى انتهوا الى ظلمات القبر ، ومنها الى عذاب السعير : ومن الناس من لا يستكبر على الله ولا على رسله ولكنه يتكبر على عباد الله ، ويستعظم نفسه عنهم ، فيزدريهم ويأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون المتكبرين على الله وعلى رسله . لكنه مذموم ايضاً ، لانه نازع الله في صفة الكبرياء على عباده فيكون مستحقاً للوعيد الشديد .

والكبر لا يجتمع مع الايمان الكامل في قلب عبد ابداً ، فمن كان يريد ان يكون مؤمناً كامل الايمان محبوبا عند الله وعند الناس فليروض نفسه على التواضع وليطهر نفسه من الكبر ليكون من المفلحين .

* * *

ومن الاراء الشائعة عند بعض الناس ان الكبرياء عنصر من العناصر الرئيسية التي تتألف منها شخصية الرجل العظيم .

فالعظيم في عرفهم انسان لابد ان يكون متكبراً ما دام يشعر بالمواهب الخارقة التي تميزه عن غيره ، وما دام يحس انه بفضل هذه المواهب الخارقة يستطيع ان يسيطر على الاخرين .

والواقع ان هذا الرأي قد يبدو اول الامر صائباً ، ولكننا متى انعمنا النظر فيه تبين لنا انه رأي خاطىء من اساسه . لا تقبله طبيعة الحياة نفسها . كما لا يمكن ان تسلم به شخصية الرجل الذي يشعر حقاً انه عظيم .

واني لأتسائل من هو الرجل العظيم ، وكيف يصبح الرجل عظيما ، وما هي تلك القوة الروحية التي يمتاز بها عقل على عقل . وانسان على انسان .

وليس شك في ان ما يميز الرجل العظيم هو الحب ، الحب في اسمى مظاهره ، وفي اعلى مراتبه ، حب الناس ، وحب الحقيقة ، وحب الحياة .

فالعظيم الحق لابد ان يحب الناس ليستطيع ان يفهمهم ويخدمهم .

ولابد ان يحب الحقيقة ليستطيع ان يصون الفكر ويحميه .

ولابد ان يحب الحياة ليستطيع ان يحب الناس وان يحب الحقيقة .

فالحب هو الذي يحفزه الى المعرفة ، والحب هو الذي يسوقه الى الخدمة ، والحب هو الذي يدفعه الى الكفاح ، والحب هو الذي يؤدي به في الغالب الى قبول التضحية .

* * *

وكلما كان حب العظيم للناس وللحقيقة وللحياة عظيما ، كان فكره اعمق ، وجهاده اخصب ، وتأثيره اقوى وابقى واخلد .

وما تاريخ الفكر البشري الا تاريخ حب وانقاذ ، حب رائع خالق اوحت به الى العظماء بشرية منكودة الحظ لاتنفك تنشد من يحبها ، ولاتنفك تبحث في محيط الحب عن خشبة الانقاذ . . .

فكيف يمكن والحالة هذه ان يتفق الحب والكبرياء .

كيف يمكن ان تجتمع في نفس العظيم عاطفة الحب العليا ، وعاطفة الكبرياء الرخيصة الوضيعة الدنيا ؟

بل كيف يمكن للمتكبر ان يرى الناس ، ويرى الحقيقة ، ويرى الحياة ؟

المتكبر لايرى غير نفسه ، ولايحس الابكيانه ، ولا يفهم الا بوجوده ، ولا يدور الافي الحلقة الضيقة المرذولة التي تتخبط فيها شخصيته .

فكبرياؤه تختم على بصره ، وتغش على فكره ، وتقيم سداً منيعاً بينه وبين مختلف صور الحياة .

وقد تستفحل الكبرياء فتنقلب من اعتزاز الى غطرسة ، ومن غطرسة الى قسوة ومن قسوة الى انانية غليظة مريضة تحتل عقل صاحبها كما تحتل الفكرة الثابتة عقل مجنون .

ومتى تطورت الكبرياء في نفس العظيم واستحالت الى انانية مريضة ، انقطعت الصلة بينه وبين الفكر والناس اطلاقاً ؛ وتجمعت قواه وتركزت لافي تمجيد شخصيته فقط بل في امتاع نفسه بشتى المناعم المادية والمباهج الدنيوية الخليقة بعظمته وعبقريته .

وعندئذ ينقلب العظيم من مفكر الى منتفع ، ومن عامل الى مستغل ، ومن مجاهد الى مستمتع ، على حساب الفكر ، وعلى حساب السذج البلهاء ممن تخدعهم الظواهر فيؤمنون بتلك العظمة .

فخطر الكبرياء على الرجل العظيم لاينحصر في انها تباعد بينه وبين الناس والحقيقة والحياة فقط ، ولا في انها تخمد في نفسه عاطفة الحب وشعلة الفكر فحسب بل في انها فوق ذلك تخنق انسانيته . وتقتل ضميره ، وتجعله هو نفسه خطراً على الاخلاق ؛ وخطرا على الوطن . ولكن هل يمكن ان نعتبر امثال هذا الرجل عظيما حقاً .

الواقع الذي لاريب فيه ان بينهم وبين العظمة الصحيحة كما بين الاقزام والجبابرة . انهم اقزام ، اقزام يتبخترون في ثياب جبابرة ، ولولا اثوابهم الزاهية الفضفاضة ما جعلت الحياة منهم اشباه عظماء .

فالعظيم حقاً ، العظيم روحا وفكراً . قلباً وعقلا ، اسماً وفعلا ، هوذلك الرجل الفذ ، العجيب في بساطته ، العجيب في تواضعه ، العجيب في قوته ، العجيب في انكار ذاته .

هو ذلك الرجل المفتح النفس لكل انسان وكل عاطفة وكل حقيقة .

هو ذلك الذي متى اعتقد كافح ، ومتى كافح اخلص ، ومتى اخلص ذهب في اخلاصه الى حد المغامرة والتجرد والاستشهاد .

هو ذلك الرجل الذي وسع قلبه اروع ضروب الحب للناس ، فأصبح بهذا الحب الصادق الزاخر العميق النزيه ، شبه اله في صورة انسان .

ذلك هو الرجل الذي يستحق منا لقب العظيم ، لانه استطاع بفكره وقلبه وخلقه ان يمثل في اذهاننا صورة المثل الاعلى .

فضيلة التواضع

اما التواضع فهو الخلق الذي لايضارعه في ادب النفس اي خلق .

هو الوقوف بصاحبه عند الحدود التي رسمها له الادب .

هو الدمعة التي تترقرق في عين المحسن اذا رأى مناظر الحاجة والضعف والذلة والفاقة .

هو الرحمة الشاملة التي يفزع اليها المصدور . ويهرع اليها المفؤد ، ويلجأ اليها المكروب ، ويؤوب اليها المحروم .

هو الصلة القوية بين الظالم والمظلوم ؛ والحاكم والمحكوم ، والسيد والمسود ، والرئيس والمرؤس .

وعن ابي الفتح قال رأيت علي ابن ابي طالب في المنام ؛ فقلت له يا أبا الحسن علمني ، فقال لى ما احسن التواضع بالاغنياء في مجالس الفقراء . رغبة منهم في ثواب الله ، واحسن من ذلك تيه الفقراء على الاغنياء ثقة منهم بالله عز وجل » .

فالتواضع ان شئت سميته خلقاً فاضلا كريماً ، وان شئت سميته عبادة هادئة كاملة وان شئت طويت تحته ما تعرف من وفاء وكرم وعزة وشرف . وحكمة واحكام وانعم به من خلق سما فشرف ، وجمع فأوعى ، الم تر الى عائشة رضى الله عنها حين تقول « انكم لتغفلون عن افضل العبادات، التواضع » .

وليس التواضع ان تذل نفسك لمن فتنته دنياه بزخرفها الزائل . وبريقها اللامع ، فاتبعها فاختطفته حتى ما يستطيع ان يتحول عنها خشية ان يبس لوناً من

الوانها الزاهية الخلابة ، او يحرم نظرة في مرآة وجهها المغرية البراقة .

وليس التواضع ان تضع نفسك موضعاً يرضي سفيه القوم الذي امات الغرور ضميره ، وملأ الكبر جوانحه فنظر بعين الشيطان وسولت له نفسه ما شاءت من قبيح الاقوال وسيء الافعال .

وليس التواضع ان تموت حنقاً وغيظاً من هؤلاء واولئك المفتونين المغرورين انما التواضع ان تعلمهم او تشعرهم بانك لست القنص الذي ترنوا اليه ابصارهم ، ولا الهدف الذي تحوم حوله سهامهم ، ولا الفريسة التي تتلوى بين اسنة رماحهم ، ولا الطائر الذي يرقص المأ من وخز سلاحهم ، فلا عليك اذن ان تتواضع في غير ضعف رافعاً رأسك في غير كبر . حتى تشعر نفسك وتشعر غيرك بفضل نعمة الله عليك ان آتاك نفساً قوية صافية ، وقلباً طاهراً نقياً ، ولساناً ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وضميراً يفيض بالايمان والاخلاص والاحسان ، تلك هي دائرة الخير للحياة الطيبة الرشيدة ، التي ان شئت جعلت مركزها الحقيقي خلق التواضع القويم المتين . وقد قيل رأس التواضع ان تضع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل .

* * *

ومن الناس من يغرك مظهره ويسوؤك مخبره ، فيغريك بتواضعه الزائف وتملقه الكاذب ، وتكلفه الشائن ، وهو الذليل المهين ذو النفس الضعيفة التي لا تعرف رفعة ، ولا تتوطن على نعمة ، ولم تتواضع عن جدارة واستحقاق .

قيل لعبد الملك بن مروان اي الرجال افضل : قال : من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة .

وفي الحق ان التواضع في شرف ورفعة وجاه وقدرة خير منه في ضعة وضعف وعجز وافلاس ذلك لان النفس جبلت على حب الظهور والفخر اذا احيطت بمظاهر الابهة والعظمة ، فان هي قاومت جبلتها ، وغالبت فطرتها ، وانتحت ناحية من نواحي الكمال في الرفعة والكرم في الجاه فقد جادت بأقصى ما تجود به المكارم ، وفازت بما تفوز به انفس الابرار الاطهار .

غريزة حب النفس

وصفوة القول انما فطر الانسان عليه حب النفس، وهو فطرة عامة لايزول اصلها بحال ولكنها تذهب بين التطرف والاعتدال مذاهب شتى ، فقد يغالي بعض الناس في هذا الحب ويسرفون في الخضوع لسلطانه الممتد ، فتنشأ فيهم خصال الاثرة والكبر والخيلاء وما اليها على اختلاف صورها .

وما أجدر الا يجوز الخلاف على ان هذه الخصال لا تقصد لذاتها ، وانما يراد بها تقوية النفس وتمهيد سيطرتها ، وتذليل ما يستطاع تذليله لها من وجوه الربح المادي والادبي معا ، فاذا امعنت الفكر في استخلاص بواطن الاشياء ورجعها الى اصولها والتطرق الى دواعيها ، علمت — على غير شك — ان كثيراً مما يتخذه المرء لنفسه من الخلال والشمائل ، انما يرتد مبعثه الى جوهر الفطرة الاصيل ، وهو حب النفس على اطلاقه .

على انه قد يكون المتخذ من تلك الشمائل ، والخلال مرضياً عنه ، موفوراً له القبول والتكريم ، اذ يكون وثيق الصلة في مظهره بالفضيلة على حقيقتها ، بيد ان تكشف ما وراءه يثبت ان ذلك لم يكن خالصاً لوجه الفضيلة . بل كان مدداً مجلوباً يعين على اشباع تلك الغريزة الثابتة ، غريزة حب النفس ويواتي حاجتها عن التمكن والاستطالة ، ويطلق عنانها في التسلط والنفوذ .

وفي الحق ان من قارب مذموم الخصال ابتغى بها في اول الشوط وآخره — توسيد الامر لنفسه ، اذ كانت — فيما وضع له — خير سبيل الى هذا التوسيد .

فالمتكبر يبتغي بالكبر اكتساب العظمة ، وبلوغ الغاية في التبجيل والاكرام فان تهيأ له ذلك الفضل بوسائط اخرى ، من مجادة موروثة ، او جاه امتد اليه ظله ، او توفيق باكره في مراغم الحياة ، عاف خصلة الكبر ، وأباها على نفسه ؛ وانما جاءه ذلك من انه في غنية عن الفائدة التي ترجعها .

ومما يجعل الذميم من الخصال بغيضاً الى بعض النفوس ، ماله من سوء الاحدوثة وفضوح القالة ، فيتحاماه الناس فراراً من الذم ، وتجافيا عن الملام ، ولن يرض

لنفسه احتمال مذمة خصلة مذمومة الاقدر ان كسبه من اتخاذها اكبر من خسارته الثناء عليه بتركها . فمرجع الامر في الاخذ والترك الى حساب الفائدة وحده ، ومرجع الامر في هذا الحساب الى حب النفس وحدها .

مكارم الاخلاق

وقد كان للدعوة الى مكارم الاخلاق واللهج بها ، اثر بالغ في تقدير هذه الخصال ، ووزن متخذيها .

هذه خصلة الكبر تعاورها رجال الاخلاق بالعيب والزراية حتى اصبحت مثار السخط والتعنيف ، وثغرة النيل والتجريح . فرأى الناس ان ما يجنونه من كبريائهم اقل كسبا واضعف ثمراً مما ينالهم من التنقص اذا هم تكبروا ، ورأوا تبعاً لذلك ان فضيلة التواضع تحل عقد الالسن بالتمدح ، وتضفي على المتحلى بها مطارف الاطراء والاعجاب .

ولما كان الشأن — كما اسلفنا بيانه — يرجع في اصطناع الشمائل الى الكسب والخسران فيما يعود على النفس ، لاذالناس بفضيلة التواضع يصطنعونها ويلابسون مظاهرها ويتعرضون للشهرة بها . وابتزاز الشكر عليها . وهم بذلك لا يلتمسون الا العظمة . وهي الضالة المنشودة التي كانوا يحسبون ان الكبر سلمها ، فاذا بسلمها التواضع ، نحق لهم ان يمضوا صعداً في سلم العظمة الجديد .

وكثيراً ما تظهر هذه الاسباب الباطنة من خلال التظاهر بالتواضع ؛ وما من احد من الناس الا عرف غير واحد يحرصون اشد الحرص على ان يكونوا متواضعين ، وان تدير المجالس حديثها حول استمساكهم بهذه الفضيلة . وان الرجل من هؤلاء ليتعرض وقد تصنع التزمت والتسمت فتأخذك جهيرته ومظهرانيته بان تطوى له النفس على التجلة والاعظام .

وهؤلاء يريدونك بما يبدون من شاراتهم وسماتهم على ان تنحني لهم اذا اقبلوا ، وتمثل امامهم ان جلسوا ، وتلقبهم بابعد ما يشتهي المتكبر وان لم يكن حق مثلهم هذا التلقيب . وحسبهم من التواضع ازاء هذا كله ان يتبعوا كل تكرمة تصطنعها

مظهراً من التخاجل والاستحياء . فتراهم يسخون بالاذن في الجلوس اذا وقفت ، ويتغاضون من تلقيبك اياهم بما لقبتهم به تغاضب المستزيد .

ولقد يقبل الرجل منهم عليك ، ولكن اقبال السيادة ، ثم يسألك شأنك ؛ ولكن سوأل الترحم ، ثم يجيبك اذا استطعمته الحديث . ولكنه يخرج الجواب مخرج الدرهم يجود به الخير البر على سائل مسكين ، فكل خلجة من خلجات جسمه تكشف للبصير ازهى الوان الكبر ، وكل لفظة ينبس بها لسانه تكاد تفصح عن حقيقتها المكظومة ، قائلة السيادة كل السيادة فمن اقر لي بها عطفت عليه ، وتواضعت له .

وربما كان منهم من تفتر يده في يد المصافح وتتراخى . فاذا احرجك ذلك منه فأوحى اليك ان تنحني على يمناه تقبلها تشاغل الرجل عنك حتى اذا لمست شفتك ظاهر كفه او كادت اسرع يقبضها اليه ، واستجلب الحياء لوجهه ، وتندى لسانه بمسول الكلام يستقيلك ما تصنع ويستعفيك . . . وهو بذلك في حساب نفسه قد كسب اثنتين ، الاولى ، برهان العظمة ، والاخرى ، برهان الفضيلة ؛ فقد دل نفسه على عظمته بان شأنه التعظيم ، اذ تقبل يمناه ، وقد دل نفسك على فضيلته بان من شأنه التواضع ، اذ يأبى التقبيل .

وليس هذا في شيء من التواضع الحق ، ذلك الذي هو تنزل بالطوع عن موجود معترف به من نواحي العظمة ، وسخاوة للنفس بما هو حقها من وجاهة ملحوظة المنزلة ، فالعظيم الحق في تواضعه ، انما ينزل في معاملته للناس عن المكانة التي اعلته اليها عظمته قائمة ، فيلين منطقه لمن هو اقل منه درجة ، وتتجه نظراته راضية الى ان شأنه الا ينظر اليه ، وعلى الجملة يجري في الوان معاملاته على سنن التكريم والتلطف والمحاسنة غير ضنين ببشره وتوددة على احد .

* * *

فاما هذا التواضع الذي نراع به اليوم فهو طلاء يموه به صاحبه منزلته على الناس ، وذلك بان يظهر التنزل عن غير موجود ، ويتصنع السخاوة بغير ما هو حق له ، طمعاً في الاقرار له بانه واجد ما تنزل عليه ، مالك ماسخا به ، وفي هذا من

شارات العظماء ما يشفي نفسه الطامحة الى العظمة الساعية اليها في كل طريق ، المتحيلة لها بشتى الخصال مامّت منها الى الفضيلة وما لم يمت .

* * *

وبعد فان رجال الاخلاق كانوا يعلمون الكبر ، وطالما انحوا عليه ، وكانوا يعلمون المتكبرين ، وشد ما اوسعوهم اقسى الوان اللوم والتعنيف ؛ حتى احاطوهم بسياج من البغض والكراهة . فهل لهم ان يعلموا ان اولئك المتكبرين مضوا يلتمسون الفكاك من خناق الذم ، فراحوا يلبسون على الناس ويشبهون ، وهاهي ذى فضيلة التواضع على وجوههم قناعها يخفون تحته دفين الكبرياء .

* * *

الا ان واجب الاخلاقين ألا يهادنوا الكبر والمتكبرين ، وان يجتهروا تلك الجرثومة : التواضع الكاذب ؛ او الكبر المقنع ، فذلك وضع مستحدث يتمثل فيه الكبر مزوراً عليه مسوح المتواضعين .

وليس ابلغ خطراً من النقيصة تخرج في زينة الفضل ، فانها بذلك تأمن ان يتراقى اليها التنقص ، فتظل تنفث سمها في غفلة من الاعين ، وانخذاع من النفوس.

الفهرس

صحيفة	
٣	الاهداء
٤	الاسلام دين ودنيا
٢٦	مولد محمد ودعوته الى الاسلام
٤٤	القتال في الاسلام
٨٠	حكومة الاسلام
٩٦	الخلاف بين خلفاء الاسلام

١ — اسباب الخلاف ٢ — كتاب نائلة وقميص عثمان ٣ — الامور الطارئة ٤ — حول الهودج ٥ — مقتل الزبير ٦ — برآة علي من دم عثمان ٧ — بين معاوية وعلي ٨ — الحرب في صفين ٩ — الاجتماع الفاصل ١٠ — آثار الخلاف وسوء نتائجه .

١١٨	الثورة الاسلامية
١٣٤	الوحدة الاسلامية
١٤٠	التشريع والقضاء في صدر الاسلام

١ — بناء المجتمع ٢ — تعدد الزوجات ٣ — الزواج والطلاق ٤ — الاداب والاخلاق ٥ — العدل والعفاف والحلم ٦ — اوائل المشترعين في الاسلام ٧ — المساواة في مجلس القضاء ٨ — تاريخ القضاء في الاسلام ٩ — مصدر قضاء الرسول

صحيفة	الموضوع

١٠ — القضاء في فجر الاسلام ١١ — ترتيب الجرائد للقضاة ١٢ — صلاحيات القضاة ١٣ — مميزات القضاء في الاسلام ١٤ — ادب القاضي الفاطمي ١٥ — القاضي الاعز .

١٦٦ ارکان الاسلام

١ — الركن الاول ٢ — الركن الثاني ٣ — الركن الثالث ٤ — الركن الرابع ٥ — تاريخ الصوم ٦ — الغرض من الشرائع الالهية ٧ — تربية المقاومة ٨ — ارادة الله وارادة البشر ٩ — الايثار والأثرة ١٠ — حكم الصوم واركانه ١١ — جارحة القول وجارحة اللسان ١٢ — اثر الصيام في الجرائم ١٣ — الرابطة بين العقل والنفس ١٤ — الركن الخامس ١٥ — اسرار الحج .

١٩٤ التصوف في الاسلام

١ — علم الظاهر وعلم الباطن ٢ — العلوم الدينية ٣ — طريق الصوفية ٤ — مباحث علم التصوف ومعرفته ٥ — قواعد التصوف ٦ — ادب التصوف ٧ — صفات التصوف ٨ — درجات التصوف ٩ — أئمة التصوف .

٢٠٨ الاشتراكية والديموقراطية في الاسلام

٢١٦ الاجتهاد والتقليد والرأي والعقيدة

٢٢٦ الجهاد في الاسلام

٢٣٠ اثر القرآن في آداب الاسلام

٢٤٢ اثر العلم والدين في الحضارة والتمدن

صحيفة	الموضوع

٢٥٢ اتحاد الكلمة في الاسلام

٢٦٠ لاوطن الا بدين ولادين الا بوطن

١ — غريزة حب الوطن ٢ — معالم الوطنية ٣ — العاطفة الوطنية ٤ — معنى الوطنية .

٢٧٤ الصبر والشجاعة والغضب والرضا

١ — فضيلة الشجاعة ٢ — شناعة الغضب ٣ — فضيلة الرضا .

٢٩٠ الطب والاطباء في العرب و الاسلام

١ — الطب في العصر الجاهلي ٢ — الاحاديث النبوية في الطب ٣ — منزلة الطب في الاسلام ٤ — مدارس الطب ٥ — شغف العرب بالطب ٦ — اطباء الاسلام — ٧ طب الكهانة والخرافة ٩ — التداوي في الاسلام ١٠ — سر الطب .

٣٠٤ الانسان بين سلطاني الشهوة والدين

٣١٠ الظلم في الشرائع والاديان

٣١٤ الحسد والرياء والغيبة والكذب

٣٢٢ النفاق والخلف في العهد

٣٢٨ الفضيلة والرذيلة . والخير والشر .

٣٣٦ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

٣٤٠ المساواة في الاسلام

صحيفه	الموضوع
٣٤٦	المرأة في الدين والدنيا

١ – المرأة في رأي المفكرين والحكماء ٢ – المرأة في العصر الجاهلي ٣ – الوأد قبيل الاسلام ٤ – المرأة في صدر الاسلام ٥ – انوثة المرأة ورجولة الرجل ٦ – بين محمد «ص» والمرأة ٧ – احترام الاسلام لرأي المرأة ٨ – حديث القرآن عن المرأة ٩ – حقوق المرأة وسلطانها المطلق ١٠ – حاجة الامة للمرأة ١١ – نبوغ المرأة واثرها في الحياة ١٢ – عبقرية المرأة ورسالتها للفن ١٣ – المرأة في نظر رجال الادب والفن ١٤ – سلطة المرأة .

٣٩٤	الكبرياء والعظمة والتواضع

١ – فضيلة التواضع ٢ – غريزة حب النفس ٣ – مكارم الاخلاق .

297:U89iA:c.1
العثماني، راغب
الاسلام دين ودنيا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005538

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT